



صَلَّى اللَّهُ
وَسَلَّمَ

أصحاب الرسول

ترجمة حقيقية لأكثر من ١٠٠ صحابي

جمع وترتيب

محمود المصري

(أبوعمار)

طبعة جديدة وبها إضافات

قدم له فضيلة الشيخ أبو إسحاق الحويني

فضيلة الشيخ محمد حسان فضيلة الشيخ محمد عبد المقصود

فضيلة الشيخ مكي محمد أبو سريه فضيلة الدكتور سيد حسين العفاني

دار البكرية

درب الأتراك خلف جامع الأزهر القاهرة
٥٥٦٥٢ ٢٩٨٩٤٦٩ - ٥٥٦٥٢ ٦٦١٠٥٥٥ - ٥١٤٤٥٨٦٦

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

مكتبة أبو بكر الصديق

٢٠ درجبة الأتراك - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٥١٤٤٠٨٦ - محمول: ٠١٠١٢٢١٧٧٤

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٠/١٣٠٤٩

إهداء واعتراف لأصحاب الفضل

قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ» (١).

ومن هذا المنطلق فإنني أتوجه بالشكر لأصحاب الفضل الذين أحبهم من أعماق قلبي.

• إلى أمي الحبيبة (رحمها الله)؛

لقد نzf قلبي بموتك يا حبيبتى فأسأل الله - جل وعلا - أن يرحمك رحمة واسعة، وأن يجعل كل أعمالي في ميزان حسناتك، وأن يجمعني بك في جنته ومستقر رحمته.

• إلى أبي الحبيب (حفظه الله)؛

أسأل الله أن يحفظك وأن يبارك فيك وأن يعينك على طاعته وأن يرزقك حسن الخاتمة، وأن يجعل كل أعمالي في ميزان حسناتك، وأن يجمعني بك في جنته ومستقر رحمته.

• فضيلة الدكتور/ زكي محمد أبو سريع؛

لقد رأيت ينابيع الرحمة تتدفق من قلبك الرحيم، فتعلمت منك أن الرحمة هي مفتاح كل خير.. فجزاك الله عنى خير الجزاء، فكم تعلمت على يديك واقتبست من أخلاقك العذبة.

فأسأل الله أن يجمعني وإياك مع الجيب ﷺ في جنة الرحمن - جل وعلا - إخواناً على سرر متقابلين.

• فضيلة الشيخ/ محمد عبد القادر؛

إلى الجبل المتواضع.. العالم الرباني الذي ملأ الدنيا علماً وفقهاً وتواضعاً. نالته إني أحبك في الله... وأسأله تعالى أن يزيدك علماً وتواضعاً، وأن يسبغ عليك نعمة الصحة والعافية والستر، وأن يجمعني بك في جنته إخواناً على سرر متقابلين.

(١) رواه أحمد والترمذي والضياء عن أبي سعيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٤١).

• فضيلة الشيخ / محمد حسان:

إلى بقية السلف الذي جعل الله له في قلوب المؤمنين ودًّا.

جزاك الله عنى خير الجزاء، فالله يعلم أننى ما كتبت كتابًا إلا وسألته أن يجعله فى ميزان حسناتك.

وما تميت أن ألقى الله إلا بمثل عملك.. فأسأله تعالى أن يجمعنى بك فى جنته إخوانًا على سرر متقابلين.

• فضيلة الشيخ / أبى إسحاق الحوينى:

(الألبانى) المصرى الذى أسأل الله أن يجعله من أطول هذه الأمة أعمارًا ومن أحسنهم أعمالًا.

جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فلقد ملأت الدنيا بعطر أهل الحديث فامتلات قلوبنا بكلامك العذب الذى تنفتح له القلوب من أول وهلة.

فأسأل الله أن يجمعنى وإياك فى الجنة إخوانًا على سرر متقابلين.

• فضيلة الدكتور / سيد بن حسين العنسى:

إلى صاحب الهمة العالية الذى ملأ الساحة بتصانيفه النادرة الغالية النافعة.

إلى جبل التواضع الذى ملأ الدنيا بتواضعه وأخلاقه العذبة.

زادك الله همة إلى همتك ورزقك البركة فى الوقت والصحة ونفع الله المسلمين بكتاباتك فى كل زمان ومكان وجعلها فى ميزان حسناتك ورفعك الله بتواضعك إلى أعلى درجات الجنة وجمعنى وإياك فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سرر متقابلين.

• إلى الأخوين الشقيقين الكريمين / العربى إبراهيم وعصام يوسف:

جزاكم الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وجمعنى بكما فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سرر متقابلين.. فوالله إننى أحبكما فى الله، فأسأله - سبحانه - أن يجمعنا على تلك المحبة الخالصة يوم القيامة.

• إلى الأخوين الكريمين / أسامة هريدى وهشام الدسوقي:

لقد جمعنا الله فى هذه الدنيا على المحبة الخالصة التى لا تشوبها الشوائب، وهو القادر على أن يجمعنا فى الآخرة فى زمرة المتحابين فيه - الذين يظلمهم الله فى ظله يوم

لا ظل إلا ظله ..

جزاكم الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

• إلى زوجتى / أم عمار:

التي ضحّت بوقتها من أجل الله.

جزاك الله خير الجزاء.. وأسأله تعالى أن يعوضك فى جنته بالنعيم الدائم الذى لا يفنى أبداً.

• إلى أبنائى / عمار وشاهير وسارة:

أسأل الله - جل وعلا - أن يبارك فيكم، وأن يجعلكم من عباده الصالحين المتقين الذين يذلون النفس والنفس ابتغاء وجه الله تعالى.

• إلى كل مسلم ومسلمة:

لا تبخلوا على أخيكم (محمود) بالدعاء.. فوالله ما نسيت الدعاء للمسلمين والمسلمات فى أى صلاة - وأنا ساجد بين يدي الله - وجزاكم الله عنى خير الجزاء.

الفقير إلى عفو ربه

محمود المصرى

(أبو عمار)

مقدمة فضيلة الشيخ / أبو إسحاق الحويني

حفظه الله .

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن الله اختار أصحاب محمد ﷺ له، ولا أعلم نبياً من أنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم بورك له في أصحابه كما بورك لنا ﷺ، ولست أجد الآن على خاطري أبلغ من كلام عروة بن مسعود الثقفي الذي قاله لقومه وقت أن كان كافراً، فقال لهم واصفًا أصحاب النبي ﷺ: «أى قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكاً قط يُعَظِّمُهُ أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً. والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفصوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له» أخرجه البخاري في «كتاب الشروط» (٣٢٩ / ٥ - ٣٣٢).

فقارن بين هذه الصورة المشرقة، وبين ما قاله أصحاب موسى عليه السلام إذ قالوا: ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] وقولهم أيضاً: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] وهؤلاء الذين سألوا موسى عليه السلام أن يروا الله

جهرة كانوا خيار بني إسرائيل كما قال الله عز وجل: ﴿وَإِخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] ولم يقل واختار موسى من قومه، فدلنا ذلك على أن هؤلاء السبعين هم أفضل بني إسرائيل مطلقاً، وأنه لم يكذب خلف بعده فاضلاً ومع هذا فلما جاءوا لميقات ربهم قالوا ما قالوا فأخذتهم الرجفة حتى قال موسى لربه عز وجل: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُسْهَوَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] فسماهم مع فضلهم سفهاء فما بالك بمن تركهم خلقه؟! وأما أصحاب عيسى عليه السلام، فحسبك سؤال المائدة لتعرف مدى توقيرهم لله عز وجل ولرسولهم عليه السلام، حتى قال لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

أما احتفاء أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - به، فلا تجد له نظيراً أبداً، فقد نقلوا عنه كل شيء استطاعوا الوقوف عليه، حتى صار الأمر كما قال أبو ذر رضي الله عنه: ما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وعندنا منه علم عن النبي ﷺ، فيسهل على طالب الحق أن يجد في كل باب علماً يتأسى به، بخلاف سائر الأنبياء فلا تكاد تعرف عنهم شيئاً، فيما يتعلق بحياتهم حاشا الدعوة إلا الكلمة بعد الكلمة، وهي أيضاً عن طريق نبينا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

أما بعد: فإن مجال القول متسع، ولا زلنا نُحْضُّ الناس على تعلم سير الصحابة وطلبها من مظانها، لتتم بهم الأسوة خصوصاً في زماننا هذا؛ الذي نبت فيه نابتة شيطانية، جلُّ همها الخط من قدر هذا الجيل الفريد بدعوى أنهم رجال، ولم يكونوا ملائكة، وما ادعى أحد قط أنهم ملائكة، ولكنهم خيار البشر، وبين الذين جاءوا من بعدهم من الفرق كما بين القدم والفرق.

والله أسأل أن يجزى أخانا أبا عمار خيراً على هذا الجمع الطيب، وإن كنت أتمنى أن يبسط وجه العبرة لمواقف الصحابة التي حشدها في هذا الكتاب لتتم بهم الأسوة مع مقارنة أحوالهم بأحوال الخالفين من أهل زماننا الذين جعلهم المعترضون على الصحابة أعلاماً، حتى يظهر للناس الفرق بينهم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه

أبو إسحاق الحويني

حامداً لله تعالى ومصلحاً على نبينا محمد

١٢ / ربيع الأول / ١٤٢٢ هـ

مقدمة فضيلة الدكتور/ زكي محمد أبو سريع رحمته الله.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه
والأتباع إلى يوم الجزاء... وبعد:

فإن الله - جلت حكمته - أرسل محمداً - صلوات الله عليه وسلامه - رحمة للثقلين
فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يلمس هذا كل مَنْ أُوتِيَ حظاً من تعقل بعد أن يقف على ما وصلت إليه الخليفة في
جاهليتهم قبل الإسلام...

فما من خطيئة تُسمع إلا وقد أخذوا منها يحظ وافر؛ ولولا حلم الله وعفوه لخرت
الجبال هداً؛ وسقطت السموات على الأرض من هول ما ألمَّ بالخليقة كلها من ظلم
وظلام حالكين حتى إذا أخرج البصير يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له
من نور...

وعالمنا هذا كله محكوم عليه بالفناء؛ والأيام دول، ولا بد لليل طال أمده أن يحول
ولظلم كثر أهله أن يزول ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وتعاقب الليل والنهار يأتي بالعجائب، وتصاريق القدر محيطة بها كلها، فبنو
إسرائيل الذين مكثت فيهم النبوات والرسالات حيناً من الدهر، بل قرونًا كثيرة، لم
يقفوا عند آداب الدين وتوجيهات الوحي... بل حرفوا الكلم عن مواضعه، وتنكبوا
لنداءات الفطرة، فكانت شمسهم كاسفة، وقمرهم في خسوف!!! وكانت عاقبة أمرهم
خسراً.

ولو قرأنا عن أحوالهم وآثارهم وأجدائهم لسمعنا ناطقاً يتلو قول الحكم العدل:
﴿فَبَلَّغْ بَيِّنَاتِهِمْ خَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

إنها الآيات الكونية التي لا مبدل لها، فالظلم وأهله إلى بوار وهلكة، والعدل
والتمسكون به إلى فوز ونجاة ﴿سَكَنَ اللَّهُ فِي الْآيَاتِ حُلُومًا مِّن قَبْلِ وَلَمَّا تَجَدَّ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبَدَّلَ﴾
[الأحزاب: ٦٢] لقد رحل الظلام بجحافله، وتنفس الصبح لدى عيين، وأشرقت شمس

الإسلام من جديد، ولم يعد للملل الباطلة مجال أو وجود...

بعث الخاتم بالملة الحنيفية السمحة - على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم -
فغير مسيرة التاريخ واتجاه الكون من وثنية عمياء بغیضة إلى توحيد مشرق ناطق بأحدية
القائم على الأكوان خلقًا وإحاطة وتدبيرًا...

إنه الدين القائم على العقل السوى والفطرة النقية؛ لا يقر الطلاسم ولا اللاهوتية
المتناقضة، بل سار على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك...

لقد حمل المشعل - محمد - صلوات الله عليه وسلامه - ومعه نفر قليل - بادئ الأمر
- ثم لم يلبثوا أن ازدادوا يومًا بعد يوم، ولم ينكص واحد منهم على عقبيه سخطًا لدينه
بعد أن شرحت صدورهم له... ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: ٢٨].

لقد سارت قافلة النور والتوحيد لا تلوى على شيء إلا أن ترضى من بيده الخلق
والأمر، والنفع والضرر: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له
من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ [فاطر: ٢].

لقد سار أصحاب محمد ﷺ معه وقد ملأ الإيمان كل دروب الحياة، وخالطت
بشاشته قلوبهم، وشرحت له صدورهم ووجدوا محبته غالبية على محابهم ومواجيدهم
حتى قال أبو سفيان - رضى الله عنه - وقد كان وقتئذ على الكفر: «ما رأيت أحداً يحب
أحدًا كما يحب أصحاب محمد محمدًا».

الله أكبر!!! إنها القلوب العامرة بالإيمان، والأبصار التي تنظر إلى الأفق البعيد
حيث الفردوس الأعلى وجنات النعيم.

وإذا كان اجتماع الضدين - فى محيط العقل - مُحالاً، إلا أنه فى مجال الشرع جائزاً،
فقد جعل الحق - عز وجل - قلوب الصحابة فى غاية الرحمة فيما بينهم وغاية فى الشدة
على أعداء الدين... يقول - عز وجل -: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رِحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو
أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم
جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن
حزب الله إنما أولئك الذين آمنوا بآيات الله واليوم الآخر﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حزب الله هم المفلحون ﴿[المجادلة: ٢٢]﴾.

لقد ذهبوا إلى المشارق والمغارب يحملون لواء الحق والجهاد فدكوا عروش الأكاسرة والقياصرة، قلوبهم كالجبال رسوخاً وعزة وصلابة في الحق، يصومون النهار مجاهدين، ويقومون الليل تالين كتاب الله وقافين عند حدوده وآدابه فأعز الله بهم دينه ورفع بهم لواءه وأعلا بهم كلمته...

إن الفتوحات الإسلامية الباهرة لم تكن بخطب نارية أو شرائط صوتية أو بتقمص لشخصيات في ذمة الله أصحابه، ولكن كان ذلك بالعمل الشرعي الذي لا يخشى صاحبه في الله لومة لائم...

والآن - بعد أن صارت الأمة إلى حالة لا تفرح الحبيب ولا تحزن العدو تملك رصيдаً من الكلام لا يقارن بما تقدمه من عمل، حتى تحرش بها أجناس الكفر... وغاية الكثيرين ممن يتقمصون شخصية «صلاح الدين» رحمه الله تعالى - أن يُعربوا عن الأسى والحزن لما يجرى ويشجبوا العدوان وأهله!!! ويزدادون جرأة فيحملون العدو عواقب العدوان!!!

والأعداء قد خبروا شهامة المسلمين ومجدتهم المفقدة فأخرجوا لهم الألسنة هزءاً وسُخرية... وأمعنوا في إذلالهم لهذه الأمة حتى تنقّصوها من أطرافها.. وبين الحين والحين تختفى دويلات من خارطة الأمة المهبضة الجناح.. وطعام الأمة وشرابها يزيد ولا ينقص؛ والضحك ملء الأفواه، والنوم ملء الجفون.. وتحقق فينا قول الشاعر:

لقد أسمعت إذا ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

وقول الآخر:

مَنْ يَهِن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

مَنْ لَنَا بالفاروق أو سعد أو أبي عبيدة أو خالد أو المعتصم أو صلاح الدين؟! مَنْ لَنَا بهم حتى يعيدوا إلى الأمة تماسكها بعد أن تهاوت وتردّت في وادٍ سحق؟!!!!

والكتاب الذي بين أيدينا بعنوان «أصحاب الرسول ﷺ» يعود بنا إلى حياة هؤلاء الأعلام والأعزة المغاوير الذين أحبوا الموت والشهادة أكثر من محبة الكثيرين للترف وذليل الحياة...

يجسد حياتهم الوضاعة المشرقة إذ كان الواحد منهم إسلاماً يمشى على الأرض

مؤتمراً بجميع الأوامر مُتّهِياً عن جميع النواهي شديد الخشية لرب الأرباب. يعملون فى الخفاء ابتغاء مرضاة الله - تعالى - ولا يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا... فكانوا حزب الله المفلحين... ولا مقارنة بينهم وبين مَنْ يزعم أنه يعمل عملهم فهم عند الثريا وغيرهم فى طبقات الثرى التى توطأ بالنعال!!!

وصاحب الكتاب غنى عن تعريفى به...

فهو الشاب الشيخ «محمود المصرى» (أبو عمار) البحاثة الدءوب فى تمييزه للسمين من الغث أثناء تعرضه للكم الهائل من تراث أمتنا فى مجالات علمية متعددة..

نسأل الله الحى القيوم ذا الجلال والإكرام أن يجزل له العطاء فى الدارين وأن ينفع بالكتاب كما نفع بأصوله، وأن يلحقنا بسلفنا الصالح على خير حال. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلّى الله وسلم على سيد المعلمين والقادة المربين وعلى آله وصحبه.

العبد الفقير إلى عفو مولاه القدير

زكى محمد أبو سريع

يوم الجمعة الموافق: ١١ من شعبان ١٤٢٠ هـ

١٩ من نوفمبر ١٩٩٩ م

مقدمة فضيلة الشيخ / محمد عبد المقصود

حفظه الله .

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧١) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن دراسة التاريخ الإسلامي عامة.. وتاريخ الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة (خاصة) يمثل خطوة عظيمة في طريق بعث الأمة؛ لأنه يدفع الأمة المسلمة لأن تقوم مرة أخرى وتنفض غبار الغفلة فتستعيد أمجادها وتعود مرة أخرى لتقود العالم كله إلى خيري الدنيا والآخرة.

فأصحاب النبي ﷺ هم خير جيل عرفته البشرية كلها وهم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين - صلوات ربي وسلامه عليهم - قوم اختارهم الله لصحبة نبيه أبرهم قلوباً وأعمقها فكراً وأقلها تكلفاً، ولا بد للمتأخر أن يعرف فضل المتقدم، وذلك لأننا نعيش زماناً نفتقد فيه إلى القدوات الصالحة.

ولذلك فإن الكتابة عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات الناصعة التي سطرها على جبين التاريخ بسطور من النور لهي من الواجب الذي يحتمه علينا هذا العصر الذي نعيش فيه معمعة الأفكار واضطراب الموازين وموالة الكافرين.

وكل ذلك لأن الأمة قد ابتعدت كثيراً عن مصدر عزها ونبع شرفها ومعين كرامتها فأذلها الله لأذل الأمم.. في الوقت الذي أعز الله فيه أصحاب الحبيب ﷺ لما ساروا على منهج الله واهتدوا بهدى رسول الله ﷺ .

فسخر الله لهم الكون كله. بل لقد تنزلت الملائكة لتؤيدهم في غزوة بدر وغيرها... ولقد أثنى الله عليهم في كتابه أبلغ الثناء.

فقال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهم المخاطبون ابتداءً بتلك الآيات.

لقد خرجوا من أموالهم وديارهم وبذلوا النفس والنفس من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله) فدانت لهم الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها، وكانت راية الإسلام خفاقة عالية.

ومن أجل ذلك جاءت الحاجة إلى معرفة أحوال هؤلاء الصحب الكرام الذي تربوا بين يدي الحبيب ﷺ الذي رباه الحق - جل جلاله - ليربى به الأمم والأجيال في كل زمان، بل وفي كل مكان.

وما أجمل ما قاله ابن مسعود - رضى الله عنه - عن أصحاب الحبيب ﷺ حيث يقول: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ»^(١).

وهذا الكتاب الذي سطره قلم الأخ الكريم / محمود المصري (أبو عمار) فيه فيضٌ نافع وخيرٌ كثير، وجهدٌ يُشكر عليه حيث بدأه بمقدمة بين فيها فضائل الأمة المحمدية على وجه العموم، وفضائل الصحابة والأنصار - على وجه الخصوص -.

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٧٩) رقم (٣٦٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وثنى بذكر الأدلة القاطعة على تحريم سب الصحابة - رضى الله عنهم - ثم بدأ الكتاب بذكر العشرة المبشرين بالجنة، وأتبعهم بذكر تسعين صحابياً ليكون ذلك تمام المائة.

فجاء الكتاب حاوياً لمئة شخصية فريدة من صفوة الأمة من الرعيل الأول.

وكل ذلك جاء بأسلوب سهل يسير.

فلنحرص على اقتناء هذه السلسلة الفريدة لما فيها من فرائد الفوائد وقلائد الحكم والمناقب.. مُحَقَّقة تحقيقاً علمياً دون حشو أو تعقيد.

فجزاه الله خير الجزاء ونفع به.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

(أبو عبد الرحمن)

محمد بن سعيد القصود العنبي

مقدمة فضيلة الشيخ / محمد حسان

بِحفظه الله .

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. هو الواحد الذي لا ضد له، وهو الصمد الذي لا منازع له.. وهو الغنى الذي لا حاجة له... وهو القوى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. وهو جبار السموات والأرض؛ لا راد لحكمه ولا معقب لأمره.

هو الأول فلا شيء قبله، وهو الآخر فلا شيء بعده.. وهو الظاهر فلا شيء فوقه... وهو الباطن فلا شيء دونه، وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله.. وصفيه من خلقه وخليله أدى الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغممة، وعبد ربه حتى لبى داعيه، وجاهد في سبيله حتى أجاب مناديه، وعاش طوال أيامه ولياليه.. يمشى على شوك الأسى ويخطو على جمر الكيد والعنت، يلتمس الطريق لهداية الضالين وإرشاد الحائرين.. حتى علم الجاهل.. وقوم المعوج، وأمن الخائف.. وطمان القلق.. ونشر أضواء الحق والخير والإيمان والتوحيد كما تنشر الشمس ضياءها في رابعة النهار، فאלلهم اجزه عنا خير ما جزيت نبياً عن أمته، ورسولاً عن دعوته ورسالته.

اللهم صلّ وسلم وزد وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد:

أخي الكريم:

إن هذا الكتاب الذي بين يديك رحلة في حديقة الإسلام تطوف بين رياضها العطرة الذي يفوح أريجها معطراً بشذا الجنان الفيحاء.

نتنقل في هذه الحديقة الغناء التي حوت من الأزهار أجملها ومن الرياحين أطيبها ومن المياه أعذبها لتتعرف على رجال تربوا على مائدة القرآن وكان معلمهم إمام الأنبياء وخير الأنام محمد ﷺ.

وهو محاولة لإبراز همم هؤلاء الرجال العالية في الدعوة والجهاد والعلم والفهم

والصبر والزهد والتواضع والورع.. إلى آخر هذه المثاليات التي لن تجد لها في تاريخ العالمين نظير.

إن دراسة التاريخ الإسلامى - وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والعلماء والمجاهدين والقادة من سلفنا الصالح - إذا أحسن عرضها وأبرزت خصائصها، وبطولات رجالها الذين كانوا رعاة للغنم، فجعلهم الإسلام سادة وقادة للأمم، فإنه حتماً ينمى فى شباب الإسلام ويبعث فيهم روح الولاء لله ورسوله، ويدفع همهم إلى معالى الأمور، ويكشف عن طاقاتهم المذخورة ويستثمرها حتى نهض بهذه الأمة المكلومة التى بعدت كثيراً كثيراً.

أخى القارئ الكريم:

إن دراسة سير الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والعلماء العاملين من الأهمية بمكان، خاصة إذا اعتمدت على منهج المحدثين فى نقد الروايات والأخبار.

إنك - أخى الكريم - إذا ما وقفت على كتب التاريخ والسير بدراسة واعية متأنية تشعر بضخامة الانحراف والخطأ الذى وقع فيه كثير من المؤرخين - قدامى ومعاصرين - فالقدامى جمعوا الآثار والأخبار صحيحها وسقيمها ودونوها فى كتبهم، ومنهم ذو ميول وأهواء، ومنهم ثقات وعدول، ولكنهم فى هذا الطور كما قال يحيى بن معين: «إذا كتبت فقمّش، وإذا حدثت ففتّش».

أما المعاصرون فحدث ولا حرج فقلما تجد من يلتزم التحقيق العلمى المعتمد على المقاييس الشرعية.

لذلك فإن التاريخ الإسلامى اعتراه كثير من التشويه والدس والنسيان، ولم يجد من يحميه ويصونه مثل الحديث النبوى الذى نشأت له علوم لا تدرك نهايتها الكتب والأقلام.

كما أنك تجد أن السيرة النبوية - ولله الحمد والمنة - قد لقيت عناية فائقة فى التدوين والتأليف، وفى النقد والتحقيق على يد علماء الحديث، بينما لم يجد التاريخ علوماً تسهم فى حفظه على وجه التمام والكمال، ولا جهوداً تميز غثه من سمينه، وخبثه من طيبه، وأصيله من دخيله، وصحيحه من ضعيفه.

ونحن - والذى رفع السماء - لفى مسيس الحاجة - فى هذه الأزمان - لقراءة سير

السلف الصالح فما أخرجنا إلى القدوة الحسنة، ولذا فنحن نهيب بإخواننا الآباء والمربين أن يقرءوا على أبنائهم وطلابهم سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين.

فلا شك أن إبراز تاريخ هذه الأجيال والتركيز على ما قاموا به في تحملهم أمانة الدعوة إلى الله، وما أصابهم في سبيلها من الأذى والعنت يكون له أعظم الأثر في أن نعرف لهم قدرهم وفضلهم ونحبب أبنائنا في التأسى بهم والاعتزاز بالانتساب إليهم ليرتبط حاضر الأمة بماضيها العريق ذي التاريخ المشرق المنير في الدعوة ونشر العلم والتوحيد، وقيادة البشرية قيادة راشدة إلى مراقي الفلاح.

فهيا إلى هذه الواحة اليانعة الممتعة لنعيش في رحاب الصادقين الأبرار ولنستشق عبر الصدق.. عسى الله أن يلحقنا بهم في جنته ومستقر رحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

جزى الله أخانا الحبيب / محمود المصري (أبو عمار) على هذا الجمع الطيب المبارك وجعله في ميزان حسناته وزاده توفيقاً وتسديداً ورشاداً، وجعلنا جميعاً من الصادقين. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

(أبو أحمد)

محمد حسان

مقدمة فضيلة الدكتور/ سيد بن حسين العثاني

، حفظه الله .

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ..

وبعد: فعلى استحياء مني أقدم للشيخ الحبيب الغالي / محمود المصري «أبو عمار» جعل الله أيامه عامرة بالعطاء لدينه.. والشيخ يحسن الظن بي، وإنما نحن قوم مساكين، ليس هذا مقامنا.. وهذا الغالي الداعية الخير عالي الهمة يكتب عن السادة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قال فيهم النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»^(١).

ويقول فيهم الشاعر:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى الناس أنا توجهنا

فبارك الله له في سعيه وقلمه الطيب العطر الفواح وجعل هذا الكتاب القيم في ميزان حسناته ووفاه أجره كاملاً ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى رحمة ربه

سيد بن حسين العثاني

شعبان ١٤٢٠ هـ

(١) متفق عليه عن ابن مسعود - صحيح الجامع (٣٢٩٥).

بين يدي الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

إن أمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح عليه أمر أولها.
 ولا يشك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر أن أصحاب النبي ﷺ هم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين - عليهم أفضل الصلاة والتسليم - وأنه ﷺ سيد ولد آدم.. وصحابته هم خير قرن وأمة وجدت على وجه الأرض.
 وإن معرفة أحوالهم وأخلاقهم وسيرهم لتضيء الطريق أمام المؤمن الذي يريد أن يعيش أسوة محمد ﷺ .

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].
 فالصحابية (رضى الله عنهم) هم حملة الإسلام وحفظته بعد رسول الله ﷺ .
 اختارهم الله واصطفاهم لصحبة نبيه ﷺ ونشر رسالته من بعده.
 عدلهم وزكاهم ووصفهم بأوصاف الكمال في غير ما آية من كتاب الله.
 فقال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿[النور: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ هُمُ الْمُفَوَّضُونَ إِلَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ تَرَافُهُمْ يُكْفِّرُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الثَّوْرَةِ وَمِثْلِهِمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَاؤُهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُرْقَةٍ يَعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِثَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

إنهم نوعٌ فريدٌ من الرجال لم تعرف البشرية لهم نظيراً في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن.

لقد حاز أصحاب محمد ﷺ قَصَبَ السبق في كل شيء فهم قمة في التقوى والورع وآية في التجرد والإخلاص ومشعل في العلم والعمل ونبراس في الدعوة والحركة.

«فأي خصلة خير لم يسبقوا إليها؟ وأي خطة رشد لم يستولوا عليها؟!

تالله لقد وردوا الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً وأيدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً.

فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان.. والقرى بالجهاد والسنان^(١)..

هم أنصار الدين في مبتدئ نشأته

بذلوا المهج يوم بخل أهل الدراهم بدراهمهم.

رجال المغارم يوم يندس المغمورون في ثيابهم.

هم لله - عز وجل - قلوباً وأبداناً ودماءً وأموالاً.

لم يجعلوا همهم حشو البطون ولا لبس الحرير ولا الإغراق في النعم.

حفظوا الشرع من أهواء الزائغين.. وحموا الملة من زحف المناوئين.. شهدوا التنزيل

(١) «أعلام الموقعين عن رب العالمين» للإمام ابن القيم (١/ ٥ - ٦).

وعملوا بما فيه طائعين... حملوا الوحيين وحضروا البيعتين.. وصلى أكثرهم إلى القبلتين.

كلُّ له هم.. وهمَّهم رفعة (لا إله إلا الله) كلُّ له قصد.. وقصدهم الجليل في علاه.
خرجوا من أموالهم لله ولرسوله ﷺ فما شفى ذلك لهم غليلاً. فأبوا إلا أن يقدموا
الأرواح ويسيلوا الدماء ويستعذبوا العذاب في سبيل الله.

فرضى الله عنهم وأرضاهم وأكرم في جنات الخلد مثواهم^(١).
من كان متأسياً فليتأس بهم فإنهم أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً
وأقومها هدياً وأحسنها حالاً.

هم الرجال بأفياء الجهاد نموا وتحت سقف المعالي والندى ولدوا
جباههم ما انحنت إلا لخالقها وغير من أبدع الأكوان ما عبدوا
الخاطبون من الغايات أكرمها والسابقون وغير الله ما قصدوا
ومن هنا كان لزاماً علينا معرفة أخبارهم وسيرهم ونشرها بين المسلمين... عظة
وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وذلك لأنهم نَقَلَةُ الإسلام إلينا نقلاً صحيحاً... ولأن المحافظة على الإسلام
تستوجب العناية بتاريخهم لئلا يجد أعداء الإسلام سبيلاً للطعن في الإسلام عن طريق
الطعن في نقلته.

ولذلك فإن الكلام عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات التي سطرها
واجبٌ مُحْتَمٌّ علينا في هذا العصر الذي نعيش فيه اضطراب الموازين والوقوع في
الصحابة الأبرار. إنه واجبٌ لردع أهل الهوى من الزنادقة والملاحدة وأهل الكفر
والابتداع الذين انتقصوا وسبوا خير جيل وطائفة وجدت على وجه الأرض!!!.

لا لشيء إلا لأنهم حَمَلَةُ الإسلام ورُؤَاة الأحاديث التي تهدم بدعهم وتُظهر ضلالهم
وتُبْرِز حُبث طويتهم.

ولعل ديننا القويم قد تميز عما سبقه من الأديان بمعجزة تتجدد في كل وقت وأن.. ألا
وهي معجزة الرجال الذين عاشوا حياتهم للإسلام ولم يعرفوا للراحة طعماً ولم يعرف

(١) من مقدمة الشيخ عائض القرني (صور من سير الصحابة) (ص ٣ - ٤) بتصرف.

الخُمُول إلى نفوسهم طريقًا فكانوا حركة مشبوبة لا تهدأ ولا تفتُر ولا تكل ولا تمل.
لا يهتمُّها من الحياة مالٌ ولا متاع ولا تشغلها دون غاياتها زخارف الدنيا وبهجتها.
وحدوا همَّتْهم في إرضاء الله... محقوا من بواطنهم كل نية تشوبها الشوائب فكانوا
خالصين لله.. فأكرمهم الله بأن جعلهم معجزة من معجزات نبيه الكريم ﷺ .
يُثبتون للدنيا كلها أن دين الله تامُّ مُكمل، وأن شرع الله لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه.. وأن الله مُتمُّ نوره ولو كره الكافرون.. ولو كره المنافقون والظالمون
والفاسقون.

إن أخبار هؤلاء الأخيار دواءٌ للقلوب وجلاءٌ للألباب من الدنس والعيوب.. وقدوة
في زمنٍ كادت القدوات فيه أن تغيب.
فهم مثالٌ يُحتذى ونبراسٌ يُقتدى.. ليعرف المتأخر للمتقدم فضله ويسعى على دربه
ونهجه.

بالوقوف على أخبار هؤلاء الأخيار تحيا القلوب.. وباقتفاء آثارهم تحصل السعادة...
وبمعرفة سيرهم ومناقبتهم تكون القدوة بجميل الخصال ونبل المآثر والفعال.

وإني لأستغفر الله على تقصيري في تلك الصفحات التي سطرتها بمداد قلبي
للقوف على سيرة هؤلاء الأطهار الذين عشت في رحاب سيرتهم شهورًا طويلة لم
يتسرب فيها الملل إلى نفسى لحظة واحدة لأننى كنت أشعر بأننى أعيش في جنة الدنيا.

فهيأ بنا أيها الإخوة الأعزاء وأيتها الأخوات الفضليات لنعيش سويًا في رحاب مائة
صحابي من أصحاب الحبيب ﷺ الذين سَطَّروا على جبين التاريخ سطوراً من النور...
راجيًا من الله - عز وجل - أن ينفع بهذا الكتاب كل مسلم ومسلمة في هذا الكون، وأن
يكتب له القبول بين المسلمين وأن يرزقني فيه الصدق والإخلاص وأن يجعله خالصًا
لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم أدرج في أكفاني.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري

(أبو عمار)

فضائل الأمة المحمدية

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

سبحان مَنْ قَدَّمَنَا عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَسَقَانَا مِنْ مَعْرِفَتِهِ أَرْوَى كَاسٍ، وَجَعَلَ نَبِيَّنَا أَفْضَلَ نَبِيٍّ رَعَى وَسَّاسٍ، فَلَمَّا فَضَّلَهُ عَلَى الْأُمَّةِ وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا بِعُلُوِّ الْهَمَةِ قَالَ لَنَا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١).

إِنَّا أُمَّةٌ رِسَالَةٌ وَلَا يَجِبُ أَبَدًا أَنْ تُتَخَلَّى عَنْ تِلْكَ الرِّسَالَةِ فَلَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ لِتَكُونَ بِمَثَابَةِ الْمَشْعَلِ الَّذِي يَضِيءُ الطَّرِيقَ لِكُلِّ الْأُمَمِ كَيْ تَسِيرَ عَلَى النُّهْجِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمِيعًا. فَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَلَّفَ اللَّهُ فِيهِ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ بِأَنْ تَسْتَقِيمَ فِي ذَاتِهَا لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، كَلَّفَ اللَّهُ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ بِتَكْلِيفَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

- ١ - كَلَّفَهَا بِعِبَادَتِهَا لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].
- ٢ - ثُمَّ كَلَّفَهَا بِأَنْ تَكُونَ أُمَّةً هَادِيَةً لِكُلِّ الْبَشَرِيَّةِ وَشَاهِدَةً عَلَى كُلِّ الْبَشَرِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي خَيْرِيَّةِ تِلْكَ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] (٢).
- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ أَنَّ الْحَبِيبَ ﷺ قَالَ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبِيكَ وَسَعْدِيكَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ - أَى الرِّسَالَةِ - فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالَ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] (٣).

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٥٨٥).

(٢) كتاب (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) للمصنف (ص: ٦) ط. دار الفردوس.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٨٧) التفسير - باب: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا....» الآية.

وعن أبي بن كعب في هذه الآية قال: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود، وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم، قال أبو العالية: وهي قراءة أبي: «لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة». ومن حديث جابر عن النبي ﷺ: «ما من رجل من الأمم إلا ودَّ أنه منّا أيتها الأمة، ما من نبي كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة، أن قد بلغ رسالة الله ونصح لهم»^(١).

بل قال ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض والملائكة شهداء الله في السماء»^(٢). وإليكم جميعاً أيها الإخوة الكرام وأيتها الأخوات الفضليات تلك الباقة العطرة من فضائل أمة الحبيب ﷺ قبل أن نتحدث عن فضائل الصحابة - رضی اللہ عنہم - على وجه الخصوص.

* قال ﷺ: «إنكم تُتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(٣).
* وقال ﷺ: «مَثَلُ أُمِّي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ»^(٤).
* وقال ﷺ: «أُمِّي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْفِتْنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ وَالْبَلَايَا»^(٥).

* وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ رَحْمَةً أُمَّةً مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَهَا قَبْلَهَا؛ فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةً أُمَّةً عَذَّبَهَا وَنَبِيَهَا حَتَّىٰ فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ فَاقْرَأْ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ»^(٦).

بل لقد اجتمعت من رحمت الله لهذه الأمة ما لم تجتمع لغيرها.
* قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمِّي عَمَّا تَوَسَّسَ بِهِ صَدُورُهُمْ مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ بِهِ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٧).

(١) قال الحافظ في الفتح (٢١٨ / ٨): أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد عن أبي العالية عن أبي بن كعب.

(٢) رواه الطبراني عن سلمة بن الأكوع وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٩٠).

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن معاوية بن حيدة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٤) رواه أحمد والترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٥٤).

(٥) رواه أبو داود والطبراني في الكبير والحاكم عن أبي موسى - صحيح الجامع (١٣٩٦).

(٦) أخرجه مسلم عن أبي موسى - صحيح الجامع (١٧٠٧).

(٧) رواه ابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٩).

❖ وقال ﷺ: «إن الله تعالى قد أجاز أمتي أن تجتمع على ضلالة»^(١).

❖ وقال ﷺ: «إن الله تعالى: يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(٢).

❖ وقال ﷺ: «فُضِّلْنَا على الناس بثلاث: جُعِلَتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعِلَتْ لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء، وأُعْطِيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش لم يُعْطِها نبيُّ قبلي»^(٣).

❖ وقال ﷺ: «لَمْ تَحَلَّ الغنائم لأحدٍ سودٍ الرؤوس من قبلكم. كانت تُجمع وتنزل نار من السماء فتأكلها»^(٤).

— ونظراً لقصر أعمار هذه الأمة المباركة فلقد أكرمها الخالق (جل جلاله) بمضاعفة الأجر على سائر الأمم من قبلها.

❖ قال ﷺ: «إنما أجلكم فيما خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثّل رجل استأجر أجراً فقال: مَنْ يعمل من غُدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: مَنْ يعمل من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: مَنْ يعمل من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقلّ عطاءً؟ قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيته من أشاء»^(٥).

❖ وقال ﷺ: «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثّل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا لك، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوه، فاستأجر أجراً بعدهم، فقال: اعملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا، ولك الأجر الذي

(١) رواه ابن أبي عاصم عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٦).

(٢) رواه أبو داود والبيهقي في «المعرفة» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٧٤).

(٣) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي عن حذيفة - صحيح الجامع (٤٢٢٣).

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٩٦).

(٥) أخرجه البخاري وأحمد ومالك والترمذي عن ابن عمر - صحيح الجامع (٢٣١٥).

جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم، ومثل ما قبلوا من هذا النور»^(١).

بل إنه في آخر الزمان عندما ينزل عيسى - عليه السلام - مرة أخرى فإن الله يجعله يصلي خلف رجل من أمة الحبيب ﷺ تكرامة لهذه الأمة الميمونة المباركة.
* قال ﷺ: «منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه»^(٢).

بل لقد وصف النبي ﷺ أمته وكيف يكون حالها يوم القيامة وكيف يكون حسابها وأخبر أنهم أكثر أهل الجنة.

* قال ﷺ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»^(٣).

* وقال ﷺ: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب يقال: أين الأمة الأمية نبيها فنحن الآخرون الأولون»^(٤).

* وقال ﷺ: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف متماسكون أخذ بعضهم بيد بعض لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»^(٥).

* وقال ﷺ: «أعطيت سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجل واحد فاستزدت ربي - عز وجل - فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً»^(٦).

وفي رواية قال ﷺ: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بلا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي»^(٧).

* وقال ﷺ: «ما من أمة إلا وبعضها في النار وبعضها في الجنة إلا أمتي فإنها كلها

(١) أخرجه البخاري عن أبي موسى صحيح الجامع (٢٨٥٢).

(٢) رواه أبو نعيم في كتاب «المهدي» عن أبي سعيد - وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٢٠).

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٢٠٠٥).

(٤) رواه ابن ماجه عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٤٩).

(٥) متفق عليه عن سهل بن سعد - صحيح الجامع (٥٣٦٥).

(٦) رواه أحمد عن أبي بكر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٧).

(٧) رواه أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي أمامة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١١١).

في الجنة» (١).

أى من مات على التوحيد ولو كان من أهل الكبائر فإن مصيره فى النهاية إلى الجنة - خلافا لما عليه المعتزلة من أن أهل الكبائر سيُخلَّدون فى النار - ولذلك خصص النبى ﷺ ذلك بقوله «إلا أمتى».. ومعلوم أن المشرك والمرتد ليس من أمته.

* وقال ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم» (٢).

فيا ليتنا نستشعر قدر نعمة الإسلام كما عرفها الصحابة - رضى الله عنهم - فملكوا الدنيا بأسرها وأعزهم الله فى كل بقعة من بقاع الأرض.

وها هو الخالق - جل جلاله - يدعونا لكى نشعر بتلك النعمة ونثبت عليها ونموت عليها... قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وصدق من قال:

ملكننا هذه الدنيا القُرُونَا	وأخضعها جدودُ خالدونا
وسطرنا صحائفَ من ضياء	فمسا نسى الزمانُ ولا نسينا
وكُنَّا حينَ يأخذنا ولىُّ	بطغيان ندوسُ له الجبينَا
تفيض قلوبنا بالهدى بأسَا	فمتى نغضى عن الظلم الجفونا
بنينا حُقبَة فى الأرض مُلكَا	يُدعمه شباب طامحونا
شبابٌ ذلَّلُوا سبيلَ المعالى	وما عرفوا سوى الإسلام دينَا
تعهدهم فأنبتهم نباتَا	كريمًا طاب فى الدنيا غصُونَا
إذا شهدوا الوغى كانوا كُماةً	يدكُّون المعاقِد والحُصُونَا
شبابٌ لم تحطمه الليالى	ولم يُسلم إلى الخصم العرينَا
وإن جنَّ المساءُ فلا تراهم	من الإشفاق إلا ساجدينَا

(١) رواه الخطيب البغدادي عن ابن عمر، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٥٦٩٣).

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن بريدة، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

كذلك أخرج الإسلام قومي
وعلمه الكرامة كيف تُبنى
وما فتئ الزمانُ يدور حتى
وأصبح لا يرى في الركب قومي
وآلني وآلم كلُّ حرٍ
تري هل يرجع الماضي فإني
دعوني من أمان كاذبات
وهاتوا لي من الإيمان نوراً
أمدُّ يدي فأنزعُ الرواسي

شباباً مخلصاً حُرّاً أميناً
فيأبى أن يُقيّد أو يهُونا
مضى بالمجد قومٌ آخرونا
وقد عاشوا أئمةً سنينا
سؤالُ الدهر أين المسلمونا
أذوبُ لذلك الماضي حيننا
فلم أجِدِ المنى إلا ظُنونا
وقووا بين جنبيّ اليقيننا
وأبني المجد مؤتلفاً مكيناً^(١)

هنا الحمد لله أولاً وآخرأ على نعمة الإسلام

(١) ديوان هاشم الرفاعي - نقلاً من صلاح الأمة (٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨).

بعض فضائل الصحابة

(رضي الله عنهم)

لله در أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها وقهروا بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها، فعن إيعاد مثلهم وقع نهى النبي ﷺ «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» [الأنعام: ٥٢].

صعدت صحائفهم من الأكدار صافية، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص صافية، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية، والناس في أخلاط والقوم في عافية، ففاق المولى منهم على الرئيس القرشي ﷺ «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» [الأنعام: ٥٢].

دموعهم بالأحداق محدقة ورؤوسهم في الأسحار مطرقة، وأكفهم بما تسكبه في الخير منفقة، ونفوسهم بعد الجحد من اللوم مشفقة، يردون من حياض المصافاة على أوفى الرى ﷺ «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» [الأنعام: ٥٢].

خلصوا الأعمال من الأكدار نفلاً وفرضاً واجتهدوا في طاعة مولاهم ليرضى، وحضوا أنفسهم لطلب الحظ الأحظ حضاً، وغضوا أبصارهم عن غض الشهوات غضاً، فإذا أبصرتهم رأيت أجساداً مرضى وعبوناً قد ألفت السهر فما تكاد تطعم غمضاً، بادروا أعمارهم لعلمهم أنها ساعات تتقضى فأمدتهم بالعون السرمدي ﷺ «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» [الأنعام: ٥٢].

ابتلاهم فرضوا وصبروا، وأنعم عليهم فاعترفوا وشكروا، وجاءوا بكل ما يرضى ثم اعتذروا، وجاهدوا العدو^(١) فما انقشعت الحرب حتى ظفروا، فنالوا غاية الإمكان في المكان العلى ﷺ «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» [الأنعام: ٥٢]^(٢).

كانت قلوبهم بالحق متعلقة، وأنوارهم على الظواهر متألقة، كلما هدلت حمائم نوحهم هطلت غمام شجوههم، دموعهم في الدجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف، يغسلون بالبكاء ذنوب الصحائف، خوفهم شديد وما فيهم مخالف، إذا جن الليل فالقدم

(١) جاهدوا الشيطان وأنفسهم فإن أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه.

(٢) التبصرة للإمام ابن الجوزي (١/ ٥٦٧ - ٥٦٨) بتصرف - ط. دار ابن خلدون.

واقف، يحنون إلى الحبيب حنين شارف^(١) الدمع مساعد والحزن مساعف.

علموا أن الدنيا متاع يقنى فعبروها وما عمروها للسكنى، واشتغلوا بدار كلما نقضت هذه تبني، طرق الوعظ أسماعهم فتلمحوا المعنى، يأخذون أهبة الرحيل «ولا يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى» لا كبر عندهم تراهم بين المساكين والزمنى، لو تأملتهم رأيت ضلوعاً على المحبة تحنى، حلف صادقهم على هجر الهوى والله ما استثنى، وأقبلوا على قدم الفقر فلما رآهم أغنى، ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لبنى.

قال النبي ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمار وسلمان»^(٢).^(٣)

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض فضائل الصحابة - رضى الله عنهم - فعلينا أن نذكر أولاً تزكية الخالق - جل وعلا - لهم فى كتابه الكريم.

فهم الذين قال الله فى حقهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَسَمَ لَّحِبِّهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال تعالى عنهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [البينة: ٨].

وقال - عز وجل - فى حقهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وزكاهم الله - جل وعلا - بقوله: ﴿مُعَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَذَكَّرُونَ فَضُلًّا مِنَ اللَّهِ وَرَضَوْنَا سَيِّدَاهُمْ فِي رُجُومِهِمْ مِّنْ أَمْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُفَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال - عز وجل - فى حقهم: ﴿لِّلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ فَضُلًّا مِنَ اللَّهِ وَرَضَوْنَا وَيَنْصُرُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ السَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا

(١) الشارف: الناقه المستة.

(٢) رواه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٣) التبصرة للإمام ابن الجوزى (١/ ٥٨٢ - ٥٨٣) بتصرف.

وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾
[الحشر: ٨-٩].

وقال تعالى في حقهم: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٨﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

وقال تعالى في حقهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى في حقهم: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وأمر الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه معهم، فقال - جل وعلا -: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

بل هم المخاطبون ابتداءً بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعِ الرُّسُولَ أَمْ مِنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقْبَلُوا الرُّسُولَ وَمِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقُرْحُ لِلَّذِينَ احْسَنُوا مِنْهُمْ وَأَنْقَرُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

ما قاله ابن مسعود - رضى الله عنه - عن أصحاب الحبيب ﷺ

وما أجمل ما قاله ابن مسعود - رضى الله عنه - عن أصحاب الحبيب ﷺ حيث يقول: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء» (١).

وقال أيضاً: «من كان مستتاً بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، فأولئك أصحاب محمد ﷺ أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً قد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم على الهدى المستقيم» (٢).

الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدور أصحابه

- رضى الله عنهم -

وما هى أوسمة الشرف التى وضعها الحبيب ﷺ على صدور أصحابه - رضى الله عنهم - ونظراً لكثرتها فسوف نكتفى بذكر بعضها - فالقليل منها كثير -

فعن عمران بن حصين - رضى الله عنهما - يقول: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً، «ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن» (٣).

وعن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «خير الناس

(١) رواه أحمد فى المسند (١/ ٣٧٩) رقم (٣٦٠٠)، وقال الشيخ شاکر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧) والهروى ورقمه (٨٦)، وفيه من طريق قتادة عنه فهو منقطع (قاله الألبانى فى تخريج المشكاة ص ١٩٣).

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥).

قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» قال: قال إبراهيم: وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صفار^(١).

وفى الصحيحين من حديث أنس - رضى الله عنه - قال: مرَّ بجنّازة فأثنى عليها خيراً. فقال النبى ﷺ: «وجبت، وجبت وجبت»، ومرَّ بجنّازة فأثنى عليها شراً. فقال نبى الله ﷺ: «وجبت، وجبت، وجبت». قال عمر: فدى لك أبى وأمى، مرَّ بجنّازة فأثنى عليها خيراً فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومرَّ بجنّازة فأثنى عليها شراً، فقلت: وجبت وجبت وجبت؟

فقال رسول الله ﷺ: «من أثنتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض، أنتم شهداء الله فى الأرض، أنتم شهداء الله فى الأرض»^(٢).

وعن عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها قال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأثنى النبى ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخواناه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخى!^(٣). وعن سعيد بن أبى بردة عن أبيه. قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلّى معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا فقال: «ما زلتم ها هنا» قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلّى معك العشاء قال: «أحسستم، أو أصبتم» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً مما يرفع رأسه إلى السماء فقال: «النجوم أمانةٌ للسماء فإذا ذهبَت النجومُ أتى السماء ما توعد، وأنا أمانةٌ لأصحابى فإذا ذهبَتُ أتى أصحابى ما يُوعدون، وأصحابى أمانةٌ لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يُوعدون»^(٤).

(١) أخرجه البخارى (٣٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخارى (١٣٦٧) الجناز - ومسلم (٩٤٩) الجناز.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٣١) وأحمد (٣٩٨/٤ - ٣٩٩). قال النووى - رحمه الله - (شرح مسلم ص: ٣٩١): =

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ^(١) من الناس فيقولون: فيكم من صاحب^(٢) رسول الله ﷺ؟^(٣) فيقولون لهم: نعم، فيُفتح لهم^(٤). ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم. ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم»^(٥).

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآنى وصاحبى، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآنى وصاحب من صاحبنى»^(٦).

= «وأصحابى أمة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون»: معناه من ظهور البدع والحوادث فى الدين والفتن فيه وظلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

(١) الفئام: الجماعة، وقيل: الجماعة الكثيرة (انظر لسان العرب ٣٣٣٦ فقد أورد هناك معان أخر بالإضافة إلى ما ذكرنا).

(٢) فى رواية مسلم (من رأى).

(٣) وهذا السؤال عن أصحاب النبى ﷺ ومن رآهم ومن رأى من رآهم للاستنصار والتبرك بهم وبدعاتهم، وقد أورد البخارى - رحمه الله - هذا الحديث أيضاً فى كتاب الجهاد باب «من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب» وقال الحافظ ابن حجر هناك: أى ببركتهم ودعاتهم.

(٤) قال الحافظ فى الفتح (٦ / ٨٩): يفتح للصحابة لفضلهم ثم للتابعين لفضلهم ثم لتابعيهم لفضلهم، قال: ولذلك كان الصلاح والفضل والنصر للطبقة الرابعة أقل فكيف بمن بعدهم، والله المستعان.

(٥) أخرجه البخارى (٣٦٤٩) ومسلم (٢٥٣٢) وأحمد (٧ / ٣).

(٦) رواه ابن أبى شيبة (المصنف ١٢ / ١٧٨) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧ / ٥): إسناده حسن.

فضائل الأنصار

(رضى الله عنهم)

إن فضائل الأنصار - رضى الله عنهم - لا تُعد ولا تُحصى، ولكن حسبنا أن نذكر بعض فضائلهم سائلين الحق - جل وعلا - أن يجمعنا بهم فى جنته ومستقر رحمته.

الأنصار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير - رحمه الله -: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أى: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أى لا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة^(١).

وقال القرطبي: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، أى يؤثرون على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غنى، بل مع احتياجهم إليها^(٢).

وها هو موقف سعد بن الربيع الأنصارى مع عبد الرحمن بن عوف المهاجرى - رضى الله عنهما - ذلكم الموقف الذى لا تنساه أبداً ما دامت أرواحنا فى أجسادنا.

عن أنس - رضى الله عنه - قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فأخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن:

(١) تفسير القرآن لابن كثير (٤ / ٣٣٧) دار المعرفة بيروت.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٦٥٠٥) ط. دار الشعب.

بارك الله لك في أهلك ومالك^(١).

وعن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده قال: «لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلّوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو يوماً، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة. فقال النبي ﷺ: «مَهَيْم؟» قال: تزوجت. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب - أو وزن نواة من ذهب -^(٢).

بل هذا موقف عظيم لأبى طلحة - رضى الله عنه -.

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ: من يضم - أو يضيف هذا - فقال رجل من الأنصار^(٣): أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبيانى فقال: هبى طعامك وأصبحى سراجك ونومى صبيانك إذا أرادوا عشاءً. فهيات طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعل يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين - جائعين - فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعلكما فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقْ شَحْنًا سَفِهَ نَفْسَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»^(٤).

ولم يكن هذا الكرم والإيثار موقفاً فردياً، بل كان موقفاً جماعياً من الأنصار نحو المهاجرين - رضى الله عنهم جميعاً -.

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: أقسم بيتنا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا». فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم فى الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا^(٥).

(١) رواء البخارى (٣١٧ / ٧) مناقب الأنصار.

(٢) رواء البخارى (١٤٠ / ٧) مناقب الأنصار.

(٣) فى رواية ابن فضيل عن أبيه عند مسلم (ص ١٦٢٥): فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة.

(٤) أخرجه البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤) والترمذى (٣٣٠٤).

(٥) أخرجه البخارى (٢٣٢٥) عن أبى هريرة - رضى الله عنه -.

الله عز وجل - سمي الأنصار أنصاراً

عن غيلان بن جرير قال: قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار كُتِبَ تسمون به أم سماءكم الله؟ قال: بل سمانا الله. كنا ندخل على أنس فيحدثنا بمناقب الأنصار ومشاهدهم ويُقبل على أو على رجل من الأزد فيقول: فعل قومك يوم كذا وكذا وكذا وكذا (١).

من أحب الأنصار أحبه الله - جل وعلا.

قال ﷺ: «من أحب الأنصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله» (٢).

وقال ﷺ: «إن الناس يهاجرون إليكم ولا تهاجرون إليهم، والذي نفسى بيده، لا يحب الأنصار رجلٌ حتى يلقي الله؛ إلا لقي الله وهو يحبه، ولا يبغض الأنصار رجلٌ حتى يلقي الله، إلا لقي الله وهو يبغضه» (٣).

آية الإيمان حب الأنصار

قال ﷺ: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» (٤).

وقال ﷺ: «لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر» (٥).

النبي ﷺ يوصي بالأنصار خيراً

قال ﷺ: «إن الأنصار قد قضوا الذي عليهم وبقي الذي عليكم فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم» (٦).

وقال ﷺ: «استوصوا بالأنصار خيراً» (٧).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطفًا

(١) أخرجه البخارى (٣٧٧٦).

(٢) رواه أحمد والبخارى فى تاريخه عن معاوية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٥٣).

(٣) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن الحارث بن زياد، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٧٩).

(٤) متفق عليه عن أنس - صحيح الجامع (١٥).

(٥) أخرجه مسلم عن أبى هريرة - وأحمد والترمذى والنسائى عن ابن عباس - صحيح الجامع (٧٥٩٢).

(٦) رواه الشافعى والبيهقى فى «المعرفة» عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٨٧).

(٧) رواه أحمد عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٥٩).

بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس إن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن سيئهم»^(١).

وعن هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: مر أبو بكر والعباس - رضي الله عنهما - بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا^(٢). فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد قال: فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتى»^(٣)، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن سيئهم».

الأنصار أكثر الناس شهيداً

قال ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (١ / ١١٨): «رجال الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استلّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم أبنا قيلة، (يعنى الأوس والخزرج) وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزد».

وفي البخاري عن قتادة قال: «ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً، أغر يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب».

وعن أنس أنه كان يقول: يارب، سبعين من الأنصار يوم أحد، وسبعين يوم بئر

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٠) عن ابن عباس - رضي الله عنهما -

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٩٩) والنسائي في الفضائل (٢٤١). قال الحافظ في الفتح (١٢١ / ٧) قوله: (ذكرنا مجلس النبي ﷺ) أي الذي كانوا يجلسونه معه، وكان ذلك في مرض النبي ﷺ فخشوا أن يموت من مرضه فيفقدوا مجلسه فبكوا حزناً على فوات ذلك.

(٣) قال الحافظ في الفتح (١٢١ / ٧): قوله (كرشي وعيبتى) أي بطانتي وخاصتي.

قال القزاز: ضرب المثل بالكرش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون فيه نماؤه، ويقال: لفلان كرشى منثورة أي عيال كثيرة، والعيبة بفتح المهملة وسكون المثناة بعدها موحدة: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، يريد أنهم موضع سره وأمانته.

معوثة، وسبعين يوم مسيلمة الكذاب، وسبعين يوم جسر أبي عبيدة^(١).

الأنصار من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ

عن أنس - رضى الله عنه - قال: رأى النبى ﷺ النساء والصبيان مقبلين - قال حسبت أنه قال من عرس - فقال النبى ﷺ مُثْلًا فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلى» قالها ثلاث مرار^(٢).

وعن هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها، فكلّمها رسول الله ﷺ فقال: «والذى نفسى بيده إنكم أحب الناس إلى... مرتين»^(٣).

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم ويمسح برءوسهم ويدعو لهم^(٤).

اصبروا حتى تلقوني على الحوض

إنها كلمات قالها الحبيب ﷺ للأنصار.. فيا لها من منقبة عظيمة، ويا له من موعد تتضاءل أمامه الدنيا بمتاعها الزائل، ويا له من لقاء مع الحبيب ﷺ فى هذا المكان الذى يأتيه الماء من نهر الكوثر - وهو نهر من أنهار الجنة أعطاه الله لنبيه ﷺ تكرامة له..

عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك - رضى الله عنه - حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبى ﷺ الأنصار إلى أن يُقَطَعَ لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تُقَطَعَ لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: إما لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدى أثر^(٥).

وعن أسيد بن حضير - رضى الله عنه - أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله ألا تستعملنى كما استعملت فلاناً؟ قال: «ستلقون بعدى أثر^(٦) فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(٦).

(١) نقلًا من علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٧٢ - ٣٧٣).

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٨٥) عن أنس - رضى الله عنه -

(٣) أخرجه البخارى (٣٧٨٦) ومسلم (٢٥٠٩) والنسائى فى الفضائل (٢٢٧).

(٤) رواه النسائى (الفضائل ٢٤٤) (الكبرى ٥/ ٩٢) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٤٧).

(٥) أخرجه البخارى (٣٧٩٤) عن أنس - رضى الله عنه -

(٦) أخرجه البخارى (٣٧٩٢) ومسلم (١٨٤٥) والترمذى (٢١٨٩).

التبى ﷺ يدعو بالمغفرة للأنصار والمهاجرة

عن حميد الطويل قال: سمعت أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: كانت الأنصار يوم الخندق تقول:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما حيناً أبداً

فأجابهم: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار^(١) والمهاجرة^(٢)».

وعن سهل قال: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتادنا فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار^(٣)».

الأنصار تركة النبي ﷺ

قال ﷺ: «لكل نبي تركة (وضيعة) وإن تركتى وضيعتى الأنصار فاحفظونى فيهم^(٤)».

الأنصار مولا هم الله ورسوله ﷺ

عن أبى أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنصار ومزينة وجُهينة وغفار وأشجع، ومن كان من بنى عبد الله موالىً دون الناس، والله ورسوله مولا هم^(٥)».

لولا الهجرة لكنت امرء من الأنصار

قال ﷺ: «الأنصار شعارٌ، والناسُ دثارٌ، ولو أن الناس استقبلوا وادياً أو شعباً، واستقبلت الأنصار وادياً، لسلكت وادى الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار^(٦)».

(١) وفى رواية عند البخارى (٣٧٩٥): «فأصلح الأنصار والمهاجرة» وفى أخرى «فاغفر للأنصار».

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٩٦) وأحمد (٣/ ١٧٠) والنسائى فى فضائل الصحابة (٢١٢).

(٣) أخرجه البخارى (٣٧٩٧) ومسلم (١٨٠٤) والنسائى فى فضائل الصحابة (٢٠٧).

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٧٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥١٩) والترمذى (٣٩٤٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد - متفق عليه عن عبد الله بن زيد - صحيح الجامع (٢٧٩١).

مواقف تاريخية للأنصار - رضى الله عنهم.

ولقد وقف الأنصار - رضى الله عنهم - مواقف تاريخية، وإليك بعض تلك المواقف التى تتألق روعة وجمالاً.

موقف الأنصار يوم بيعة العقبة الثانية

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: صحبت جرير بن عبد الله فكان يخدمنى^(١) - وهو أكبر من أنس - قال جرير: إني رأيت الأنصار يصنعون شيئاً لا أجد أحداً منهم إلا أكرمه^(٢).

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحاج فى منازلهم فى الموسم وبمَجَنَّةَ وبعكاظ وبمنازلهم بمنى: «من يؤوينى، من ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربى - عز وجل - وله الجنة» فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه حتى إن الرجل يرحل من مَضْرٍ أو من اليمن أو زَوْرَ صَمَدٍ فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمشى بين رجالهم يدعوهم إلى الله - عز وجل - يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله - عز وجل - له من يثرب فيأتيه الرجل فيؤمن به فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله - عز وجل - فائتمرنا واجتمعنا سبعون رجلاً منا، فقلنا حتى متى نذر - نترك - رسول الله ﷺ يطرد فى جبال مكة ويخاف؟ فدخلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم فواعدناه شعب العقبة فقال عمه العباس: يا ابن أخى إني لا أدري ما هؤلاء القوم جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين فلما نظر العباس - رضى الله عنه - فى وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث، فقلنا: يا رسول الله! علام نبأبعك؟ قال: تبأيعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت يثرب فتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا نبأيعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين فقال: رويداً يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن

(١) عند مسلم: فقلت له: لا تفعل. قال: فذكره.

(٢) أخرجه البخارى (٢٨٨٨) - ومسلم (٢٥١٣).

إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله - عز وجل - وإما أنتم قوم تتخافون من أنفسكم خيفة، فذروه فهو أعذر عند الله قالوا: يا أسعد ابن زرارة أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها. فقمنا إليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا بشرطه العباس ويعطينا على ذلك الجنة^(١).

موقف الأنصار يوم بدر

وفي يوم بدر وقف الأنصار موقفاً عظيماً من أعظم المواقف، فإنه عندما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا على أيها الناس». وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عددُ الناس - أي أكثر عدداً من المهاجرين - وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله! إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل»؛ قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك؛ ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث فقه السيرة للشيخ الغزالي.
(٢) هكذا أورده ابن هشام من غير سند هنا، ولعله اعتمد على إسناده في أول الغزوة والله أعلم. وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢) بنحوه ونسبه إلى ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده مرسلًا وعزاه ابن حجر في الفتح (٧/ ٣٣٦) من مرسل علقمة بن وقاص، عن ابن أبي شيبة. وللحديث شواهد منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود (٧/ ح ٣٩٥٢ / فتح).

موقف الأنصار بعد غزوة حنين

عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عباد، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت، قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» - يعنى ما رأيك - قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة»، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة. قال: فجاء رجل من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدتموها [على] فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم!» قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: «ألا تحبوننى يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتُم ولصدقتُم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخدولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا^(١).

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣ / ٧٦، ٧٧) من طريق ابن إسحاق، وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٠ / ٢٩)

رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، وقد صرح بالسماع.

ولم تكن مواقف الأنصار في تلك المواضع فحسب.. بل لقد كان للأنصار مواقف ومواقف في كل غزوة، بل في كل لحظة مرت على الإسلام والمسلمين، ولكنني ذكرت بعضها فقط خشية الإطالة. وإلا فمواقف الأنصار تحتاج إلى مجلدات لكي نذكر مناقبهم ومآثرهم ومواقفهم الخالدة - فرضى الله عنهم وأرضاهم -.

ولا أستطيع أبداً أن أنسى مقالة أمنا عائشة - رضى الله عنها - حينما قالت: «نعم النساءُ نساءُ الأنصار لم يكن يمنعهن الحياءُ أن يتفقهن في الدين» (١). (٢)

فرضى الله عن المهاجرين والأنصار وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) أخرجه مسلم (ص: ٢٦١) وأبو داود (٣١٦) وابن ماجه (٦٤٢).

(٢) بعض العناوين في فضائل الأنصار اقتبسناها من كتاب فضائل الصحابة للشيخ مصطفى العدوي.

تَحْرِيمُ سَبِّ الصَّحَابَةِ

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)

عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّاً^(١) أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

وعن عبد الله بن مغفل أن النبي ﷺ قال: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي لهم أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله أوشك أن يأخذه»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى اختارني، واختار لي أصحاباً، فجعل لي

(١) المد: قال في لسان العرب: المدُّ ضرب من المكاييل وهو ربع صاع وهو قدر مد النبي ﷺ، وذكر أقوالاً أخرى وقال: وقيل: إن أصل المد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملا كفيه طعاماً. ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٣٤) عن البيضاوي قوله: معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهباً من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص وصدق النية، قلت (القائل الحافظ): وأعظم من ذلك في سبب الأفضلية عظم موقع ذلك لشدة الاحتياج إليه، وأشار بالأفضلية بسبب الإنفاق إلى الأفضلية بسبب القتال كما وقع في الآية: «من أنفق من قبل الفتح وقاتل» فإن فيها إشارة إلى موقع السبب الذي ذكرته، وذلك أن الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيماً لشدة الحاجة إليه وقلة المعتنى به بخلاف ما وقع بعد ذلك؛ لأن المسلمين كثروا بعد الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا فإنه لا يقع ذلك الموقع المتقدم. والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) عن أبي سعيد الخدري. قوله: «نصيفه» قال الترمذي: ومعنى قوله «نصيفه» أي نصف المد. أما حكم من سب أصحاب النبي ﷺ فننقل هنا بعض أقوال أهل العلم:

قال النووي - رحمه الله - (شرح مسلم ٥/ ٤٠٠): وأعلم أن سب الصحابة - رضى الله عنهم - حرام من فواحش المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون كما أوضحناه في أول فضائل الصحابة من هذا الشرح، قال القاضي: وسب أحدهم من المعاصي الكبائر ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يُعزَّر ولا يُقتل، وقال بعض المالكية: يُقتل.

وقال الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٣٦): اختلف في سب الصحابي فقال عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يُعزَّر، وعن بعض المالكية يُقتل، وخص بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسين، فحكى القاضي حسين في ذلك وجهين، وقواه السبكي في حق من كفر الشيخين، وكذا من كفر من صرح النبي ﷺ بإيمانه أو تبشير به بالجنة إذا تواتر الخبر بذلك عنه لما تضمن من تكذيب رسول الله ﷺ.

(٣) رواه أحمد في المسند (٤/ ٨٧)، (٥/ ٥٤، ٥٧)، وقال محققه: إسناده حسن، ورواه أيضاً الترمذي رقم (٣٨٦٢) وغيره.

منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل»^(١). الصرف: النافلة، والعدل: الفريضة..

وقال الإمام الذهبي - رحمه الله -: «إنما يعرف فضائل الصحابة - رضى الله عنهم - من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم فى حياة رسول الله ﷺ، وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان، والمجاهدة للكفار، ونشر الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه، وسننه، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنة سنة ولا فرضاً، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئاً.

فمن طعن فيهم، أو سبهم، فقد خرج من الدين، ومرق من ملة المسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضرار الحق فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم.

ولأنهم أَرْضَى الوسائل الماثورة، والوسائل من المنقول، والطعن فى الوسائل طعن فى الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول، وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق والزندقة والإلحاد فى عقيدته»^(٢). اهـ.

وقال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى :-

ومن الحجة الواضحة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن ذكر مساويهم، والخلاف الذى شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو واحداً منهم أو تنقص أو طعن عليهم، أو عرض بعيبهم أو عاب أحداً منهم فهو مبتدع رافضى خبيث، مخالف لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، بل حُبهم سنة والدعاء لهم قرينة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وأصحاب رسول الله ﷺ هم خير الناس، لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص^(٣).

وقال ﷺ: «احفظونى فى أصحابى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»^(٤).

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٣٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) الكبائر للإمام الذهبي (ص: ٢٧٦) - كبيرة سب الصحابة - رضى الله عنهم -.

(٣) السنة للإمام أحمد (ص: ٧٨).

(٤) رواه ابن ماجه عن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٦).

وقال ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا» (١).

وقال ﷺ: «لعن الله من سب أصحابي» (٢).

وفى رواية قال ﷺ: «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (٣).
فيا ليتنا نعرف قدر أصحاب النبي ﷺ ونعيش، بل ونتعاش مع كل لحظة عاشوها في البذل والتضحية والفداء بالنفس والمال والولد لنعلم أنهم استحقوا أن ينالوا رضوان الله ومحبة وجنته ونسير على خطاهم فنبدل الغالى والنفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة «لا إله إلا الله» في الكون كله.

ونكون بذلك قد صدقنا مع الله - جل وعلا - الذى قال فى حق الصحابة - رضى الله عنهم :-

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فنكون ممن ينتظر.. فيفتح الله لنا القلوب والأسماع وينشر بنا الخير والإيمان فى أرجاء الكون، ويتحقق موعود الله - عز وجل :-

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فهيا بنا نطوف سوياً فى بساتين الصادقين - اليانعة - لنرى ونعلم كيف صدقوا مع الله فأعزهم الله وأعز بهم الإسلام فى كل مكان.

فنسأل الله - جل وعلا - أن يجمعنا بالحبيب ﷺ وبأصحابه - رضى الله عنهم - فى جنته ومستقر رحمته. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٥).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١١١).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٨٥).

أبو بكر الصديق

« ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له
عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة وما نضعنى مال
أحد قط ما نضعنى مال أبى بكر ولو كنت
متخذًا خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً »

محمد رسول الله ﷺ

إنه رجلٌ عظيمُ القدر.. رفيعُ المنزلة.. عبدُ الله متأسياً برسول الله ﷺ.. وجاهد في
الله وأنفق كل ماله في سبيل الله.

نصرَ الرسول ﷺ يوم خذله الناس وآمن به يوم كفر به الناس وصدقَه يوم كذبه
الناس.

جهل فعله الكثير من أبناء المسلمين وبخسوه حقه وهضموه منزلته ولم يقدروه قدره.
لم يتجاهله العامة فحسب!! بل تجاهله الخاصة من الخطباء والوعاظ والدعاة
والكُتّاب!!!

ربما لأنه عظيم بجوار مَنْ هو أعظم.. وكريم بجوار مَنْ هو أكرم.. فطغت عظمته
صاحبه ﷺ وقدره ومنزلته على عظمته وقدره ومنزلته.

إنه أفضل الصحابة بلا خلاف.. ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين
على رجلٍ خير منه.

إنه أول مَنْ آمن من الرجال على الصحيح... إنه مَنْ وُزن إيمانه بإيمان الأمة فرجح
إيمانه.

إنه الورع الحى.. الحازم الرحيم.. التاجر الكريم.. صاحب الفطرة السليمة من أدران
الظلام والجاهلية.

كان شبيهاً بالرسول ﷺ.. وأنعم به من شبيهه.

إنه رجلٌ لا كالرجال.. وسيرة لا كالسير.
إنه من دُعَى إلى الإسلام فما كَبَا ولا نَبَا ولا تردد.
وإنما بادر إلى الإسلام وما تلعثم.

وما كان لأصحاب الفِطْر السليمة أن يتلعثموا عن خيرٍ دُعُوا إليه.
وكيف لا يبادر إلى الإسلام وقد صَحِب رسول الله ﷺ قبل البعثة وعَلِمَ صدقه
وأمانته وحُسْن سجاياه وكرم خلقه.
عَلِمَ أنه لا يكذب على الخلق فكيف يكذب ﷺ على الخالق - جل وعلا - لذا كان
لسان حاله يوم دُعَى إلى الله من جانب رسول الله ﷺ :
ما جربت عليك كذبا قط.

أما لسان مقاله: فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فتمتد يده
إلى المصطفى ﷺ لتباعيه فتكون أول يدٍ تمتد إلى الحبيب ﷺ (١).
وها نحن من خلال تلك السطور على موعدٍ مع نبذة صغيرة من فضائله ومواقفه التي
سَطَّرها على جبين التاريخ بسطورٍ من نور.

من هو الصديق - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى
القرشى التيمى أبو بكر الصديق بن أبى قحافة (٢).
(وُلد بمنى) وهو يلتقى فى النسب مع رسول الله ﷺ فى (مرة).
تزوج فى الجاهلية امرأتين - قتيلة بنت عبد العزى وأم رومان بنت عامر -
وتزوج فى الإسلام امرأتين - أسماء بنت عميس وحبيبة بنت خارجة بن زيد -.

(١) من شريط (صور وعبر) للشيخ / على القرنى.

(٢) طبقات ابن سعد (٣ / ١٢٥ - ١٢٦) والاستيعاب (٣ / ٩٦٣) والإصابة (٢ / ٤١٧).

كَانَ مِثَالِيَا حَتَّى فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ

لقد كان الصديق - رضى الله عنه - مثاليًا فى كل شيء - حتى فى أيام الجاهلية - فلا عجب أن تراه بعد إسلامه أفضل رجل بعد رسول الله ﷺ.. فقد قال ﷺ: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»^(١).

قال ابن إسحاق: وكان أبو بكر رجلاً مألُفًا لقومه مُحببًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَنْ وثق به من قومه مِمَّن يَغشاه ويجلس إليه^(٢).

وها هو - رضى الله عنه - تراه قد حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية فلم يشربها قط لا فى الجاهلية، ولا فى الإسلام، وذلك أنه مرّ وهو فى الجاهلية برجل سكران يضع يده فى العذرة - الغائط - يدينها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها، فحرمها أبو بكر على نفسه.

ولم يسجد - رضى الله عنه - لصنم قط.

قال أبو بكر - رضى الله عنه - فى مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: ما سجدت لصنم قط، وذلك أنى لما ناهزت الحلم أخذنى أبو قحافة بىدى فانطلق بى إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لى: هذه آلهتك الشَّمَّ العوالى، وخلانى وذهب، فدنوت من الصنم، وقلت: إنى جائع فأطعمنى فلم يُجبنى، فقلت: إنى عارٍ فاكسنى، فلم يجبنى، فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه^(٣).

إسلامه - رضى الله عنه -

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال: «قال أبو بكر: أأستُ أحقَّ الناس بها؟ أى الخلافة، أأستُ أول من أسلم؟ أأستُ صاحب كذا. أأستُ صاحب كذا؟»^(٤).

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٣٢٦٧).

(٢) السيرة لابن هشام (١ / ٢١١).

(٣) التاريخ الإسلامى / لمحمود شاكر (٣١ / ٣) ط. المكتب الإسلامى.

(٤) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٨).

قال الإمام السيوطي: وقيل: أول من أسلم (على) وقيل: خديجة، وجمع بين الأقوال بأن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، (وعلى) أول من أسلم من الصبيان، وخديجة أول من أسلمت من النساء.

وأول من ذكر هذا الجمع الإمام أبو حنيفة، رحمه الله^(١).

وما إن أسلم أبو بكر - رضى الله عنه - حتى حمل أمانة الدين على أعناقهم وخرج يدعو الناس إلى دين الله - جل وعلا - فأسلم على يديه ستة من العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة فيما بعد.

فيأتي الصديق - رضى الله عنه - يوم القيامة وهم في ميزان حسناته.

بل وأسلم على يديه خلقٌ كثيرٌ غير هؤلاء الأطهار الأبرار.

وهكذا يجب أن يكون الداعية... يحمل همَّ الناس من حوله ويخشى عليهم من عذاب الله ويأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وجنته.

الشَّيْخُ ﷺ لُقِّبَ «عَتِيقًا»

ومن المناقب الجميلة أن الذي لُقِّبَ أبا بكرٍ (عتيقًا) هو الحبيب المصطفى الصادق المصدوق ﷺ.

عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت: إنى لقيت رسول الله ﷺ وأصحابه في الفناء، وبينى وبينهم السِّترُ إذ أقبل أبو بكر فقال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى هذا»، وإن اسمه الذي سماه به أهله لعبد الله بن عثمان بن عامر، ولكن غلب عليه عتيق^(٢).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: دخل أبو بكر الصديق على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر، فأنت عتيق الله من النار» قلت: فمن يومئذ سُمِّيَ عتيقًا^(٣).

(١) تاريخ الخلفاء (ص ٣٤).

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٦٧٩)، والطبراني في الكبير (٩)، والحاكم في المستدرک (٢ / ٤١٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩ / ٤٠)، وقال: رجالهما ثقات، وحكى السيوطي في الجامع الكبير (٤٣٨): أن ابن كثير نسب لآبى نعيم، وقال: قال ابن كثير: إسناده جيد.

(٣) رواه الترمذي رقم (٣٦٧٩) في المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - وصححه شيخنا الألباني في الصحيحة.

أبو بكر خير من مؤمن آل فرعون

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن فضائل الصديق - رضى الله عنه -: فهو خير من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتسب إيمانه والصديق أعلن به. وخير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين.

عائِن طائر الفاقة يحوم حول حَبِّ الإيثار ويصيح: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فألقى له حَبَّ المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحَبَّ إلى حوصلة المضاعفة، ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرد بفنون المدح، ثم قام في محاريب الإسلام يتلو: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْأَتَقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

نطقت بفضلها الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار (فيا مبغضيه) في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار.

أترى لم يسمع الروافض الكفار ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]؟

دُعِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَمَا تَلَعَثَ وَلَا أَبَى، وَسَارَ عَلَى الْمَحَبَّةِ فَمَا زَلَّ وَلَا كَبَا، وَصَبَرَ فِي مَدَّتِهِ مِنْ مَدَى الْعَدَى عَلَى وَقْعِ الشَّبَا، وَأَكْثَرَ فِي الْإِنْفَاقِ فَمَا قَلَّلَ حَتَّى تَخْلُلَ بِالْعَبَا - أَى حَتَّى تُؤْفَى - تَاللهُ لَقَدْ زَادَ عَلَى سَبْكَ فِي كُلِّ دِينَارٍ دِينَارٌ ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

مَنْ كَانَ قَرِينَ النَّبِيِّ فِي شَبَابِهِ؟

مَنْ ذَا الَّذِي سَبَقَ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ أَصْحَابِهِ؟

مَنْ الَّذِي أَفْتَى بِحَضْرَتِهِ سَرِيعًا فِي جَوَابِهِ؟

مَنْ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى مَعَهُ؟

مَنْ آخِرَ مَنْ صَلَّى بِهِ؟

مَنْ الَّذِي ضَاجَعَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي تَرَابِهِ؟ فَاعْرِفُوا حَقَّ الْجَارِ.

نَهَضَ يَوْمَ الرَّدَةِ بِفَهْمٍ وَاسْتِيقَاطٍ، وَأَبَانَ مِنْ نَصِّ الْكِتَابِ مَعْنَى دَقِّ عَنْ حَدِيدِ الْأَلْحَاطِ.

فَالْمَحَبُّ يَفْرَحُ بِفَضَائِلِهِ، وَالْمُبْغِضُ يَغْتَاطُ.

حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره، ولكن أين الفرار؟

كم وقى الرسول بآمال والنفس، وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس^(١). فضائله جليلة، وهي خلية عن اللبس.

يا عجباً! من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار، لقد دخلاً غاراً لا يسكنه لابس، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول: ما ظنك باثنين والله الثالث؛ فنزلت السكينة، فارتفع خوف الحادث. فزال القلق، وطاب عيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منابر الأمصار ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]. حبه والله رأس الحنفية، وبغضه يدل على خُبث الطوية. فهو خير الصحابة والقراية، والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية. مهلاً مهلاً، فإن دم الروافض قد فار.

والله ما أحببناه لهواناً، ولا نعتقد في غيره هواناً، ولكن أخذنا بقول (علي) وكفانا: «رضيك رسول الله لديتنا، أفلا نرضاك لدينانا». تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر، تالله لقد وجب حق الصديق علينا؛ فنحن نقضي بمبادئه، ونقر بما نقر به من السنن^(٢) عيناً، فمن كان رافضياً فلا يعد إلينا^(٣).

وعن ابن عباس قال: أول من صلى: أبو بكر - رحمه الله -.

ثم تمثل بأبيات حسان:

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة	فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها	إلا النبي وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده	وأول الناس حقاً صدق الرُسل

ولقد ذكر أهل العلم بالتواريخ والسير أن أبا بكر شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وجميع المشاهد، ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه رسول الله ﷺ رايته العظمى يوم تبوك، وأنه كان يملك يوم أسلم

(١) (رَمَسَ) الميت: دفنه. و(أرسمه) أيضًا. و(الرَّمْس) بوزن الفلَس: تراب القبر، وهو في الأصل مصدر.

و(الرمس) بوزن المذهب: موضع القبر.

(٢) السنن: البرق. والسنن: الرقيق.

(٣) الفوائد للإمام ابن القيم (ص ١١١: ١١٣) ط. دار الخاني.

أربعين ألف درهم، فكان يعتق منها ويقوى المسلمين، وهو أول من جمع القرآن، وتنزه عن شرب المسكر في الجاهلية والإسلام، وهو أول من قاء تخرجاً من الشبهات^(١).

بعض مناقب الصديق وفضائله

تالله إنى لأجد نفسى عاجزاً عن الحديث عن تلك الفضائل، ولكن حسبنا منها القليل، فالقليل منها كثير وكثير.

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين فى المسجد بابٌ إلا سدُّ إلا باب أبي بكر»^(٢).

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر (أى أكثرهم رحمة) وأشدهم فى أمر الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم على....»^(٣).

وفى رواية قال ﷺ: «أرأف أمتى بأمتى أبو بكر....»^(٤).

وعن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أهل الدرجات العلى ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعم»^(٥).

وقال النبى ﷺ: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها إلا الصديق، فإن له عندنا يدٌ يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعتنى مالٌ أحد قط ما نفعتنى مالُ أبى بكر، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»^(٦).

وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعمر من هذا الدين كمنزلة السمع والبصر من الرأس»^(٧).

(١) صفة الصفوة (١/ ٩٧، ٩٩) ط. دار ابن خلدون.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٥٤) فضائل الصحابة - ومسلم (٢٣٨٢) فضائل الصحابة.

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).

(٤) رواه أبو يعلى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٦٨).

(٥) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٣٠).

(٦) رواه الترمذى (٣٦٦٢) المناقب، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٤).

(٧) قال الألبانى فى الصحيحة (٨١٥): هذا إسناده حسن رجاله كلهم ثقات.

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكر وعمر...» (١).

وعن أبى بكر - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «من رأى الليلة رؤيا؟ فقال رجل: أنا، رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر، فرُجحت أنت بأبى بكر، ووزن عمر وأبو بكر، فرجح أبو بكر بعمر، ووزن عمر بعثمان، فرجح عمر بعثمان، ثم رُفع الميزان، قال: فرأينا الكراهة فى وجه النبى ﷺ» (٢).

وهنا يظهر فضيلة أبى بكر على عمر فمن دونه، وقوله: «فرأينا الكراهة فى وجه رسول الله ﷺ».... قال فى تحفة الأحوذى: وذاك لما علم ﷺ من أن تأويل رفع الميزان انحطاط رتبة الأمور، وظهور الفتن بعد خلافة عمر ومعنى رجحان كل من الآخر أن الرجح أفضل من المرجوح.

وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ نظر إلى أبى بكر وعمر فقال: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبىين... والمرسلين لا تخبرهما يا على» (٣).

وعن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح فى الجنة» (٤).

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: إن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر: «أنت صاحبى على الحوض، وصاحبى فى الغار» (٥).

قال فى «تحفة الأحوذى»: أنت صاحبى على الحوض: أى الكوثر «وصاحبى فى الغار» أى الكهف الذى بجبل ثور الذى أوىا إليه عند خروجهما مهاجرين.

(١) رواه الترمذى عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٤٤).

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٦٣٤) فى السنة، باب فى الخلفاء، والترمذى رقم (٢٢٨٨) فى الرؤيا. وصححه شيخنا الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٨٧٥).

(٣) رواه الترمذى (٣٦٦٦) المناقب - وقال الألبانى فى الصحيحة (٨٢٤): إن الحديث بمجموع طرقه صحيح بلا ريب.

(٤) رواه الترمذى (٣٧٤٨) المناقب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

(٥) رواه الترمذى مرسلاً (٣٦٦٨) المناقب وقال: حسن صحيح.

وعن أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - قال: قلت للنبي ﷺ وأنا فى الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»^(١).

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: كنا نُخَيِّرُ بين الناس فى زمن النبي ﷺ فنُخَيِّرُ أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان - رضى الله عنهم -^(٢).

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعنى مالٌ قط ما نفعنى مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله^(٣)؟.

وعن أنس - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ صعد (أحداً) وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: «اثبت أحد فإنما عليك نبىٌ وصديق وشهيدان»^(٤).

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «نعم الرجل أبو بكر نعم الرجل عمر....»^(٥).

عن أبي موسى الأشعرى: أنه توضأ فى بيته ثم خرج.. قال: فقلت: لألزم رسول الله ﷺ ولاكونن معه يومى هذا. قال: فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: خرج ووجهها هنا فخرجتُ على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب - وبابها من جريد - حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته فتوضأ، فقامتُ إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر، فسلمتُ عليه ثم انصرفتُ فجلستُ عند الباب فقلت: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب. فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رسلك ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن فقال: «أئذن له وبشره بالجنة». فأقبلت حتى قلت لأبى بكر: ادخل ورسولُ الله ﷺ يبشرك بالجنة فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه فى القف ودلّى رجله فى البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه....»^(٦).

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما راع فى

(١) أخرجه البخارى (٣٦٥٣) - ومسلم (٢٣٨١) والترمذى (٣٠٩٦).

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٥٥) - وأحمد فى فضائل الصحابة (٥٣).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٥٣) وابن ماجه (٩٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٠٨).

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٧٥) وأبو داود (٤٦٥١) والترمذى (٣٦٩٧).

(٥) رواه الترمذى (٣٧٩٥) وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٧٠).

(٦) أخرجه البخارى (٣٦٧٤) - ومسلم (ص ١٨٦٨).

غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السبع^(١) يوم ليس لها راع غيري؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفت إليه فكلمته فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله... قال النبي ﷺ: فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -^(٢).

وعن ابن أبي مليكة أنه سمع ابن عباس يقول: وُضِعَ عمر على سريرته فتكففه الناس يدعون ويصلون قبل أن يُرْفَعَ، وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجل أخذ منكبي فإذا علي بن أبي طالب فترحم علي عمر وقال: ما خلقت أحداً أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وإيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنني كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»^(٣).

منزلة الصديق عند رسول الله ﷺ

عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر أخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر»، فسلم وقال: يا رسول الله، إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر» (ثلاثاً).... ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فسأل: أئنم أبو بكر؟ - يعني هل أبو بكر هنا - فقالوا: لا. فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله أنا كنت أظلم... أنا كنت أظلم. فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟.. فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟». فما أودى بعدها^(٤).

وعن محمد بن سيرين قال: سئل أنس بن مالك عن خضاب رسول الله ﷺ فقال: إن

(١) قال الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧ / ٢٧): قال الداودي: معناه من لها يوم يطرقها السبع - أي الأسد -

فتفر أنت منه فيأخذ منها حاجته ويتخلف أنا لا راعي لها حيثل غبري، وقيل: إنما يكون ذلك عند

الاشتغال بالفتن فتصير الغنم هماً فتتهبها السباع فيصير الذئب كالراعي لها لانفراده بها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٣) - ومسلم (٢٣٨٨) والترمذي (٣٦٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٥) - ومسلم (٢٣٨٩) وابن ماجه (٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦١) الفضائل - باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً».

رسول الله ﷺ لم يكن شاب إلا يسيراً، ولكن أبا بكر وعمر بعده خضباً بالحناء والكتم قال: وجاء أبو بكر بأبيه (أبي قحافة) إلى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يحمله حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لو أقررت الشيخ في بيته لأتينا مكرمة لأبي بكر». فأسلم ولحيته ورأسه كالشغامة بياضاً فقال رسول الله ﷺ: «غيروهما وجنبوه السواد»^(١).

وعن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله أى الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»^(٢).

أبو بكر - رضى الله عنه - يدعى من أبواب الجنة الثمانية

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام، وباب الريان» فقال أبو بكر: ما على هذا الذى يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: وهل يدعى منها كلها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»^(٣).

وفى رواية ابن حبان من حديث ابن عباس: قال ﷺ: «أجل وأنت هو يا أبا بكر».

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: عن أبواب الجنة فى «نونيته»:

ولسوف يدعى المرء من أبوابها جمعاً إذا وفى حلى الإيمان
منهم أبو بكر هو الصديق ذا ك خليفة المبعوث بالقرآن

(١) رواه أحمد (٣/ ١٦٠) وأبو يعلى (٢٨٣١) وابن حبان (١٤٧٦)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٤) والترمذى (٣٨٨٥).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم (٣٦٦٦) فضائل أصحاب النبى ﷺ.

الصدّيق ومحبته الشديدة للحبيب ﷺ

لقد أحبّ أبو بكر - رضي الله عنه - النبي ﷺ حباً ملك عليه لبّه وفؤاده وجوارحه؛ حتى إنه كان يتمنى أن يفدى النبي ﷺ بنفسه وولده وماله والناس أجمعين.

تقول عائشة - رضي الله عنها -: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل».

فلم يزل أبو بكر يلحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله، وإلى رسول الله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفها لوجهه، ونزّ (أي وثب) على بطن أبي بكر، حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم (قوم أبي بكر) يتعادون، فأجلت قريشاً عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله؟ فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه.

فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله.

فقالت: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت... قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت الصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله علىّ ألا أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس! إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أُمِّي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت^(١).

موقف يعجز القلم عن وصفه

وها هي صفحة مشرقة من حياة الصديق - رضى الله عنه - الذى بذل نفسه وماله فداءً لله وفداءً لرسول الله ﷺ.

فمن على بن أبى طالب، قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فذا يجباه^(٢)، وهذا يتلته^(٣)، وهم يقولون: أنت الذى جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجبا هذا، ويتلث هذا، وهو يقول: ويلكم! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، ثم رفع (على) بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تحببوني؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»^(٤).

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبى ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]^(٥).

(١) البداية والنهاية (٣ / ٢٩ - ٣٠) بسند رجاله ثقات، وقال الهيثمى فى المجمع (٤٦ - ٤٧ / ٩): رواه البزار ورجال رجال الصحيح غير إسماعيل بن أبى الحرث، وهو ثقة، انظر حلية الأولياء (١ / ٣٢).

(٢) يجباه: أى فجأة وبغته.

(٣) يتلته: يحركه ويزعزعه من مكانه.

(٤) تاريخ الخلفاء (ص ٣٧).

(٥) رواه البخارى فى مناقب الأنصار رقم (٣٨٥٦) باب ما لقي النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

لم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفى بالمدينة - فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة فقال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومى هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلي شيئاً، وكنت أوجد عليه^(١) منى على عثمان، فلبث ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً. قال عمر: قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أنى كنت قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها^(٢).

أبو بكر - رضي الله عنه - وإنفاقه في سبيل الله

قال ﷺ: «ما أحدٌ أعظم عندي يداً من أبي بكر وأساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته»^(٣).

وقال ﷺ: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدٌ يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالٌ أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»^(٤).

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً، فأنفقها في سبيل

(١) قال الحافظ في الفتح (٢٢١ / ٩): أى أشد موجدة أى غضباً على أبي بكر من غضبي على عثمان، وذلك لأمرين: أحدهما ما كان بينهما من أكيد المودة، ولأن النبي ﷺ كان آخى بينهما، والثاني لكون عثمان أجابه أولاً ثم اعتذر له ثانياً، ولكون أبي بكر لم يعد عليه جواباً. ووقع في رواية ابن سعد «فغضب على أبي بكر، وقال فيها: كنت أشد غضباً حين سكنت منى على عثمان». اهـ.

(٢) رواه البخاري رقم (٥١٢٢) في النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، ورواه الإمام أحمد في المسند (١٢ / ١).

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٥١٧).

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة ومسلم عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦١).

الله، وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله، أعتق بلالاً، وعامر بن فهيرة، وزنيرة، والنهدية وابنتها، وجارية بنى مؤمل، وأم عبيس^(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «أنفق أبو بكر - رضي الله عنه - على رسول الله ﷺ أربعين ألفاً»^(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ حَبِيبِهَا الْأَنْثَى (١٧) الَّتِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠].

قال الإمام القرطبي: «والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه -»، فأى منقبة أعظم من هذه المنقبة، وأى وسام أغلى من هذا الوسام؟.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «عذب المشركون بلالاً»، وبلال يقول: «أحدٌ أحدٌ»، فمر به النبي ﷺ، فقال: «أحد، يعني الله تعالى، ينجيك»، ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر، إن بلالاً يعذب في الله»، فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب، ومضى به إلى أمية بن خلف، سيد بلال، فقال له: أتبيعني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾، أي سوف يعطيه في الجنة ما يرضى^(٣).

وكان عمر - رضي الله عنه - يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالاً»^(٤).

أبو بكر حبا في الله مالا
وأعتق في محبته بلالاً
وقد واسى النبي بكل فضل
وأسرع في إجابته بلا : لا
لو أن البحر يقصده ببعض
لما ترك الإله به بلالاً

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك منى مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر - إن سبقته يوماً - فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله.

(١) أسد الغابة (٣/ ٣٢٥). وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله إلى عروة رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن حبان (٢١٦٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٨٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي (٢٠/ ٧٨ - ٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥٤) فضائل أصحاب النبي ﷺ.

قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقك إلى شيء أبداً^(١).

الحبيب ﷺ ينفى الخيلاء عن أبي بكر - رضي الله عنه -

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، فقال أبو بكر: إن أحد شقي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه.. فقال رسول الله ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء»^(٢).

أبو بكر - رضي الله عنه - يسابق دائماً إلى كل خير

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «من تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر - رضي الله عنه -: أنا. قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكر - رضي الله عنه -: أنا. قال: «من عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر - رضي الله عنه -: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»^(٣).

عن بكر المزني قال: ما فاق أبو بكر أصحاب محمد ﷺ بصوم ولا صلاة؛ ولكن بشيء وقر في قلبه.

قال إبراهيم: بلغني عن ابن علية أنه قال في عقيب هذا الحديث:

الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة لخلقه^(٤).

موقفه العظيم في قصة الإسراء والمعراج

ولما كانت رحلة الإسراء والمعراج جاء المشركون إلى أبي بكر فقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه أسرى به إلى المسجد الأقصى في الليلة الماضية ونحن نقطع أكباد الإبل إليها في شهر كامل، فقال أبو بكر: إن كان قال فقد صدق.

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨) الزكاة - والترمذي (٣٦٧٥) المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح - وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٥) - وأبو داود (٤٠٨٥) وأحمد (١٠٤ / ٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٢٨) فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -

(٤) استثنى نسيم الأنس / لابن رجب (ص ١٣).

وفى رواية: وبادر الصديق إلى التصديق وقال: إني لأصدقك في خبر السماء بكرة وعشية، أفلا أصدقك في بيت المقدس؟ (١).

ولذلك يُقال: إن أبا بكر سُمي صديقاً من حادثة الإسراء والمعراج؛ لأن النبي ﷺ قال ليلة أسرى به لجبريل: إن قومي لا يصدقوني فقال له جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصديق (٢).

وكان عليُّ بن أبي طالب - رضى الله عنه - يحلف أن الله - عز وجل - أنزل اسم أبي بكر من السماء (الصديق) (٣).

موقفه العظيم ليلة الهجرة المباركة

وإن نسينا فلا ننسى أبداً موقفه العظيم في ليلة الهجرة المباركة.

* فلقد اجتمع صناديد قريش في دار الندوة وقرروا قتل النبي ﷺ.

* قالت عائشة - رضى الله عنها -: والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك فإني أرجو أن يؤذن. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه.

وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر.

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه - تبارك وتعالى - فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة قائلاً: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه (٤).

وذهب النبي ﷺ في الهجرة إلى أبي بكر - رضى الله عنه - ليبرم معه مراحل الهجرة.

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٠٨).

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٣٣٨ - ٤٠٢).

(٣) قال ابن حجر في «الفتح» (٧/ ١١): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٨٢)، وزاد المعاد (٢/ ٥٢).

* قالت عائشة: بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً - في ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء في هذه الساعة إلا لأمر.

قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال: فإنني قد أذن لي في الخروج.

فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: باليمن. قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق^(١).

* وأوعز الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى علي بن أبي طالب في هذه الليلة الرهيبة أن يرتدي برده الذي ينام فيه وأن يتسجى به على سرير، وفي هجعة من الليل وغفلة من الحرس، انسَلَّ الرسول - عليه الصلاة والسلام - من بيته إلى دار أبي بكر ثم خرج الرجلان من خوخة في ظهرها إلى غار ثور. إلى الغار إلى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة، ومستقبل حضارة كاملة، وتركته في حراسة الصمت والوحشة والانقطاع.

وسارت الأمور على ما قدرا، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من أخبار، وأمر عامر بن فهيرة (مولاه) أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار، فكان عبد الله بن أبي بكر في قریش يسمع ما يأترون وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر. ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم، وكان عامر في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله من عندهم إلى مكة، اتبع عامر ابن فهيرة أثره بالغنم. يعفى عليه - يخفى آثار قدميه -.

وتلك هي الحيلة البالغة، كما تفرضها الضرورات المعتادة على أي إنسان. وانطلق مشركو مكة في آثار المهاجرين يرصدون الطرق، ويفتشون كل مهرب

(١) أخرجه البخاري (٢٧٢/٧، ٢٧٣) مناقب الأنصار.

وراحوا ينقبون جبال مكة وكهوفها، حتى وصلوا - فى دأبهم - قريباً من غار ثور، وأنصت الرسول ﷺ وصاحبه إلى أقدام المطاردين، تخفق إلى جوارهم فأخذ الروح أبا بكر، وهمس يحدث رسول الله ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، فقال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «يا أبا بكر... ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^{(١)(٢)}.

* وتدبروا معى كيف كان حال أبى بكر - رضى الله عنه - مع رسول الله ﷺ أثناء الهجرة وكيف كان خوفه عليه.

روى أبو القاسم البغوى عن ابن أبى مليكة أن النبى ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور، فجعل أبو بكر يكون أمام النبى ﷺ مرة، وخلفه مرة، فسأله النبى ﷺ عن ذلك، فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك.

- ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر والله لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابنى دونك، فدخل فكسحه ووجد فى جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به وبقي منها اثنان فألقمهما رجله، ثم قال لرسول الله ﷺ ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه فى حجره ونام فلُدغ أبو بكر فى رجله من الحجر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا أبا بكر؟ قال لُدغت فداك أبى وأمى، فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده^(٣).

هكذا كان أبو بكر - رضى الله عنه - يتمنى أن يقضى الحبيب ﷺ بنفسه وماله وبكل ما يملك... وهذا هو كمال الحب لرسول الله ﷺ.

* إن أبا بكر خرج مع رسول الله ﷺ وهو لا يريد الجاه ولا الوزارة وإنما خرج ابتغاء وجه الله... وهو يعلم يقيناً أن سيوف المشركين تنتظره بالخارج وعلى الرغم من ذلك خرج ليفوز بشرف الصحبة.

يقول عمر - رضى الله عنه -: ليلة من أبى بكر خيرٌ من آل عمر - يقصد ليلة الغار - .
فالهجرة حدث عظيم لا ينسى أبداً فهى لم تكن مجرد هروب من بلدٍ إلى بلدٍ آخر

(١) أخرجه البخارى (٢٠٧/٧) - ومسلم (١٠٩/٧).

(٢) فقه السيرة للفرزالي (ص: ١٩٠ - ١٩١).

(٣) رواه رزين عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وفيه: ثم انتفض عليه (أى رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته. انظر مشكاة المصابيح، باب مناقب أبى بكر (٥٥٦/٢).

وإنما كانت خطوة لإقامة دولة للمسلمين يمكن فيها لدين الله - جل وعلا -
فهنيئاً (لأبي بكر) هذا الشرف العظيم الذي ناله بصحبة النبي ﷺ في هجرته من مكة
إلى المدينة.

موقفه العظيم يوم بدر

لقد شهد أبو بكر - رضى الله عنه - مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وثبت معه ثباتاً لا
نظير له.

ففى يوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فتكلم أبو بكر - رضى الله عنه -
فأجاد، وكانت المعركة..

يقول (على) - رضى الله عنه -: أشجع الناس أبو بكر... إنه لما كان يوم بدر جعلنا
لرسول الله ﷺ حريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لثلاً يقوى إليه أحد من
المشركين، فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا
يهوى إليه أحد إلا هوى إليه^(١).

وعن ابن سيرين، أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يوم بدر مع المشركين!! فلما
أسلم قال لأبيه: لقد أهدفت - أشرفت - إلى يوم بدر، فأنصرفت عنك، ولم أقتلك، فقال
أبو بكر: «لكنك لو أهدفت لى لم أنصرف عنك»^(٢).

ففى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهم المبادئ
ففصلت بينهم السيوف، وفى عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم ومزقوا أغلى
الأواصر الإنسانية فى سبيل ما يعتقدون، فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه
الملحد، ويخاصمه فى ذات الله، والقتال الذى دار بـ«بدر» سجل صوراً من هذا النوع
الحاد: كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبى جهل^(٣).

وهذه صورة عالية من الولاء والبراء.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي

(١) مجمع الزوائد للهيتمي (٤٦ / ٩).

(٢) تاريخ الخلفاء (٣٦).

(٣) فقه السيرة للغزالي (ص ٢٦٧).

سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

جبريل وميكائيل - عليهما السلام - يقاتلان

مع أبي بكر وعلي - رضي الله عنهما -

عن أبي صالح الحنفي عن علي قال: قيل لعلي^(١) ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال أو قال: يشهد الصف^(٢).

الصديق - رضي الله عنه - من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ

عن عائشة - رضي الله عنها -: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢] قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً: كان فيهم أبو بكر والزبير^(٣).

ثباته - رضي الله عنه - في باقي المشاهد

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: وثبت أبو بكر - رضي الله عنه - ثبوت الجبال يوم أحد حول رسول الله ﷺ يدافع.

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني فزارة سنة سبع للهجرة بقيادة أبي بكر - رضي الله عنه - فوردت الماء، وغنمت، وسبت، وعادت سالمة.

(١) القائل هو رسول الله ﷺ كما هو واضح من رواية أبي يعلى والحاكم.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٤٧) والحاكم (٣/ ١٣٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه، وأشار الذهبي إلى أنه على شرط مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٧) - وأخرجه مسلم (٢٤١٨).

وفى غزوة تبوك ساعة العُسرة كانت راية المسلمين بيد أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - .

ويوم حُنين أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تُغنهم شيئاً ، وولوا مدبرين بعد أن كمن لهم أعداء الله فى شعاب الوادى، وكان أول من ثبت حول رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق - رضى الله عنه وأرضاه - (١).

وقوفه - رضى الله عنه - عند كتاب الله - عز وجل - .

لقد كان أبو بكر - رضى الله عنه - وقافاً عند كتاب الله - عز وجل - فلا يقدم شيئاً ولا يؤخره إلا إذا كان موافقاً لأمر الله - جل وعلا - .

فمن عائشة - رضى الله عنها - فى حادثة الإفك، وفيه قالت: فلما أنزل الله براءتى، قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وكان يتفق على مسطح ابن أثانة لقربته منه وفقره: : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى، والله إنى أحبُّ أن يغفر الله لى، فرجع إلى النفقة التى كان يتفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً (٢).

وعن ابن أبى مليكة قال: سئل أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - عن آية فى كتاب الله - عز وجل - قال: أى أرض تُقلنى، وأى سماء تظلنى وأين أذهب وكيف أصنع إذا أنا قلت فى آية من كتاب الله بغير ما أراد الله؟ (٣).

وعن ابن سيرين قال: «لم يكن أحداً أهيب بما لم يعلم من أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وإن أبا بكر نزلت به قضية، فلم يجد فى كتاب الله منها أصلاً، ولا فى السنة أثراً فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأى فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى، وأستغفر الله (٤).

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٦٩) ط. مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) أخرجه البخارى (٤٧٥٠) التفسير.

(٣) ذكره الحافظ فى (الفتح) (١٣/ ٢٧١) وقال: الأثر حسن.

(٤) الخبر فى مسند عبد بن حميد - وقال العدوى: وهو صحيح رجاله ثقات.

موافقته للحبيب ﷺ يوم الحديبية

وها هو الصديق - رضى الله عنه - فى موقف من أعظم المواقف التى كاد أصحاب النبى ﷺ أن يعترضوا فيه على بنود الصلح التى وضعها المشركون.

ولكن الصديق - رضى الله عنه - الذى كان من أكثر الناس تشبهاً بالحبيب ﷺ فى تفكيره وشفافية قلبه، بل وفى كلامه ينظر إلى الموقف ببصيرة عميقة وشفافية ليست لها حدود.

ففى الوقت الذى رأى فيه الصحابة - رضى الله عنهم - أن شروط قريش كانت جائرة، وأن موقف المسلمين - موقف ذلة - كان الصديق يرى هو والحبيب ﷺ أن الموقف - موقف عزة وقوة -.

وهنا قام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - معترضاً على هذا الموقف وعلى تلك الشروط الجائرة، فقال: قلت لرسول الله ﷺ: أأنت نبي الله حقاً؟

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على حق وعدونا على الباطل؟!

قال: «بلى».

قلت: فلم نعطي الدنيا فى ديننا إذا؟!

قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصرى».

قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟

قال: «بلى، فأخبرتكم أنا نأتية العام؟»

قلت: لا.

قال: «فإنك آتية ومطوفٌ به».

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم تعطى الدنية في ديننا إذا؟

قال: أيها الرجل، إنه رسول الله ﷺ ليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بفرزه (أي: اتبع قوله، وفعله، ولا تخالفه) فوالله إنه لعلى الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟

قال: بلى. أفأخبرك أنك آتية العام؟

قلت: لا. قال: فإنك آتية، ومطوف به^(١).

فيا لها من قلوب طاهرة تشابهت وتلاقت على الحب في الله (جل وعلا).

إن من تأمل في كلمات الصديق - رضى الله عنه - لوجد أنها هي نفس الكلمات التى قالها النبي ﷺ.

فيا لها من موافقة بين تلك الأرواح الطاهرة النقية التقية الصادقة.

إشارات الحبيب ﷺ لاستخلاف أبي بكر من بعده

عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتت امرأة للنبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت - قال ﷺ: «إن لم تجدني فأتى أبا بكر»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: والاستدلال بأن هذا الحديث يدل على أن أبا بكر هو الخليفة بعد النبي ﷺ صحيح، لكن بطريق الإشارة لا التصريح، ولا يعارض جزم عمر بأن النبي ﷺ لم يستخلف؛ لأن مراده نفى النص على ذلك صريحاً، والله أعلم. قال الكرمانى: يُستدل بهذا الحديث على خلافة أبي بكر اهـ^(٣).

وقال الإمام النووي: مات رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحداً بنص صريح، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة لأبي بكر وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولذكر حافظ النص ما معه، ولرجعوا إليه، لكن تنازعوا أولاً، ولم يكن هناك نص،

(١) أخرجه البخارى (٢٧٣١) كتاب الشروط - باب الشروط في الحرب.

(٢) أخرجه البخارى (٧٢١٧) الأحكام / باب الاستخلاف - ومسلم (٢٣٨٦) فضائل الصحابة.

(٣) فتح البارى (١٣ / ٣٤٥).

ثم اتفقوا على أبي بكر، واستقر الأمر. اهـ^(١).

وعن عبد الله بن زمعة - رضى الله عنه - قال: لما استعز^(٢) بالنبي ﷺ - وأنا عنده في نفر من المسلمين - دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «مروا من يصلى بالناس» قال: فخرج عبد الله بن زمعة فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: يا عمر قم فصل بالناس، فتقدم فكبر، فلما سمع النبي ﷺ صوته - وكان عمر رجلاً مجهرًا - قال: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون» فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس^(٣).

وعن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - قال: مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلى بالناس؟

وفى رواية: قالت عائشة عندما قال ﷺ: «مروا أبا بكر يصلى بالناس» قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام فى مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس، فقالت عائشة: فقلت لحفصة، قولى له: إن أبا بكر إذا قام من مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «مه، لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»^(٤).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال لى رسول الله ﷺ فى مرضه: «ادعى لى أبا بكر، وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإنى أخاف أن يتمنى متمنٌ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»^(٥).

وعن ابن أبى مليكة قال: سمعت عائشة، وسئلت: من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه؟

قالت: أبو بكر، فقليل لها: ثم من بعد أبى بكر؟ قالت: عمر^(٦).

(١) مسلم بشرح النووي (١٥ / ١٢٢٠) ط. مؤسسة قرطبة.

(٢) «استعز» بالمرض: إذا غلب على نفسه من شدة المرض، وأصله العزة، وهى الغلبة والاستيلاء على الشيء.

(٣) رواه أبو داود رقم (٤٦٦٠، ٤٦٦١) فى السنة، باب استخلاف أبى بكر - رضى الله عنه -، وحسنه الأرنؤوط، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (٣٨٩٥).

(٤) أخرجه البخارى (٦٧٩) الأذان - ومسلم (٤١٨) الصلاة.

(٥) أخرجه البخارى (٧٢١٧) الأحكام باب الاستخلاف - ومسلم (٢٣٨٧) فضائل الصحابة.

(٦) أخرجه مسلم (٢٣٨٥) فضائل الصحابة - باب من فضائل أبى بكر الصديق - رضى الله عنه -

وعن حذيفة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أدري ما بقائي فيكم! فاقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(١).

ومن بين تلك الإشارات أن رسول الله ﷺ صلى خلف أبي بكر في مرضه الذي مات فيه.

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «صلى رسول الله ﷺ خلف أبي بكر قاعداً في مرضه الذي مات فيه»^(٢).

ثبات الصديق عند وفاة الحبيب ﷺ

إن الأحداث العظيمة يسبقها من الإرهاصات والعلامات التي تشير إلى قرب وقوعها، وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى في السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفي السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقر بالإسلام أو تعطى الجزية عن يد وهم صاغرون، وأرهب جيش العسرة الذي خرج به النبي ﷺ جحافل الروم حتى فروا من مواجهته، ودانت جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبي ﷺ المتواصل وصحابته الكرام - رضى الله عنهم - فكل العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ، فقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فكان النبي ﷺ يُعرض بقرب أجله:

فمن ذلك ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري، فبكي معاذ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»^(٣).

ومن ذلك أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا في رمضان، فاعتكف في السنة الأخيرة عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة في رمضان فعارضه في السنة الأخيرة مرتين.

(١) رواه الترمذى رقم (٣٦٦٣، ٣٦٦٤) في المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق، وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وهو في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٣٣).

(٢) رواه أحمد (٦ / ١٥٩) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح - ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد عن معاذ، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٠١٢).

وخرج النبي ﷺ للحج في السنة العاشرة، وقال: «خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وطفق يودع الناس» (١).

ونزل عليه بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومن هذه الإشارات القوية ما رواه أبو سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال: خطب النبي ﷺ وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله» قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير... فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا... (٢).

وتروى لنا أمنا عائشة - رضى الله عنها - كيف بدأت شكوى رسول الله ﷺ قالت: رجع النبي ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع فوجدني، وأنا أجعد صداعاً وأنا أقول: واراأساه، قال: «بل أنا يا عائشة واراأساه» قال: «وما ضرك لو مت قبلى فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك»، فقلت: كأنى بك والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فعرست فيه ببعض نسائك.

قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ثم بدى في وجهه الذى مات فيه» (٣).

اللحظات الأخيرة من حياة الحبيب ﷺ

عن أنس - رضى الله عنه -: «أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين وأبو بكر يصلى بهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف الستر من حجرة عائشة، فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر» (٤).

فانظر إلى أدب الصديق كيف أورثه مقامه، والإمامة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه

(١) رواه مسلم (٨ / ١٧٢ - ١٩٤) الحج.

(٢) رواه أحمد (٣ / ١٨) وابن أبي شيبة (١٢ / ٦) وهو في الصحيحين من طرق أخرى.

(٣) رواه ابن ماجه (١٤٦٥) الجناز، وحسنه الألبانى في صحيح ابن ماجه (١١٩٧).

(٤) أخرجه البخارى (٤٤٤٨) المغازى - باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

- وقد أوماً إليه أن اثبت في مكانك - جَمْزاً، وسعيًا إلى قُدَّام.

فبكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قُدَّام تنقطع فيها أعناق المطى. والله أعلم^(١).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: دخل على عبد الرحمن وبيده سواك، وأنا مُسندة رسول الله ﷺ فرأيتَه ينظر إليه: وعرفت أنه يحب السواك. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فتناولته، فاشتد عليه، قلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فليَّته، فأمره وبين يديه ركوة أو علبه فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ﷺ ومالت يده^(٢).

وكان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى».

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل تنعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب^(٣).

تقول عائشة: «مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري وأنا مسندته إلى صدرى، فرأيتَه رفع يده أو أصبعه ثم قال: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى» فعلمت أنه لا يختارنا^(٤).

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضواء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا^(٥).

وقال الحافظ ابن رجب - رحمه الله -: لما توفي ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهِش فحولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه^(٦).

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٧٤٥) المغازي.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٧٥٥) المغازي - وابن ماجه (١٦٣٠) الجنائز.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٦٣) المغازي - باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ.

(٥) رواه الترمذي (١٣/ ١٠٤) المناقب - وصححه الألباني في مختصر الشمائل.

(٦) لطائف المعارف (١١٣ - ١١٤) باختصار.

موقف الصديق - رضى الله عنه -

من شاء أن يرى يقين أبى بكر فى أحفل ساعاته، من شاء أن يرى اليقين العلوى الموصول بقيوم السموات والأرض، فليَرَ هذا اليقين يوم دُعِيَ الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء، يومئذ تكشف هذا الجوهر... يقين لا يضعف بل يتفوق، ولا يجزع بل يحتشد، ولا ينوء تحت وقع الضربة، بل ينهض أيّداً رشيداً ثابتاً ليحمل مسئولياته وتبعاته!!

وقف يقين أبى بكر يوم وفاة الرسول ﷺ وقفة ما كان يقدر عليها سواه.

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: إن رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسُّنح - قال إسماعيل: تعنى بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك، وليبعثه الله فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله فقال: بأبى أنت طبت حياً وميتاً، والذي نفسى بيده لا يذيقك الله الموتين أبداً، ثم خرج، فقال: أيها الخالف على رسلك - يقصد عمر - فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فنشج^(١) الناس يكون^(٢).

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. وأن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تُقلنى رجلاى، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبى ﷺ قد مات^(٣).

(١) فنشج الناس: أى بكوا بغير انتخاب، والنشج ما يعرض فى حلق الباكي من الغصة، وقيل: هو صوت معه توجع، كما يردد الصبى بكاءه فى صدره.

(٢) أخرجه البخارى رقم (٣٦٦٧، ٣٦٦٨) فى فضائل الصحابة، باب قول النبى ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً».

(٣) أخرجه البخارى رقم (٤٤٥٤) فى المنازى، باب مرض النبى ﷺ ووفاته.

وهكذا كان يقين أبي بكر يُشبه عين الصقر، يقع في أقلّ من لمح البصر على كلمة السر التي ستردّ الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة، إلى وعي قدير يستقبل تبعاته الجسام، ويعبرُ أزمة الموت بسلام!!

إذن يا خيلَ الله اركبى... ويا راية الله ارتفعى.. ويا حملة هذه الراية قوموا... انهضوا... واصلوا رحلة الشمس المشرقة.

لقد فعل يقين أبي بكر في الصحابة ما فعل واستقبلوا الأمر بالعزم الأيّد^(١).

مبايعته بالخلافة - رضى الله عنه -

وبعد وفاة الحبيب ﷺ كادت أن تحدث فتنة عظيمة بين المهاجرين والأنصار على أمر الخلافة - مع أننا على يقين تام بأن أصحاب الحبيب ﷺ كانوا لا يتغنون بعملهم إلا وجه الله تعالى -

ومما حدث في يوم سقيفة بني ساعدة أنه اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت ألا يبلغه أبو بكر... ثم تكلم أبو بكر (فتكلم أبلغ الناس) فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: والله لا نفعل. منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا، ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء. هم أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعد بن عباد، فقال عمر: قتله الله^(٢).

وعن عبد الله قال: لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير فأتاهم عمر فقال: أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يصلى بالناس فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر، فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر^(٣).

وعن ابن عباس قال: قال عمر: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتقدم قوماً

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٨٩ - ٩٠) بتصرف.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٦٧) عن عائشة - رضى الله عنها -

(٣) رواه النسائى (٢/ ٧٤، ٧٥)، وأحمد (١/ ٢١)، والحاكم (٣/ ٦٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

فيهم أبو بكر (١).

وعن أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد. جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهدته إلى رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا - يقول: يكون آخرنا - وإن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه (٢).

دستور عظيم لحكام المسلمين

خطبة أبي بكر - رضي الله عنه - بعد أن ولي الخلافة

ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، فإنني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أريح (٣) عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله (٤).

من بديع خطبه ومواعظه - رضي الله عنه -

عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، فقال: «أما بعد: فإنني أوصيكم بتقوى الله وأن تشوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(١) السيرة النبوية لابن هشام - وقال ابن كثير في البداية: إسناده صحيح.

(٢) السيرة لابن هشام (٤ / ٢٨٥).

(٣) أريح: أراحه: أرجعه حقه.

(٤) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٥ / ٢٤٨) (٦ / ٣٠١) وقال: إسناده صحيح.

اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك موثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، فصدقوا قوله، وانتصحووا كتابه، واستضيئوا منه ليوم القيامة، وإنما خلقكم لعبادته، ووكلكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل آجالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم، **الْوَحَا الْوَحَا**^(١)، النجاء النجاء، إن وراءكم طالباً حثيثاً أمره سريع^(٢).

وخطب الصديق في المسلمين فقال: «أيها الناس، استحيوا من الله؟ فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط، إلا وأنا مُقنَّع رأسي حياءً من الله»^(٣).

صور مشرقة من تواضعه - رضى الله عنه -

أورد ابن الأثير بسنده في أسد الغابة: عن أبي صالح الغفاري: أن عمر بن الخطاب كان يتعاهد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فيستقي لها، ويقوم بأمورها، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة كلاً يسبق إليها، فرصده عمر فإذا هو بأبي بكر الصديق الذي يأتيها، وهو يومئذ خليفة. فقال عمر: أنت هو لعمرى!!

وكان - رضى الله عنه - يحلب للحى أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة، قالت جارية من الحى: الآن لا تحلب لنا منائح (أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمرى لأحلبنَّها لكم، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلُق كنت عليه، فكان يحلب لهم، فربما قال للجارية من الحى: يا جارية أتحبين أن أرغى لك أو أصرِّح؟ فربما قالت: أرغ، وربما قالت: صرِّح، فأى ذلك قالت فعل^(٤).

(١) الوَحَا: أى السرعة.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٠٦ - ١٠٧).

(٣) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (ص ٢٠).

(٤) أسد الغابة (٣/ ٣٢٥، ٣٢٦) وقال ابن كثير: هذا سياق حسن، وله شواهد من وجوه آخر، ومثل هذا تقبله النفوس وتلقاه بالقبول (كذا في الكنز: ١٤٠٧٧).

وعن سعيد بن المسيب: أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما بعث الجنود نحو الشام أمر يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ولما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودّعهم حتى بلغ ثنية الوداع، فقالوا: يا خليفة رسول الله، تمشى ونحن رُكبان؟! فقال: إني أحسب خطاي هذه في سبيل الله^(١).

صحة مشرقته من صدقه - رضى الله عنه -

وها هي صورة مشرقة من العدل نهديها لكل من ولى من أمر المسلمين شيئاً صغيراً كان أو كبيراً.

ومن عدل الصديق: أنه سوى بين رعيته في العطاء وقسمة المال، واعتبر أن سابقة بعضهم في الخيرات إنما يثاب عليها في الدار الآخرة.

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «قسم أبى أول عام الفىء، فأعطى الحرّ عشرة، وأعطى المملوك عشرة، والمرأة عشرة، وأمتها عشرة، ثم قسم فى العام الثانى، فأعطاهم عشرين عشرين»^(٢).

وقال سهل بن أبى حثمة - رضى الله عنه -: قدم مال فى خلافة الصديق، فكان أبو بكر يقسمه على الناس نُقراً نُقراً؛ فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا، وكان سوى بين الناس فى القسم، الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء»^(٣).

لله در أبى بكر من إمام عظيم متفوق لم تفلت منه مزية، ولم تغب عنه فضيلة، يقول هذه الكلمات المعجزات فى مستهل حكمه، ينطق كل حرف منها بالحكمة والقسطاس.

لله دره كم كان ولاؤه لتطبيق هدى نبيه ﷺ حرفياً حتى فى الظروف التى تجيش فيها العواطف وهو أرق الناس أفئدة.

لقد كُتب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امتحن فيها ولاؤه للعدل وهدى نبيه امتحاناً عظيماً، حين ذهبت إليه فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تسأله قطعة أرض باعتبارها ميراث أبيها ﷺ، فقال لها أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن

(١) أخرجه البيهقى (٩/ ٨٥) وكذا ابن عساکر.

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٣) فى الطبقات.

(٣) إسناده حسن لغيره: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢١٢ - ٢١٣) ورواه عن غير سهل.

معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»^(١)، إني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ، وهو يعلم أن أولى الناس بالرعاية بنت حبه ورسوله ﷺ. فله دره وهو يحمل إيمان العباقرة لا تشبهه عن عدله أرقّ الوشائج^(٢).

ورع يعجز القلم عن وصفه

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان لأبي بكر غلامٌ يخرجُ له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجهِ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدرى ما هذا؟ فقال أبو بكر: ما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه؟ فأدخل أبو بكر يده فقَاء كل شيء في بطنه^(٣).

وعن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: كان لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - مملوك يغل عليه، فأثاه ليلة بطعام، فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: مالك كنت تسألني كل ليلة، ولم تسألني الليلة؟

قال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟

قال: مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم، فوعدوني فلما كان اليوم، مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني.

قال: إنك كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج - يعني اللقمة -.

فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء، فجعل يشرب، ويتقيأ حتى رمى بها.

فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة.

قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها^(٤).

(١) إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٨ / ٣٦٤)، وأصله في البخاري (٣٠٩٢، ٣٠٩٣).

(٢) نقلاً من ترطيب الأفواه / د. سيد حسين (١ / ١١٠ - ١١١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤٢) مناقب الأنصار - باب أيام الجاهلية.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١ / ٣١).

رقعة قلبيه ويكاؤ: - رضى الله عنه -

عن أنس قال: قال أبو بكر - رضى الله عنه - بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، فقالت: ما أبكى أن أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكى أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء فجعلتا يبكيان معها (١).

وعن عائشة - رضى الله عنها - فى حديث الهجرة الطويل، وفيه: ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يُصلى فيه ويقرأ القرآن فيتقذف عليه نساء المشركين وأبنائهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن (٢).

وهذه - رضى الله عنه - فى الدنيا وزينتها الثانية

عن زيد بن أرقم، أن أبا بكر استسقى، فأتى بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فيه - فمه - بكى، وأبكى من حوله، فسكت وما سكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدرُوا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق، فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنتُ مع النبى ﷺ، وجعل يدفع عنه شيئاً، ويقول: «إليك عنى، إليك عنى» ولم أرَ معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، أراك تدفع عنك شيئاً، ولا أرى معك أحداً؟ قال: «هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها، فقلت لها: إليك عنى، فتنحت وقالت: أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى من بعدك» فخشيت أن تكون قد لحقتنى، فذاك الذى أبكاني (٣).

يهيات جيشتى أسامة - رضى الله عنه -

لقد ارتد بعد وفاة النبى ﷺ الكثير من قبائل العرب، بل وأصبح الصحابة - رضى الله عنهم - كما وصفهم عمار بن ياسر - رضى الله عنه -: كغنم بلا راعٍ، وصارت المدينة المنورة - على حسب تعبيره - أضيق على أهلها من الخاتم.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) فضائل الصحابة - باب فضل أم أيمن.

(٢) أخرجه البخارى (٣٩٠٥) مناقب الأنصار - باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(٣) رواه الحاكم والبزار وقال العراقي: إسناده جيد.

فبدأ الصديق - رضى الله عنه - خلافته المباركة بإنفاذ جيش أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - الذى أمر به النبى ﷺ قبل موته لتأديب قبائل قضاة لموالاتهم للروم ضد جيش المسلمين.

قال ابن كثير - رحمه الله -: فصل فى تنفيذ جيش أسامة بن زيد، الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام، حيث قُتل زيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، فغيروا على تلك الأراضى، فخرجوا إلى الجرف، فخيّموا بها، وكان بينهم عمر بن الخطاب، ويقال: وأبو بكر الصديق، فاستنّاه رسول الله ﷺ منهم للصلاة، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك، فلما مات عظم الخطب، واشتد الحال، ونجم النفاق بالمدينة، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق، ولم يبق للجمعة مقام فى بلد سوى مكة والمدينة، وكانت (جويثًا) من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما فى صحيح البخارى عن ابن عباس، وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام، ولم يفروا ولا ارتدوا.

والمقصود أنه لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة، لاحتياجه إليه فيما هو أهم؛ لأن ما جهز بسببه فى حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أحلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة، وأمر الحرس يكونون حول المدينة، فكان خروجه فى ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحى من أحياء العرب إلا أربوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة، فقاموا أربعين يومًا ويقال: سبعين يومًا، ثم أتوا سالمين غانمين ثم رجعوا فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ومانعى الزكاة^(١).

ثم خرج أبو بكر حتى أتى الجيش فأشخصهم وشيّعهم، وهو ماشٍ، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر.

فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن.

(١) البداية والنهاية (٦ / ٣٠٨) لابن كثير، ط. دار الكتب العلمية.

فقال : والله لا تنزل ، والله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، فإن للغازی بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له، وسبعمائة درجة تُرفع له، وتُرفع عنه سبعمائة خطيئة، حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر، فافعل، فأذن له.

ووقف الصديق - رضي الله عنه - يزود الجيش بخير الزاد، ويرسم له دستور الحرب الذي ما عرف التاريخ أعدل، ولا أظهر، ولا أشرف منه في غير الإسلام ووقف يقول لهم:

أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لماكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

وانطلق جيش أسامة في أمان الله تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلحقوا الروم، فإن انتصر الروم فقد كفونا القتال، وإن انتصر أسامة فقد ثبت الإسلام، وانتصر جيش أسامة بفضل الله فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام^(١).

فتلك هي رحمة الإسلام بالكفار والمشركين حتى في الحروب التي لا تخضع لقوانين الإيمان والأخلاق.

إنها صورة نهديها لكل من يقول: إن الإسلام لم ينتشر إلا بالعنف والإرهاب!!!.

«وقف الصديق - رضي الله عنه - في حروب المرتدين

قال الإمام الذهبي: «لما اشتهرت وفاة النبي - عليه الصلاة والسلام - بالنواحي، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام، ومنعوا الزكاة، فنهض أبو بكر لقتالهم، فأشار عليه (عمر) وغيره أن يفتر عن قتالهم، فقال: والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه

(١) البداية والنهاية (٦ / ٣٣٦) بتصرف - نقلاً من أئمة الهدى للشيخ محمد حسان وعوض الجزار - ط. دار

إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه.

وهنا قال عمر بن الخطاب لأبي بكر - رضى الله عنهما -: كيف تقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقها، وحسابه على الله»؟.

فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقاً^(١)، وفى رواية عقلاً^(٢) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق^(٣). وكان مما قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: يا خليفة رسول الله ﷺ! تألف الناس وارفق بهم.

فأجابه أبو بكر: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك، أجبار في الجاهلية، وخوَار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أو ينقص وأنا حي؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: «إلا بحقها»؟ ومن حقها إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى^(٤).

فكان موقفاً مباركاً مؤيداً من الله تبارك وتعالى.. وقبض الله عز وجل لهذا الدين رجلاً مباركاً هو الصديق..

ثبت ثباتاً عظيماً في هذه الفتنة العظيمة، تمثلت فيه عظمة هذا الرجل من إيمان ويقين وفهم عميق لهذا الدين.. فأيده الله بنصر من عنده..

فما من ناحية من جزيرة العرب إلا وحصل في أهلها ردة لبعض الناس فبعث الصديق إليهم جيوشاً وأمراء يكونون عوناً لمن في تلك الناحية من المؤمنين، فلا يتواجه المشركون والمؤمنون في موطن من تلك المواطن إلا غلب جيش الصديق من هناك من المرتدين، ولله الحمد والمنة... وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغنموا مغانم كثيرة فيتقوون

(١) العناق: الأنثى من ولد المعز.

(٢) العقال: هو الحبل الذى يعقل به البعير.

(٣) رواه البخارى رقم (٧٢٨٤، ٨٢٨٥) فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، ومسلم رقم (٣٢) فى الإيمان.

(٤) التاريخ الإسلامى / لمحمود شاكر (٣ / ٦٨).

بذلك على مَنْ هناك، يبعثون بأخماس ما يغنمون إلى الصديق فينفقه في الناس، فيحصل لهم قوة أيضاً ويستعدون بها على قتال من يريدون قتالهم من الأعاجم والروم، ولم تنم لصديق الأمة عين حتى أرسل الجيوش الإسلامية يميناً وشمالاً لتمهيد قواعد الإسلام، وقاتل الطغاة من الأنام حتى رد شارد الدين بعد ذهابه، ورجع الحق إلى نصابه، وتمهدت جزيرة العرب، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى.

وتوالت الانتصارات والفتوحات بفضل من الله رب الأرض والسموات، وتم القضاء على المرتدين، ودوخت جيوش المسلمين الفرس والروم، وأظهرت قوتهم وإمكاناتهم القتالية.

الصديق - رضي الله عنه - أول من جمع القرآن الكريم

جهز أبو بكر - رضي الله عنه - جيشاً بقيادة خالد بن الوليد في جمع كثير من الصحابة لمحاربة (مسيلمة الكذاب) عليه من الله ما يستحقه، فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله، وقتله... وقُتل في غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة من حملة القرآن، قيل: سبعمائة، وقيل: أكثر وذلك في موقعة اليمامة، فبدأ التفكير في جمع القرآن قبل أن يُقتل الباكون.

ولنستمع القصة من كاتب وحى رسول الله ﷺ زيد بن ثابت - رضي الله عنه - (١). يقول زيد: أرسل إلى أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة (أي عقب مقتل اليمامة)، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنني أخشى إن استحرّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر: كيف فعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟!

قال عمر: هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

وفي رواية: يقول زيد: فقال لي أبو بكر: «إن هذا دعاني إلى أمر، وأنت كاتب الوحي

(١) أئمة الهدى ومصابيح الدجى (ص ٢٠٣: ٢٠٥) للشيخ محمد حسان وعوض الجزار.

فإن تك معه اتبعكما، وإن توافقني لا أفعل» فاقترضى قول عمر فنفرت من ذلك^(١)، فقال عمر كلمة: وما عليكما لو فعلتما؟ قال: فنظرنا فقلنا: لا شئ والله ما علينا.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمع.

فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير.

لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فتتبع القرآن أجمعه من العُسْبِ^(٢) واللُّخَافِ^(٣)، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة.

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته - أى طوال حياته - ثم عند حفصة بنت عمر - رضى الله عنهما -^(٤).

استخلفه لعمر - رضى الله عنه -

ولما دنا أجل الصديق - رضى الله عنه - وقد أكرمه الله - عز وجل - بالقضاء على فتنة المرتدين وكثرت الفتوحات الإسلامية فى عهده وساق الله على يديه الخير الكثير للإسلام والمسلمين.. فأحس أنه من الأفضل أن يستخلف رجلاً من بعده يكمل مسيرة الإصلاح ونشر الدعوة ويأخذ بأيدي الناس إلى جنة الرحمن - جل وعلا -

ولا شك أن اختيار هذا الرجل قبل وفاة الصديق - رضى الله عنه - سيجنب المسلمين

(١) قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولاً، ثم زيد بن ثابت ثانياً؛ لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ﷺ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشية أن يتغير الحال فى المستقبل إذا لم يجمع القرآن، فبصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة، رجعا إليه فتح... البارى (٨/ ٦٣٠).

(٢) العُسْب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض.

(٣) اللُّخَاف: قيل: هى الحجارة الرقاق، وقيل: هى صحائف الحجارة الرقاق.

(٤) رواه البخارى رقم (٤٩٨٦) فى «فضائل القرآن» باب جمع القرآن، والترمذى فى التفسير، والنسائى (٥/

محنة الاختلاف على الخليفة القادم.

ولقد كان الصديق - رضى الله عنه - يخشى أن يموت فيتورع عن هذا المنصب من هو أحق الناس به لزهده وورعه، ومن ثم فقد يتولى هذا المنصب من لا يستحقه فيكون بذلك قد ضيع الأمانة.

فرأى الصديق - رضى الله عنه - أنه لا بد من استخلاف رجل من بعده وبدأ بالفعل يسأل الصحابة عن رأيهم فى عمر - رضى الله عنه - فأجمع الصحابة على أنه أحق الناس بالخلافة سوى أن هناك من خشى أن يغلف عمر - رضى الله عنه - على رعيته. ولم يدر هذا الصحابى الجليل أن عمر - رضى الله عنه - إنما كان يغلف أحياناً إذا خشى أن يتجرأ رجل على شخص رسول الله ﷺ أو على خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق - رضى الله عنه -.

وهنا جاء القرار الحاسم من الصديق - رضى الله عنه - فدعا عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وقال: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب.... إني استخلفت عليكم. ثم غشى عليه.

فكتب عثمان: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب.

فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ على، فقرأ عليه، فكبر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى غشيتى.

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله.

وأقرها أبو بكر - رضى الله عنه - وأمره أن يخرج على الناس بالكتاب فبايعوه لمن فيه قد علموا أنه عمر^(١).

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٤٨، ١٤٩) بسند فيه الواقدي، و«تاريخ الطبرى» (٢/ ٣٥٢) من طريق الواقدي أيضاً، و«المنتظم» (٤/ ١٢٥، ١٢٦) وعند البيهقي (٨/ ١٤٩) بإسناد حسن.

وصيته الفاتية لعمر - رضي الله عنه - .

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط، قال: لما حضر أبا بكر الصديق الموت، دعا عمر، فقال له: «اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتي، فلا يك غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتي فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، ولست تعجزه» (١).

أفرس الناس ثلاثة !!!

يقول ابن مسعود - رضي الله عنه -: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر بن الخطاب فاستخلفه وصاحبه موسى التي قالت: «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين»، قال: وما رأيت من قوته؟
قالت: جاء إلى البئر وعليه صخرة لا يقلها كذا وكذا فرفعها.
قال: وما رأيت من أمانته؟ قالت: كنت أمشي أمامه، فجعلني خلفه، والعزير حين تفرس في يوسف ﷺ فقال لامرأته:
﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] (٢).

(١) الحلية لأبي نعيم (١/ ٣٦، ٣٧) صفة الصفوة (١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٧٥) في مصنفه، والحاكم (٣/ ٩٠)، وصححه وأقره الذهبي.

وحن وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالحب والبذل والتضحية والفداء والعدل والإيثار.

نام خليفة رسول الله ﷺ على فراش الموت ليلحق بحبيبه وصاحبه رسول الله ﷺ في جنة الرحمن - جل وعلا - إخواناً على سرر متقابلين.

عن عائشة - رضي الله عنها -: أول ما بُدئ مرض أبي بكر أنه اغتسل، وكان يوماً بارداً فحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه.

وعن عائشة قالت: لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه قال: انظروا ماذا زاد في مالي منذ دخلت في الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدى. فنظرنا فإذا عبدٌ نوبى كان يحمل صبيانته، وإذا ناضح^(١) كان يسقى بستاناً له. فبعثنا بهما إلى عمر. قالت: فأخبرني جدي أن عمر بكى وقال: رحمة الله على أبي بكر لقد أتعب من بعده تعباً شديداً^(٢).

وقالت عائشة - رضي الله عنها -: لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، دخلت عليه وهو يعالج ما يعالج الميت ونفسه في صدره فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فنظر إلى كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن قول الله أصدق:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

ثم قال: يا عائشة: إنه ليس أحداً من أهلى أحب إلى منك، وقد كنت نحلتك حائطاً، وإن في نفسى منه شيئاً فردّيه إلى الميراث.

قالت: نعم فرددته.

وقال - رضي الله عنه -: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكننا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خيش ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فئء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئى منهن ففعلت، فلما جاء

(١) الناضح: هو البعير الذي يستقى عليه.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٠٨).

الرسولُ (عمر) بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض ، ويقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده (١).

وقال - رضى الله عنه - لما حضرته الوفاة: إن عمر لم يدعنى حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطى الذى بمكان كذا فيها، فلما توفى ذكر ذلك لعمر فقال: يرحم الله أبا بكر، لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالاً (٢).

واستمر مرض أبى بكر مدة خمسة عشر يوماً حتى كان يوم الإثنين ليلة الثلاثاء فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، قالت عائشة - رضى الله عنها - : إن أبا بكر قال لها: فى أى يوم مات رسول الله ﷺ ؟ قالت: فى يوم الإثنين، قال: ما شاء إنى لأرجو فيما بينى وبين الليل، قال: فقيم كفتموه؟

قالت: فى ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص، ولا عمامة. فقال أبو بكر: انظري ثوبى هذا فيه ردع زعفران أو مشق فاغسله واجعلى معه ثوبين آخرين.

فقالت عائشة: يا أبت هذا خلقٌ - قديم - فقال: إن الحى أحق بالجديد، وإنما هو للمهلة (٣). يعنى فترة القبر.

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أى يوم هذا؟ قالوا: يوم الإثنين، قال: فإن مت من ليلتى فلا تنتظروا بى الغد، فإن أحب الأيام والليالى إلى أقربها من رسول الله ﷺ (٤).

وتوفى - رحمه الله - وهو ابن ثلاث وستين سنة... مُجمعٌ على ذلك فى الروايات كلها، استوفى سن رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وُلد بعد الفيل بثلاث سنين - رضى الله عنه - وغسلته زوجته أسماء بنت عميس، وكان قد أوصى بذلك (٥)، ودُفن بجانب رسول الله ﷺ حسب وصيته، وصلى عليه خليفته عمر ابن الخطاب.

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٤٦، ١٤٧)، ورجاله ثقات.

(٢) المنتظم (٤/ ١٢٧) عن ابن سعد، ورجاله ثقات.

(٣) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٥٠)، ورجاله ثقات.

(٤) رواه الإمام أحمد فى المسند رقم (٤٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٥) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤) وإسناده صحيح.

ونزل قبره عمر، وعثمان، وطلحة، وابنه عبد الرحمن، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ﷺ، وألصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ.

كلمة خالدة قالها (عليه) بعد موت (الصديق)

«رضى الله عنهما»

عن أسيد بن صفوان: قال: لما قبض أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وسُجِّي عليه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله ﷺ.

قال: فجاء على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ووقف على البيت الذى فيه أبو بكر فقال: رحمك الله يا أبا بكر.. كنت إلف رسول الله ﷺ وأنيسه ومستراحه وثقتة وموضع سره ومشاورته، وكنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدّهم لله يقينًا، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء فى دين الله عز وجل، وأحوطهم على رسول الله ﷺ، وأحديهم على الإسلام، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله ﷺ هديًا وسميًا، وأشرفهم منزلة، وأرفعهم عنده، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام أفضل الجزاء. صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سماك الله فى تنزيله صديقًا فقال: ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣].

واسيته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة، ثانى اثنين صاحبه فى الغار، والمنزل عليه السكينة، ورفيقه فى الهجرة، وخليفته فى دين الله وأمته، أحسن الخلافة حين ارتدوا، فقامت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي، ونهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ إذ وهنوا.

وكنت كما قال رسول الله ضعيفًا فى بدنك قويًا فى أمر الله تعالى، متواضعًا فى نفسك عظيمًا عند الله تعالى، جليلًا فى أعين الناس كبيرًا فى أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمز، ولا لقائل فيك مهمز، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الدليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ بحقه القريب والبعيد عندك فى ذلك سواء، وأقرب الناس عندك أطوعهم لله عز وجل وأتقاهم... شأنك الحق والصدق والرفق قولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، اعتدل بك الدين وقوى بك الإيمان وظهر أمر

الله، فسبقت - والله - سبقاً بعيداً، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت بالخير فوزاً مبيناً، فإننا لله وإنا إليه راجعون رضيانا عن الله عز وجل قضاءه وسلمنا له أمره، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً، كنت للدين عزاً، وحرزاً وكهفاً فألحقك الله عز وجل بنبيك محمد ﷺ، ولا حرماً أجرك، ولا أضلماً بعدك، فسكت الناس حتى قضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا: صدقت^(١).

وعن عمر - رضي الله عنه - قال: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم ليتنى شعرة في صدر أبي بكر^(٢).

فرضى الله عن أبي بكر وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٤٧٧ - ٤٧٩).

(٢) المطالب العالية (٤٢٩٢) والخبر في زيادات مسند مسدد ورجاله ثقات.

عمر بن الخطاب

لو كان من بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب

صلى الله عليه وسلم

وهذا الفاروق، الذي تطيب المجالس بذكره، يصدق فيه: أن من خاف الله أخاف الله منه كل شيء.... والجزاء من جنس العمل.
فقد كان يسمع القرآن فيغشى عليه فيحمل صريعاً إلى منزله، فيعاد أياماً، ليس به مرض إلا الخوف.

وقد بلغ من خوفه أن حفرت الدموع خطين أسودين في وجهه من كثرة بكائه^(١).
إنه من أظهر إسلامه يوم كانوا يخفونه.

إنه مرقع القميص وبين يديه الغالي والنفيس.

إنه من يسلك الشيطان فجاً غير فجّه.

إنه الوقاف عند كتاب الله.. إنه المجاهد في سبيل الله.

إنه القيم والمثل بعينها.. وما أروع المثل يوم تكون رجالاً فتكون الأخلاق فعلاً.

إنه العادل إن ذكر العادلون.

هو من سهر لينام الناس.. وجاع ليشبع الناس.

هو من جعل كبير المسلمين أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرهم ولداً.. فوقر أباه وأحب أخاه ورحم ولده.

هو من لا تأخذه في الله لومة لائم.

هو قائل الحق ولو كان مرأً.

إنه من اشترى أعراض المسلمين من أحد الشعراء بثلاثة آلاف درهم حتى قال ذلك

الشاعر:

(١) الجزء من جنس العمل / د. سيد حسين (٢ / ١٧).

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع
ومنعني عرض البخيل فلم يخف
شتمًا يضر ولا مديحًا ينفع
شتمى وأصبح آمنًا لا يفزع

إنه (فاروق الأمة) الذي زلزل عروش الظالمين... ودك قلاع الأكاسرة والقياصرة،
وخضعت لعدالته الجبابرة والأباطرة وهوت عناكب الظلم أمام رايات عدله الخفاقة
وفتوحاته المظفرة.. فأرغم أنوف الروم وحطم كبرياء الفرس وأخرج المغضوب عليهم
(اليهود) من جزيرة العرب.

أخرجهم أذلة صاغرين.

إنه الزاهد العالم... العابد الغيور.. الخائف من الله.

إنه عمر بن الخطاب.. نور أضاء سطور التاريخ..

غرة في جبين الزمان.. أمة في رجل.. إمام همام.. مميت الفتن ومحيي السنن^(١).

من هو (عمر بن الخطاب) -رضي الله عنه-

إنه الرجل الكبير في بساطة... البسيط في قوة... القوى في عدل ورحمة.

إنه الرجل الذي أنجبتة أرض الجزيرة، ورباه الإسلام.

إنه الناسك الورع الذي تفجر نسكه حركة، وذكاء، وعملاً وبناءً.

إنه الأستاذ المعلم الذي صحح كثيراً من مفاهيم الحياة، وكساها عظمة وروعة من
خلقه وسلوكه، وكان للمتقين إماماً.

إنه الرجل الذي أعطى دنيا الناس كافة قدوة لا تبلى.. قدوة تتمثل في عاهل قد
بركت الدنيا على عتبة داره مثقلة بالغنائم والطيبات فسرّحها سراحاً جميلاً، وساقها إلى
الناس سوقاً كريماً.. يقدم إليهم طيباتها، ويدراً عنهم مضلاتها، حتى إذا نفّض يديه من
علائق هذا المتاع الزائل... استأنف سيره، ومسراه مهرولاً في فترة الظهيرة الحارقة، وراء
بعير من أموال الصدقة يخشى عليه الضياع، أو منحنيًا فوق قدر ليطنخ فيه طعمة طيبة
لامرأة غريبة أدركها كرب المخاض أو لأطفال يتضورون جوعاً في ظلام الليل
الدامس!!

(١) من شريط (صور وعبر) للشيخ على القرني.

إنه الرجل الذي تنزل القرآن أكثر من مرة موافقاً لرأيه، وقوله.

إنه الرجل الذي كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت ولايته عدلاً.

إنه فاروق الأمة الأبواب عمر بن الخطاب.

والحق أن الاقتراب من هذا التقى النقى أمرٌ رهيب بقدر ما هو حبيب إلى النفس، فعمر بن الخطاب من الطراز الذي تغمرك الهيبة، وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كما تغمرك الهيبة وأنت تجالس شخصه المتواضع، فالمشهد المسطور من تاريخه لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى غياب البطل - فقط - عن حاسة البصر.

أجل... عن حاسة البصر وحدها.. أما الأفئدة.. أما البصيرة فتحس وهى تطالع سيرة عمر أنها تعايشه وتجالسه، وكأنها ترى رأى العين جلال الأعمال، ومناسك البطولات.. وأروع الانتصارات التى نقشها على جبين الزمان، وصفحة الأيام، إنه فاروق الأمة الأبواب.. عمر بن الخطاب^(١).

كنيته: أبو حفص كناه بها رسول الله ﷺ .

قال الحافظ فى الفتح^(٢): جاء فى السيرة لابن إسحاق أن النبى ﷺ كناه بها، وكانت حفصة أكبر أولاده.

قال الزبير: وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من أشرف قريش، وإليه كانت السفارة فى الجاهلية، وذلك أن قريشاً كانت إذا وقعت بينهم حرب وبين غيرهم بعثوا سفيراً، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر رضوا به وبعثوه منافرًا، ومفاخرًا.

قال علماء السير: شهد عمر بن الخطاب مع رسول الله ﷺ بدرًا، وأُحُدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وخيبر، والفتح، وحنين، وغيرها من المشاهد، وكان أشد الناس على الكفار، ولقد أثنى عليه النبى ﷺ فى غير موضع، ووضع ﷺ على صدره - رضى الله عنه - كثيرًا من الأوسمة.

(١) أئمة الهدى ومصابيح الدجى / للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٢٢٩ - ٢٣٠).

(٢) فتح البارى (٥٣ / ٧ العلمية).

دعاء النبي ﷺ كان سبباً في إسلام عمر - رضى الله عنه -

لقد كثرت الروايات التي تروى قصة إسلام عمر - رضى الله عنه - وأكثر تلك الروايات ضعيفة، ولكنها مشهورة - مثل القصة التي يرويها أكثر الناس عن دخوله على أخته وزوجها سعيد بن زيد وكذا استماعه القرآن من النبي ﷺ وهو خلف أستار الكعبة -

والراجع - والله أعلم - أن السبب الأساسي في إسلامه - رضى الله عنه - هو دعاء النبي ﷺ له عندما قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر»^(١).

ولقد أورد الإمام البخاري سبباً آخر في إسلام عمر - رضى الله عنه - عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر لشيء قط يقول: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن، بينما عمر جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال عمر: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم. على الرجل. فدعى له، فقال له ذلك. فقال: ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتنى.

قال: كنت كاهنهم في الجاهلية.

قال: فما أعجب ما جاءك به جنيك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع فقالت: ألم تر الجن وإبلاسها^(٢)، ويأسها من بعد إنكاسها^(٣)، ولحوقها بالقلاص، وأحلاسها^(٤).

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٢) المناقب - باب مناقب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٧).

(٢) إبلاسها: المراد به اليأس ضد الرجاء.

(٣) يأسها من بعد إنكاسها: اليأس ضد الرجاء، والإنكاس الانقلاب، قال ابن فارس: معناه أنها يشست من استراق السمع، بعد أن كانت قد ألفتته، فانقلبت عن الاستراق، قد يشست من السمع.

(٤) ولحوقها بالقلاص، وأحلاسها: القلاص جمع قُلص، وهي الفتية من النياق، والأحلاس جمع حِلص، وهو ما يوضع على ظهور الإبل تحت الرجل.

صارخ، لم أسمع صارخاً قطُّ أشدَّ صوتاً منه يقول: يا جليح^(١)، أمرٌ نجيح، رجلٌ فصيح، يقول: لا إله إلا أنت. فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى، يا جليح أمرٌ نجيح، رجلٌ فصيح، يقول: لا إله إلا الله. فقممت، فما نشبنا^(٢) أن قيل: هذا نبي^(٣).

قال الحافظ في الفتح: لمح المصنف بإيراد هذه القصة من «باب إسلام عمر» بما جاء عن عائشة، وطلحة عن عمر من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه، فروى أبو نعيم في «الدلائل» أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمداً مائة ناقة، قال عمر: فقلت له: يا أبا الحكم الضمان صحيح؟

قال: نعم، قال: فتقلدت سيفي أريده، فمررت على عجل، وهم يريدون أن يذبحوه، فقممت أنظر إليهم، فإذا صائح يصيح من جوف العجل: يا آل ذريح أمرٌ نجيح، رجل يصيح بلسان فصيح. قال عمر: فقلت في نفسي، إن هذا الأمر ما يراد به إلا أنا.

قال: فدخلت على أختي فإذا عندها سعيد بن زيد... فذكر القصة في سبب إسلامه بطولها^(٤).

ثم قال الحافظ رحمه الله تعالى: وتأمل ما في إيراد (أبي البخاري رحمه الله) حديث سعيد بن زيد الذي بعد هذا - وهو الحديث الخامس^(٥) - من المناسبة لهذه القصة. اهـ^(٦).

(١) يا جليح: معناه الوقح المكافح بالعداوة. قال الحافظ: ووقع في معظم الروايات «يا آل ذريح» وهم بطن مشهور من العرب.

(٢) فما نشبنا: أي لم نتعلق بشيء من الأشياء حتى سمعنا أن النبي ﷺ قد خرج، يريد أن ذلك كان بقرب مبعث النبي ﷺ.

(٣) رواه البخاري رقم (٣٨٦٦) في مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

(٤) ستأتي قريباً إن شاء الله.

(٥) عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: لو رأيته مؤثقي عمرٌ على الإسلام أنا وأخته وما أسلم، ولو أن أحداً انقضَّ لما صنعتُم بعثمان، لكان محقوقاً أن ينقض (رواه البخاري رقم

(٣٨٦٧) في مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب).

(٦) البداية والنهاية (٧٨ / ٣) - نقلاً من أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

الروايات المشهورة التي وردت في سبب إسلامه - رضي الله عنه -

وإليك بعض الروايات المشهورة في قصة إسلامه - رضي الله عنه - مع بيان الحكم على تلك الروايات.

روى ابن إسحاق عن أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامرٌ - زوجها - في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر ابن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه - قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا - قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، أذيتونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً، قالت: فقال: صحبتكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه - فيما رأى - خروجنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا.

قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: ياساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على [أهل] الإسلام^(١).

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر - فيما بلغني - أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد ابن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام - رجل من قومه، من بني عدى بن كعب - قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً - خوفاً - من قومه، وكان خباب ابن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة ابن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة (الصدِّيق) وعلى ابن أبي طالب، في رجال من المسلمين - رضي الله عنهم - ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقبه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابي، الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله قد غررتك نفسك من نفسك يا عمر.

(١) إسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن الحارث صدوق له أوهام قاله الحافظ في التقریب وقال أحمد: متروك الحديث وقال أبو حاتم: شيخ وقال النسائي: ليس بالقوي. قاله الذهبي في الميزان (٢/ ٥٥٤).

أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأى أهل بيت؟ قال: خنتك^(١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمرُ عامداً إلى أخته وخنته، وعندهما خبابُ بن الأرت معه صحيفةٌ، فيها: ﴿طه﴾ يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسَّ عمر، تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينة^(٢) التي سمعتُ؟ قالوا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختته سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضرب فشجَّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنته: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى^(٣)، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافى، وحلف لها بآلهته ليردَّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخى، إنك لحبس على شركك، وإنه لا يمسيها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها ﴿طه﴾ فقرأها، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن [يكون] الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم، فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا، معه فيه نفرٌ من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان [جاء] يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله

(١) خنتك: أى زوج أختك.

(٢) الهينة: صوت كلام لا يفهم.

(٣) فارعوى: رجع وكف.

ﷺ: «أذن له»، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْرَتَهُ، أو بمجمع رداءه، ثم جَبَذَهُ [بِهِ] جَبْذَةً شَدِيدَةً، وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟»، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنْزَلَ الله بك قارعةً؛ فقال عمر: يا رسول الله، جئتُك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة، عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم^(١).

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عَزَوْا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، ويتتصفون بهما من عدوهم.

فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح المكي عن أصحابه: عطاء ومجاهد، أو عمن روى ذلك، أن إسلام عمر [فيما] تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مُبَاعِداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلسٌ يجتمع فيه رجال من قُرَيْشٍ بالحزورة^(٢)، عند دُور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلةً أريد جُلسائي أولئك في مجلسهم ذلك قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر. لعلني أجد عنده خمرًا فأشرب منها. قال: فخرجتُ فجئته فلم أجد. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطُفْتُ بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مَلَأَهُ بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت: حين رأيته: والله لو أني استمعتُ لحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! [قال] فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع منه لأروعه، فجئتُ من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها - الكعبة - فجعلتُ أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ قائمٌ يصلي يقرأ القرآن، حتى قمتُ في قبلته مُسْتَقْبِلَهُ، ما بيني وبينه إلا ثيابُ الكعبة. قال: فلما سمعتُ القرآن رقَّ له قلبي؛ فبكيتُ ودخلني الإسلام، فلم أزل

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٩) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٦٧) والحاكم في المستدرک (٤/ ٥٩)

(٥٩) من طريق إسحاق بن يوسف الأزرق قال: حدثنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك وإسناده ضعيف، وعلة القاسم بن عثمان البصري، قال الحافظ في اللسان (٤/ ٥٤٢) قال البخاري له أحاديث لا يتابع عليها. قال الحافظ: حدث عنه إسحاق الأزرق بمثل محفوظ وتعقبه إسلام وهي منكرة جداً. اهـ.

(٢) الحزورة: هي الآن قطعة من المسجد في مكة.

قائماً [فى مكانى ذلك] حتى قضى رسول الله صلّاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين وكانت طريقه، حتى يجزّع^(١) المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أظهر ابن عبد عوف الزهرى، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته، وكان مسكنه ﷺ فى الدار الرقطاء، التى كانت بيدى معاوية بن أبى سفيان. قال عمر - رضى الله عنه -: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس ودار ابن أظهر أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسى عرفنى، فظن رسول الله ﷺ أنى إنما تبعته لأوذيته، فنهمنى^(٢)، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: [جئت] لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر»، ثم مسح صدرى، ودعا لى بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته^(٣).

قال ابن إسحاق: والله أعلم أى ذلك كان.

قال ابن إسحاق: وحدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال: لما أسلم أبى عمر قال: أى قریش أنقل للحديث؟ فقبل له: جميل بن معمر الجمحى قال: فغدا عليه. قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر، واتبعت أبى، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قریش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا. قال [و] يقول عمر من خلفه: كذب؛ ولكنى قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

وثاروا إليه فما برح يُقاتلهم ويُقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطلح^(٤)، فقعده وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مئة رجل [لقد] تركناها لكم، أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قریش، عليه حلة حبرة، وقميص موشى، حتى وقف عليه فقال: ما

(١) يجزّع المسعى: يقطعه ويقال: جزعت الوادى أى إذا قطعته.

(٢) نهمنى: زجرنى.

(٣) رواه عطاء ومجاهد عن إسلام عمر. قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى نجیح المكى عن إسحاق،

ستده مرسل وله شواهد وتقوى بما قبله، ولما سيأتى.

(٤) طلح: أى أعيا ومنه البعير، والطلح: أى التعب.

شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر؛ فقال: فمه؟ رجلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلُّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشِطَ^(١) عنه. قال: فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهو يُقاتلونك؟ فقال: ذلك، أى بنى، العاص بن وائل السهمى.

قال ابن هشام: وحدثنى بعض أهل العلم أنه قال: يا أبت، من الرجل الذى زجر القوم عنك [بمكة] يوم أسلمت، وهم يُقاتلونك، جزاه الله خيراً؟ قال: يا بنى، ذاك العاص بن وائل، لا جزاه الله خيراً^(٢).

ولقد كان إسلامه سبباً عظيماً فى ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف فى الله لومة لائم.

قال عبد الله ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلىنا معه^(٣).

بل كان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر [بن الخطاب]، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلىنا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

هجرة رُغم أنوف المشركين

وعندما أراد عمر - رضى الله عنه - أن يهاجر خلف الحبيب ﷺ وقف أمام المشركين موقفاً أذلَّ فيه أنوفهم وأظهر عجزهم وألقى الرعب فى قلوبهم.

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال لى على بن أبى طالب: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلَّد سيفه،

(١) كُشِطَ عنه: نزع عنه.

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٨٧).

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١/ ٢٧٠) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٦٢) وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود، وأخرجه الحاكم فى المستدرک (٣/ ٨٣، ٨٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عِزَّتَهُ^(١)، ومضى قبل الكعبة، والملا من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، وقال لهم: شأهت الوجوه^(٢)، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس^(٣)، من أراد أن تشكله أمه، ويؤتم ولده، ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادى.

قال على: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم، وأرشدهم، ومضى لوجهه^(٤).

باقية من مناقب عمر - رضى الله عنه -

وها هى باقة عطرة من مناقب فاروق الأمة - رضى الله عنه -

وإذا أردنا أن نحصى مناقبه وفضائله فإننا نحتاج إلى مجلدات، ولن نستطيع أيضاً أن نحصى كل المناقب، ولكن حسبنا أن نتعرف على بعض المناقب التى وردت عن فاروق الأمة - رضى الله عنه -

قال ﷺ: «نعم الرجل أبو بكر نعم الرجل عمر...»^(٥).

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم، كما ترون النجم الطالع فى أفق السماء، وإن أبا بكر، وعمر منهم، وأنعم»^(٦).

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناسٌ محدثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر»^(٧).

زاد زكريا بن أبى زائدة عن سعد عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر».

(١) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئاً، واختصرها - أى أمسكها بيده - وقيل هى أطول من العصا، وأقصر من الرمح.

(٢) شأهت: قُبِحت، رجل أشوه، أو امرأة شوها، إذا كانت قبيحة (انظر اللسان ٤ / ٢٣٦٥).

(٣) المعاطس: الأنوف، وأحدها معطس؛ لأنه العطاس يخرج منها (انظر اللسان ٤ / ٢٩٩٥).

(٤) أسد الغابة لابن الأثير (٤ / ١٤٤، ١٤٥) بسند صحيح والخبر فى الرياض النضرة (١ / ١٩٨).

(٥) رواه الترمذى (٣٧٩٧) المناقب - وصححه الألبانى فى الصحيحة (٨٧٥) - صحيح الجامع (٦٧٧٠).

(٦) رواه أبو داود (٣٩٨٧) والترمذى (٣٦٥٩) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٣٠).

(٧) أخرجه البخارى (٣٦٨٩) الفضائل - ومسلم (٢٣٩٨) فضائل الصحابة.

قال ابن الأثير: محدثون: أراد بقوله محدثون أقواماً يصيبون إذا ظنوا، وحدثوا فكأنهم قد حدثوه بما قالوا، وقد جاء في الحديث تفسيره «أنهم ملهمون» والملمهم: الذي يلقي في نفسه الشيء، فيخبر به حدساً، وظناً، وفراسة، وهو نوع يختص الله به من يشاء من عباده الذي اصطفى، مثل عمر - رضى الله عنه - اهـ^(١).

وعن أنس بن مالك وعلى بن أبي طالب - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين... لا تخبرهما يا علي»^(٢).

وعن عقبة بن عامر، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان من بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب»^(٣).

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه»^(٤).

وقال ابن عمر: ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر، إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر^(٥).

وعن طارق بن شهاب قال: كنا نتحدث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسانه ملك^(٦).

وعن سالم عن أبيه قال: رأى النبي ﷺ على عمر ثوباً (وفى رواية: قميصاً أبيض) فقال: «أجد يد ثوبك أم غسيل؟» فقال: بل غسيل، فقال: «البس جديداً، وعش حميداً، ومُت شهيداً»^(٧).

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: صعد النبي ﷺ أحداً، ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله. وقال: «اثبت أحد، فما عليك إلا نبي أو

(١) جامع الأصول (٨ / ٦١٠ / ٦٤٣٤).

(٢) رواه الترمذى (٣٦٦٦) المناقب عن أنس وعلى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٠٥).

(٣) رواه أحمد (١٧٣٣٦) والترمذى (٣٦٨٦) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٨٤).

(٤) رواه أحمد (٥١٤٥) والترمذى (٣٦٨٢) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٣٦).

(٥) رواه أحمد (٩٥ / ٢) وفى فضائل الصحابة (٣١٣ - ٣١٤) وقال العدوى: إسناده حسن.

(٦) رواه أحمد وقال وصى الله بن محمد عباس فى تخريج فضائل الصحابة (٣٤١) وهو موقوف صحيح.

(٧) رواه أحمد (٥٦٢٠) وعبد الرزاق (٢٠٣٨٢) وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٣٥٢)، وهو فى صحيح

الجامع (١٢٣٤).

صديق أو شهيدان»^(١).

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ شاة، فطلبه الراعى، فالتفت إليه الذئب، فقال: من لها يوم السبع، يوم ليس لها راع غيرى؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها. فالتفت إليه فكلّمته فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكنى خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله! قال النبي ﷺ: فإنى أومن بذلك، وأبو بكر، وعمر - رضى الله عنهما -»^(٢).

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «أرأف أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدّهم فى دين الله عمر...»^(٣). وفى رواية: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر وأشدّهم فى أمر الله عمر...»^(٤).

وعن عبد الله بن حنطب قال: قال رسول الله ﷺ: «هذان السمع والبصر» يعنى أبا بكر وعمر^(٥).

وعن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لا أدرى ما بقائى فيكم؟ فاقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر»^(٦).

النبي ﷺ يبشّره بالجنة ويرى قصره فيها

وها هو الحبيب الصادق المصدوق ﷺ يبشر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بأنه من أهل الجنة - ويا لها من بشرى - بل إن الحبيب ﷺ رأى قصر (عمر) فى الجنة.

عن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة»^(٧).

(١) أخرجه البخارى (٣٦٨٦) فضائل أصحاب النبي ﷺ - وأبو داود (٤٦٥١) والترمذى (٣٦٩٧).

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى - صحيح الجامع (٢٨٧١).

(٣) رواه أبو يعلى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٦٨).

(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).

(٥) رواه الترمذى والحاكم عن عبد الله بن حنطب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٠٤).

(٦) رواه الترمذى (٣٦٦٣، ٣٦٦٤) المناقب - وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٥).

(٧) رواه الترمذى (٣٧٤٨) عن عبد الرحمن بن عوف - ورواه أحمد والضياء عن سعيد بن زيد، وصححه

الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة، فاطلع أبو بكر، ثم قال: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة، فاطلع عمر» (١).

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت لمن هذا؟ فقالوا: لشاب من قريش، فظننت أنى أنا هو، فقلت: ومن هو؟ قالوا: عمر بن الخطاب» (٢).

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته، فوليت مديراً، فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله!؟» (٣).

متروكة إيمان عمر - رضى الله عنه -

عن عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر» (٤).

وكان من بديع كلامه - رضى الله عنه - أنه كان يقول: «مَنْ قَلَّ حياؤه قَلَّ ورعه، ومن قَلَّ ورعه مات قلبه».

ويقول: «من استخفا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وقى» (٥).

(١) رواه الترمذى (٣٦٩٥) المناقب - والحاكم فى المستدرک، وصححه وأقره الذهبى.

(٢) رواه الترمذى (٣٦٨٩) وأحمد (١١٩٨٥) وابن حبان (٢١٨٨) - صحيح الجامع (٣٣٦٤).

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٨٠) فضائل أصحاب النبي ﷺ - ومسلم (٢٣٩٥) فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه البخارى (٦٦٣٢) وأحمد (٢٩٣ / ٥).

(٥) مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا (ص ٢٠).

منزلة دين عمر - رضي الله عنه -

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينا أنا نائم رأيت الناس عُرِضُوا عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌّ - جمع قميص - فمنها ما يبلغ الشدى ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعُرِضَ عَلَيَّ عمر وعليه قميص اجتَرَه^(١) قالوا: فما أولته يا رسول الله قال: الدين»^(٢).

علم عمر - رضي الله عنه - وفقهه

عن الزهري قال: أخبرني حمزة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر إلى الري يخرج من ظفري - أو في أظفاري - ثم ناولت عمر قالوا: فما أولته يا رسول الله قال: العلم»^(٣).^(٤)

ولقد كان عمر - رضي الله عنه - حريصاً كل الحرص على طلب العلم، بل كان من أصحاب الهمم العالية.

يقول عمر - رضي الله عنه -: كنت أنا وجار لي من الأنصار من بني أمية بن زيد، وهم من عوالى المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوماً، وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك^(٥).

(١) قال الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧ / ٥١): وقد استشكل هذا الحديث بأنه يلزم منه أن عمر أفضل من أبي بكر الصديق، والجواب عنه تخصيص أبي بكر من عموم قوله: (عرض على الناس) فلعل الذين عرضوا إذ ذاك لم يكن فيهم أبو بكر، وأن كون عمر عليه قميص يجره لا يستلزم أن لا يكون على أبي بكر قميص أطول منه وأسغ، فلعله كان كذلك إلا أن المراد كان حينئذ بيان فضيلة عمر فاقصر عليها. والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩١) - ومسلم (٢٣٩٠) - والترمذي (٢٢٨٦).

(٣) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧ / ٤٦): والمراد بالعلم هنا العلم بسياسة الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، واختص عمر بذلك لطول مدته بالنسبة إلى أبي بكر وباتفاق الناس على طاعته بالنسبة إلى عثمان فإن مدة أبي بكر كانت قصيرة فلم يكثر فيها الفتوح التي هي أعظم الأسباب في الاختلاف، ومع ذلك فساس عمر فيها - مع طول مدته - الناس بحيث لم يخالفه أحد، ثم ازدادت اتساعاً في خلافة عثمان فانتشرت الأقوال واختلفت الآراء، ولم يتفق له ما اتفق لعمر من طوعية الخلق له فنشأت من ثم الفتن إلى أن أفضى الأمر إلى قتله، واستخلف (على) فما ازداد الأمر إلا اختلافاً والفتن إلا انتشاراً.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٨١) - ومسلم (٢٣٩١) - والترمذي (٣٦٨٧).

(٥) رواه البخاري رقم (٥١٩١) في النكاح باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، ومسلم رقم (١٤٧٨) في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً.

وقال الذهبي: قال عبد الله بن عمر: تعلم عمر البقرة - سورة البقرة - في اثني عشرة سنة، فلما تعلمها نحر جزوراً^(١).

وعن طارق بن شهاب قال: جاء يهودى إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين آية تقرأونها في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، ونعلم ذلك اليوم الذى نزلت فيه، لاتخذناه عيداً قال: أى آية؟ قال:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فقال عمر ابن الخطاب: إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، والمكان الذى نزلت فيه.

نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة يوم الجمعة، ونحن واقفون معه بعرفة^(٢).

وصية غالية من القاروق - رضى الله عنه -

قال - رضى الله عنه -: « تفقهوا قبل أن تسودوا »^(٣). (٤)

يقول الحافظ فى الفتح: أراد عمر - رضى الله عنه - أن السيادة قد تكون سبباً للمنع من التفقه فى الدين؛ لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين، ولهذا قال مالك عن عيب القضاء: أن القاضى إذا عُرِل لا يرجع إلى مجلسه الذى كان يتعلم فيه.

وها هى صفحات من فقهه وعلمه ورأى الصحابة - رضى الله عنهم - فيه.

عن الحارث بن معاوية الكندى رحمه الله أنه ركب إلى عمر بن الخطاب يسأله عن ثلاث خلال، قال: فقدم المدينة فسأله: ما أقدمك؟

قال: لأسألك عن ثلاث. قال: وما هن؟

قال: ربما كنت أنا والمرأة فى بناء ضيق، فتحضر الصلاة، فإن صليت أنا، وهى كانت بحدائى، وإن صلت خلفى خرجت من البناء؟!!

(١) سير الخلفاء للإمام الذهبى (ص ٨١).

(٢) أخرجه البخارى (٤٤) الإيمان - ومسلم (٣٠١٧) التفسير.

(٣) أخرجه البخارى معلقاً فى كتاب العلم، باب الاغتباط فى العلم والحكمة، وقال الحافظ: أخرجه ابن أبى شيبة، وإسناده صحيح (الفتح ١ / ٢١٩).

(٤) عقب البخارى على هذا الأثر فقال: وبعد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النبى ﷺ فى كبر سنهم، قال الحافظ: وإنما عقب البخارى ليبين أن لا مفهوم له خشية أن يفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه.

فقال عمر: تستر بينك وبينها بثوب، ثم تصلى بحذاءك إن شئت.

وعن الركعتين بعد العصر؟ فقال: نهاني عنهما رسول الله ﷺ.

قال: وعن القصص؟ فإنهم أرادوني على القصص؟!

قال (عمر): ما شئت.... كأنه كره أن يمنعه.

قال: إنما أردت أن أنتهى إلى قولك؟!

قال (عمر): أخشى عليك أن تقص فترتفع عليهم نفسك، ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله عز وجل تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك^(١).

وعن قبيصة بن جابر قال: والله ما رأيت أحداً أرأف برعيته، ولا خيراً من أبي بكر الصديق، ولم أر أحداً أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه في دين الله، ولا أقوم بحدود الله، ولا أهيأ في صدور الرجال من عمر ابن الخطاب، ولا رأيت أحداً أشد حياءً من عثمان بن عفان^(٢).

وعن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع^(٣) متفرقون يصلون الرجل لنفسه، ويصلون الرجل، فيصلون بصلاته الرهط، فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل^(٤)، ثم عزم فجمعهم على أبي ابن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى، والناس يصلون بصلاة قارئهم.

قال عمر: نعم البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون - يريد آخر الليل - وكان الناس يقومون أوله^(٥).

(١) رواه أحمد في المسند (١١١) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أسد الغابة (٤/ ١٤٧) لابن الأثير.

(٣) أوزاع: أي جماعة متفرقون.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٤/ ٣١٧): قال ابن التين وغيره: استنبط عمر ذلك من تقرير النبي ﷺ من صلى معه في تلك الليالي، وإن كان كره ذلك لهم فإنما كرهه خشية أن يفرض عليهم، فلما مات النبي ﷺ حصل الأمن من ذلك، ورجح عند عمر ذلك لما في الاختلاف من افتراق الكلمة، ولأن الاجتماع على واحد أنشط لكثير من المصلين.

(٥) أخرجه البخاري (٢٠١٠) صلاة التراويح - باب فضل من قام رمضان.

وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه -: ما أظن أهل بيت من المسلمين لم يدخل عليهم حزن يوم أُصيب عمر إلا أهل بيت سوء.

إن عمر كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا في دين الله^(١).

وقال أيضاً - رضى الله عنه -: إذا ذُكر الصالحون فحيهلاً بعمر، إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله وأفقهنا في دين الله^(٢).

ويقول أيضاً - رضى الله عنه -: لو أن علم عمر وُضع في كفة ميزان، ووضع علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم.

قال الأعمش : فأنكرت ذلك فأتيت إبراهيم النخعي فذكرته له ، فقال : وما أنكرت من ذلك فوالله لقد قال عبد الله أفضل من ذلك قال: إني لأحسب تسعة أعشار العلم ذهب يوم مات عمر - رضى الله عنه -^(٣).

موافقات عمر - رضى الله عنه - لربه - عز وجل -

يا لها من منزلة عظيمة ومنقبة جليلة أكرم الله بها فاروق الأمة - رضى الله عنه - حيث وافقه في كثير من المواقف، فأنزل القرآن موافقاً لرأى عمر - رضى الله عنه -.

عن أنس - رضى الله عنه - قال عمر: وافقت ربي في ثلاث^(٤): فقلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه. فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٨٠ / ٧)، وابن عساكر، والحاكم مختصراً.

(٢) سير الخلفاء للذهبي (ص ٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٨٣ / ٧) والحاكم، وصححه وأقره الذهبي.

(٤) قال الحافظ في الفتح : قوله (وافقت ربي في ثلاث) أى وقائع ، والمعنى وافقنى ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت، لكن لرعاية الأدب أسند الموافقة إلى نفسه، أو أشار به إلى حدوث رأيه، وقدم الحكم، وليس في تخصيصه العدد الثلاث ما ينفي الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة في أشياء، غير هذه من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين. ثم قال رحمه الله: وأكثر ما وقفنا منها بالتعيين على خمسة عشر، لكن ذلك بحسب المنقول اهـ (فتح ٦٦٥ / ١).

(٥) أخرجه البخارى (٤٠٢) الصلاة - وأحمد (١٥٧) والنسائى في الكبرى (١٣ / ٨).

وفى رواية مسلم قال: «وافقت ربي فى ثلاث: فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر» (١).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: حدثنى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه وهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبى ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تعبد فى الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه، مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأناه أبو بكر، فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبى الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّ مِمْدُكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. فأمدّه الله بالملائكة.

قال ابن عباس: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربةً بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه، وشقَّ وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصارى، فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسرُوا أربعين: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟».

فقال أبو بكر: يا نبى الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟».

قلت: لا. والله! يا رسول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكنى من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر قاعدين يبكيان.

فقلت: يا رسول الله! أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً

(١) أخرجه مسلم (٢٣٩٩) فضائل الصحابة - باب من فضائل عمر - رضى الله عنه -.

بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: أبكى للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخِزَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩] فأحل الله الغنيمة لهم^(١).

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلى على (ابن أبي)، وقد قال يوم كذا، وكذا: كذا وكذا! أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عني يا عمر.

فلما أكثر عليه قال: إني خيرت فاخترت لو أعلم أنى زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ إلى ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾. قال: فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم^(٢).

شياء طيبين السجى والانس تضر من عمر - رضى الله عنه -

إن الإنسان كلما ازداد خوفه من ربه - عز وجل - فإن الله يلقى هيبته فى قلوب من حوله.. وها هو فاروق الأمة - رضى الله عنه - يلقى الله هيبته فى قلوب الشياطين.. فما إن تراه حتى تهرب خوفاً منه!!!

عن سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - قال: استأذن عمرُ على النبي ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه - وفى رواية: يسألنه، ويستكثرنه - عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر قمن يتدرون الحجاب، فأذن له النبي ﷺ، فدخل عمر، والنبي ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك^(٣)، بأبى وأمى ما أضحكك؟

(١) رواه مسلم رقم (١٧٦٣) فى الجهاد والسير باب كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين، ورواه أيضاً أحمد فى المسند رقم (٢٠٨، ٢٢١) والترمذى (٣٠٨١) فى تفسير القرآن.

(٢) أخرجه البخارى (١٣٦٦) الجنايز - ومسلم (٢٤٠٠) فضائل الصحابة.

(٣) قال الحافظ فى الفتح: لم يرد به الدعاء بكثرة الضحك، بل لازمه، وهو السرور، أو نفى ضد لازمه، وهو الحزن (الفتح ٥٨ / ٧).

قال: «عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب». قال عمر: فأنت يا رسول الله لأحق أن يهبن، ثم قال: أي عدوات أنفسهن، أتهبتن، ولا تهبن النبي ﷺ؟

قلن: نعم، أنت أفظ، وأغلظ^(١) من النبي ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «إيه^(٢) يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجعك»^(٣).

وفي رواية: قال ﷺ: «إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر»^(٤).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة له؛ لأنهما في حق النبي ﷺ واجبة، وفي حق غيره ممكنة. اهـ^(٥).

وقال الإمام النووي - رحمه الله -: هذا الحديث محمول على ظاهره، أن الشيطان متى رأى عمر سالكا فجا هرب هيبة من عمر، وفارق ذلك الفج، وذهب من فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئا. اهـ^(٦).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: أتيت النبي ﷺ بخزيرة قد طبختها له، فقلت لسودة، والنبي ﷺ بيني وبينها: كُلِّي فأبت، فقلت: لتأكلن أو لأطخن وجهك، فأبت، فوضعت يدي في الخزيرة فطلت وجهها، فضحك النبي ﷺ، فوضع بيده لها، وقال لها: «الطخي وجهها» فضحك النبي ﷺ لها، فمر عمر فقال: يا عبد الله، يا عبد الله، فظن أنه سيدخل فقال: «قوما فاغسلا وجوهكما» فقالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ^(٧).

(١) قال الحافظ في الفتح: أفعل تفضيل من اللفظة، والغلظة، وهو يقتضي الشركة في أصل الفعل، ويعارض قوله تعالى: «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» فإنه يقتضي إنه لم يكن فظا، ولا غليظا (انظر الفتح ٥٨ / ٧).

(٢) بالكسر، والتنوين معناها: حدثنا ما شئت، وبغير تنوين زدنا مما حدثتنا.

(٣) رواه البخاري رقم (٣٦٨٣) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ومسلم رقم (٢٣٩٦) في فضائل الصحابة.

(٤) رواه الترمذي عن عائشة - رضى الله عنها - وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٩٦).

(٥) فتح الباري (٥٨ / ٧).

(٦) مسلم بشرح النووي (٧ / ١٨٠) ط. دار الحديث.

(٧) رواه أبو يعلى في مسنده (٧ / ٤٤٩) وقال العدوي: إسناده حسن.

هطنة الفاروق - رضى الله عنه - هي غزوة تبوك

وها هو موقف جليل للفاروق - رضى الله عنه - يوضح مدى ثقته فى الحبيب ﷺ وفى تأييد الله لرسوله ﷺ .

عن أبى هريرة قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فتحرنا نواضحنا - من الإبل - فأكلنا، وأدهننا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «افعلوا».

قال: فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم فليأتوا بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: نعم فدعا رسول الله ﷺ بنطع فبسطه، ثم دعا بكسرة حتى اجتمع من ذلك على النطع شيء يسير، ثم دعا ﷺ بالبركة، ثم قال: خذوا فى أوعيتكم، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى المعسكر وعاء إلا ملأوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة.

فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنى رسول الله، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاكٍ فيحجب عن الجنة»^(١).

قوة شخصيته وهيبته فى قلوب الناس

لقد كان الفاروق - رضى الله عنه - قوى الشخصية لا يخاف فى الله لومة لائم حتى إنه كان إذا رآه الرجل تمنعه هيبة (عمر) من أن يطلب منه حاجته التى جاء من أجلها فيرجع ولم يقض حاجته.

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر ابن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبته له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت، وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفْتُ له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين... من اللتان تظاهرتا على النبی ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما

(١) أخرجه البخارى رقم (٢٩٨٢) فى الجهاد، باب حمل الزاد فى الغزو، ومسلم رقم (٢٧) فى الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً - واللفظ لمسلم.

أستطيعُ هبةً لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به...» (١).

وعن عكرمة أن حجّامًا كان يقصّ عمر بن الخطاب، وكان رجلاً مهيباً فتحنح عمر فأحدث الحجّام - بال على نفسه - فأمر له عمر بأربعين درهماً (٢).

شفافية وفراسة يندر وجودها

ولقد كان - رضى الله عنه - يتمتع بفراسة وشفافية يندر وجودها في هذا الكون - وهي نعمة امتن الله بها على فاروق الأمة - رضى الله عنه -.

وها هي أمثلة - تضاهي الشمس في نورها وبهائها - توضح لنا كيف بلغت تلك الشفافية والفراسة عند فاروق الأمة - رضى الله عنه -.

عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة، قال ابن مَن؟ قال: ابن شهاب، قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: ثم ممن؟ قال: من بنى ضرام، قال: أين مسكنك؟ قال: الحرّة، قال: بأيّتها؟ قال: بذات لظى، قال: عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، فكان كما قال عمر (٣).

وقال الذهبي في السير: حدثنا شرحبيل: أن الأسود العنسي تنبأ باليمن - ادّعى النبوة - فبعث إلى أبي مسلم الخولاني، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنه ألقى أبو مسلم فيها، فلم تضره... فقليل للأسود: إن لم تنف هذا عنك أفسد عليك من اتبعك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة، فأناخ راحلته، ودخل المسجد يصلي، فبصر به عمر - رضى الله عنه - (وكأنه وقع في قلبه أنه أبو مسلم) فقام إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من اليمن قال: ما فعل الذي حرّقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهم نعم. فاعتنقه عمر، وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه، وبين الصديق، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من صنّع به كما صنّع بإبراهيم الخليل (٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٣) التفسير.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن أبي هريرة - صحيح الجامع (١٠٠٩).

(٣) تاريخ الخلفاء (٩)، والإصابة (١/ ٢٦٢)، والطرق الحكمية (٢٩) نقلاً عن أخبار عمر (ص ٣٥٩)، وقال

ابن الأثير في جامع الأصول: أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٧٣) في الاستئذان.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٧) - تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٣٦).

عبادته - رضى الله عنه -

ومع أن الفاروق - رضى الله عنه - كان يحمل أعباء الأمة بأسرها إلا أنه لم ينس أبداً حظه من العبادة التي يتزود بها في سفره إلى ربه جل وعلا.

عن أبي قتادة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «متى توتر؟» - تصلى الوتر - قال: أوتر من أول الليل، وقال لعمر: متى توتر؟

قال: آخر الليل، فقال لأبي بكر: أخذ هذا بالحذر - وفي رواية - بالحزم، وقال لعمر: أخذ هذا بالقوة»^(١).

وعن أسلم أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يصلى ما شاء الله حتى إذا كان من آخر الليل يعظ أهله يقول: الصلاة.. الصلاة: ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية^(٢).

وقال زياد بن حدير رحمه الله: رأيت عمر بن الخطاب أكثر الناس صياماً، وأكثرهم سواكاً^(٣).

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: ما مات عمر حتى سرد الصوم^(٤).

قال الحسين: «تزوج عثمان بن أبي العاص امرأة من نساء عمر بن الخطاب، فقال: والله ما نكحتها رغبة في مال ولا ولد، ولكنني أحببت أن تخبرني عن ليل عمر...!!»^(٥).

قال الحافظ ابن كثير عن ليل عمر: «كان يصلى بالناس العشاء ثم يدخل بيته، فلا يزال يصلى إلى الفجر».

وقال لمعاوية بن خديج: «لئن نمت بالنهار لأضيّع الرعية، ولئن نمت بالليل لأضيّع نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية»^(٦).

(١) رواه أبو داود (١٤٣٤) الصلاة، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٧١).

(٢) رواه أبو داود في الزهد، ومالك (١ / ١١٩) في الموطأ، والبيهقي في الشعب (٢٨٢٢).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٢٠).

(٤) صفة الصفوة (١ / ٢٨٦).

(٥) قال الهيثمي في المجمع (٩ / ٧٣): أخرجه الطبراني ورجاله ثقات.

(٦) الزهد للإمام أحمد (ص ١٢٣).

فاروق الأمة وحسن الاتباع

واستلم عمر الحجر الأسود وقال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

وقال نافع: كان الناس يأتون الشجرة، التي بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان، فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها، وأمر بها فقطعت.

وعن المعرور قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى حجة حجها، قال: فقرأ بنا فى الفجر ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾، و﴿لإيلاف قريش﴾ فلما انصرف، فرأى الناس مسجداً فبادروه، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا مسجدٌ صلى فيه النبى ﷺ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعة، من عرضت له صلاة فليصل، ومن لم تعرض له صلاة فليمض.

وعن عمر بن ميمون، عن أبيه قال: أتى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رجل، فقال: يا أمير المؤمنين: إنا لما فتحنا المدائن، أصبت كتاباً فيه كلام معجب قال: أمن كتاب الله؟ قال: لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها. فجعل يقرأ: ﴿التر تلك آيات الكتاب المبين﴾ (١) ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ إلى قوله: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ (يوسف: ١ - ٣)، ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم، وتركوا التوراة والإنجيل، حتى درساً وذهب ما فيهما من العلم (١).

الكريم الجواد - رضى الله عنه -

إن المؤمن الواثق فى موعود ربه - جل وعلا - هو الذى يعلم، بل ويوقن أن الرزق بيد الله - عز وجل - ولذا تراه لا يبخل أبداً بماله على إخوانه المؤمنين؛ لأنه يعلم أيضاً أن الله سيخلف عليه كل نفقة أنفقها فى سبيل الله.

وها هو فاروق الأمة - رضى الله عنه - يضرب لنا المثل فى الجود والكرم.

فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أمرنا رسول الله ﷺ

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب / لابن الجوزى (ص ١٢٣) تحقيق د/ زينب إبراهيم، دار الكتب العلمية.

أن نتصدق، ووافق ذلك عندي مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله.

وأنى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً^(١).

وقول عمر: «لا أسبقه إلى شيء» أي من الفضائل؛ لأنه إذا لم يقدر على مغالبتها حين كثرة ماله، وقلة مال أبي بكر ففي غير هذا الحال أولى أن لا يسبقه. اهـ^(٢).

قال الأعمش: كنت يوماً عنده، فأتى باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقيم من مجلسه حتى يفرقها، وكان إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، وكان كثيراً ما يتصدق بالسكر، فقليل له في ذلك فقال: إني أحبه، وقد قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: ٩٢] (٣).

وقال مجاهد: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى أن يتناع له جارية من سبي جلولاء، ففعل، فدعاها عمر فأعتقها، ثم تلا هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

ويقول أسلم مولى عمر: سألني ابن عمر عن بعض شأنه؟ يعني عمر: فأخبرته فقال: ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله ﷺ من حين قبض كان أجداً، وأجود حتى انتهى: من عمر (٤).

قال الحافظ في الفتح: أي لم يكن أحد أجداً منه في الأمور، ولا أجود بالأموال، وهو محمول على وقت مخصوص، وهي مدة خلافته ليخرج النبي ﷺ، وأبو بكر من ذلك.

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨) الزكاة، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤١٤ / ١) وقال على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٧٢).

(٢) تحفة الأحوذى (١٠ / ١١١) ط الكتب العلمية، عون المعبود (٧٢ / ٥) ط. دار الفكر.

(٣) الدر المنصود في ذم البخل ومدح الجود لعبد الرؤوف المناوى (ص ٦٤) دار الصحابة بطنطا.

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٨٧) فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب مناقب عمر بن الخطاب.

موقف الصاروق - رضى الله عنه - عند موت الحبيب ﷺ

عن أنس قال : لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام : واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أهلك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام : يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب^(١).

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضواء منها كل شىء فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا^(٢).

وقال الحافظ ابن رجب (رحمه الله):

لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه^(٣).

فكان من موقف عمر - رضى الله عنه - أن وقف صارخاً يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ - توفى، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، يزعمون أنه مات^(٤).

وأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - على فرس من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيّم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حبره، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله، وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأُمى، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة الأولى التى كتبت عليك فقد مُتّها.

(١) أخرجه البخارى (٧٥٥ / ٧) المغازى - وأحمد (٢٠٤ / ٣) مختصراً.

(٢) رواه الترمذى (١٣ / ١٠٤، ١٠٥) المناقب، والحاكم مختصراً (٣ / ٥٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه وأقره الذهبى وصححه الألبانى فى مختصر الشماثل.

(٣) لطائف المعارف (١١٣، ١١٤) باختصار.

(٤) أخرجه ابن هشام فى السيرة عن ابن إسحاق، وابن سعد فى الطبقات، وصححه ابن حبان (١٤ / ٦٦٢٠).

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد: من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت.

قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال ابن عباس: والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر^(١)، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعُقرت حتى ما تُقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات^(٢).

مبايعته لأبي بكر الصديق

عن أنس بن مالك أنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا... يريد بذلك أن يكون آخرهم، فإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة الناس العامة على المنبر.

قال الزهري عن أنس بن مالك: سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة^(٣).

(١) قال الحافظ في الفتح معلقاً: وفيه بيان رجحان علم أبي بكر على عمر فمن دونه، وكذلك رجحانه عليهم لثبانه في مثل ذلك الأمر العظيم (فتح الباري ٧/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣) عن عائشة وابن عباس - رضي الله عنهم - في المغازي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٢١٩) الأحكام - باب الاستخلاف.

القضاء والخلافة

لقد بلغ الفاروق درجة عالية من العلم والفقه والحكمة أهلتة لأن يكون قاضياً في عهد الصديق وأميراً للمؤمنين من بعده.

عن إبراهيم النخعي قال: أول من ولي أبو بكر شيئاً من أمور المسلمين عمر بن الخطاب، ولأه القضاء، وكان أول قاضٍ في الإسلام^(١).

وفي آخر عهد أبي بكر - في اللحظات الأخيرة من حياته - عقد الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه -.

قال ابن الجوزي في المنتظم: لما أراد ذلك - أى عقد الخلافة من بعده لعمر - دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب.

فقال: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة.

فقال أبو بكر: ذاك لأنه يرانى رفيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه.

ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرنى عن عمر.

فقال: أنت أخبرنا به.

فقال: على ذلك يا أبا عبد الله.

فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريره خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله.

فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم قال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حين يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم - ثم أغشى عليه - فكتب عثمان: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ على، فقرأ عليه، فكبر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى غشيتى؟

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر - رضى الله عنه - وأمره

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ص ٥٢).

فخرج على الناس بالكتاب، فبايعوه لمن فيه، قد علموا أنه عمر، ودخل عليه قوم، فقالوا: ما تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر، وأنت ترى غلظته؟

فقال: أجلسوني، أبالله تخوفوني، خاب من تزود من أمركم بظلم.

أقول: استخلفت عليهم خير أهلك، ثم دعا عمر، وأوصاه أهله (١).

وقال علي بن أبي طالب - رضى الله عنه -: لما حضرت أبي بكر الوفاة رأى أن عمر أقوى عليها - أى على الخلافة - ولو كانت محاباة لآثر بها ولده، واستشار المسلمين فى ذلك، فمنهم من رضى، ومنهم من كره، وقالوا: أتؤمر علينا من كان عتائاً، وأنت حى؟! فماذا تقول لربك إذا قدمت عليه؟ قال: أقول لربى إذا قدمت عليه: إلهى أمرت عليهم خير أهلك.

فأمر علينا عمر، فقام فينا بأمر صاحبيه، لا ننكر منه شيئاً، نعرف الزيادة كل يوم فى الدين، والدنيا، فتح الله به الأرضين، ومصر به الأمصار، لا تأخذه فى الله لومة لائم، البعيد والقريب سواء فى العدل، والحق، وضرب الله بالحق على لسانه وقلبه، حتى أن كنا نظن أن السكينة تنطق على لسانه، وأن ملكاً بين عينيه يسدده، ويوفقه (٢).

فاروق الأمة والقضاء

روى ابن عبد البر، أن عروة ومجاهداً روى أن رجلاً من بنى مخزوم استعدى عمر بن الخطاب على أبي سفيان بن حرب، أنه ظلمه حداً فى موضع كذا وكذا، وقال عمر: إني لأعلم الناس بذلك، وربما لعبت أنا وأنت فيه ونحن غلمان، فأنتى بأبى سفيان، فأتاه به، فقال له عمر: يا أبا سفيان، انهض بنا إلى موضع كذا وكذا، فنهضوا ونظر عمر فقال: يا أبا سفيان، خذ هذا الحجر من ها هنا، فضعه ها هنا، فقال: والله لا أفعل. فقال: والله لتفعلن. فقال: والله لا أفعل. فعلاه بالدرة وقال: خذه لا أم لك فضعه ها هنا. فإنك ما علمت قديم الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعوه حيث قال عمر، ثم إن عمر استقبل القبلة فقال: اللهم لك الحمد، لم تمتنى حتى غلبت أبا سفيان على رأيه، وأذلتته لى

(١) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك (٤ / ١٢٥، ١٢٦)، وأخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة (٤ / ١٥٧)، انظر المطالب العلية (٤٣١٣)، وقال ابن حجر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائده على المسند (١ / ١٠٦) واللالكائى فى كرامات الأولياء (٦٤) وغيرهما عن الشعبي عن (على) - رضى الله عنه - ورجاله ثقات..

بالإسلام، قال: فاستقبل القبلة أبو سفيان وقال: اللهم لك الحمد إذ لم تُمتني حتى جعلت في قلبي من الإسلام ما أذل به لعمر^(١).

هدية لحكام المسلمين

وها هي باقة عطرة من (خُطب) فاروق الأمة - رضى الله عنه - التي سطرَ فيها كل ما يتمناه البشر من حقوق الإنسان.

فإلى كل من ولى من أمور المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً... نُهدى إليهم تلك السطور التي تضيء لهم طريقهم إلى الله.

بلغ من لين أبى بكر أن الصبيان كانوا إذا رأوه يسعون إليه، ويقولون: يا أبت! فيمسح رؤوسهم، وبلغ من هيبة عمر أن الرجال تفرقوا، وتركوا مجالسهم بالأفنية هيبَةً. حتى ينظروا ما يكون من أمره، فلما بلغ ذلك عمر، صاح في الناس: الصلاة جامعة! فحضروا، فجلس على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه، فلما اجتمعوا، قام قائماً، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟

ومن قال ذلك صدق، فقد كنت مع رسول الله ﷺ، فكنت خادمه، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله، وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا ينكرون دعته، وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل، وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

ثم أنى قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم، والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة، والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً، أو يتعدى عليه حتى أضع

(١) المغني على مختصر الخرقى (١٠ / ٤٩).

خذه على الأرض، وأضع قدمي على الحُد الآخر حتى يذعن بالحق، وإنني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف.

ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها:

لكم على أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسد ثغوركهم، ولكم على ألا ألقىكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركهم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله عباد الله! وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم^(١).

وعن أبي فراس قال: خطب عمر بن الخطاب فقال: أيها الناس، ألا إنا إنما كنا نعرفكم إذ بين ظهرينا النبي ﷺ، وإذ ينزل الوحي، وإذ ينبتنا الله من أخباركم، ألا وإن النبي ﷺ قد انطلق، وقد انقطع الوحي، وإنما نعرفكم بما نقول لكم: من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً، وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم، ألا إنه قد أتى عليّ حين، وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده، فقد خيل إلى بآخره أن رجلاً قد قرؤوه يريدون به ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، ألا إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم، وستكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفسي بيده إذن لأقصنه منه.

فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته أئتك لمقتضيه منه؟

قال: إي والذي نفس عمر بيده، إذن لأقصنه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تجمروهم فتفتنّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوا الغياض فتضيعوهم^(٢).

(١) الخراج لأبي يوسف: ١٤٠ نقلاً عن أخبار عمر (ص: ٥٦).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٢٨٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن، والحاكم بنحوه (٤/ ٤٣٩)،

وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو في كنز العمال (٤٤٢١٢).

صفحات تتألق روعة وجمالاً من ورع الفاروق وخوفه من الله

وها هو الفاروق - رضى الله عنه - يسطر على جبين التاريخ صفحات مضيئة تتألق روعة وجمالاً وإجلالاً من الورع والخوف من الله - جل وعلا -
وإليك جميعاً تلك المشاهد التى يعجز القلم عن وصفها أو حتى عن مجرد التعليق عليها.

بينما عثمان بن عفان فى مال له بالعالية فى يوم صائف - شديد الحر - إذ رأى رجلاً يسوق بكرين - من الإبل - وعلى الأرض مثل الفراش من الحر، فقال: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد، ثم يروح.

ثم دنا الرجل فقال لمولاه: انظر من هذا؟
فنظر فقال: أرى رجلاً مُعْتَمِلاً بردائه، يسوق بكرين.
ثم دنا الرجل فقال: انظر، فنظر، فإذا عمر بن الخطاب!!
فقال: هذا أمير المؤمنين.

فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا نَفْحُ السَّمُومِ، فأعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: ما أخرجك هذه الساعة!!

فقال عمر: بكران من إبل الصدقة تخلفا، وقد مضى بإبل الصدقة، فأردت أن ألحقهما بالحمى وخشيت أن يضيعا، فیسألنى الله عنهما.

فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، هَلُمَّ إلى الماء والظل، ونكفيك.
فقال: عُدْ إلى ظلك يا عثمان!

فقال عثمان: من أحب أن ينظر إلى القوى الأمين، فليُنظر إلى هذا، فعاد إلينا فألقى نفسه^(١).

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: اشتريت إبلًا وسقتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق، فرأى إبلًا سمناً فقال: لمن هذه؟

فقيل: لعبد الله بن عمر، فجعل يقول: يا عبد الله: بخ بخ.. ابن أمير المؤمنين! فجئته

(١) أسد الغابة لابن الأثير (١٦٠ / ٤) بسند صحيح - والكامل لابن الأثير (٢ / ٤٥١).

أسعى، فقلت: مالك يا أمير المؤمنين؟

قال: ما هذه الإبل؟

قلت: إبل أنضاء (هزيلة) اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى ابتغى ما يبتغى المسلمون.

فقال (عمر): ارفعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين!

يا عبد الله بن عمر! خذ رأس مالك، واجعل الربح في بيت مال المسلمين^(١).

ويقول ابن عباس - رضى الله عنهما -: دهانى عمر بن الخطاب، فأتيته، فإذا بين يديه

نطع عليه الذهب مثور حثًا، قال: هلم فاقسم هذا بين قومك، فالله أعلم حيث زوى

هذا عن نبيه عليه السلام، وعن أبى بكر، وأعطيته لخير أعطيته أو لشر؟

قال ابن عباس: فأكبت عليه أقسم، وأزِيل (أى أفرق) فسمعت البكاء، فإذا صوت

عمر يبكى، ويقول فى بكائه، والذي نفسى بيده ما حبسه عن نبيه ﷺ، وعن أبى بكر

إرادة الشر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له^(٢).

وعن مجاهد: أنفق عمر بن الخطاب فى حجة حجها ثمانين درهماً من المدينة إلى

مكة، ومن مكة إلى المدينة، قال: ثم جعل يتأسف، ويضرب بيده على الأخرى، ويقول:

ما أخلقنا أن نكون قد أسرفنا فى مال الله تعالى^(٣).

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيت عمر أخذ تينة من الأرض فقال: يا ليتنى هذه

التينة، ليتنى لم أكل شيئًا، ليت أمى لم تلدننى^(٤).

وعن قتادة: لما ورد عمر الشام، صنع له طعام لم ير قبله مثله فلما أوتى به قال: هذا

لنا، فما لفقراء المسلمين، الذين باتوا لا يشبعون من خبز الشعير؟

فقال خالد بن الوليد - رضى الله عنه -: لهم الجنة، فاغرو رقت عيناه، فقال: إن كان

حظنا فى هذا ويذهب أولئك بالجنة لقد بانوا بونا بعيداً^(٥).

(١) أخبار عمر - رضى الله عنه - (ص ٢٩٢).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣ / ٢٣٠) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة (٤ / ١٦١) بسند صحيح.

(٤) سير الخلفاء للذهبي (ص ٨٣)، وابن الجوزى فى المنتظم (٤ / ١٤١) بسند رجاله رجال الصحيح إلا

عاصم بن عبد الله بن عاصم ضعفه.

(٥) مناقب أمير المؤمنين لابن الجوزى.

وعن سالم بن عبد الله أن عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - كان يُدْخِلُ يده في دُبُر البعير، ويقول: إني خائف أن أسأل عما بك»^(١).

وكان عمر ربما يدنى يده من النار، ويقول: ابن الخطاب، هل لك على هذا صبر^(٢).

وعن البراء بن معرور أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج يوماً حتى أتى المنبر - وقد كان اشتكى شكوى له - فَنَعَتَ له العسل، (وصفوه له) وفي بيت المال عُكَّة، فقال: إن أذنتم لى فيها أخذتها، وإلا فهي على حرام^(٣).

وقال ابن الجوزى فى مناقب عمر:

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: رأيت عمر ابن الخطاب - رضوان الله عليه - على قتب يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير نَدَّ (أى فرّ وهرّب) من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أذلت الخلقاء بعدك.

فقال: يا أبا الحسن لا تلمنى، فوالذى بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة.

وعن قتادة قال: كان معقيب على بيت مال عمر فكسح بيت المال يوماً فوجد فيه درهماً، فدفعه إلى ابن عمر، قال: معقيب ثم انصرفت إلى بيتى فإذا رسول عمر قد جاء يدعونى، فجئت فإذا الدرهم فى يده فقال: «ويحك يا معقيب! أوجدت علىّ فى نفسك شيئاً؟ أو مالى ومالك؟ فقلت: وما ذاك؟

قال: أردت أن تخصمنى أمة محمد ﷺ فى هذا الدرهم يوم القيامة^(٤).

وهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حفرت الدموع خطّين أسودين فى وجهه. فقل لى بربك: كيف تحفر الدموع مجرى فى اللحم.

من لم يبت والخوفُ حشو فؤاده لم يدر كيف تُفَتُّ الأكبادُ

وكان يمرُّ بالآية من ورده بالليل فيمرض حتى يعودهُ الصحابة شهراً.

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢١٧) ورجاله ثقات.

(٢) أخبار عمر (ص ٣٠٧) نقلاً عن ابن الجوزى.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٩) وتاريخ الطبرى (٢/ ٥٦٩) بسند صحيح.

(٤) مناقب أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) لابن الجوزى.

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: سمعتُ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوماً وخرجتُ معه، حتى دخل حائطاً، فسمعتُهُ يقول - وبينى وبينه جدار، وهو فى جوف الحائط -: عمرُ بن الخطاب أميرُ المؤمنين! بَخ^(١)! واللهِ لتتقين الله يا ابن الخطاب، أو ليعذبَنَّكَ^(٢).

صفحات مشيئة من زهد - رضى الله عنه -

كان - رضى الله عنه - متواضعاً فى الله، خشن العيش، خشن المطعم، شديداً فى ذات الله، يرقع الثوب بالأدم - الجلد - ويحمل القرية على كتفيه، مع عظيم هيئته، ويركب حماراً عرياً، والبعير مخطوماً بالليف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحداً، وكان نقش خاتمه: «كفى بالموت واعظاً يا عمر»^(٣).

ولما تولى الخلافة، قال: «لا يحلُّ لى من مال الله إلا حُلَّتَان، حُلَّةٌ للشتاء وحُلَّةٌ للصيف، وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم، ثم أنا رجل من المسلمين!!».

قال ابن الجوزى فى مناقب عمر: قال عبد العزيز بن أبى جميلة: أبطأ عمر ابن الخطاب - رضوان الله عليه - جمعة بالصلاة فلما خرج صعد المنبر، واعتذر إلى الناس فقال: «إنما حبسنى قميصى هذا لم يكن لى قميص غيره كان يُخاط، أبيض، لا يجاوز كفه رسغ كفيه»^(٤).

وعن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى يدي لحمًا معلقًا.

قال: «ما هذا يا جابر؟! قلت: اشتريت لحمًا فاشتريته.

فقال عمر: كلما اشتريت اشتريت! أما تخاف هذه الآية: «أذهبتم طياتكم فى حياتكم الدنيا»^(٥).

(١) اسمُ فعل يُقال عند الرضا بالشيء.

(٢) إسناده صحيح متصل، موقوف على عمر - رضى الله عنه - أخرجه أحمد فى الزهد، وابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس.

(٣) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥ / ٢١٤).

(٤) الطبقات لابن سعد (٣ / ٢٥١) وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ والإمام أحمد فى الزهد (١٥٣) والبيهقى فى الشعب (٥٢٨٤).

وعن حميد بن هلال أن حفص بن أبي العاص كان يحضر طعام عمر، فكان لا يأكل. فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟

قال: إن طعامك جَشَبٌ غليظ، وإنى راجع إلى طعام لين قد صُنِعَ لى فأصيب منه. قال: أترانى أعجزُ أن أمرَّ بشاة فيُلْقَى عنها شعرها، وأمرُّ بدقيق فيُنخل في خرقه ثم يُصب في خرقه، ثم أمر به فيُخبز خبزاً رقائقاً، وأمر بصاع من زبيب فيُقذف في سُنْ، ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دَمٌ غزال؟ فقال: إني لأراك عالماً بطيب العيش!

فقال: أجل! والذي نفسى بيده لولا أن تتقص حسناتى لشاركتكم فى لين عيشكم^(١).

وعتب عمر، فقيل له: لو أكلت طعاماً طيباً كان أقوى لك على الحق؟ فقال: «إنى تركت صاحبي على جادة، فإن تركت جادتهما، فلن أدركهما فى المنزل».

وكان فى عام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسودَّ جلده، ويقول: «بش الوالى أنا إن شبعت والناس جياع!!»... لله درك يا عمر.

عن أنس - رضى الله عنه - قال: تقرقر بطن عمر عام الرمادة، فكان يأكل الزيت، وكان قد حرم على نفسه السمن، قال: فنقر عمر بطنه بأصبعه، وقال: تقرقر، إنه ليس عندنا غيره حتى يحيا الناس^(٢).

وعن معاوية - رضى الله عنه - قال: أما أبو بكر فلم يُرد الدنيا، ولم تُرده، وأما عمر فأرادته الدنيا، ولم يُردها، أما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن^(٣).

قال طلحة بن عبيد الله: ما كان عمر بن الخطاب بأولنا إسلاماً، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا، وأرغبنا فى الآخرة^(٤).

يا رافعاً راية الشورى وحارسها	جزاك ربك خيراً عن مُحِبِّها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به	رغم الخلاف ورأى الفرد يشقىها
إن جاع الخليفة فى شدة قوم شركتهم	الجوع أو تنجلي عنهم غواشيها

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢١٢) بسند رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد (ص ١٥٠).

(٣) سير الخلفاء للإمام الذهبى (ص ٨١).

(٤) أخرجه ابن عساكر (٥٢/ ٢٢٤) فى تاريخه، وابن الأثير فى أسد الغابة (٤/ ١٤٧) بسند حسن.

جُوع الخليفة والدنيا بقبضته
فمن يبارى أبا حفص وسيرته
يوم انتهت زوجه الحلوى فقال
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به
كذلك أخلاقه كانت وما
منزلة في الزهد سبحان موليتها
أو من يحاول للفاروق تشبيها
لها من أين لى بثمر الحلوى فاشريها
أولى فقومي لبيت المال رديها
عهدت بعد النبوة أخلاق تحاكيها

صفحات مشرقة من تواضعه - رضى الله عنه -

وها هو أمير المؤمنين (عمر) - رضى الله عنه - يضرب للأمة كلها أروع الأمثال في تواضعه.

قال قتادة: خرج عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة برزة على الطريق^(١)، فسلم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد عليها.
فقالت: هيه يا عمر، عهدتك، وأنت تُسمى عميراً في سوق عكاظ، تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشى الفوت، فبكى عمر - رضى الله عنه -.
فقال الجارود: هيه، لقد تجرأت على أمير المؤمنين، وأبكيته.
فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟

هى (خولة بنت حكيم) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات فعمرُ والله
أحرى أن يسمع كلامها^(٢).

وعن أنس بن مالك قال: سمعت عمر بن الخطاب يوماً، وخرجت معه حتى دخل
حائطاً، فسمعتة يقول: وبينى وبينه جدار، وهو فى جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير
المؤمنين بخ، والله، بنى الخطاب، لتقين الله، أو ليعذبنك^(٣).

(١) أى جالسة فى الطريق وظاهرة للناس - وكانت كبيرة فى السن وقتها -

(٢) المصباح (٢ / ٣٧)، وانظر «العقد الفريد» (٢ / ٣٥٨) نقلاً عن مختصر منهاج القاصدين، بتحقيق على حسن عبد الحميد (ص ١٧٠ - ١٧١).

(٣) رواه مالك فى الموطأ (٢ / ٩٩٢) فى الكلام، باب ما جاء فى التقى، وقال محقق جامع الأصول: إسناده صحيح.

وخرج عمر في سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتاً، ثم دخل بيتاً آخر، فلما أصبح طلحة، ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مُقعدة فقال: ما بال هذا الرجل يأتيك؟

قالت: إنه يتعاهدني من كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويُخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعرأت عمر تتبع؟! (١)

وقدم على عمر بن الخطاب وفد من العراق فيهم الأحنف بن قيس وفي يوم صائف شديد الحر، وعمر معتجر (متعمم) بعباءة يهنأ بعيراً من إبل الصدقة (أى يطليه بالقطران) فقال: يا أحنف، ضع ثيابك وهلم، فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم، والأرملة، والمسكين، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك؟

فقال عمر: وأى عبد هو أعبد مني، ومن الأحنف؟ إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده في النصيحة، وأداء الأمانة (٢).

وها هو الفاروق يدخل بيت المقدس فاتحاً راكباً برزونا، فجعل يتبخر به، فجعل يضربه بردائه، ثم قال: قُبِّحَ الله مَنْ علمك هذا! هذا من الخيلاء، ونزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي (٣).

وعن محمد بن عمر المخزومي، عن أبيه قال: نادى عمر بن الخطاب: الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس وكثروا صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: أيها الناس، لقد رأيتني أرعى على خالات لى من بنى مخزوم، فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب فأظل يومى وأى يوم.... ثم نزل، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زلت على أن قمئت (٤) نفسك؟ فقال: ويحك يا ابن عوف!! إني خلوتُ فحدثتني نفسي، فقالت: أنت أمير المؤمنين؛ فمن ذا أفضل منك؟ فأردتُ أن أعرفها نفسها (٥).

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٤٨) وإسناده صحيح.

(٢) أخبار عمر (رضى الله عنه) (ص: ٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبرى (٢/ ٤٥٠) وابن شبة فى «تاريخ المدينة» (٣/ ٨٢٢، ٨٢٣).

(٤) قمئت: أى: عبت.

(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٩٣).

وعن الحسن قال: خرج عمر بن الخطاب في يوم حارٍّ واضعاً رداءه على رأسه، فمرَّ به غلام على حمار، فقال: يا غلام، احملني معك. فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. قال: لا، اركب وأركب أنا خلفك. تريد تحملني على المكان الوطئ، وتركب أنت على الموضع الخشن!! فركب خلف الغلام، فدخل المدينة، وهو خلفه والناس ينظرون إليه^(١).

«وعن أبي محذورة قال: كنت جالساً عند عمر - رضى الله عنه - إذ جاء صفوان بن أمية بجفنة يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناساً مساكيناً وأرقاءً من أرقاء الناس حوله، فأكلوا معه، ثم قال عند ذلك: فعلَ الله بقوم - أو قال: لحي^(٢) الله قوماً - يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم!! فقال صفوان: أما والله، ما نرغب عنهم، ولكننا نستأثر عليهم، لا نجد - والله - من الطعام الطيب ما نأكل ونطعمهم»^(٣).

وقال عروة بن الزبير - رضى الله عنهما -: «رأيت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرهما»^(٤).

قصته مع الهرمزان (قصة في التواضع)

وانظر إلى قصته مع الهرمزان بعد هزيمة الفرس.

أتى وفد المسلمين وفيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان ومعهم الخمس من الغنائم، فدخلوا المدينة، فتيّمموا منزل أمير المؤمنين عمر فلم يروا أحداً فرجعوا، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا: إنه نائم في المسجد متوسداً برنساً له، فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنساً له كان قد لبسه للوفد، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره، والدرّة معلقة في يده. فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا.

(١) حياة الصحابة (٢/ ٥٥١).

(٢) أي: قبحهم الله ولعنهم.

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني (ص ٩٣).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٠).

وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: وأين حُجَّابُه؟ أين حرسه؟ فقالوا: ليس له حُجَّاب ولا حرس، ولا كاتب ولا ديوان. فقال: ينبغي أن يكون نبياً. فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء^(١).

يقول حافظ إبراهيم:

وراعَ صاحبَ كسرى أن رأى عمراً	بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها	سوراً من الجند والأحراس يحميها
رأه مستغرقاً في نومـه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً	ببردة كاد طول العهد يبلّيها
فهانَ في عينه ما كان يُكبره	من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلاً	وأصبح الجليل بعد الجليل يرويها
أمنتَ لما أقمت العدل بينهمُ	فنمتَ نومَ قرير العين هانيها

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

لقد ضرب فاروق الأمة - رضى الله عنه - أروع الأمثلة في اتباع النبى ﷺ واقتفاء أثره.

وحسبنا من كل هذا أن نتأمل تلك الأمثلة التى سطرها عمر - رضى الله عنه - على جبين التاريخ بسطور من نور.

عن عاتكة بنت زيد بن عمرو، وهى زوجة عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم أجمعين - أنها كانت تستأذن عمر بن الخطاب إلى المسجد فيسكت!! وكان عمر يقول لها: والله إنك لتعلمين أنى ما أحب هذا، وكان عمر رجلاً غيوراً.

فتقول: والله لأخرجن إلا أن تمنعنى... فلا يمنعها^(٢).

ولقد طعن عمر، وإنها لفى المسجد.

وفى رواية: كانت تشهد صلاة الصبح، والعشاء فى الجماعة فى المسجد، فقيل لها: لم تخرجين، وقد تعلمين أنه يكره ذلك، ويغار؟

(١) البداية والنهاية (٤ / ٨٩).

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١ / ١٩٨) فى القبلة باب ما جاء فى خروج النساء إلى المساجد.

قالت: فما يمنعه أن ينهاني !!؟

قالوا: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» (١).

انظر.. على الرغم من أن غيرة عمر على أهله شديدة.. هذه الغيرة التي كانت لا تخفى على رسول الله ﷺ إذ يقول: «بيننا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟

قالوا: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً» (٢)!!!

فعلى الرغم من هذه الغيرة الشديدة، إلا أنه أبى أن يخالف أمر رسول الله ﷺ... ولم لا؟! فما كان لفاروق الأمة الأواب الذي تربي على مائدة القرآن، وتلمذ على يد سيد الأنام، أن يخالف أمر حبيبه، وقدوته، ومثله الأعلى ﷺ (٣).

وعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب فضّل المهاجرين الأولين وأعطى أبناءهم دون ذلك وفضل أسامة بن زيد على عبد الله بن عمر، فقال عبد الله ابن عمر: فقال لي رجل: فضل عليك أمير المؤمنين من ليس بأقدم منك سنًا ولا أفضل منك هجرة ولا شهد من المشاهد ما لم تشهد.

فقال عبد الله: وكلمته، فقلت: يا أمير المؤمنين فضلت علي من ليس هو بأقدم مني سنًا ولا أفضل مني هجرة ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد؟ قال: ومن هو؟ قلت: أسامة بن زيد. قال: صدقت لعمر الله! فعلت ذلك لأن زيد ابن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عمر، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمر فلذلك فعلت (٤).

وعن حارثة بن مضرب: أنه حج مع عمر بن الخطاب، فأتاه أشراف أهل الشام، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا أصبنا من أموالنا رقيقًا ودواب، فخذ من أموالنا صدقة تطهرنا بها، وتكون لنا زكاة، فقال: هذا شيء لم يفعله صاحبائي قبلي، ولكن انتظروا حتى أسأل المسلمين (٥).

(١) أخرجه البخاري (٩٠٠) في الجمعة.

(٢) رواه البخاري رقم (٣٦٨٠) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أئمة الهدى ومصابيح الدجى / للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٣٤٠).

(٤) صحيح لغيره: رواه ابن سعد في الطبقات (٤ / ٥٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند رقم (٨٢، ٢١٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وعن عابس بن ربيعة عن عمر - رضى الله عنه -: أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: إني أعلم أنك حجرٌ لا تضر، ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبى ﷺ يقبلُك ما قبلُتُك^(١). إنه الاتباع فى أجلِّ صورهِ، وأسمى معانيهِ.

قال الحافظ فى الفتح: قال الطبرى: إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام، فخشى أن يظن الجاهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل النبى ﷺ.

ثم قال الحافظ رحمه الله: وفى قول عمر هذا التسليم للشارع فى أمور الدين، وحسن الاتباع، فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة فى اتباع النبى ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه. اهـ^(٢).

وعن السائب بن يزيد قال: كنت قائماً فى المسجد فحصبني^(٣) رجل فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فأتنى بهذين، فجئت بهما. قال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف.

قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ! (٤)

وهذه نصيحته - رضى الله عنه - لعموم الأمة يقول: إياكم، وأصحاب الرأى، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا^(٥).

(١) رواه البخارى رقم (١٥٩٧) فى الحج، باب ما ذكر فى الحجر الأسود.

(٢) فتح البارى (٣/ ٥٩٠، ٥٩١).

(٣) أى رمانى بالحصباء.

(٤) رواه البخارى رقم (٤٧٠) فى كتاب الصلاة، باب: رفع الصوت.

(٥) رواه أحمد فى المسند (٢١٣) وقال أحمد شاكراً: إسناده صحيح - ورواه البخارى (٤٢٣٥) المغازى - باب

غزوة خيبر.

الفاروق - رضى الله عنه - وكرامات الأولياء

إن الكرامات من الأشياء الثابتة التي امتن الله بها على أوليائه الصالحين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

ولقد امتن الله على فاروق الأمة - رضى الله عنه - بباقة عطرة من الكرامات سنكتفى بذكر بعضها.

يا سارية الجبل

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن عمر وجه جيشاً ورأس عليه رجلاً يقال له سارية. قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادى: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، ثلاثاً، ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هُزِمْنَا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا منادياً: يا سارية الجبل ثلاثاً، فأستندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله، قال: فقل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك^(١).

قال الشيخ الألباني - رحمه الله عليه -: فالقصة صحيحة ثابتة، وهي كرامة أكرم الله بها عمر، حيث أنقذ به جيش المسلمين من الأسر أو الفتك به، ولكن ليس فيها ما زعمه المتصوفة من الاطلاع على الغيب، وإنما هو من باب الإلهام (في عرف الشرع) أو (التخاطر) في عرف العصر الحاضر الذي ليس معصوماً، فقد يصيب كما في هذه الحادثة، وقد يخطئ كما هو الغالب على البشر^(٢).

(١) رواه البيهقي في الدلائل، وابن عساكر، وذكره ابن كثير في البداية (٧/ ١٣٥)، وقال: وهذا إسناد جيد حسن، ووافقه الألباني، وقال: وهو كما قال: انظر الصحيحة رقم (١١١٠).

(٢) السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني (١١١٠).

من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر

عن قيس بن الحجاج عن حدثه قال: لما افتُتحت مصر أتى أهلها عمرو ابن العاص - حين دخل بؤنة من أشهر العجم - فقالوا: أيها الأمير، لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت انتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلوى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا عما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله. قال: فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى (والنيل) لا يجرى قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإنى قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد، فإن كنت إنما تجرى من قبلك ومن أمرك فلا تجر فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجرى بأمر الله الواحد القهار، وهو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك» قال: فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله السنة السيئة عن أهل مصر إلى اليوم^(١).

عن معاوية بن قرّة، أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لقي ناساً من أهل اليمن فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المتكلمون، إنما المتوكل من يلقى حبه في الأرض ويتوكل على الله عز وجل^(٢).

وعن المعرور بن سويد، عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم، ما أوضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا كلاً على المسلمين^(٣).

(١) البداية والنهاية للمحافظ ابن كثير (٧/ ١٠٢ - ١٠٣).

(٢) التوكل لابن أبي الدنيا (ص ٤٨) وإسناده صحيح. انظر تحقيق الدوسري.

(٣) إسناده حسن. ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان (٢/ ١٣٦).

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

لعلنا في كل يوم نرى مشاهدكم من التشاحن والبغضاء بين المسلمين ولا نرى من يعفو أو يسامح إلا في القليل النادر.. والسبب في ذلك ضعف الإيمان وعدم الوقوف عند كتاب الله - عز وجل - الذي يأمرنا بالعفو والمسامحة والإعراض عن الجاهلين.

وها هو فاروق الأمة - رضى الله عنه - مع قدرته على أن يثار لنفسه - فهو أمير المؤمنين - وعلى الرغم من ذلك فإنه ما إن سمع آية من كتاب الله حتى أذعن لقول الله - عز وجل -

فمن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاورته كهولاً كانوا، أو شباباً.

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، قال: فاستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا ابن الخطاب فوالله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكم بيتنا بالعدل فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله (١).

صاحب القلب الرحيم برعيته - رضى الله عنه -

وها هى صور مشرقة من رحمة الفاروق - رضى الله عنه - وشفقته برعيته التى عاشت فى ظل خلافته الراشدة.

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب - رحمه الله - إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار، إذا نار تؤرث، فقال: يا أسلم، إنى أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهروا حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان لها، وقد ر منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب

(١) رواه البخارى رقم (٤٦٤٢) فى التفسير باب «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين».

الضوء - وكره أن يقول: يا أصحاب النار - قالت: وعليك السلام.

قال: أأدنو؟ قالت: أدن بخير أو دَعْ، فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع.

قال: وأي شيء في هذا القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر! قال: أي رحمك الله، ما يُدرى عمر بكم؟! قالت: يتولى أمرنا، ويغفل عنا!... فأقبل على فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهروا حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال: احمله على! فقلت: أنا أحمله عنك، قال: احمله على، مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك أقول: أنا أحمله عنك، فقال لي في آخر ذلك: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة؟! لا أم لك، فحملته عليه، فانطلق، وانطلقت معه نهروا، حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذري على، وأنا أحرك لك، وجعل ينفخ تحت القدر - وكان ذا لحية عظيمة - فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج وأدّم القدر، ثم أنزلها، وقال: ابغني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها، ثم جعل يقول: أطعميهم، وأنا أسطح لك، فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلّى عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فيقول: قولي خيراً، إنك إذا جئت أمير المؤمنين، وجدتنى هناك إن شاء الله.

ثم تنحى ناحية عنها، ثم استقبلها وربض مريض السبع، فجعلت أقول له: إن لك شأنًا غير هذا، وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون، ثم ناموا، وهدؤوا، فقام، وهو يحمد الله. ثم أقبل على فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم^(١).

وعن ابن عمر قال: قدّمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة من السرقة؟ فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله، وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك: إني لأراك أمّ سوء، مالي أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة؟

(١) تاريخ الطبري (٥٦٨ / ٢) بسند رجاله رجال الصحيح، وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد (٣٨٢) في الفضائل.

قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة، إني أريغُه عن الفطام فأبى؟ قال: ولم؟
قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطُم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهراً، قال:
ويحك لا تعجلية!

فصلى الفجر، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلّم قال: يا بؤساً
لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين؟! ثم أمر منادياً فنادى: ألا لا تعجلوا صبيانكم عن
الفطام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق، أن يفرض لكل
مولود في الإسلام^(١).

وعن أبي عثمان قال: استعمل عمر - رضي الله عنه - رجلاً من بني أسد على عمل،
فدخل ليسلم عليه فأثنى عمر ببعض ولده فقبله، فقال الأسدى: أتقبل هذا يا أمير
المؤمنين؟ فوالله ما قبلت ولداً لي قط!!

فقال عمر: فأنت والله بأولاد الناس أقل رحمة، لا تعمل لي عملاً أبداً، فردَّ عهده أو
قال: فما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك، وإنما يرحم الله من عباده
الرحماء، ثم قال: مزق الكتاب، فإنه إذا لم يرحم أولاده، فكيف يرحم الرعية^(٢).

وعن قسامة بن زهير قال: وقف أعرابي على عمر بن الخطاب فقال:
يا عُمَرَ الخَيْرَ جُزِيتَ الْجَنَّةَ جَهَّزَ بُنْيَاتِي وَاكْسَهْنَهُ
أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّهُ

قال: فإن لم أفعل يكون ماذا يا أعرابي؟
قال: أقسم بالله لأمضيته.

قال: فإن مضيت يكون ماذا يا أعرابي؟

والله عن حالي لَتُسألَنَّهُ ثم تكونُ المسألات عنه
والواقفُ المسئولُ بينها إماً إلى نارٍ وإماً جنة

قال: فبكى عمر حتى أخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: يا غلام، أعطه قميصي هذا،

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٢٨، ٢٢٩) ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٩٠) والبخارى في الأدب (٩٩)، وحسن إسناده الشيخ الألباني في صحيح
الأدب المفرد (٧٢).

لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك قميصاً غيره! (١)

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قدم علينا عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حاجاً فصنع له صفوان بن أمية طعاماً قال: فجاؤوا بجفنة يحملها أربعة، فوضعت بين القوم فأخذ القوم يأكلون، وقام الخُدام فقال عمر: مالى أرى خُدامكم لا يأكلون معكم، أترغبون عنهم؟ فقال: سفيان بن عبد الله: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكننا نستأثر عليهم، فغضب غضباً شديداً، ثم قال: ما لقوم يستأثرون على خُدامهم؟ فعل الله بهم وفعل، ثم قال: للخُدام اجلسوا، فكلوا، فقعد الخُدام يأكلون، ولم يأكل أمير المؤمنين (٢).

محبتته وحرصه على رعيته جلب الخير للأمة كلها

وها هو عمر - رضى الله عنه - تراه يحرص كل الحرص على رعيته. يخشى عليهم من المعاصي ويخشى أن يكون بينهم جائع أو مريض يحتاج إلى من يعينه.. فكان - رضى الله عنه - بمثابة طوق النجاة لرعيته.. وذلك لأنه يراقب ربه فى الليل والنهار ولا يأمر رعيته إلا بطاعة الله - جل وعلا -.

عن أسلم قال: بينما أنا مع عمر بن الخطاب، وهو يعس بالمدينة إذ عى فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل، وإذا امرأة تقول لابتها: يا بتاه قومى إلى ذلك اللبن فامدقيه بالماء - أى امزجيه بالماء -.

قالت لها: يا أمتاه أو ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين؟

قالت: وما كان من عزمته يا بشية؟!

قالت: إنه أمر مناديه فنادى لا يُشَاب اللبن بالماء.

فقالت لها: يا بنية قومى إلى اللبن فامدقيه بالماء، فإننا بموضع لا يراك عمر، ولا منادى عمر.

فقالت الصبية لأمتها: يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه فى الملاء، وأعصيه فى الخلاء، وعمر يسمع ذلك كله، فقال: يا أسلم علم الباب، واعرف الموضع، ثم مضى فى عسسه،

(١) أخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة (٤ / ١٥٥) بسند صحيح، والخبر فى مناقب عمر لابن الجوزى وغيره.

(٢) أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٠١)، وقال الألبانى فى صحيح الأدب (١٤٨): صحيح الإسناد.

فلما أصبح قال: يا أسلم امض إلى الموضع، فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما من بعل؟ - أي زوج -.

فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيم لا بعل لها، وإذا تيك أمها ليس لها بعل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج امرأة فأزوجه؟ لو كان بأيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فقال عبد الله: لى زوجة، وقال عبد الرحمن: لى زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لى، فزوجنى، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم، فولدت له بنت، فولدت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله (١).

وعن سعيد بن جبير بسند رجاله ثقات: كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذا أمسى أخذ درته، ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئاً ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يعسّ إذ مرّ بامرأة على سطح وهى تقول:

وأرقنى ألا خليل الأعبه	تطاول هذا الليل واخضلّ جانبه
لحرّك من هذا السرير جوانبه	فوالله لولا الله لا ربّ غيره
وأكرم بعلى أن تُنال مراكبه	مخافة ربي والحياء يصدنى

ثم تنفست الصعداء، وقالت: لهان على عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة، فضرب باب الدار، فقالت: من هذا الذى يأتى إلى امرأة مغيبة (غاب زوجها) هذه الساعة؟! فقال: افتحى، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها، قال: افتحى فأنا أمير المؤمنين.

قالت: كذبت ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته، وجهر لها، فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت.

فقال: أين زوجك؟

قالت: فى بَعَث كذا، وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرّح فلان ابن فلان، فلما قدم عليه، قال: اذهب إلى أهلك - زوجتك -.

ثم دخل على حفصة ابنته فقال: أى بُنيّه كم تصبر المرأة عن زوجها؟

(١) أخرجه ابن حبان فى العقلاء (ص ٥٤) بسند حسن.

قالت: شهرًا واثنين، وثلاثة، وفي الرابع ينفذ الصبر، فجعل ذلك أجلًا للبعث (١).

فتأمل معي أخي الكريم: كيف أن حرصه - رضى الله عنه - على رعيته ومراقبته لهم كان السبب في كل خير عاشته الأمة المسلمة في عهده، بل لقد كان - رضى الله عنه - يعلم الأمة أن الكون كله قد سخره الله لعباده المؤمنين فإن زاغوا وابتعدوا عن طاعة الله فإن الكون كله يتأذى بمعصيتهم وينقلب نقمة عليهم.

فمن صفية بنت أبي عبيد قالت: تزلزلت الأرض على عهد عمر حتى اصطفت السرور، فخطب عمر الناس فقال: أحدثتم، لقد عجلتكم، لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم ولا أساكنكم فيها أبدًا (٢).

حرصه على العدل - رضى الله عنه - ونصائحه للولاة

كان الفاروق - رضى الله عنه - حريصًا على العدل غاية الحرص، ولذا كان يتقى (الولاة) انتقاءً فكان لا يعطى الولاية لمن يحرص عليها، بل كان يعطيها لأهل الزهد والعفاف والتقوى، وكان يحرص على أن يتابعهم ويوصيهم بالناس خيرًا.

عن ابن خزيمة بن ثابت الأنصاري قال: كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له عهدًا، وأشهد عليه رهطًا من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذونًا، ولا يأكل نقيًا، ولا يلبس رقيقًا، ولا يتخذ بابًا دون حاجات الناس (٣).

وبينما عمر بن الخطاب يتصفح الناس يسألهم عن أخبار أمرائهم، إذ مرَّ بأهل حمص، فقال: كيف أنتم؟ وكيف أميركم؟ قالوا: خير أمير يا أمير المؤمنين، إلا أنه قد بنى عليةً يكون فيها.

فكتب كتابًا، وأرسل بريدًا، وأمره إذا جئت باب علية فاجمع خطبًا وأحرق الباب. فلما قدم جمع خطبًا، وأحرق باب العلية، فدخل عليه الناس، وذكروا أن هاهنا رجلًا يحرق باب علية!

فقال: دعوه فإنه رسول أمير المؤمنين، ثم دخل عليه فناوله الكتاب، فلم يضع الكتاب

(١) أخرجه عبد الرزاق، والبيهقي (٢٩١٩)، والخبر في الطبقات الكبرى لابن سعد، روضة المحبين لابن القيم (٢٥٢ - ٢٥٣) ط. ابن كثير. سوريا.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٤٧٣ / ٢) والبيهقي (٣٤٢ / ٣) وإسناده صحيح.

(٣) تاريخ الطبري (٥٦٩ / ٢) بسند صحيح.

من يده حتى ركب، فلما رآه عمر قال: احبسوه عني في الشمس ثلاثة أيام، فحبس عنه ثلاثاً، حتى إذا كان بعد ثلاث، قال: يا ابن قرط! الحقني إلى الحرّة (وفيها إبل الصدقة، وغنمها) حتى إذا جاء الحرّة ألقى عليه جبة، وقال: انزع ثيابك واتزر بهذه، ثم ناوله الدلو فقال: اسق هذه الإبل، فلم يفرغ حتى لغّب (أي تعب).

فقال: يا ابن قرط! متى كان عهدك بهذا؟ - أي بالإمارة -

قال: ملياً (أي زماناً) يا أمير المؤمنين.

قال: فلهذا بنيت العلّة، وأشرفت بها على المسلمين، والأرملة واليتيم... ارجع إلى عملك ولا تعد^(١).

وعن زيد بن وهب قال: خرج عمر - رضى الله عنه - ويده في أذنيه وهو يقول: يا لبيكاه! يا لبيكاه! قال الناس: ماله؟!!

قال: جاءه بريدٌ من بعض أمراءه، أن نهرًا حال بينهم، وبين العبور، ولم يجدوا سَفْناً فقال أميرهم: اطلبوا لنا رجلاً، يعلم غور الماء فأتى بشيخ، فقال: إني أخاف البرد، (وذلك في البرد)، فأكرهه، فأدخله، فلم يلبثه البرد، فجعل ينادى: يا عمراه.. يا عمراه.. ففرق.

فكتب إليه فأقبل فمكث أياماً معرضاً عنه، وكان إذا وجد على أحدٍ منهم فعل به ذلك، ثم قال: ما فعل الرجل الذي قتلته؟!!

قال: يا أمير المؤمنين، ما تعمدت قتله، لم نجد شيئاً نعبر فيه وأردنا أن نعلم غور الماء، ففتحنا كذا، وكذا، وأصبنا كذا، وكذا (أي من الغنيمة).

فقال عمر: لرجلٍ مسلم أحب إليّ من كل شيء جئت به، لولا أن تكون سنة!! لضربت عنقك، اذهب فاعط أهله ديتي، واخرج فلا أراك^(٢).

وعن المغيرة بن حكيم الصنعاني عن أبيه قال: أن امرأة بصنعاء غاب عنها زوجها، وترك في حجرها ابناً له من غيرها غلاماً يقال له أصيل، فأتخذت المرأة بعد زوجها خليلاً فقالت له: إن هذا الغلام يفضحنا فاقتله فأبى، فامتنعت منه، فطاوعها، فاجتمع على قتل الغلام الرجل، ورجل آخر، والمرأة، وخادمها فقتلوه، ثم قطعوه أعضاء، وجعلوه في عيبة

(١) الرياض النضرة (٢/ ٥٥).

(٢) أخرجه البيهقي (٨/ ٣٢٢ - ٣٢٣) وإسناده صحيح.

(هى وعاء من أدم) فطرحوه فى ركية (هى البئر التى لم تطو) فى ناحية القرية ليس فيها ماء، فأخذ خليلها، فاعترف ثم اعترف الباكون فكتب يعلى - وهو يومئذ أمير - بشأنهم إلى عمر فكتب إليه عمر بقتلهم جميعاً، وقال: والله لو أن أهل صنعاء اشتركوا فى قتله لقتلتهم أجمعين^(١).

ما أجمل الوفاء

كان الفاروق - رضى الله عنه - لا ينسى أبداً كل من قدم للإسلام شيئاً ولو كان صغيراً... ويا له من وفاء نحتاج إليه فى هذا الزمان الذى انعدم فيه الوفاء عند أكثر الناس - إلا من رحم الله -.

وها هو مشهد عظيم للوفاء. عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجى، وترك صبية صغاراً، والله ما ينضجون كُراعاً^(٢)، ولا لهم زرع، ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبُع^(٣)، وأنا بنت خُفاف بن إيماء الغضارى، وقد شهد أبى الحديبية مع رسول الله ﷺ فوقف معها عمر، ولم يمض، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً فى الدار فحمل عليه غرارتين، ملأهما طعاماً، وحمل بينهما نفقةً، وثياباً، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتىكم الله بخير.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها.

قال عمر: ثكلتك أمك، والله إنى لأرى أبا هذه، وأخاها قد حاصراً حصناً زماناً فافتحاه، ثم أصبحنا نستفىء سهماننا فيه^(٤).

(١) رواه البخارى رقم (٦٨٩٦) فى الديات مختصراً، وانظر الفتح (١٢ / ٢٨١).

(٢) هو ما دون كعب الشاة، قال الخطابى: معناه أنهم لا يكفون أنفسهم معالجة ما يأكلونه.

(٣) أى السنة المجذبة، ومعنى تأكلهم: أن تهلكهم (فتح البارى ٧ / ٥٦٦).

(٤) رواه البخارى رقم (٤١٦٠، ٤١٦١) فى المغازى، باب غزوة الحديبية.

أمنية عمرية

إلى أصحاب الأمانى الدنيوية الزائلة.

أهدى إليكم جميعاً تلك الأمنية العمرية.

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال لأصحابه: تمنوا.

فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه فى سبيل الله وأتصدق.

وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجداً وجوهرات فأنفقه فى سبيل الله، وأتصدق.

ثم قال عمر: تمنوا.

فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل،

وسالم مولى أبى حذيفة، وحذيفة بن اليمان^(١).

نُصِرْ مَنْ قَدَّرَ اللَّهُ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ

بكل يقين وثقة قال فاروق الأمة تلك الكلمات لأبى عبيدة بن الجراح فى قصة

طاعون عمواس.

فعن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج إلى الشام، حتى

إذا كان بسرغ^(٢) لقيه أمراء الأجناد - أبو عبيدة بن الجراح، وأصحابه - فأخبروه أن الوباء

قد وقع بأرض الشام.

قال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لى المهاجرين الأولين، فدعاهم، فاستشارهم،

وأخبرهم أن الوباء قد وقع بأرض الشام، فاختلفوا: فقال بعضهم قد خرجنا لأمر، ولا

نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لى الأنصار

فدعوهم، فاستشارهم، فسلخوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا

عني، ثم قال: ادعُ لى مَنْ كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتوح، فدعوتهم فلم

يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء.

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٣ / ٢٢٦)، وصححه، ووافقه الذهبى.

(٢) سرغ: مدينة افتتحها أبو عبيدة، وهى اليرموك والجابية متصلات، وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة.

فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة ابن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة.

نعم نفرٌ من قدر الله إلى قدر الله^(١). أرأيت إن كانت لك إبلٌ هبطت وادياً له عدوتان^(٢): إحداهما خصيبة، والأخرى جذبة! أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجذبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيّباً في بعض حاجته - فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فحمد الله عمرٌ ثم انصرف^(٣).

شبهة حول عزل خالد بن الوليد - رضى الله عنه - والردة عليها

إن من أسخف الظنون أن يُظنَّ أن فاروق الأمة العادل الأواب قد عزل خالد بن الوليد - رضى الله عنه - لضغينة في نفس عمر أو لبغضاء قديمة كانت بينه وبين خالد إلى آخر هذه الدعاوى الباطلة، والأخبار المكذوبة المبثوثة في كتب التاريخ.

فوالله إني لأبرئُ منها آحاد المؤمنين الصادقين، فكيف بالفاروق القوي الأمين المزكى من رب العالمين، وسيد المرسلين ﷺ.

والعجيب أن الفاروق نفسه - رضى الله عنه - قد بينَّ سبب عزله لخالد بجلاء ووضوح، فقال: «إني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانة ولكن الناس فُتنوا به فخفت أن يוכלوا إليه، فأحببت أن أعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة»^(٤).

وما أجمل وأعذب كلماته التي ودَّع بها عمر بن الخطاب خالد بن الوليد يوم موته: رحم الله أبا سليمان.. ما عند الله خيرٌ مما كان فيه.. لقد عاش حميداً.. ومات سعيداً.

(١) قال الحافظ في الفتح: في رواية هشام بن سعد «إن تقدمنا بقدر الله، وإن تأخرنا فبقدر الله» وأطلق عليه فراراً لشبهه به في الصورة، وإن كان ليس فراراً شرعياً، والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهي عنه ولو فعل لكان من قدر الله وتجنبه ما يؤذيه مشروع، وقد يقدر الله وقوعه فيما فر منه، فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله، فهما مقامان: مقام التوكل، ومقام التمسك بالأسباب اهـ (١٠ / ٢٢٨).

(٢) عدوتان: تشبة عدوة، وهو المكان المرتفع من الوادي، وهو شاطئه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٩) الطب - باب ما يذكر في الطاعون.

(٤) تاريخ الطبري (٢ / ٤٩٢).

والعجيب أن عمر لم ينس خالداً - رضى الله عنه - حتى وهو على فراش الموت، لما قيل له: لو عهدت يا أمير المؤمنين فقال: لو أدركت أبا عبيدة ثم وليته، ثم قدمت على ربي فقال لى: لم استخلفته لقلت: سمعت عبدك وخليتك ﷺ يقول: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته فقدمت على ربي لقلت: سمعت عبدك وخليتك ﷺ يقول: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلكه الله على المشركين^(١).

«فتح بيت المقدس»

«من تواضع لله رفعه الله»

وفى ظل تلك الفرحة الغامرة (فتح بيت المقدس) وإذا بأمر المؤمنين يضرب المثل للأمة المسلمة في الزهد والتواضع.

قال ابن كثير - رحمه الله -: لما فرغ أبو عبيدة من دمشق كتب إلى أهل إيليا يدعوهم إلى الله، وإلى الإسلام أو يبذلون الجزية، أو يؤذنوا بحرب فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه.

فركب إليهم في جنوده، واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس، وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار (عمر) الناس في ذلك، فأشار عثمان ابن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم، وأرغم لأنوفهم.

وأشار على بن أبى طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم، فهو ما قال (على) ولم يهو ما قال (عثمان) وسار بالجيش نحوهم، واستخلف على المدينة على بن أبى طالب، وسار العباس ابن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، فترجل أبو عبيدة، وترجل عمر فأشار أبو عبيدة ليُقبَل يد عمر فهم عمر بتقبيل رجل أبى عبيدة فكف أبو عبيدة، فكف عمر.

ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، ثم جاء إلى

(١) نقلاً من أئمة الهدى / للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٣٨٣: ٣٨٤).

الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه فقال: ضاهيت اليهودية، ثم جعل المسجد في قبلى بيت المقدس، وهو العمرى اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة فى طرف رداءه وقبائه، ونقل المسلمون معه. اهـ^(١).

وعن أبى العالية الشامى قال: قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيليا على جمل أورك، تلوح صلته للشمس ليس عليه قلنسوة، ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتى الرجل بلا ركاب... وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيته نمر، أو شملة محشوة ليف، هى حقيته إذا ركب ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس (ثوب خشن) قد رسم، وتخرق جنبه.

فقال: ادعوا لى رأس القوم، فدعوا له الجلومس، فقال: اغسلوا قميصى وخطوه، وأعبرونى ثوباً، أو قميصاً.

فأتى بقميص من كتان، فقال: ما هذا؟

قالوا: كتان.

قال: وما الكتان؟

فأخبروه، فنزع قميصه، فغسل ورقع وأتى به فنزع قميصهم، ولبس قميصه.

فقال له الجلومس: أنت ملك العرب، وهذه البلاد لا تصلح لها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا، وركبت برذوناً لكان ذلك أعظم فى أعين الروم.

فقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نطلب بغير الله بديلاً.

فأتى ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل، فركبه بها فقال: احبسوا احبسوا: ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا، فأتى بجملته فركبه. اهـ^(٢).

ولله در حافظ إبراهيم حين يقول فى عمرته:

يا من صدفت عن الدنيا وزيتها	فلم يغرك من دنياك مغريها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا	أن يكبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه	خيل مطهمة تحلو مرائيها

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ٥٧).

(٢) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ٥٧).

مشى فهلج مختالاً براكبـه
فصحت: يا قوم، كاد الزهو يقتلني
وكاد يصبو إلى دنياكم عمرٌ
ردوا ركابي فلا أبغى به بدلاً
وفى البراذين ما تزهى بعاليها
ودا خلتي حالٌ لست أدريها
ويرتضى بيع باقيها بفانيها
ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها

وعن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع موقيه فأمسكهما بيد، وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا. قال: فصك في صدره. وقال: أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كتمت أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلکم الله^(١).

موقفه - رضى الله عنه - في عام الرمادة

قال ابن الجوزي: وذلك أن الناس، أصابهم جَدْبٌ، وقحط، وجوع شديد حتى جعلت الوحش تأوى إلى الإنس، وكانت الريح تسفى تراباً كالرماد، فسُمي ذلك العام، عام الرمادة، وكان الرجل يذبح الشاة فيعافها من قُبْحها، وإنه لمعسر.

فآلى عمر ألا يذوق سمناً، ولا لبناً، ولا لحماً حتى يحيى الناس، وإن غلاماً لعمر اشترى عُكَّةً من سمن ورطباً من لبن بأربعين، ثم أتى بهما عمر، فقال عمر - رضى الله عنه -: تصدق بهما فإنى أكره أن أكل إسرافاً، كيف يعينى شأن الرعية إذا لم يمسسنى ما مسهم. اهـ^(٢).

فجمع عمر - رضى الله عنه - الناس للاستسقاء، وأخذ معه العباس عم رسول الله ﷺ.

ثم قال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، فالآن نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا^(٣).

ثم طلب من العباس أن يدعو الله، فقام العباس فقال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا

(١) البداية والنهاية (٤ / ٦١).

(٢) المنتظم (٤ / ٢٥٠).

(٣) رواه البخارى رقم (١٠١٠) في الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

بذنوب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخضبت الأرض وعاش الناس.

وكان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالكفاح والطاعة والبذل والتضحية أحسَّ فاروق الأمة باقتراب أجله فقام يدعو بهذا الدعاء راجياً من الله أن يحقق له تلك الأمنية الغالية.

قال - رضى الله عنه -: «اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك، واجعل موتى فى بلد رسولك»^(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: لما صدر عمر من منى أناخ بالأبطح، ثم كَوْمَ كومة من البطحاء، ثم ألقى عليها نفسه فلزق بثوبه، واستلقى، ومد يده إلى السماء فقال: اللهم ضعفت قوتى، وكبرت سنى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع، ولا مفرط، ثم قدم المدينة، فخطب فقال: أيها الناس: إنى قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتكم على واضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينا، وشمالاً...

قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة، حتى قُتل عمر^(٢).

بل إنه رأى رؤيا بتلك الشهادة.

فعن معدان بن أبى طلحة العمرى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قام على المنبر يوم الجمعة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر النبى ﷺ وذكر أبا بكر - رضى الله عنه - ثم قال: رأيت رؤيا لا أراها إلا بحضور أجلى، ورأيت ديكا نقرنى نقرتين، فقصصتها على أسماء بنت عميس فقالت: يقتلك رجل من العجم^(٣).

ولقد بشره الحبيب ﷺ قبل ذلك بتلك الشهادة.

فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صعد أهدأ، ومعه أبو بكر وعمر، وعثمان، فرجف فضربه برجله، وقال: «اثبت أهدأ، فما عليك إلا نبى، وصديق، وشهيدان»^(٤).

(١) أخرجه البخارى (١٨٩٠) فى فضائل المدينة.

(٢) أخرجه الحاكم (٩١ / ٣) ومالك (٨٢٤ / ٢) وابن أبى الدنيا فى مجابوا الدعوة (٩).

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٦٨، ٣٦٢) مختصراً ورواه مسلم والحاكم (٩٠ - ٩١).

(٤) رواه البخارى (٣٦٧٥) فى الفضائل، باب قول النبى لو كنت متخذاً خليلاً، وأبو داود رقم (٤٦٥١) فى =

ورأى رسول الله ﷺ على عمر ثوباً غسيلاً فقال: «أجد يد ثوبك هذا أم غسيل؟» قال: غسيل يا رسول الله، قال: «البس جديداً، وعش حميداً، وتوفَّ شهيداً، ويعطيك الله قرة عين في الدنيا والآخرة» (١).

وفي صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟

قال حذيفة: أنا أحفظ كما قال: قال: هات، إنك لجرىء، قال رسول الله ﷺ: فتنة الرجل في أهله، وماله، وجاره تكفرها الصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. قال: ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر.

قال: يا أمير المؤمنين لا بأس عليك منها، إن بينك وبينها باباً مغلقاً.

قال: يُفتح الباب أو يُكسر؟ قال: لا، بل يُكسر، قال: ذلك أحرى أن لا يغلق (٢).

قال النووي: يحتمل أن يكون حذيفة علم أن عمر يُقتل، ولكنه كره أن يخاطبه بالقتل لأن عمر كان يعلم أنه الباب فأتى بعبارة يحصل بها المقصود بغير تصريح بالقتل. اهـ.

الْمَوَازِينُ وَالشَّهَادَةُ

وحان الوقت لتحقيق تلك الأمنية الغالية (أن يرزقه الله الشهادة في مدينة رسول الله ﷺ).

فعن عمرو بن ميمون - رضى الله عنه - قال: «... إني لقائم ما بيني، وبينه إلا عبد الله ابن عباس (٣) غداة أصيب - وكان إذا مرَّ بين الصفيين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خلاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى

= السنة، باب ما جاء في الخلفاء، والترمذي رقم (٣٦٩٧) في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٨٨)، والنسائي في اليوم والليلة (٣١١)، وابن ماجه رقم (٣٥٥١)، والطبراني (١٣١٢٧). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٨٦) المناقب.

(٣) قال الحافظ في الفتح: وفي رواية أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون: شهدت عمر يوم طعن، فما منعتني أن أكون في الصف الأول إلا هيئته، وكان رجلاً مهيباً، وكنت في الصف الذي يليه، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف المقدم بوجهه، فإن رأى رجلاً متقدماً من الصف أو متأخراً ضربه بالدرة، فذلك الذي منعتني منه. اهـ. فتح الباري (٧/ ٧٧).

يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعتة يقول: قتلنى أو أكلنى - الكلب، حين طعنه^(١)، فطار العليج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً، ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساء، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه - ذبح نفسه - وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف قدمه^(٢)، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة.

وفى رواية: فظن عمر أن له ذنباً إلى الناس لا يعلمه، فدعا ابن العباس - وكان يحبه ويدنيه.

فقال: أحب أن تعلم عن ملأ من الناس كان هذا؟ فخرج لا يمر بملاً من الناس إلا وهم يبكون، فكأنما فقدوا أبكار أولادهم، قال ابن عباس: فرأيت البشر فى وجهه.

قال: فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلنى. فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة. قال: الصنع؟ قال: نعم. قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذى لم يجعل ميتى بيد رجل يدعى الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقاً. فقال: إن شئت فعلت - أى إن شئت قتلنا.

قال: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم، وحجوا حجكم؟

فانطلقنا معه.

وفى رواية: ثم غلب عمر النزف حتى غشى عليه، فاحتملته فى رهط حتى أدخلته بيته فلم يزل فى غشيته حتى أسفر فنظر فى وجوهنا، فقال: أصلى الناس؟ فقلت: نعم، قال: لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم توضأ وصلى.

(١) قال الحافظ: روى ابن سعد بإسناد صحيح إلى الزهرى قال: كان عمر لا يأذن لسبى قد احتلم فى دخول المدينة، حتى كتب المغيرة بن شعبة، وهو على الكوفة يذكر له غلاماً عنده صانعاً، ويستأذنه أن يدخله المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً تنفع الناس، إنه حداد نقاش لحجار، فأذن له، فضرب عليه المغيرة كل شهر مائة، فشكى إلى عمر شدة الخراج، فقال له: ما خراجك بكثير فى جنب ما تعمل، فانصرف ساخطاً، فلبث عمر ليلتى، فمر به العبد فقال: ألم أحدث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحي تطحن بالريح؟ فالتفت إليه عابساً فقال: لأصنعن لك رحي يتحدث الناس بها، فأقبل عمر على من معه فقال: توعدنى العبد، فتح البارى (٧/ ٧٨).

(٢) أى للصلاة بالناس.

قال: وكان الناس لم تُصِبهُم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأُتِيَ بنبيذ^(١) فشربه فخرج من جوفه، ثم أُوتِيَ بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس، فجعلوا يشنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، وصُحبة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. قال: وددت أن ذلك كفاف لا على ولا لى.

فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا على الغلام. قال: يا ابن أخى، ارفع ثوبك، فإنه أبقي لثوبك، وأتقى لربك.

وفى رواية: قال ابن عباس: فقلت له: أبشر بالجنة، صاحبت رسول الله ﷺ فأطلت صحبته، ووليت أمر المؤمنين ففويت وأديت الأمانة.

فقال: أما تبشرك إياي بالجنة فوالله لو أن لى الدنيا بما فيها، لافتديت به من هول ما أمامي قبل أن أعلم الخبر، وأما قولك فى أمر المؤمنين، فوالله لو ددت أن ذلك كفافاً لا لى ولا على، وأما ما ذكرت من صحبة نبي الله ﷺ فذلك^(٢).

قال الذهبي: قال ابن عمر: كان رأس عمر فى حجرى، فقال: ضع خدى على الأرض، فوضعتة فقال: ويل لى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى^(٣).

صحبة الحبيب ﷺ وأبى بكر. رضى الله عنه. فى الصبر.

وفى اللحظات الأخيرة من حياة الفاروق - رضى الله عنه - قال لابنه: يا عبد الله بن عمر، انظر ما على من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه. قال: إن وفى له مال آل عمر فأدّه من أموالهم، وإلا فسل من بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش، ولا تعدّهم إلى غيرهم، فأد عنى هذا المال.

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام - ولا تقل أمير المؤمنين، فإننى لست اليوم للمؤمنين أميراً - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه،

(١) قال الحافظ فى الفتح: المراد بالنبيذ المذكور تمرات نبذت فى ماء، أى تقعت فيه، كانوا يصنعون ذلك لاستعذاب الماء.

(٢) رواه أحمد فى المستدرق (٣٢٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) سيرة الخلفاء للذهبي (٩٤)، والخبر فى الطبقات (٣/ ٢٧٤)، وإسناده صحيح.

فسلم فاستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي. فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى.

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء. قال: ارفعونى: فأسنده رجلٌ إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذى تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان من شىء أهم إلى من ذلك، فإذا أنا قضيت أحملونى، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى رُدنى إلى مقابر المسلمين... وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت^(١) عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لها، فسمعنا بكاءها من الداخل، قالت: يا صاحب رسول الله ﷺ يا صهر رسول الله ﷺ، يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: لا صبر لى على ما أسمع، أخرج عليك بمالى عليك من الحق أن تندينى بعد مجلسك هذا، فأما عينيك فلن أملكها.

قال: فقالوا: أوصى يا أمير المؤمنين، استخلف.

قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء الرهط النفر - أو الرهط - الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ: فسمى علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمن^(٢)، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شىء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمرة سعد فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمّر، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال: أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدار والإيمان^(٣) من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يُعفى من مسيئتهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رداء الإسلام (أى عون الإسلام الذى يدفع عنه)، وغيظ العدو (أى

(١) أى دخلت عليه.

(٢) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٨٤): واقتصار عمر على الستة من العشرة لا إشكال فيه لأنه منهم، وكذلك أبو بكر، ومنهم أبو عبيدة، وقد مات قبل ذلك، أما سعيد بن زيد فهو ابن عم عمر فلم يسمه عمر فيهم مبالغة فى التبرى من الأمر، وقد صرح المداينى بأسانيده، أن عمر عد سعيد بن زيد فيمن توفى النبی ﷺ وهو عنه راضٍ، إلا أنه استثناء من أهل الشورى لقربته منه، وقد صرح بذلك المداينى بأسانيده، قال: «فقال عمر: لا أرب لى فى أموركم فأرغب فيها لأحد من أهلى» اهـ.

(٣) أى سكنوا المدينة قبل الهجرة.

يغيظون العدو بكثرتهم وقوتهم)، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم (أى إلا ما فضل عنهم). وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشى أموالهم (أى التى ليست بخيار)، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ (أى أهل الذمة) أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم^(١).

فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه، فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه^(٢).

بإقية عطرة من ثناء الصحابة عليه - رضى الله عنه -

قال أبو وائل رحمه الله: قدم علينا عبد الله بن مسعود فنعى إلينا عمر، فلم أر يوماً كان أكثر باكياً، ولا حزيناً منه، ثم قال: والله لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحبته. وعن حذيفة - رضى الله عنه -: أنه قال يوم موت عمر: اليوم ترك المسلمون حافة الإسلام^(٣).

وقيل لعبد الله بن عباس: ما تقول فى عمر؟

قال: رحمة الله على أبى حفص، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان، ومنتهى الإحسان، ونادى الضعفاء، ومقل الخلفاء، كان للحق حصناً، وللناس عوناً، قام بحق الله صابراً محتسباً حتى أظهر الدين، وفتح الديار، وذكر الله عز وجل على التلال والبقاع، وقوراً لله فى الرخاء والشدة، شكوراً له فى كل وقت، فأعقب الله من يبغضه الندامة إلى يوم القيامة^(٤).

ويقول العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه -: كنت جاراً لعمر بن الخطاب، فما رأيت أحداً من الناس كان أفضل من عمر، إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام وفى حاجات الناس^(٥).

(١) رواه البخارى رقم (٣٧٠٠) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وفيه مقتل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -

(٢) بتصرف من أئمة الهدى / للشيخ محمد حسان وعوض الجزار.

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٨٤).

(٤) الرياض النضرة (١/ ٣٥).

(٥) أخرجه السيوطى فى الحلية (١/ ٥٤)، ورجاله ثقات.

وعن حذيفة قال: كان الإسلام من زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد إلا قُرْبًا، فلما قُتِل عمر رحمه الله، كان كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعدًا^(١).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: وُضِع عمر على سريرته، فتكنفه الناس يدعون، ويصلون قبل أن يُرفع وأنا فيهم - فلم يرُعنى إلا رجلٌ آخذ منكبي، فإذا على بن أبى طالب، فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحداً أحب إلىَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبك، وحسبت أنى كثيراً أسمع النبى ﷺ يقول: ذهبت أنا، وأبو بكر، وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا، وأبو بكر، وعمر^(٢).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: أكثروا ذكر عمر، فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل، وإذا ذكرتم العدل ذكرتم الله تبارك وتعالى^(٣).

ولا نملك عند وداع هذا الصحابى الجليل إلا أن نقول له: جزاك الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فكم تعلمنا من سيرتك العطرة التى فاح عيرها فى الدنيا كلها.. وكم تعلمنا من مواقفك الخالدة التى سطرَّتها على جبين التاريخ بسطورٍ من النور. فلن ننساك أبداً ما دامت أرواحنا فى أبداننا.

«رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَأَرْجَاكَ وَجَمَعْنَا وَإِيَّاكَ شَيْ جَنَّتُهُ وَمَسْتَقَرَّ رَحْمَتُهُ

إِنْشَاءً عَلَى سُرُورٍ مُتَقَابِلِينَ

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٨٥) ورجاله ثقات.

(٢) رواه البخارى رقم (٣٦٨٥) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب، ومسلم رقم (٢٣٨٩) فى فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب.

(٣) أسد الغابة (٤/ ١٥٣) بسند صحيح.

عثمان بن عفان

ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة

محمد رسول الله ﷺ

بهذا العنوان بدأت الكلام عن هذا الصحابي الجليل.

إنه صنف من الرجال الأطهار يندر وجوده في كل العصور والأزمان... رجل تستحي منه ملائكة الرحمن!!!.

نعم إنه ذو النورين (عثمان بن عفان) - رضى الله عنه - ذلكم الرجل الذي إذا جاءت سيرته وجدنا بين ثنايا سطورها ريح الحياء والتواضع والجلود والكرم والخشية.... ولد بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح، وكان ربعة حسن الوجه رقيق البشرة عظيم اللحية بعيد ما بين المنكبين^(١).

لما قالوا (لعل): حدثنا عن عثمان، قال: ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين. كان - رضى الله عنه - في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه فهو عريض الجاه ثرياً متواضعاً شديد الحياء عذب الكلمات فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه. لم يسجد في الجاهلية لصنم قط ولم يقترب فاحشة قط ولم يظلم إنساناً قط. وكان كغيره من أهل المروءة في أشد الشوق ليد حانية تأخذ بنواصي العباد من تلك الجاهلية التي عمت البلاد إلى شاطئ النجاة.

وما هي إلا فترة يسيرة حتى بُعث الحبيب ﷺ وكان عثمان - رضى الله عنه - من السابقين الذين أسلموا قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم. ولإسلام عثمان بن عفان قصة ما زال يرويها الرواة.

ذلك أنه حين بلغه في الجاهلية أن محمد بن عبد الله زوج ابنته رقية من ابن عمها عتبة بن أبي لهب... ندم أشد الندم لأنه لم يسبق إليها... ولم يحظ بخلقها الرفيع وبيتها

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤ / ٣٧٧).

العريق^(١)... فدخل على أهله مهموماً. فوجد عندهم خالته «سعدى بنت كُريز»، وكانت هذه امرأة حازمة، عاقلة، طاعنة^(٢) في السن فسرت عنه^(٣).

وبشرته بظهور نبي يُبطل عبادة الأوثان. ويدعو إلى عبادة الواحد الديان، ورغبته في دين ذلك النبي، وبشرته بأنه سينال عنده ما يشغيه.

قال عثمان: فانطلقت وأنا أفكر فيما قالت خالتي...

فلقيت أبا بكر، وحدثته بما أخبرتنى به، فقال: والله لقد صدقت خالتك، فيما أخبرتك، وبشرتك بالخير يا عثمان... وإنك لرجلٌ عاقلٌ حازمٌ^(٤) ما يخفى عليك الحق، ولا يشبهه عندك مع الباطل... ثم قال لى: ما هذه الأصنام التي يعبدونها قومنا؟!... أليست من حجارة صم^(٥) لا تسمع ولا تبصر؟ فقلت: بلى. فقال: وإن ما قالت خالتك - يا عثمان - قد تحقق... فلقد أرسل الله رسوله المرتقب^(٦)، وبعثه إلى الناس كافة بدين الهدى والحق. فقلت: ومن هو؟! فقال: إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقلت: الصادق الأمين^(٧)؟ فقال أبو بكر: نعم... إنه هو... فقلت: فهل لك أن تصحبني إليه؟. فقال: نعم... ومضينا إلى النبي عليه الصلاة والسلام. فلما رآني قال: (أجب يا عثمان داعي الله... فإني رسول الله إليكم خاصة، وإلى خلق الله عامة...).

قال عثمان: فوالله ما إن ملأت عيني منه، وسمعت مقالته؛ حتى استرحت له، وصدقت رسالته... ثم شهدت أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً عبده ورسوله.

لم يؤمن بالرسول - عليه الصلاة والسلام - أحدٌ من قومه بنى «هاشم» حتى ذلك اليوم... غير أنه لم يكن فيهم أحدٌ يناصبه^(٨) العداء غير عمه «أبي لهب»^(٩).

فقد كان هو وزوجه «أم جميل» من أشد قريش قسوةً عليه، وأعنفهم إيذاءً له،

(١) بيتها العريق: أى كريمة الآباء والأجداد.

(٢) طاعنة في السن: متقدمة في السن.

(٣) سرت عنه: كشفت عنه الهم.

(٤) حازم: حكيم قاطع في الرأي صائب.

(٥) صم: لا تسمع من يدعوها.

(٦) المرتقب: المنتظر.

(٧) الصادق الأمين: لقب اشتهر به محمد ﷺ قبل أن يبعث.

(٨) يناصبه العداء: يعلن العداوة ضده.

(٩) أبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب مات على الكفر بعد غزوة بدر.

وتنكيلاً به... فأنزل الله فيه وفي امرأته: ﴿تَبَّتْ (١) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (٢) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٣) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٤) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٥) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّسَدٍ (٦)﴾ [سورة المسد].

فازداد أبو لهب ضغينة (٣) على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، واشتد حقدّه وحقد زوجته أم جميل عليه، وعلى المسلمين معه، فأمر ابنهما «عتبة» بأن يطلق زوجته رقية بنت محمد - عليه الصلاة والسلام - فطلقها نكايّة (٤) بأبيها.

ما كاد عثمان بن عفان - رضوان الله عليه - يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار (٥) فرحاً... ويادر فخطبها من رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فزوجها الرسول الكريم منه.

وزفتها (٦) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد...

وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعة (٧)، وكانت هي تضاهيه قسامة (٨) وصباحة، فكان يقال لها حين زُفّت إليه:

أحسن زوجين رأهما إنسان رقية، وزوجها عثمان (٩)

وعن عبد الرحمن بن عثمان القرشي: أن رسول الله ﷺ دخل على ابنته وهي تغسل رأس عثمان، فقال: «يا بُنية أحسنى إلى أبي عبد الله، فإنه أشبه أصحابي بي خلقاً» (١٠).

(١) تبّت: هلكت وخسرت.

(٢) مسد: القوى من الحبال.

(٣) الضغينة: الحقد والحسد وإضرار الكراهية في الصدور.

(٤) نكايّة: إغاطة له وقهرًا.

(٥) استطار فرحًا: كاد يطير من شدة الفرح.

(٦) زفتها: قدمتها إلى زوجها.

(٧) الطلعة: ملامح الوجه.

(٨) تضاهيه قسامة: تشبهه في حسن تقاسيم الوجه وملامحه.

(٩) صور من حياة الصحابة (ص ٥٥٨ : ٥٦١) بتصرف.

(١٠) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات، المجمع (١٤٥٠٠).

الضَّارُّ إِلَى اللَّهِ وَالْهَجْرَةُ إِلَى الْحَبْشَةِ

وعلى الرغم من مكانته بين قومه ومحبتهم له إلا أنه ما إن أعلن إسلامه واستعلى بإيمانه حتى سلطوا عليه الأذى فلما يئسوا من عودته إلى الشرك وارتداده عن دين محمد ﷺ أطلقوا سراحه فهاجر إلى الحبشة ومعه زوجته (رقية) - رضى الله عنها -.

وهناك اشتد الحنين إلى رسول الله ﷺ فعاد عثمان وزوجه - رضى الله عنهما - مرة أخرى إلى الحبيب ﷺ إلى أن أذن الله لنبيه ﷺ وأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، فكان عثمان وزوجه مع المهاجرين. وبذلك يكون - رضى الله عنه - قد هاجر الهجرتين.

جهاده في سبيل الله وتسميته بذى النورين

ولقد شهد عثمان - رضى الله عنه - المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ماعدا غزوة بدر فإن النبي ﷺ لما خرج إلى بدر خلفه على ابنته رقية يمرضها - فقد كانت مريضة ولم يكن معها أحد - ولما عاد الحبيب ﷺ من الغزوة علم أن ابنته رقية قد لحقت بجوار ربها فحزن حزناً شديداً.. ووأسى عثمان - رضى الله عنه - فضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهد بدرًا، ثم زوجّه من ابنته الثانية (أم كلثوم) وقال: لو كان عندي ثالثة لزوجتها عثمان.. وسمّى ذا النورين لجمعه بين بنتي رسول الله ﷺ (١).

قال العلماء: «ولا يُعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، ولذلك سُمّي ذا النورين. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن».

موقفه الخالد في تجهيز جيش العسرة (غزوة تبوك)

جاءت غزوة تبوك، والناس في عُسرة شديدة، وحين طابت الثمار وأحبت الظلال، والناس يحبون المقام ويكرهون الخروج.

وحض رسول الله ﷺ المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة؛ وكان أبو بكر - رضى الله عنه - أول من حمل بماله كله.... أربعة آلاف درهم.

فقال رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فقال: الله ورسوله، ثم جاء عمر

بنصف ماله، وحمل العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله - رضى الله عنهما - إلى النبي ﷺ مالا، وحمل عبد الرحمن ابن عوف إليه مائتي أوقية، وحمل سعد بن عبادة - رضى الله عنه - إليه مالا، وكذلك محمد بن مسلمة - رضى الله عنه - وتصدق عاصم بن عدي - رضى الله عنه - بتسعين وسقاً من التمر... والنساء يُعنّ بكل ما قدرن عليه.

قالت أم سنان الأسدية - رضى الله عنها -: لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي النبي ﷺ في بيت عائشة - رضى الله عنها - فيه: مَسْكٌ^(١)، ومعاضد، وخلاخل^(٢)، وأقرطة^(٣) وخواتيم، وقد ملئ مما بعث به النساء يُعنّ به المسلمون في جهازهم.

ولله در أبي عقيل يأتي بصاع من تمر ويستحي... قال: «بت ليلتي أجرٌ بالجرير^(٤) على صاعين، والله! ما كان عندي من شيء غيره، فأتيت بأحدهما، وتركت الآخر لأهلي»^(٥).

وعن عكرمة - رضى الله عنه - قال: حث رسول الله ﷺ على الصدقة^(٦)، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال يا رسول الله (مالي ثمانية آلاف) جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال: بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت.

العسرة وعثمانها المعطاء

روى عبد الرحمن بن سمرة - رضى الله عنه - أن عثمان بن عفان جاء إلى النبي ﷺ بألف دينار في كُمٍّ حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره، فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره، ويقول: ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»^(٧).

(١) مَسْك: الأسورة والخلاخيل من القرون والعاج.

(٢) جمع خلخال: حلية تلبس في الرجل كالسوار في اليد.

(٣) جمع قرط: ما يعلق في شحمة الأذن.

(٤) حبل يجعل للبعير، والمعنى بت ليلتي كلها استقى الماء بالحبل.

(٥) ابن عساكر (١/ ١١٠).

(٦) يعني في غزوة تبوك.

(٧) أخرجه الترمذي، وأحمد، وابن أبي عاصم في «السنة»، والحاكم وصححه وأقره الذهبي، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر في تاريخ دمشق.

ولما حُصر في داره قام فأشرف عليهم فوق داره... قال: «أذكركم بالله، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: «من ينفق نفقة متقبلة» والناس مجاهدون، معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم...» (١).

وما جاء في رواية الأحنف بن قيس من قول عثمان: «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله نظر في وجوه القوم فقال: «من يجهز هؤلاء غفر الله له» يعني جيش العسرة، فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقلاً ولا خطاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد» (٢).

ما كاد عثمان يسمع نداء رسول الله ﷺ: «من يجهز هؤلاء، ويغفر الله له؟» حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان.

وهكذا وجدت العسرة الضاغطة «عثمانها» المعطاء!!

وقام - رضى الله عنه - بتجهيز الجيش كله، حتى لم يتركه بحاجة إلى خطام أو عقال...!!

يقول ابن شهاب الزهري: «قدم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً، أتم بها الألف»!!.

ويقول حذيفة: «جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صَبَّها بين يديه، فجعل الرسول ﷺ يُقلبها بيده ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

ويقول عبد الرحمن بن عوف: «شهدت رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان في جيش العسرة بسبعمائة أوقية من الذهب».

ألم أقل لكم: إنه يبدو وكأنه الممول الوحيد للأمة الجديدة، والدين الجديد...؟؟ (٣).
ولما كفى الله المؤمنين القتال برجوع الروم... ورجع الجيش بكل عتاده الذي أمده به عثمان... ما استرجع عثمان من ذلك شيئاً، وما استرد منها بعيراً ولا خطاماً.

(١) جزء من حديث صحيح لغيره: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، وابن عساكر في تاريخه.

(٢) جزء من خبر حسن لغيره: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٨٦ / ٧)، وابن حبان (٦٨٨١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٠٣).

(٣) خلفاء الرسول ﷺ خالد محمد خالد (٢٤١) دار الجيل.

رضى الله عن عثمان المهاجر إلى ربه الذي يخرج من ماله ومن دنياه العريضة كلها ويسافر إلى الله في حياة رجلٍ تستحي منه الملائكة... نعم المال الصالح للرجل الصالح... ترى كم أظل عثمان من رعوس رجال... وكم له عند الله من ظل بل ظلال ظليلة.

قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقات ظل فسطاط - خيمة - في سبيل الله عز وجل، أو منحة خادم في سبيل الله، أو طروقة فحل في سبيل الله» (١)، (٢).

حضر عثمان - رضي الله عنه - بئر رومة

ولما كان المسلمون لا يجدون الماء العذب الذي هم في أشد الحاجة إليه.. قام النبي ﷺ يعرض على أصحابه تلك الصفقة الرابعة، فقال: «من حفر رومة فله الجنة...» (٣)، (٤). فقام عثمان - رضي الله عنه - السباق إلى كل خير فحفرها، ففاز بثواب كل من شرب شربة ماء أو توضأ من هذا الماء.

كان - رضي الله عنه - يعتق كل جمعة عبداً ويحرر رقبة

وما كان البذل الذي يبذله - رضي الله عنه - ليقف أبداً عند تجهيز جيش العسرة أو حفر بئر رومة، بل لقد كان دوماً وأبداً مواسياً لكل مسلم في كربته ومعينه في محنته ومعيناً له في فقره وحاجته.

يُمضي - رضي الله عنه - مع نفسه موثقاً لا يُخلفه طوال حياته: هو أن يُعتق كل جمعة عبداً، ويحرر رقبة... يشتري العبد من سيده بأى ثمن، ثم يهبه حرّيته مبتغياً وجه ربه الأعلى (٥).

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٩).

(٢) ترطيب الأفواه / د. سيد حسين (١٨٨ : ١٩١) بتصرف.

(٣) المشهور في الروايات أن عثمان - رضي الله عنه - اشتراها لا أنه حفرها ولذلك وهم ابن بطال من قال حفرها قال: والمعروف اشتراها، نقل ذلك عنه الحافظ في الفتح، ثم قال الحافظ.. ولعل العين كانت تجري إلى بئر فوسمها وطواها فتسب حفرها إليه (الفتح ٥ / ٤٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٧٨) معلقاً وهو صحيح لشواهده.

(٥) خلفاء الرسول / خالد محمد خالد (ص ٢٤٥).

الحبيب ﷺ يبشره بالشهادة وبالجنة

وها هي البشرية بالشهادة وبالجنة يزفها إليه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد»^(١).

وعن أبي موسى - رضى الله عنه - قال: «أن النبى ﷺ دخل حائطاً وأمرنى بحفظ باب الحائط، فجاء رجلٌ يستأذنُ فقال: ائذنْ له وبشره بالجنة فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذنُ فقال له: ائذنْ له وبشره بالجنة فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذنُ فسكت هنيهة ثم قال: ائذنْ له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه فإذا عثمان ابن عفان»^(٢).

استحيا من الله فاستحييت منه الملائكة والنبي ﷺ

ويا لها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تُباله ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تُباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك! فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»^(٣).

وفى رواية: فقالت عائشة: يا رسول الله مالى لم أرك فزعت لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجلٌ حيٌّ، وإنى خشيتُ إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلى فى حاجته»^(٤) - أى يستحي فيخرج

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) والترمذى (٣٦٩٦) وأحمد (٤١٩ / ٢).

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٩٥) ومسلم (٢٤٠٣) والترمذى (٣٧١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١) عن عائشة - رضى الله عنها -.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٠٢) وأحمد (٧٧ / ١) والبخارى فى الأدب المفرد (٦٠٠).

من غير أن يطلب حاجته التي جاء من أجلها ...

قال عثمان - رضى الله عنه -: ما من عامل يعمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيا من الله مطيعاً، استحيا الله منه وهو مذنب.

قال المناوى: مقام عثمان مقام الحياء، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره، مع نقص يجده فى النفس، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير، وهما من جليل خصال العباد المقربين، فعلت رتبة عثمان كذلك، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه، كما أن من أحب الله أحب أوليائه، ومن خاف الله خاف منه كل شيء^(١).

والجزء من جنس العمل.

وقال ﷺ: «عثمان أحب أمتي»^(٢).

يعنى أكثرها حياءً... والحياء منشأ الآداب، قيل: لم يضع يمينه على فرجه منذ بايع النبى ﷺ:

ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ	فلا والله ما فى العيش خير
ويبقى العود ما بقى اللحاءُ	يعيش المرء ما استحيا بخير

يقرأ القرآن كله فى ركعة واحدة

قال عبد الرحمن بن عثمان التيمى - رحمه الله -: قلت: لأغلبن الليلة على المقام، فسبقت إليه، فبينا أنا قائم أصلى إذ وضع رجل يده على ظهري، فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان - رحمة الله عليه - وهو خليفة، فتنحيت عنه، فقام فما برح قائماً حتى فرغ من القرآن فى ركعة لم يزد عليها.

فلما انصرفت قلت: يا أمير المؤمنين، إنما صليت ركعة؟

قال: أجل هى وترى^(٣). أى ركعة الوتر.

(١) فيض القدير للمناوى (٤ / ٣٠٢).

(٢) رواء أبو نعيم فى الحلية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٧٢).

(٣) صحيح: أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١٢٧٦)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٣ / ٢٤)، وابن سعد فى طبقاته

(٣ / ٧٥)، والبيهقى فى سننه الكبرى.

وقال سليمان بن يسار - رحمه الله -: قام عثمان بن عفان - رضى الله عنه - بعد العشاء فقرأ القرآن كله فى ركعة لم يصل قبلها ولا بعدها^(١).

و«كان - رضى الله عنه - يقرأ القرآن فى ركعة، ثم يوتر بها»^(٢).

وعن ابن سيرين قال: قالت امرأة عثمان حين قُتل: لقد قتلتموه، وإنه ليُحى الليل كله بالقرآن فى ركعة^(٣).

قال الحافظ ابن كثير: «وقد روى من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم فى ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه - رضى الله عنه - ولهذا روينا عن ابن عمر أنه قال فى قوله تعالى:

﴿أَمِنْ هُوَ قَاتِلُ أَنْاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا يُقَامُّهَا يَحْذَرُ الْأَشْوَءَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٤٩].

قال: هو عثمان بن عفان».

وقال فيه حسان بن ثابت:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطِمْ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يَقُطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا

قال النووى فى «التيان» (٥٥): «فمن الذين كانوا يختمون الختمة فى اليوم واللييلة: عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وقيم الدارى، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشافعى، وآخرون».

وكان - رضى الله عنه - لا يوقظ أحداً من أهله إذا قام من الليل ليعينه على وضوئه، إلا أن يجده يقظاناً، وكان يصوم الدهر، وكان يعاتب، فيقال: لو أيقظت بعض الخدم؟ فيقول: لا! الليل لهم يستريحون فيه^(٤).

وعن الحسن، قال: قال عثمان: «لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإنى لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فى المصحف» وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من

(١) صحيح: أخرجه ابن المبارك وابن سعد وابن عساکر.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه الطحاوى والبيهقى (٣ / ٢٥)، وابن أبى داود، وصححه إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط، والشيخ زهير الشاويش فى تحقيق شرح السنة (٤ / ٤٩٩).

(٣) الزهد (ص ١٢٧) لأحمد بن حنبل.

(٤) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥ / ٣٠٧).

كثرة ما يُديم النظر فيه (١).

وَقُتِلَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَالْمَصْحَفُ فِي حَجْرِهِ.

تِجَارَةٌ رَابِعَةٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى

عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «قَحَطَ النَّاسُ فِي زَمَانِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ لَهُمْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا تُمَسُّونَ غَدًا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ فَرَجُ اللَّهِ.. فَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ الْغَدِ، قَدِمَتْ قَافِلَةٌ لِعُثْمَانَ، فَغَدَا عَلَيْهِ التَّجَارُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ مَلَأَةٌ قَدْ خَالَفَ بَيْنَ طَرَفَيْهَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَبِيعَهُمْ قَافِلَتَهُ.

فَسَأَلَهُمْ: كَمْ تُرَبِّحُونَنِي؟ قَالُوا: الْعَشْرَةُ اثْنَى عَشَرَ، قَالَ: قَدْ زَادَنِي، قَالُوا: فَالْعَشْرَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ، قَالَ: قَدْ زَادَنِي، قَالُوا: مِنَ الَّذِي زَادَكَ، وَنَحْنُ تِجَارُ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ: إِنَّهُ اللَّهُ، زَادَنِي بِكُلِّ دِرْهَمٍ عَشْرًا، فَهَلْ لَدَيْكُمْ أَنْتُمْ مَزِيدٌ؟ فَانصَرَفَ التَّجَارُ عَنْهُ، وَهُوَ يَنَادِي: اللَّهُمَّ إِنِّي وَهَبْتُهَا فَقَرَاءَ الْمَدِينَةَ بِلَا ثَمَنٍ، وَبِلَا حِسَابٍ» (٢).

خِلَافَتُهُ الرَّاشِدَةُ

وَلَمَّا آلَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ «أَرْمِينِيَّةً» وَ«الْقَوَقَازَ»... وَنَصَرَ الْمُسْلِمِينَ وَسَوَّدَهُمْ عَلَى «خُرَاسَانَ»، وَ«كِرْمَانَ»، وَ«سَجِسْتَانَ»، وَ«قَبْرِصَ» وَطَرَفٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنْ إِفْرِيقِيَّةٍ.

وَلَقِيَ النَّاسَ فِي عَهْدِهِ مِنَ الشَّرَاءِ مَا لَمْ يَحْظَ بِهِ شَعْبٌ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ.

حَدَّثَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَمَّا نَعِمَ بِهِ النَّاسُ فِي عَهْدِ ذِي النُّورَيْنِ مِنَ الرِّخَاءِ وَبُلْهْنِيَّةِ (٣) الْعَيْشِ...

وَمَا غُمُّرُوا (٤) بِهِ مِنَ الْهَنَاءِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَقَالَ: رَأَيْتُ مُنَادِيَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَنَادِي قَائِلًا: أَيُّهَا النَّاسُ اغْدُوا عَلَى أُعْطِيَاتِكُمْ (٥). فَكَانَ النَّاسُ يَغْدُونَ عَلَيْهَا،

(١) البداية والنهاية (٥ / ٣٠٧).

(٢) خلفاء الرسول / لخالد محمد خالد (ص ٢٤٦).

(٣) بُلْهْنِيَّةُ الْعَيْشِ: الرِّفَاقِيَّةُ وَالرِّخَاءُ.

(٤) غُمُّرُوا: غَمَّرُوا الشَّيْءَ - غَمَّرَ: عَلَاهُ وَسْتَرَهُ. وَيُقَالُ: غَمَّرَ فُلَانٌ فُلَانًا: غَطَّاهُ بِفَضْلِهِ.

(٥) اغْدُوا عَلَى أُعْطِيَاتِكُمْ: هَلُمُّوا إِلَى الْعَطَايَا الَّتِي تَسْتَحِقُّونَهَا.

ويأخذونها وافية...

أيها الناس أقبلوا على أرزاقكم^(١). فكانوا يقبلون عليها، فيعطونها غزيرة وفيرة^(٢). ولقد سمعته - والله - أذنأى وهو يقول: اغدوا على كسوتكم. فكانوا يأخذون الحُلل السابغة^(٣)، وكان يقول: هلموا على السمن والعسل أيضاً.

ولا غرو فلقد كانت الأرزاق في عهد عثمان دارة^(٤)... وكان الخير كثيراً. وذات البين^(٥) سعيدة، ولم يكن على ظهر الأرض مؤمنٌ يخافُ مؤمناً، وإنما كان المسلم يألف المسلم، ويواده، وينصره^(٦).

جمع القرآن في عهد

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق^(٧).

(١) أرزاقكم: رواتبكم.

(٢) غزيرة وفيرة: كثيرة.

(٣) الحُلل السابغة: الحُلل الطويلة الواسعة.

(٤) دارة: أى مستمرة.

(٥) ذات البين: المراد الأحوال بين الناس.

(٦) صور من حياة الصحابة (ص ٥٦٨: ٥٦٩).

(٧) أخرجه البخارى (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -.

خبر عنه - رضي الله عنه -

كان عثمان - رضي الله عنه - إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه»^(١). وعن عبد الله بن الرومي، قال: «بلغني أن عثمان - رضي الله عنه - قال: «لو أني بين الجنة والنار، ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

عنه - رضي الله عنه -

وها هي صفحة ناصعة البياض من عدله - رضي الله عنه -

عثمان الرحيم الذي تشع الرحمة في حياته، وتكون نبراسًا لكل تصرفاته، يغضب على خادم له يومًا، فيفرك أذنه حتى يوجعه... ثم سرعان ما يدعو خادمه ويأمره أن يقتص منه فيفرك أذنه... ويأبى الخادم، ويأمره في حزم فيطيع: «اشدد يا غلام، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة».

إقامة عثمان - رضي الله عنه - الحدود على القريب والبعيد

من عظام الأعمال وكبارها في خلافته ظهور حدود الله تعالى.

فهذا الوليد بن عقبة من أقرب الناس إليه، إنه أخوه لأمه، ومع ذلك لم تأخذه شفقة عليه ولا رحمة.

قال الحافظ في «الفتح» (٧ / ٥٦): «إنما أحر إقامة الحدّ عليه ليكشف عن حال من شهد عليه بذلك، فلما وضح له الأمر أمر بإقامة الحدّ عليه».

قال حنين بن المنذر: شهدت عثمان بن عفان، وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين،

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦١).

ثم قال: أزيدكم؟

فشهد عليه رجلان؟ أحدهما (حُمران) أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها، فقال: يا علي قم فاجلده، فقال علي: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: ولّ حارها من تولى قارها^(١) - فكأنه وجد عليه - فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده، فجلده - وعليّ يعدّ - حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وهذا أحبّ إليّ^(٢). وفي رواية: «وكلّ سنة».

وقضات المؤمنين تلك فاع من (ذى النورين)

عجباً ثم عجباً لمن ينقمون على ذى النورين - رضى الله عنه - !!!

هل ينقمون على عدله أم على جوده أم على رحمته أم على إيمانه أم على أنه من العشرة المبشرين بالجنة؟ !!!

قال الحسن البصرى - رحمه الله -: «أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلما يأتى على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً، فيقال لهم: يا معشر المسلمين، اغدوا على أعطيائكم، فياخذونها وافرة، ثم يُقال لهم: اغدوا على أرزاقكم فياخذونها وافرة، ثم يُقال لهم: اغدوا على السمن والعسل».

الأعطيات جارية، والأرزاق دائرة، والعدو منفي، وذات البين حسن، والخير كثير، وما مؤمن يخاف مؤمناً، من لقيه فهو أخوه من كان، ألفتّه، ونصيحته، ومودته، قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة، فإذا كانت أن تصبروا.

ولو أنهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير، قالوا: لا والله ما نصابرها، فوالله ما ردّوا ولا سلموا.

والأخرى كان السيف مغمدًا على أهل الإسلام، ما على الأرض مؤمن يخاف أن يسلم مؤمن عليه سيفًا حتى سلّوه على أنفسهم، فوالله ما زال مسلولا إلى يوم الناس هذا.

(١) ولّ حارها من تولى قارها: قال الأصمعي: ولّ شديدها من تولى هينها، والقارد البارد... أى ولّ العقوبة والضرب من توليه العمل والنفع.

(٢) أخرجه مسلم، وأحمد في مسنده، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١٩٧٣) وابن الأثير في أسد الغابة (٥/ ٤٥٣).

وأيم الله إنى لأراه سيفاً مسلولاً إلى يوم القيامة»^(١).

يقول عروة بن الزبير - رحمه الله -: «أدركت زمن عثمان - رضى الله عنه - وما من نفس مسلمة إلا ولها فى مال الله حق»^(٢).

لين جانبيه ورحمته بالرعية

من شمائل عثمان - رضى الله عنه -: لين جانبيه، ورأفة قلبه، وإحسانه إلى الرعية، ولينه معهم، وخروج أهل الزور والبهتان عليه، وقتله مظلوماً.

قال ابن عمر - رضى الله عنهما -: «لقد عبت على عثمان أشياء، لو أن عمر فعلها ما عبتوها»^(٣).

وقال الحسن البصرى - رحمه الله -: «عمل أمير المؤمنين عثمان ثنتى عشرة سنة لا ينكرون من إمارته شيئاً، حتى جاء فسقة فداهن والله فى أمره أهل المدينة»^(٤).

ومن المواقف التى تبدو فيها شفقتة بالرعية جلياً، ما رواه موسى بن طلحة يقول: سمعت عثمان بن عفان، وهو على المنبر، والمؤذن يقيم الصلاة، وهو يستخير الناس عن أخبارهم وأسعارهم، وعن مرضاهم»^(٥).

هذا عثمان فأين مثل عثمان - رضى الله عنه - ؟!

عُباب البحر تنقص منه قدراً إذا شبهته قلباً ذماماً^(٦)

ولله در القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

(١) إسناده حسن: أخرجه ابن عساكر، والطبرانى فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٩٤): إسناده حسن، وأخرجه ابن شبة فى تاريخ المدينة.

(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن شبة.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبى شبة فى مصنفه.

(٤) إسناده صحيح: أخرجه البخارى فى التاريخ الصغير، وابن عساكر فى تاريخه.

(٥) إسناده صحيح: أخرجه أحمد فى مسنده، وابن سعد فى طبقاته.

(٦) القلب الدمام: الآبار الصغيرة.

جملة الاقتراءات والرد عليها

١ - قولهم أنه - أي عثمان - لم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان مع ظهور القصص ووجوبه؛

والجواب: أن عثمان - رضى الله عنه - دفع دية من ماله بعد أن شاور الصحابة؛ لأنه ولي دم القتل الذي لم يكن له ولي، وفقاً لقاعدة: «السلطان ولي من لا ولي له»^(١). ولقد رد ابن العربي رداً شافياً وكافياً في «العواصم من القواصم»: أما تلك القصة سنداً وامتناً ففيها اضطراب، يقول ابن عبد البر: «قصته في قتل الهرمزان وجفينة، وبنت أبي لؤلؤة، ففيها اضطراب، وفي الرواية الصحيحة أن عثمان - رضى الله عنه - شاور مع المهاجرين والأنصار، ولم يقتل مسلماً بكافر، وأعطى الدية بدلاً من ذلك فأى مخالفة في ذلك؟»^(٢).

٢ - قولهم: إن عثمان - رضى الله عنه - ولّى أقاربه - يعني الولائية،

مما قاله المفترون في هذا الشأن عن عثمان: أنه ولّى أقاربه: معاوية، وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان، والوليد بن عقبة، وأعطى مروان خمس إفريقية.

قال ابن العربي - رحمه الله -: هذا كله باطل سنداً وامتناً، فأما معاوية: (فعمر) ولأه، وجمع له الشام كلها، وأقره عثمان، وأما عبد الله بن كريز، فولاه كما قال: لأنه كريم العمات والخالات.

وأما تولية الوليد بن عقبة فقد قال عثمان: ما وليته لأنه أخى، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم عمة النبي ﷺ وتوأمة أبيه.

والولاية اجتهاد، وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص، وقدم أقل منه درجة.

ومروان رجل عدل من كبار الأئمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، والفقهاء على تعظيمه، والتلفت إلى فتواه، والانقياد إلى روايته، أما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم.

وأما الوليد وحده في الخمر، فقد حدّ عمر قدامة بن مظعون على الخمر، وهو أمير

(١) تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٤ / ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) العواصم من القواصم لابن العربي (ص ٧٧، ١١٦).

وعزله، وليست الذنوب مُسْقِطَةٌ للعدالة إذا وقعت منه التوبة.

وإما إعطاؤه خمس إفريقية لواحد فلم يصح.

وأما توليته لعبد الله بن أبي سرح، وهو الذي ارتد بعد إسلامه، فلقد تاب وعاد وحسن إسلامه، وجاهد جهاد الأبرار، ومات بين التسليمتين، ومعلوم أن الذنوب ليست مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة.

٢. قولهم بأنه أخرج أبا ذر إلى الربذة:

وهذا ظلم عظيم، ومنكر أثيم... فعثمان - رضى الله عنه - أعدل وأفضل من أن يفعل بالأفاضل من الصحابة ما لا يستحقون، أو ينالهم بمكروه؛ وإنما كان هذا من عثمان تخييراً لأبي ذر والدليل على ذلك ما رواه زيد بن وهب قال: «مررتُ بالربذة، فقلت لأبي ذر - رضى الله عنه -: ما أنزلك هذا المنزل؟ فقال: أخبرك.. إني كنت بالشام فتذاكرت أنا ومعاوية هذه الآية:

﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَشْفُقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

فقال معاوية: هذه نزلت في أهل الكتاب، وقلت أنا: هي فيهم وفينا، فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك فكتب إلى: أن أقدم على، فقدمتُ عليه فأنشأ على الناس كأنهم لم يعرفوني فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيرني فقال: انزل حيث شئت»^(١).

وقال عبد الله بن الصامت: «دخلت مع أبي ذر في رهط من غفار على عثمان بن عفان من الباب الذي لا يدخل عليه منه، قال: وتخوفنا عثمان عليه، فانتهى إليه فسلم عليه، قال: ثم ما بدأه بشيء إلا أن قال: أحسبني منهم يا أمير المؤمنين؟! والله ما أنا منهم - يعنى الخوارج - ولا أدركهم، ولو أمرتني أن أعضّ على عرقوبى قتب لعضضت عليهما حتى يأتينى الموت وأنا عاض عليهما.

قال: صدقت يا أبا ذر، إنا إنما أرسلنا إليك لخير؛ لتجاورنا بالمدينة.

قال: لا حاجة لى فى ذلك، ثم استأذنه فى الربذة، فقال: ائذن لى فى الربذة.

قال: نعم نأذن لك، ونأمر لك بنعم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح فتصيب من رسلها»^(٢).

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو نعيم (١٣٩) فى «تثبيت الإمامة».

(٢) يعنى اللبن.

قال: لا حاجة لنا في ذلك، يكفي أبا ذر صرّيته^(١) ثم خرج فنادى: دونكم معاشر قريش، دنياكم فاعذموها لا حاجة لنا فيها، ودعونا وديتنا^(٢).

قال غالب القطان: قلت للحسن البصري: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا... معاذ الله^(٣).

وكان محمد بن سيرين - رحمه الله - إذا ذكر له أن عثمان بن عفان سيّره أخذه أمر عظيم، ويقول: هو خرج من قبل نفسه، ولم يُسيّره عثمان - رضى الله عنه -^(٤).

٤ - قَوْلُهُمْ بِأَنَّهُ حَرَقَ الْمُصَاحِفَ :

فالجواب: قال علي بن أبي طالب: «... فوالله ما حرقها إلا على ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ، ... جَمَعْنَا وَقَالَ: ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها، يلقي الرجلُ الرجلُ، فيقول: قراءتي خير من قراءتك وهذا يُجر إلى الكُفْرِ، فقلنا: ما الرأي؟ قال: أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافًا، فقلنا: نعم ما رأيت»^(٥).

٥ - قَوْلُهُمْ بِأَنَّهُ رَدَّ طَرِيدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (الحكم بن العاص):

فالجواب عن ذلك بأن الإمام ابن تيمية - رحمه الله - قال:

«لم تثبت من الأصل وليس لها إسناد».

٦ - إِصْطَاءُ الْعِطَاءِ مِنْ مَالِ الصَّدَقَةِ:

ومن تلك المطاعن الواهية: أنه أمر بالعطاء من مال الصدقة وأن الناس أنكروه.

وللرد على ذلك يقول أبو نعيم الأصبهاني - رحمه الله -:

«عثمان - رضى الله عنه - أعلم ممن أنكر عليه، وللأئمة إذا رأوا المصلحة للرعية في شيء أن يفعلوه ولا تجعل إنكار من جهل المصلحة حجة على من عرفها، ولا يخلو زمان

(١) الصرمة: القطعة من الإبل.

(٢) صحيح: أخرجه ابن سعد في «طبقاته» (٤ / ٢٣٢)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣ / ١٠٣٦، ١٠٤١) وأبو نعيم في «الحلية» (١ / ١٦٠).

(٣) إسناده حسن: أورده الذهبي في «تاريخ الإسلام» وابن شبة (٣ / ١٠٣٧).

(٤) إسناده حسن: أخرجه ابن شبة (٣ / ١٠٣٧).

(٥) منهاج السنة (٦ / ٢٥٢ - ٢٥٣).

من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون.

ولا يلزم عثمان فيما أمر به إنكار من أنكر لما رأى من المصلحة، فقد فرق رسول الله ﷺ غنائم حنين في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة، وترك الأنصار لما رأى من المصلحة حتى قال قائلهم: تقسم غنائمنا في الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!

فكان الذي دعاهم إلى الإنكار على ما فعل رسول الله ﷺ قلة معرفتهم بما رأى من المصلحة فيما قسم، وكان أعظم من إنكار من أنكر على عثمان - رضى الله عنه - لأن مال المؤلفة من الغنيمة، فلا يلزم عثمان - رضى الله عنه - من إنكار من أنكر عليه شيئاً إلا ما لزم رسول الله ﷺ حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداءً بنبيه ﷺ (١).

٧. الطعن عليه بأنه ضرب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود،

أما الطعن عليه بأنه ضرب عماراً حتى فتق أمعاءه!! فقال أبو نعيم في «تثبيت الإمامة»: هذا غير ثابت عنه، وقال ابن العربي: وأما ضربه عماراً فزور، وإفك. ودعوى ضربه ابن مسعود، وكسر أضلعه، ومنعه عطاءه سنتين!! كل هذا باطل وزور، ولا أصل له (٢).

بل لقد قال الإمام ابن تيمية: «فإن قيل إن عثمان قد ضرب ابن مسعود وعمار، فهذا لا يقدح في واحد منهم، فإننا نشهد أن الثلاثة في الجنة، وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين، ولقد ضرب عمر، أبي بن كعب، بالدرة لما رأى الناس يمشون خلفه، وقال: «ذلة للتابع، وفتنة للمتبع» (٣). (٤)

ابن عمر - رضى الله عنهما - ودفاعه عن عثمان - رضى الله عنه -

جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه. هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. فقال:

(١) «تثبيت الإمامة» لأبي نعيم (ص ١٤٩) نقلاً عن سيرة وحياة ذي النورين عثمان بن عفان، تأليف مجدى فتحى السيد (ص ٩٤) - دار الصحابة بطنطا.

(٢) تثبيت الإمامة / لأبي نعيم (ص ١٥١ - ١٥٢).

(٣) منهاج السنة (٣/ ١٩٢).

(٤) نقلاً من ترطيب الأفواه (ص ١٤١: ١٤٧) بتصرف.

تعلم أنه تغيب يوم بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدا؟ قال: نعم، قال: الله أكبر.

قال ابن عمر: تعال أبين لك. أما فراره يوم أُحُد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحت بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه.. فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ: هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك^(١).

عتاب يجعل القلب يبيكى الدماء بدل الدموع (وقت الحصار)

عن أبي أمامة بن سهل قال: كنا مع عثمان وهو محصور في الدار، وكان في الدار مدخل من دخله سمع كلام من على البلاط فدخله عثمان فخرج إلينا وهو متغير لونه فقال: إنهم ليتواعدوني بالقتل آنفًا قال: قلنا: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين قال: ولم يقتلونني؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحسان، أو قتل نفس بغير نفس، فوالله ما زنت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا أحببت أن لي بديني بدلًا منذ هداني الله ولا قتلت نفسيًا فبم يقتلونني»^(٢).

وعن أبي عبد الرحمن أن عثمان - رضى الله عنه - حين حُوصِرَ أشرف عليهم وقال: «أنشدكم الله، ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر رومة (البئر) فله الجنة فحفرتها؟ ألستم تعلمون أنه قال: من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزته؟ قال: فصدقوه بما قال^(٣).

(١) أخرجه البخاري عن عثمان - ابن موهب - (٣٦٩٨) والترمذي (٣٧٠٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٥٠٢) وأحمد (١ / ٦١ - ٦٢) والنسائي (٧ / ٩١ - ٩٢) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٧٨) معلقًا وهو صحيح لشواهده.

وعمان وقت الرحيل

ولما اشتد حصار الثوار لداره، قال للصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح: «إن أعظمكم عنى غناءً، رجلٌ كفَّ يده وسلاحه!!».

ويقول لأبي هريرة وقد جاء شاهراً سلاحه مدافعاً عنه: «أما إنك والله لو قتلت رجلاً واحداً، لكأنما قتلت الناس جميعاً».

ويقول للحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير، وشباب الصحابة الذين أخذوا مكانهم لحراسته: «أناشدكم الله وأسألكم به، ألا تراق بسببي مخجمة دم».

قال ابن عمر: جاء (علي) إلى عثمان يوم الدار، وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن علي وعليه سلاحه، فقال للحسن: ادخل إلى أمير المؤمنين، وأقرئه السلام، وقُلْ له: إنما جئتُ لنُصرتك، فمرني بأمرك. فدخل الحسن ثم خرج، فقال لأبيه: إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام، ويقول لك: لا حاجة لي في قتال وإهراق الدماء. قال: فنزع (علي) عمامة سوداء فرمى بها بين يدي الباب، وجعل ينادي:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] (١).

لله درك يا عثمان.. رحمة جامعة تغطي بعطائها المقسط جلائل الأحداث وصغارها، فللخادم منها حظه وحقه في أن ينعم براحة النوم، وإن أضنى الخليفة نفسه وشيخوخته في ظلمة الليل البهيم... ولقطرات الدم حظها وحقها في أن تنعم بالسلام والعافية، وإن كان بديل ذلك أن تزهق روح الخليفة الشيخ بيد مُعتد أثيم، وغادر زعيم.. توغلت الرحمة في حياته وفي سلوكه، حتى اقتضته آخر الأمر حياته نفسها، فجأد بها.

ولقد كان من الطبيعي لرجل وسعت رحمته الناس جميعاً، أن تغطي رحمته ذوى قُرباه... قال علي - رضي الله عنه -: «أوصلنا للرحم عثمان». لقد كان عثمان في ذلك نسيج وحده (٢).

(١) التبصرة (١/ ٤٣١).

(٢) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٢).

إِنْ أَرَادَ لَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى شَيْءٍ قَوْلِيكَ، فَلَا تَخْلَعْهُ هَتَنِي تَلْقَانِي

وَمِنَ لِلْعِظَائِمِ غَيْرِ الْعَظِيمِ.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عثمان، إن الله مُقَمِّصُكُ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ، فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي» (١).

لله دره في محنته.. محنة هبطت بها شراسة المتآمرين إلى السفح، وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القمة.

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمْتِي الْمُطِيطَاءُ، وَخَدَمَهَا أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ؛ أَبْنَاءُ فَارِسَ وَالرُّومِ، سَلَّطَ شَرَارَهَا عَلَى خِيَارِهَا» (٢).

مؤامرة يتولاها ويُعدُّ لها الناقمون على الإسلام كله (الدين والدولة والأمة).

لقد سيطر على رُوع الخليفة واجب - وهو يرى المدَّ المتآمر - بدا له - يومئذ - أنه أهمُّ الواجبات وأقدسها؛ ذلكم هو «المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها». فهذه الفتنة المخربة، والتمرد الأبق، يهدفان إلى هدم كيائها ودحر قيمها، واعتصام الدولة بكبريائها وسلطانها، يُصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة. لقد وعى خليفتنا عهد رسول الله إليه ببصرٍ ثاقب، وحمل مسئوليته بعزمٍ مجيد.

من شاء أن يُبصر علو الهمة في الاستمساك، في أجل وأروع وأبهى صورته، لا للفوضى، حتى ولو كان فيها قتله؛ تواتيه فرصة قتال الثَّوَّار وقتلهم، فيرفضها.

ومع هذا، حين أخرج الثَّوَّار ورقتهم الأخيرة، ورفعوا عقائثرهم في جرأة ضارية: «إِذَا اعْتَزَلَ عَثْمَانُ، وَإِذَا قُتِلَ». في ثبات مذهل يرفض الخليفة أن يعتزل.

أيمكن لرجل جاوز الثمانين، أن يستبد به طموح المنصب ومجده وجاهه، والأخطار والمهالك على هذا النحو المزلزل الرهيب.

لقد رفض عثمان أن يعتزل؛ لأنه «رجل مسئوليات» من طرازٍ فريد.

وهذا الخلق كان مخبوءًا تحت ستار تواضعه وحيائه، وما كنا سنراه متألقًا كالشمس

(١) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي، وابن ماجه والحاكم، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٩٤٧).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٠١).

فى رابعة النهار، إلا فى أزمة كهذه.. ومحنة كهذه.. وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم... أفترض ويُسَلِّم مصائر الإسلام، وكرامة الدولة، لعصابة مفتونة؟ لا، وألف لا.

قال له ابن عمر: «لا تسن هذه السنة فى الإسلام، ولا تخلع قميصاً ألبسكه الله». منعوه زوآده، ومنعوه الماء.. الذى تتفجر به بئر رومة التى اشتراها من خالص ماله وأهداها للمسلمين.

سبحان الله! ما أعلى هذه الهمة... صبر على حقن الدماء ولو سالت دماؤه... وحفاظ على هبة الدولة ولو ذبح.

حاصروه أربعين يوماً، وعنده فى الدار من المهاجرين والأنصار قريب من سبعمائة، وخلق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه، فقال لهم: أقسم على من لى عليه حق، أن يكف يده، وأن ينطلق إلى منزله. وقال لرقيقه: من أغمد سيفه فهو حر.

عن نافع عن ابن عمر، أن عثمان - رضى الله عنه - أصبح يحدث الناس، قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام فقال: «يا عثمان، أفطر عندنا»، فأصبح صائماً وقتل من يومه (١).

واستسلم عثمان لأمر الله رجاء موعوده، وشوقاً إلى رسوله ﷺ، ليكون خيراً ابنى آدم:

«إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ» [المائدة: ٢٩].

كان عثمان أكثر الناس يقيناً بصدق رؤياه.. سينطلق فى عرسه العظيم إلى رحاب الله وجوار محمد ﷺ ورحلة الخلود.

ولما أصابوا كفه قال: «والله إنها لأول يدٍ خطَّتِ المُفْصِلَ وكتبت آى القرآن».. وسال الدم على قوله تعالى:

«فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» [البقرة: ١٣٧].

لقد كان همه ألا تسقط راية الخلافة من يمينه.. وألا يلقي الله - حتى يلقاه - وعلى يديه قطرة واحدة من دماء مسلمة.

وحين تمدد جثمانه الطهور، كان كتاب الله لصيقه وصديقه.. ومن أولى بذلك منه؟
وهو الذي وحده، وحفظه وافتداه.

ضحوا بأشمطم عنوان السجود به يُقطع الليل تسبيحاً وقرأنا^(١)

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

إن الله - عز وجل - تكفل لأوليائه المؤمنين بالدفاع عنهم في حياتهم، بل وبعد موتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب...»^(٢).

وقد يسأل سائل ويقول: ولم لم يدافع الله عنه عند قتله؟!

أقول: إن قتله هو أعظم دفاع عنه.... فقد رزقه الله الشهادة بذلك مصداقاً لقول
النبي ﷺ الذي بشره بها.

وها هي صورة مشرقة من دفاع الله عن عثمان - رضى الله عنه - بعد موته - هذا غير
العذاب الذى سيلاقيه قاتلوه يوم القيامة عند ربهم -.

عن أبى قلابة قال: «كنت فى رفقة بالشام، وسمعت صوت رجل يقول: «يا ويلاه
النار». قال: فقممت إليه، وإذا رجل مقطوع اليدين والرجلين من الحقوين، أعمى العينين،
منكباً لوجهه، فسألته عن حاله فقال:

إنى كنتُ ممن دخل على عثمان الدار، فلما دنوت منه صرخت زوجته فلطمتها، فقال
(أى عثمان): «ما لك، قطع الله يديك، ورجليك، وأعمى عينيك، وأدخلك النار»،
فأخذتنى رعدة عظيمة، وخرجت هارباً، فأصابنى ما ترى، ولم يبق من دعائه إلا النار.
قلت له: بعداً لك وسُحُراً^(٣).

وقال يزيد بن حبيب: «إن عامة الذين ساروا إلى عثمان جنوا»^(٤).

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٤: ٦٦).

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة - باب التواضع - كتاب الرقاق.

(٣) الرياض النضرة فى مناقب العشرة للطبرى (٥٠٧) تحقيق/ د. حمزة النشترى.

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٤٥٥٣): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

أى أصيبوا بالجنون.

ورحل الشهيد عن دنيا الناس بعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد والعدل والسماحة والتواضع.

رحل بعد أن سألت دماؤه التى لطالما امتزجت بحُب الله وحُب رسوله ﷺ ... سألت دماؤه الشريفة التى انصهرت مع كل آية من آيات القرآن الكريم.

رحل بعد أن قدم للإسلام الكثير والكثير.

وها نحن بعد هذا الزمان الطويل نذكره ونذكر أعماله الجليلة، ولن ننساه أبداً ما دامت أرواحنا فى أجسادنا.

فرضى الله عن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

علي بن أبي طالب

أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى
إلا أنه لا نبوة بعدى

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن نفتح صفحة... أقصد صفحات مضيئة، بل ومليئة بالزهد والورع والخشية والتضحية والجهد بالنفس والنفيس في سبيل الله جل وعلا.
إنه علي بن أبي طالب - رضى الله عنه -.

إنه البطل... بل حيدرة الأبطال الذي عاش لله بقلبه وجوارحه.

إنه التقى الذي تربى في حقل الإسلام وسقى بماء الوحي، فكان زهرة يانعة طاب ريحها وملاً أرجاء الكون كله.. وما زلنا نشم عطر سيرته حتى يومنا هذا، وسيظل هذا العبير ينشر عطره عبر العصور والأزمان على أرجاء الكون ليعلم الكون كله كيف استطاع الحبيب ﷺ أن يربى أصحابه ليكونوا نُجوماً في سماء الدنيا تضيء للناس طريقهم إلى الله.

وكيف لا؟! وهو الذي رباه الخالق - جل جلاله - ليربى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

إنه وهو في السادسة من عمره بدأ يعيش مع «محمد» الصادق الأمين، يتأدب على يديه، ويتأثر بطهره، وعظمة نفسه، وتقى ضميره وسلوكه.. وحين بلغ العاشرة، كان الوحي قد أمر الرسول بالدعوة.. وكان هو سابق المسلمين!!

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجيء اليوم الذي سيلقى فيه ربه.. تطبيقاً كاملاً وأميناً لمنهج الرسول وتعاليم القرآن..

ألا بُوركت هذه الحياة!!

حياة لم تكن لها صَبَوَةٌ، ولا شهوة، ولا هفوة!!

حياة: وُلد صاحبها، وتبعاتُ الرجال فوق كاهله!!

حتى لهو الأطفال. لم يكن لحياة (علي بن أبي طالب) فيه حظ ولا نصيب..

فلا مزامير البادية، ولا أغاني السُّمار، شبع منها سمع الطفل، ووجدان الشاب..

لكأنَّ المقادير كانت تدَّخر سمعه ووجدانه، لكلمات أخرى ستغير وجه الأرض،
ووجه الحياة...!!

أجل.. لقد أدَّخر سمع الفتى وقلبه، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحدٌ مثله آيات الله
العلي الكبير.

لقد كان يسمع القرآن غصًّا طريًّا من فم الصادق المصدوق ﷺ.

ولك أن تتصور أيها الأخ الكريم نفسك وأنت تسمع القرآن من فم من أنزل عليه
القرآن ﷺ.

وفي نور هذه الآيات المنزلة، والتي كان الوحي يجيئ بها تباعًا، قضى «علي بن أبي
طالب» بواكير حياته النضرة، يبهره نورها.. ويهزه هديرها..

يسمع آية الجنة يتلوها الرسول، فكأنما الغلام الرشيد يراها رأى العين، حتى ليكاد
يسقط يمينه ليقطف من مباهجها وأعناؤها!

ويسمع آية النار، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار.. ولولا جلال الصلاة وحرمتها
لَوَلَّى هاربًا من لفح النار الذي يُحسُّه ويراه...!! (١)

وذكر بعضُ أهل العلم أن رسولَ الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب
مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيًّا من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه
وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن
يمكثا، ثم إنَّ أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يُصليان، فقال لرسولِ الله ﷺ: يا بن أخي!
ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: «أى عم. هذا دين الله، ودين ملائكته ودين
رُسله، ودين أبينا إبراهيم» - أو كما قال ﷺ - «بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أى
عم، أحقُّ من بذلتُ له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحقُّ من أجابني إليه وأعانني

(١) خلفاء الرسول / خالد محمد خالد (٤٧٣: ٤٧٤) بتصرف.

عليه»، فقال أبو طالب: أي ابن أخي إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخْلَصُ^(١) إليك بشيء تكرهه ما بقيت.

وذكروا أنه قال لعليّ: أي بُنيّ، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنتُ [بالله و] برسول الله، وصدّقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته، فزعموا أنه قال له: أما إنّه لم يدْعُك إلا إلى خير، فالزمه^(٢).

ولما كانت حياته في بيت النبي ﷺ فإنه عرف جميع أموره الداخلية، ودرس أحواله وأخلاقه عن قرب، وشرب من مشربه، وتربى على أخلاقه ﷺ وعاداته، وتصرفاته، فلبس ثياب الطهر في صغره، وبَعُدَ عن الأصنام وناصبها العداء من بداية أمره، وشُغِلَ بأمر النبي ﷺ طيلة حياته؛ لأنه كان دائم القرب منه، والصلة به، والعمل على راحته وخدمته، والاستضاءة بنوره، والشرب من منهله أكثر من غيره. وكان مع ذلك قد أُوتِيَ ذاكرة واعية، وعقلاً متفتحاً، وذكاءً نادراً، وشجاعة فذة، وقوة لا مثيل لها عند غيره.

وكان قد اعتاد أن يحيا حياة النبي ﷺ في زهده وتقشفه وورعه وخوفه من الله، وصلابته في الحق، وثباته عليه، والدعوة إليه.

وكان عنده من عمر - رضى الله عنه - عزمه وحزمه، وشدته في الله وصلابته، وسرعة بته في الأمور، وانقضاضه على الباطل وأهله في غير مهادنة أو مداهنة.

ولم يكن عليّ - رضى الله عنه - يعرف مجاملة الناس في سبيل نصرة الحق وإزهاق الباطل، وليس عنده استعداد أن يدير سياسة الرعية حسبما تقتضى أصول السياسة بعيداً عن أصول الدين وفروعه وما كان عليه رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده^(٣).

الأوسمة التي وضعها الحبيب ﷺ على صدره - رضى الله عنه -

وها هي باقة عطرة من مناقبه - رضى الله عنه - والأوسمة التي وضعها الحبيب ﷺ على صدره.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير فتحرّكت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبيّ أو

(١) يُخْلَصُ إليك: أي لا يصل إليك.

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٠٩ - ٢١٠).

(٣) الخلفاء الراشدون/ الشيخ حسن أبوب (ص ٢٥١).

صديق أو شهيد» (١).

وعن علي - رضي الله عنه - قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله إنك تبعثني إلى قوم هم أسنُّ مني لأقضي بينهم قال: اذهب فإن الله تعالى سيثبت لسانك ويهدي قلبك (٢).

وقال ﷺ: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح في الجنة» (٣).

وعن حبشي بن جنادة السلولي - وكان قد شهد حجة الوداع - قال: قال رسول الله ﷺ: علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي (٤).

وعن علي - رضي الله عنه - قال: لما توفي أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت: إن عمك الشيخ قد مات قال: اذهب فواره ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني قال: فواريته ثم أتته قال: اذهب فاغتسل ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني قال: فاغتسلت ثم أتته قال: فدعها لي بدعوات ما يسرنني أن لي بها حمر النعم وسودها، قال: وكان علي - رضي الله عنه - إذا غسل ميتاً اغتسل (٥).

وعن زر قال: قال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إلي: «أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق» (٦).

وعن ابن أبي ليلى قال: «حدثنا علي أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحي، فأتي النبي ﷺ بسبي فانطلقت - لتطلب منه من يخدمها من السبايا - فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم فقال: علي مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال: ألا أعلمكما خيراً مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) - والترمذي (٣٦٩٦).

(٢) رواه أحمد (٨٨/١) والنسائي في الخصائص (٣٥)، وقال العدوي: وهو صحيح بمجموع طرقه.

(٣) رواه أحمد والضياء عن سعيد بن زيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠).

(٤) رواه أحمد (١٦٥/٤) والترمذي (٣٧١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٩١).

(٥) رواه أحمد (١٠٣/١) وأبو يعلى في مسنده (٣٣٥/١)، وقال العدوي: وهو حسن بمجموع طرقه.

(٦) أخرجه مسلم (٧٨) والترمذي (٣٧٣٦).

تكبران أربعاً وثلاثين وتسبحان ثلاثاً وثلاثين وتحمدان ثلاثاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم» (١).

وعن ابن أبي حازم أن رجلاً جاء إلى سهل بن سعد فقال هذا فلان - لأمير المدينة - يدعو علياً عند المنبر (٢) قال: ماذا يقول: قال: يقول له: أبو تراب فضحك قال: والله ما سماه إلا النبي ﷺ وما كان له اسم أحب إليه منه فاستطعمت الحديث سهلاً، وقلت: يا أبا عباس كيف ذلك؟ قال: دخل عليّ علي فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد فقال النبي ﷺ أين ابن عمك (٣)؟ قالت: في المسجد فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره، فيقول: اجلس يا أبا تراب. مرتين» (٤).

وعن مصعب بن سعد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون إلا أنه ليس نبي بعدى» (٥).

وعن سعد بن أبي وقاص قال: «كنت جالساً في المسجد أنا ورجلين معي فنلنا من عليّ فأقبل رسول الله ﷺ غضبان يُعرَفُ في وجه الغضب فتعوذت بالله من غضبه، فقال: مالكم ومالي؟ من آذى علياً فقد آذاني» (٦).

وعن أبي بكر أن النبي ﷺ بعثه ببراءة لأهل مكة لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فأجله إلى مدته، والله برىء من المشركين ورسوله، قال: فسار بها ثلاثاً ثم قال لعليّ - رضى الله عنه -: الحقه فردّ عليّ أبا بكر وبلغها أنت قال: ففعل قال: فلما قدم على النبي ﷺ أبو بكر بكى.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٥) - ومسلم (٢٧٢٧) - وأحمد (١/ ١٣٦).

(٢) في رواية مسلم: استعمل علي المدينة رجل من آل مروان قال: فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم علياً قال: فأبى سهل، فقال له: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا تراب... فقال سهل: ما كان لعلي اسم أحب إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرح إذا دعى بها...

(٣) في رواية البخاري (٤٤١) ومسلم (٢٤٠٩) قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقلّ عندي.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤١٦) - ومسلم (٢٤٠٤).

(٦) رواه أبو يعلى (٢/ ١٠٩) وأحمد في فضائل الصحابة (١٠٧٨) وهو حسن.

قال: يا رسول الله حدث في شيء؟ قال: ما حدث فيك إلا خير، ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني^(١).

وعن البراء - رضى الله عنه - قال: لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر لك بهذا، لو تعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلى: امح رسول الله.. قال (علی): لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله الكتاب - وليس يحسن يكتب - فكتب: هذا ما قاضى محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى يا عم يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك حمليها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمك وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلی: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة^(٢).

ثلاثة أغلى من الدنيا وما فيها

عن سعد بن أبي وقاص قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول له خلفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى» وسمعتة يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»

(١) رواه أحمد (١ / ٣) وهو صحيح بمجموع طرقه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٥١) - والترمذي مختصراً.

قال: فتناولنا لها، فقال: «ادعوا لي علياً» فَأَتَى بِهِ أَرْمَدٌ فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ^(١)، ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(٢).

وحمزة سيد الشهداء عمي	محمد النبي أخى وصهرى
يطير مع الملائكة ابن أُمى	وجعفر الذى يمسى ويضحى
منوطٌ لحمها بدمى ولحمى	وبنت محمد سكنى وزوجى
فأيكم له سهمٌ كسهمى	وسبطا أحمد ولدائى منها

ثُمَّ عَلَى فَرَّاشِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُضْطَئِدَ... فَأَسْعَدَ اللَّهُ فَرَّاشَهُ بِضَاطْمَةِ لَتَرَضِيهِ

ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية اجتماع شياطين قريش فى دار الندوة فى يوم الزحمة، وحكى ما كان بينهم وبين إبليس الذى تبدى لهم فى صورة الشيخ النجدى، واستقر رأيهم على ما قاله أبو جهل بن هشام.

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل - الدية - فعقلناه لهم.

فتفرق القوم على ذلك وهم مجتمعون له. فَأَتَى جِبْرَائِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: لَا تَبْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فَرَّاشِكَ الَّذِى كُنْتَ تَبْتَ عَلَيْهِ.

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيشبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلى بن أبى طالب: «نَمْ عَلَى فَرَّاشِى، وَتَسْبِحْ بِرُدى هَذَا الْخَضِرِى الْأَخْضَرِ، فَنَمَ فِيهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنَامُ فِي بُرْدِهِ ذَلِكَ إِذْ يَنَامُ.

(١) تنبيه: عند النسائى فى الخصائص عقب حديث (٥٢) - وهو هذا الحديث - زيادة فوالله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة. وإسنادها صحيح وفيها شدة تورع معاوية وتوقفه عند حديث رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم فى طرق حديث (٢٤٠٤) - والترمذى (٣٧٢٤) وأحمد (١/ ١٨٥).

ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يَسَّ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهْمًا لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يس: ١- ٢٩]. ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم أت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا. قال: خيبتكم الله، قد والله، خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليًا على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله، إن هذا لمحمد نائمًا على برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام (علي) عن الفراش، فقالوا: والله، لقد صدقنا الذي كان حدثنا.

حمى المغوار حيدرة^(١) الدعوة في شخص نبيها ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرت بها الدعوة، رجل ينام في الفراش وهو يعلم أن على الباب رجالاً لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش، فلما قلق به الفراش ليلة من أجل نبيه، أسعد الله فراشه بفاطمة بنت نبيه ﷺ التي تجلبت في جلباب كمالها. وأعطاه الرسول ﷺ الأهل والمرحب، وأصدقه درعه الحُطْمِيَّةَ، فأهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من آدم - جلد - حشوها ليف، وقربة ومنخل وقدر ورحى وجرابان. ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل وتعلف عليه الناضح بالنهار، وكانت هي خادمة نفسها. تالله، ما ضرها ذلك.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين».

وفي الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني».

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة؛ عليّ وعمار وسلمان»^(٢). ونعم الجزاء..

(١) هو اسم علي بن أبي طالب قال:

أنا الذي سميتني أمي حيدرة كليث غابات كرية المنظره

وحيدرة هو: الأسد.

(٢) رواه الترمذي والحاكم في المستدرک عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٥٩٨).

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

وها هو - رضى الله عنه - يسطر على جبين التاريخ - بسطور من النور - صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله تعالى فهو يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها اشتياق من يبحث عن الماء البارد في صحراء موحشة.

جهاده في يوم بدر

وفي غزوة بدر خرج الفارس المغوار مجاهداً في سبيل الله.
عن عبد الله ابن مسعود قال: كنا يوم بدر ثلاثة على بعير... كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ - دوره في المشى - قال: فقالا: نحن نمشي عنك فقال: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما^(١).
وفي أرض الشرف والجهاد حيث تصمت الألسنة وتنطق السيوف فوق هامات الرؤوس.. كان لبطلنا هذا الموقف العظيم.

عن علي قال: تقدم - يعني عتبة بن ربيعة - وتبعه ابنه وأخوه فنادى: من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار فقال: من أنتم؟ فأخبروه فقال: لا حاجة لنا فيكم إنما أردنا بني عمنا فقال رسول الله ﷺ: «قم يا حمزة قم يا علي قم يا عبيدة بن الحارث» فأقبل حمزة إلى عتبة وأقبلت إلى شيبة واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة^(٢).

وعن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة» وقال قيس بن عباد وفيهم أنزلت «هذان خصمان اختصموا في ربهم» قال: «هم الذين تبارزوا يوم بدر... حمزة وعلي وعبيدة... أو أبو عبيدة بن الحارث - وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة»^(٣).

(١) رواه أحمد (٤١١ / ١) والطيالسي (٣٥٤) وإسناده حسن.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٦٥) وأحمد (١١٧ / ١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٦٥) وعزاه المزي في الأطراف للنسائي.

جهاده في يوم الخندق

وفي غزوة الخندق كان له هذا الموقف العظيم مع فارس قريش (عمرو بن عبد ود). كان عمرو بن عبد ود العامري «كبش الكتيبة» قد حضر معركة بدر الكبرى، وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جرح في المعركة، فنذر أن لا يمس رأسه دهنًا حتى يقتل محمدًا، ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين، ومعه فوارس من قريش، وخرج على بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تُعَنِّق - تُسرع - نحوهم.

قال ابن إسحاق: «كان عمرو بن عبد ود العامري (وهو كبش الكتيبة) قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحدًا، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلِّمًا ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال: مَنْ يبارز؟ فبرز إليه على بن أبي طالب».

وعند البيهقي في «دلائل النبوة»: «خرج عمرو بن عبد ود وهو مُقَنَّع بالحديد، فنادى: مَنْ يبارز؟ فقام على بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله. فقال: «إنه عمرو، اجلس». ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ فجعل يُؤنِّبهم ويقول: أين جتكم التي تزعمون أنه مَنْ قُتل منكم دخلها، أفلا تُبرزون إلى رجلاً؟! فقام على فقال: أنا يا رسول الله. فقال: «اجلس». ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بحختُ من النداء	لِجَمْعِهِمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ
ووقفتُ إذ جبنَ المشجعُ	موقفَ القرنِ المناجزِ
ولذاك إنى لم أزلُ	متسرعًا قبلَ الهزاهزِ
إنَّ الشجاعةَ في الفتى	والجود من خيرِ الغرائزِ

قال: فقام على - رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله، أنا. فقال: «إنه عمرو». فقال: وإن كان عمرًا. فأذن له رسول الله ﷺ، فمشى إليه، حتى أتى وهو يقول:

لا تعجلَنَّ ففقدَ أذاك	مُجِيبُ صَوْتِكَ غيرُ عاجزِ
في نيّةٍ وبصيرةٍ	والصدقُ منجى كلِّ فائزِ
إنى لأرجو أن أقيـ	سمَ عليك نائحةَ الجنائزِ

مِنْ ضَرْبَةٍ لِحِجْلَاءٍ يَبِّ - حَتَّى ذَكَرُهَا عِنْدَ الْهَزَاهِرِ^(١)»

ولما مشى على إلى عمرو ليبارزه قال له: يا عمرو، إنك كنت تقول: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها. قال له: أجل. فقال له: إني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتسلم لرب العالمين. فقال عمرو: يا ابن أخي، أخر عني هذه. قال علي: وأخرى: ترجع إلى بلادك، فإن يك محمد رسول الله صادقاً كنت أسعد الناس به، وإن يك كاذباً كان الذي تريد. فقال عمرو: هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً. كيف وقد قدرت على استيفاء ما نذرت؟! ثم قال عمرو: فالثالثة، ما هي؟ فقال علي: البراز. فضحك فارس قريش عمرو - وكان فارساً مشهوراً معمرّاً قد جاوز الثمانين - ثم قال لعلّي: إن هذه الخصلة ما كنت أظنُّ أحدًا من العرب يروّعني بها. ثم قال لعلّي: من أنت؟ قال له: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟ فقال علي: أنا علي بن أبي طالب. فقال عمرو: يا ابن أخي من أعمامك من هو أسنُّ منك؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال علي: ولكني - والله - أحب أن أقتلك. فعند ذلك غضب عمرو غضباً شديداً، ونزل فسل سيفه، كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً، واستقبله علي بدركته فضربه عمرو في دركته فقلدها، وأثبت السيف فيها، وأصاب رأسه فشجّه، وضربه (علي) على حبل عاتقه فسقط، وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرف الناس أن علياً قد قتل عمراً، فثم يقول علي:

أَعْلَى تُقْتَحِمُ الْفَوَارِسَ هَكَذَا عَنِّي وَعَنْهُمْ أَخْرُوا أَصْحَابِي

اليوم يَمْنَعُنِي الْفِرَارَ حَفِيزَتِي وَمُصَمَّمٌ فِي الرَّأْسِ لَيْسَ بِنَابِي

وَأَلْقَى عِكْرَمَةَ رَمَحِهِ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ مِنْهَزِمٌ عَنْ عَمْرٍو، فَقَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ:

فَرٌّ وَأَلْقَى لَنَا رَمَحَهُ لَعَلَّكَ عِكْرَمٌ لَمْ تَفْعَلِ

وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعْدُو الظَّلِيلِ - مَا أَنْ يَحْوَرَ عَنِ الْمَعْدِلِ

وَلَمْ تَلَوْ ظَهْرَكَ مَسْتَأْنَسًا كَأَنْ قَفَاكَ قَفَا فَرْعَلٍ^(٢)

قال عمر بن الخطاب: هلا استلبت درعه، فإنه ليس للعرب درعٌ خير منها. فقال: ضربته فاتقاني بسوءته فاستحييت - ابن عمي - أن أسلبه. وبعث المشركون إلى

(١) لجلاء: واسعة - الهزاهر: الحروب والشدائد.

(٢) الفرعل: صغار الضباع.

رسول الله ﷺ ، يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال: «ادفعوا إليهم جيفته؛ فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية». فلم يقبل منهم شيئاً^(١).

صاحب الراية الذي يفتح الله على يديه (يوم خيبر)

وها هو - رضى الله عنه - فى يوم خيبر يشهد له النبى ﷺ بأنه يُحب الله ورسوله ﷺ ويحبه الله ورسوله ﷺ وبأن الله سيفتح على يديه.

عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». قال: فبات الناس ليلتهم، أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين على بن أبى طالب؟» ف قيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال على: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله؛ لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم»^(٢).

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه». قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذ. قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فأعطاه إياها. وقال: «امش ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك». فسار (على) شيئاً، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^(٣).

وعند البخارى عن سلمة، قال: «كان على قد تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر، وكان به رمدٌ، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟! فخرج على فلحق بالنبى ﷺ، فلما كان

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٤ / ١٠٦).

(٢) أخرجه البخارى (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦) والنسائى فى فضائل الصحابة (٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠٥) - وأحمد (٢ / ٣٨٤) والطيالسى (٢٤٤١).

مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غداً رجلاً يحب الله ورسوله - أو قال: يحب الله ورسوله - يفتح الله عليه». فإذا نحن بعليٍّ، وما نرجوه، فقالوا: هذا عليٌّ. فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه^(١).

وعن أبي سعيد الخدري، قال: إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزها، ثم قال: «مَنْ يأخذها بحقها؟» فجاء فلان فقال: أنا. قال: أمط. ثم جاء رجلٌ فقال: أمط. ثم قال النبي ﷺ: «والذي كرم وجه محمد، لأعطينها رجلاً لا يفر، هاك يا عليٌّ» فأنطلق حتى فتح الله عليه خيبر وفدك، وجاء بعجوتهما وقديدهما^(٢).

وفي حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم: «ثم أرسلني رسول الله ﷺ إلى عليٍّ وهو أرمد، فقال: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، أو يحب الله ورسوله». قال: فأتيتُ عليّاً فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية. وخرج «مرحب» فقال:

قد علمتُ خيرُ أني مرحبٌ شاكي السلاح بطلٌ مجربٌ
إذا الحروبُ أقبلتُ تلهبُ

فقال عليٌّ:

أنا الذي سمّني أمي حيدر^(٣) كليث غاباتٍ كريحِ المنظر^(٤)
أوفيهم بالصاع كيلَ السندرة

قال: فضرب رأس «مرحب» فقتله، وكان الفتح على يديه^(٤).

مرحب هذا: فارس فرسان اليهود، وكان مكتوباً على سيفه بالعبرية:

هذا سيفُ مرحبٍ من يدُقه يعطبُ

فضربه عليٌّ فقدّ الحجر والمغفر ورأسه، ووقع السيف في الأرض.

وقبله قتل (عليٌّ) أخا مرحبٍ، وهو الحارث. وبارز عليٌّ قائداً يهودياً - بعد مبارزة

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٢) - ومسلم (٢٤٠٧).

(٢) رواه أحمد (١٦ / ٣) وفي فضائل الصحابة (٩٨٧) وإسناده حسن.

(٣) حيدرة: هو الأسد.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع.

الزبير لياسر - وكان هذا القائد الفارس يُسمى عامراً، فقتله على أمام الحصن. قال رسول الله ﷺ حين طلع عامر: «تروونه خمسة أذرع؟» وكان طويلاً جسيماً، فلما دعا للبراز، وخطر بسيفه، وعليه درعان، وهو مقنع في الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، فبرز إليه (علي) فضربه ضربات، كل ذلك لا يصنع شيئاً، حتى ضرب ساقه فبرك، ثم ذقف (١) عليه فأخذ سلاحه (٢).

وفتح الله على يديه حصن (ناعم) وهو من أقوى حصون خيبر.

فيا لها من صفحات مشرقة لا ننساها أبداً ما دامت أرواحنا في أبداننا.

وعاش - رضى الله عنه - ملازماً للحبيب ﷺ يقتبس من علمه وزهده وأخلاقه الرفيعة إلى أن توفي الحبيب ﷺ وحزن عليه حزناً كاد أن يمزق قلبه.. فلقد فقد حبيبته ورسوله الذي لطالما احتضنه وأغدق عليه الكثير والكثير من رحمته وعطفه وعلمه، بل وأعطاه قرة عينه وثمره فؤاده (فاطمة) - رضى الله عنها -.

وبعد وفاة النبي ﷺ ظل (علي) ملازماً لخليفته الراشد (أبي بكر) - رضى الله عنه - وكان أبو بكر يعرف قدره ومنزلته ويشاوره في عظام الأمور، ولطالما كان يسعى إليه ويقول: «أفتنا يا أبا الحسن».

ولما توفي أبو بكر - رضى الله عنه - وأصبح عمر - رضى الله عنه - أميراً للمؤمنين... كان يعرف أيضاً (لعل) قدره ومنزلته، ولطالما كان يستنجد بفقهاء وبذكائه وبصيرته ويقول: «لولا عليٌّ لهلك عمر».

ولما قُتل (عمر) شهيداً وتولى عثمان شئون الأمة المسلمة وأصبح أميراً للمؤمنين كان يستشير (علياً) ويستنصحه ويستعين به إلى أن قُتل عثمان - رضى الله عنه - وفتحت أبواب الفتن على مصراعيها وتولى (علي) الخلافة على الرغم من أنه كان لا يريد بها بحال من الأحوال.

وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية - رضى الله عنهما -.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: إن ما كان بين معاوية وبين عليٍّ بعد مقتل عثمان... على سبيل الاجتهاد والرأى فجرى بينهما قتال عظيم، وكان الحق والصواب

(١) أجهز عليه.

(٢) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة - خيبر - لمحمد أحمد بشاميل (ص ١٢٢).

مع (عليّ) ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين^(١).

ونحن على يقين من أن الصحابة كلهم عدول وأنهم ما كانوا يطمعون في حُطام الدنيا، وإنما أرادوا جميعاً وجه الله ونُصرة دين الله - جل وعلا -... فرضى الله عنهم جميعاً وجمعنا وإياهم في جنته ومستقر رحمته إخواناً على سرر متقابلين.

الخليفة الراشد وهمته العالية

إن حياة أبي السبطين وأبي تراب (عليّ بن أبي طالب) تتفجّر عظمةً وجلالاً وإعجازاً، فمن عظمة نفسه وعلو همته، تنداح رحابٌ ليس لها أبعاد، تتلأأ عليها بطولاتٌ وتضحيات، عظامٌ وأمجاد، تكاد تحسبها - لولا صدق التاريخ - أحلاماً وأساطير.. مسلم عظيم، يفجّر الدنيا من حوالبه ذمّةً، واستقامةً، وطُهرًا، وذُرّاً سامقةً وغايات بعيدة. عظمة لن تكفّ عن توكيد ذاتها ما دام صاحبها حيّاً، يُمارس العظام، ويصوغ المكرمات.

يقول ضرار بن ضمرة الكنانى فى وصف عليّ: «كان بعيد المدى، شديد القوى... يقول فصلاً، ويحكم عدلاً... يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته... كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلّب كفيه ويخطب نفسه، ويعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشِب... لا يطمع القوى فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.. وأشهد، لقد رأيته فى بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثّل فى محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تلمل السليم، ويبكى بكاء الحزين، فكأنى أسمعهُ وهو يقول: يا دنيا، يا دنيا، إلىّ تعرّضت، أم إلىّ تشوّقت؟ هيهات هيهات غرّى غيرى، قد أبْتُتْكَ - طَلَقْتُكَ - ثلاثاً لا رجعة فيها!! فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، أه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق».

كان - رضى الله عنه - يُخرج كلّ ما كان فى بيت المال لمستحقّيه، حتى إذا فرغ بيت المال، يأمر الإمام أن تُنضح أرضه ويُغسل بالماء، حتى إذا تمّ ذلك، قام فصلّى فوق أرضه المغسولة ركعتين!!

كانت هذه الصلاة فى بيت المال، بعد أن نضح أرضه بالماء، رمزاً لمعنى جليل، كان

إِذَا نَا بَعْدَ جَدِيدٍ، تُسَيِّطِرُ فِيهِ الْآخِرَةُ عَلَى الدُّنْيَا، وَيَسْتَرِدُّ الْوَرَعَ وَالتَّقَى نَفُوذَهُمَا عَلَى الدُّوَلَةِ، وَعَلَى الْمَجْتَمَعِ، وَعَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَفئِدَةِ جَمِيعًا.

دُعِيَ لِيَنْزَلَ قَصْرَ الْإِمَارَةِ.. قَصْرٌ كَبِيرٌ تَرْتَفِعُ هَامَتُهُ فِي شَمُوخٍ وَفَتْنَةٍ.. فَلَا يَكَادُ يُبْصَرُهُ حَتَّى يُولَّى مَدِيرًا وَهُوَ يَقُولُ: «قَصْرُ الْخَبَالِ هَذَا، لَا أَسْكُنُهُ أَبَدًا».

وَيَرْتَدِي جَلْبَابًا اشْتَرَاهُ مِنَ السُّوقِ بِثَلَاثَةِ دِرَاهِمٍ، وَيَرْكَبُ حِمَارًا وَيَقُولُ: «دَعُونِي أَهْنِ الدُّنْيَا».

فَعَلَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُقِيمٌ لَمْ يَرْحَلْ.

يَجِدُ عَصْرَنَا هَذَا فِي نَهْجِهِ وَحُكْمِهِ أَسْتَاذًا وَمُعَلِّمًا وَهَادِيًا.. يَعْلَمُ الْحُكَّامُ فِي كُلِّ جِيلٍ وَعَصْرٍ أَنَّ الْوَلَاءَ لِلْحَقِّ يَعْنِي رَفْضَ إِغْرَاءِ الدُّنْيَا، وَرَفْضَ غُرُورِ السُّلْطَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: إِنْ عَلِيًّا مَا زَانَتْهُ الْخِلَافَةُ، وَلَكِنْ هُوَ زَانِهَا.

مَا زَانَهُ الْمُلْكُ إِذْ حَوَاهُ بَلْ كُلُّ شَيْءٍ بِهِ يُزَانُ

جَرَى فَفَاتَ الْمُلُوكَ سَبْقًا فَلَيْسَ قُدَّامَهُ عَنَانُ

نَالَتْ يَدَاهُ ذُرًّا مَعَالٍ يَعْبِزُ عَنْ مِثْلِهَا الْعِيَانُ

مَنَازِلُ عَلَا فِي الزُّهْدِ يُحَلِّقُ فِيهَا الْبَطْلُ الزَّاهِدُ الْأَوَّابُ، لَقَدْ كَانَتْ هَوَايَتُهُ الْكِبَرَى: إِهَانَةُ الدُّنْيَا وَإِذْلَالُ مَغْرِيَاتِهَا الْهَائِلَةِ؛ بَأْنَ يَرْفَعُ فِي وَجْهِهَا يَدًا لَا تَهْتَزُّ وَلَا تَخْتَلِجُ، تَقُولُ لَتِلْكَ الْمَغْرِيَاتِ: لَا.

قَالَ سَفِيَّانُ الثَّوْرِيُّ: مَا بَنَى عَلَى لَبَنَةٍ، وَلَا قَصَبَةٍ عَلَى لَبَنَةٍ، وَإِنْ كَانَ لِيُؤْتَى بِحُبُوبِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي جِرَابٍ.

وَكَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَعَهُ دَرَّةٌ لَهُ (عَصَا) يَمْشِي بِهَا فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنِ الْبَيْعِ، وَيَقُولُ: أَوْفُوا الْكِيلَ وَالْمِيزَانَ، وَيَقُولُ: لَا تَنْفَخُوا اللَّحْمَ.

وَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَعَلَيْهِ بُرْدَانٌ، مُتَزَرِّ بِأَحَدِهِمَا، مُرْتَدِّ بِالْآخِرِ قَدْ أَرْخَى جَانِبَ إِزَارِهِ وَرَفَعَ جَانِبًا، وَقَالَ: إِنَّمَا أَلْبَسَ هَذَيْنِ الثَّوْبَيْنِ لِيَكُونَا أَبْعَدَ لِي مِنَ الزُّهْوِ، وَخَيْرًا لِي فِي صَلَاتِي، وَسُنَّةً لِلْمُؤْمِنِ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: رَحِمَ اللَّهُ عَلِيًّا، إِنْ عَلِيًّا كَانَ سَهْمًا لِلَّهِ صَائِبًا فِي أَعْدَائِهِ، وَكَانَ فِي مَحَلَّةٍ

العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ، وكان رَهْبَانِيَّ هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسُّرُوقَةِ، ولا في أمر الله بالنُّومَةِ، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه، فكان منه في رياضٍ مُونِقَةٍ، وأعلامٍ بَيِّنَةٍ، ذاك عليّ بن أبي طالب^(١).

صفحات مشرقة من عدله - رضى الله عنه -

رضى الله عن أبي الحسن: «يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، كانت حظوظه مع نفسه في طهرها وعدلها وتقائها رابية ووافية، وكان عدله سامقاً يبقى على مر الزمان مناراً لذوى الرشيد والنهي، وكان ولاؤه للعدل ولاء مطبوعاً، ولاء فطرة وولاء يقين.

يقول - رضى الله عنه -: «أقنع من نفسى أن يقال: أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان؟ والله لو شئت لكان لى من صفو هذا العسل، ولُبَاب هذا البر، ومناعم هذه الشباب ولكن، هيهات أن يغلبنى الهوى، فأبيت مبطاناً وحولى بطون غرثى وأكباد حرّى».

وقال على بن أبي طالب - رضى الله عنه - على المنبر فى يوم الجمعة: «أيها الرعاء، إن لرعيّتكم حقوقاً: الحكم بالعدل، والقسم بالسوية، وما من حسنة أحبّ إلى الله من حكم إمام عادل»^(٢).

وعن العلاء بن عمار أن علياً - رضى الله عنه - خطب الناس فقال: أيها الناس... والذي لا إله إلا هو ما رزأت^(٣) من مالكم قليلاً ولا كثيراً إلا هذه - وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب - فقال: أهداها إلى الدّهقان^(٤)، ثم أتى بيت المال فقال: خذوا، ثم أنشأ يقول:

أفلح من كانت له قوصرة^(٥) يأكل منها كل يوم مرة^(٦)

وفى رواية: طوبى لمن كانت له قوصرة.

(١) صلاح الأمة / د. سيد حسين (٦ / ٦٧ : ٧٠).

(٢) ابن عبد البر فى (التمهيد) (٢ / ٢٨٤).

(٣) ما رزأت: أى ما أصبت ولا أخذت.

(٤) زعيم فلاحي العجم، ورئيس إقليمهم.

(٥) القوصرة: وعاء التمر.

(٦) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية»، وابن كثير فى «البداية» (٨ / ٣)، والذهبي فى تاريخ الإسلام.

وعن عبد الله بن زُرير - رحمه الله - قال: دخلت مع عليّ - رضي الله عنه - يوم الأضحى، فقرب إلينا خزيرة^(١)، فقلنا: أصلحك الله، لو أطعمتنا من هذا البط، فإن الله قد أكثر الخير، فقال: يا ابن زُرير، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلّ للخليفة من مال الله إلا قصعتان: قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يطعمها بين الناس»^(٢).

هكذا التقى الورع مع العدل، وما أروع (عليّ) وهو يتورع عن الأخذ من مال الأمة شيئاً زهيداً:

قال عترة بن عبد الرحمن الشيباني: دخلتُ عليّ عليّ ابن أبي طالب بالخورنق، وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك، ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟!

فقال: إني والله لا أرزأ من مالكم شيئاً، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي، أو قال من المدينة^(٣).

ومن عدالته: ما رواه عليّ بن ربيعة الوالبي، قال: إن عليّ بن أبي طالب قد جاءه ابن النباج، فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء، وبيضاء - ذهب وفضة - فقال: الله أكبر!! فقام متوكئاً عليّ ابن النباج حتى قام عليّ بيت مال المسلمين، فقال:

هذا جنائ وخياره فيه وكل جانٍ يده إلى فيه

يا ابن النباج، عليّ بأشباع الكوفة، قال: فنودي في الناس، فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين، وهو يقول: يا صفراء... ويا بيضاء... غري غري... ها، ها.

حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضجه، وصلى فيه ركعتين^(٤).

وعن علي بن الأرقم، عن أبيه قال: رأيت علياً، وهو يبيع سيفاً له في السوق، ويقول: من يشتري مني هذا السيف، فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول الله ﷺ،

(١) طعام عبارة عن لحم يقطع صفاراً، ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق، وقيل الحساء من سمن ودقيق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٧٨ / ١) وفيه ابن لهيعة، لكن الراوى عنه في رواية حرمله عن ابن وهب، وهو أحد العبادة.

(٣) صحيح: أخرجه ابن الجوزي في «صفة الصفوة»، وأبو نعيم في «الحلية»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، والخورنق: موضع بالكوفة.

(٤) حسن: أخرجه أبو نعيم في الحلية.

ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته^(١).

وكان - رضى الله عنه - يمشى فى أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين، فيُرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقى بالشيخ المسنَّ الكهل، فيحمل عنه حاجته، ولا يسكن قصر الإمارة ويقول: «قصر الخيال هذا، لا أسكنه أبداً» وحين نتكلم عن أمير المؤمنين - رضى الله عنه - فإننا نؤرخ للعظمة الإنسانية والعدل فى نموذجهِ الباهر... هو الذى علّم الأمة فقال أهل القبلة ولله دره حين يقول لعسكره: لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقربوا النساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم وصلحاءكم، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون».

لله در أبى الأسود الدؤلى حيث يقول فى على:

يقيم الحق لا يرتاب فيه	ويعدل فى العدى والأقربينا ^(٢)
ونفساً لم تذق طعم الدنيا	ولا لذت من الدنيا طعاماً
غذاها الدين مُذْ كانت فشبتْ	على التقوى رضاها وانقطاعاً
ونشأها على كرم وأيدٍ	وصاغ من الجلال لها قواماً
ذكت فسمت عن الدنيا طلاباً	وأضنى حبها قوماً وتاماً ^(٣)
طوى عنها على الضراء كشحاً	وعاف نُصارها تبراً وساماً

وأكبر همه مذ كان طفلاً	حدود الله يحرص أن تُقاماً
يذل لعزها نفساً ويرضى	لدفع الضيم عنها أن يُضاماً
إذا ما رنَّ صوت الحق منه	تولى الإفك وانحطم انحطاماً ^(٤)

ولما طعن - رضى الله عنه - وهو يتهاى للصلاة، بعد أن مرَّ بشوارع الكوفة يوقظ أهلها لصلاة الفجر... قال لبنيه بعد أن علم قاتله: «أحسنوا نُزله، وأكرموا مشواه، فإن أعش،

(١) صحيح: أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٨٣) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٨/ ١٥٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ١٥٠ - ١٥١) وأسد الغابة (٤/ ١٢٤).

(٣) تامة: أى تيممه.

(٤) «العلوية» لمحمد عبد المطلب.

فأنا أولى بدمه قصاصاً أو عفواً، وإن أمت، فألحقوه بى، أخاصمه عند رب العالمين، ولا تقتلوا بى سواه، إن الله لا يحب المعتدين» (١).

(على) - رضى الله عنه - أقضى هذه الأمة

قال عمر بن الخطاب: أقضانا على بن أبى طالب.

وعن ابن مسعود قال: كنّا نتحدّث أن أقضى أهل المدينة على بن أبى طالب.

وعن علىّ قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسول الله، ترسلنى وأنا حديث السنّ، ولا علم لى بالقضاء؟ فقال: «إن الله سيهدى قلبك، ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء». قال: فما زلت قاضياً، أو ما شككت فى قضاء بعد (٢).

وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع عمر يقول لعلىّ - وقد سأله عن شىء فأجابه -: أعوذ بالله أن أعيش فى قومٍ لست فيهم يا أبا حسن (٣).

وأخرج أحمد فى المناقب، عن علىّ - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعة وقعوا فى حفرة حُفرت لبصطاد فيها الأسد، سقط أولاً رجل فتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة، فجرّحهم الأسد. وماتا من جراحته فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال علىّ: أنا أقضى بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حُجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضى بينكم. اجمعوا من القبائل الذين حفروا البشر ربع الدية وثلاثها ونصفها ودية كاملة، فلأول ربع الدية؛ لأنه أهلك من فوقه، وللذى يليه ثلاثها؛ لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف؛ لأنه أهلك من فوقه، وللرابع الدية كاملة. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله ﷺ فلقوه عند مقام إبراهيم، فقصّوا عليه القصة فقال: «أنا أقضى بينكم» واحتبى بريدة، فقال رجل من القوم: إن علياً قضى بيننا. فلما قصّوا عليه القصة، أجازته (٤).

(١) نقلاً من ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ١٤٨: ١٥١) بتصرف.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم فى المستدرک وقال: صحيح الإسناد. وحسنه الشيخ وصلى الله ابن محمد عباس فى تحقيقه لفضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٦٩٩).

(٣) الرياض النضرة فى مناقب العشرة (٣/ ١٦٦) للمحب الطبرى.

(٤) الرياض النضرة فى مناقب العشرة (٣/ ١٦٩) للمحب الطبرى.

عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَجُودُهُ وَكِرَمُهُ

عن أبي جعفر قال: ما مات علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حتى بلغت غلته مائة ألف، ولقد مات يوم مات وعليه سبعون ألفاً ديناً. فقلت: من أين كان عليه هذا الدين؟ قال: كان تأتيه حامته من أصهاره ومعارفه، ممن لا يرى لهم في الفئ نصيباً، فيعطيه، فلما قام الحسن بن علي باع وأخذ من حواشي ماله حتى قضى عنه ثم كان يعتق عنه في كل عام خمسين نسمة حتى هلك ثم كان الحسين يعتق عنه خمسين نسمة حتى قُتل ثم لم يفعل أحدٌ بعدهما (١).

نزع (أبو بكر) مخيط الهوى فمزقه (علي).

رمى الصديق جهاز المطلقه فوافقه علي حتى رمى الخاتم.

حُبُّ الْفَقْرِ إِلَيْهِ أَنَّهُ	سُودِدَ وَهُوَ بِذَاكَ الْفَقْرِ يَغْنَى
وَشَرِيفُ الْقَوْمِ مِنْ بَقَى لَهُمْ	شَرَفَ الذِّكْرُ وَخَلَّى الْمَالُ يَفْنَى
مَا أَطْمَأَنَّ الْوَفْرُ فِي بُحْبُوحَةٍ	فَرَأَيْتُ الْمَجْدَ فِيهَا مُطْمَئِنًّا
تُهْدَمُ الْأَمْوَالُ مِنْ أَسَاسِهَا	أَبْدًا مَا دَامَتِ الْعِلْيَاءُ تَبْنَى (٢)

عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَشُكْرُهُ لِلَّهِ

كان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده، وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها (٣).

وعن علي - رضي الله عنه - أنه قال لرجل من أهل همدان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر متعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن؛ فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد» (٤).

(١) مكارم الأخلاق (ص ١٠٦).

(٢) التبصرة (٢/ ٢٥٨).

(٣) عدة الصابرين (ص ١٢٢).

(٤) الشكر لابن أبي الدنيا.

تواضعه - رضى الله عنه -

عن عمرو بن قيس: أن علياً - رضى الله عنه - رأى عليه إزار مرقوع، فعوتب في لبوسه، فقال: يقتدى به المؤمن، ويخشع له القلب^(١).

أدبه - رضى الله عنه -

عن صهيب مولى العباس، قال: رأيتُ علياً يقبل يد العباس ورجله ويقول: يا عم، ارض عني^(٢).

زهده - رضى الله عنه -

لما بكت الدنيا عليه، اشتاقت وضحكت الآخرة إليه.

كان يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشِب - أى ما غلُظ -.

هذا الذى كان يقف وقد أرخى الليل سجوفه وغارَت نجومه، وقد مثل فى محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تلمل السليم، ويبكى بكاء الحزين، وهو يقول: يا دنيا أبى تعرضت؟! أم بى تشوقت؟! هيهات غرى غبرى، قد بتك ثلاثاً لا رجعة لى فىك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق.

كلمات من ذهب

وها هى باقة عطرة من كلماته التى ينبغى أن تُنقش بالذهب على صفحات القلوب.

قال - رضى الله عنه - الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة. ومحبة العالم دين يُدان بها.

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد فى فضائل الصحابة وابن سعد فى الطبقات.

(٢) قال الذهبى فى السير (٢ / ٩٤): إسناده حسن.

العلم يُكسب العالمَ الطاعةَ في حياته، وجميل الأحدثة بعد موته، وضيعة المال تزول بزواله.

مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

وقال - رضى الله عنه -: احفظوا عني خمسًا لو ركبتم الإبل في طلبهن لما أصبتموهن ولأنضيتن الإبل قبل أن تدركوهن:

لا يَرْجُونَ عَبْدًا إِلَّا رَبَّهُ، ولا يَخْفَ إِلَّا ذَنْبَهُ، ولا يَسْتَحْيَ جاهِلٌ أَنْ يَسْأَلَ عما لا يعلم، ولا يَسْتَحْيَ عالمٌ إِذَا سُئِلَ عما لا يعلم أَنْ يَقُولَ: الله أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له.

وقال - رضى الله عنه -: «إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطُولُ الأمل: فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مُدْبِرَةً، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مُقْبِلَةً، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»^(١).

وقال - رضى الله عنه -: كونوا ينابيع العلم، معادن الحكمة، مصابيح الليل، خلجان الثياب، جُدَدُ القلوب، تُعرفون في أهل السماء، وتُخفون في أهل الأرض، وتُذكرون عند ربكم.

ألا إن الفقيه كل الفقيه الذى لا يُقْنِطُ الناسَ من رحمة الله ولا يُؤْمِنُهُمُ من عذاب الله، ولا يَرْخِصُ لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبةً عنه إلى غيره، ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها.

ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهى الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله.

ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنوبًا فهو يتدارك ذلك بتوبة. ورجل يسارع في الخيرات ويعمل في الدرجات.

مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، أن علياً - رضى الله عنه - شيع جنازة، فلما وُضعت في لحدها عجب أهلها وبكوها فقال: «ما تبكون؟ أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم وإن له فيهم لعودة - يعنى ملك الموت - حتى لا يبقى منهم أحدًا. ثم قام فقال: أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ضرب لكم الأمثال، ووقَّت لكم الآجال، وجعل لكم أسماعاً تعى ما عناها، وأبصاراً لتجلوا عن غشاها، وأفئدة تفهم ما دهاها، إن الله لم يخلقكم عبثاً، ولم يضرب عنكم الذكر صفحاً، بل أكرمكم بالنعم السوابغ، وأرصد لكم الجزاء، فاتقوا الله عباد الله وجدّوا فى الطلب، وبادروا بالعمل قبل هادم اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعتها، غرور حائل، وسناد مائل، اتعظوا عباد الله بالعبر، وازدجروا بالنذر، وانتفعوا بالمواعظ، فكأن قد علقتكم مخالب المنية، وضمنتم بيت التراب، ودهمتكم مظفات الأمور بنفخة الصور، وبعثرة القبور، وسياق المحشر، وموقف الحساب، بإحاطة قدرة الجبار، كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها، وشاهد يشهد عليها: ﴿وأشرقّت الأرض بنور ربها ووُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ فارتجت لذلك اليوم البلاد، ونادى المنادى، وحشرت الوحوش، وبدت الأسرار، وارتجت الأفئدة، وبرزت الجحيم قد تأجج جحيمها وغلا حميمها. عباد الله اتقوا الله تقيّة من وجل وحذر وأبصر وازدجر فاحتث طلباً ونجا هرباً، وقدم للمعاد واستظهر بالزاد، وكفى بالله منتقماً ونصيراً وكفى بالكتاب خصماً وحجيجاً، وكفى بالجنة ثواباً، وكفى بالنار وبالآ وعقاباً، وأستغفر الله لى ولكم^(١).

نِعْمَةُ الْإِتِّبَاعِ

أخرج البخارى عن مروان بن الحكم قال: «شهدت علياً وعثمان بين مكة والمدينة، وعثمان ينهى عن المتعة، وأن يجمع بينهما، فلما رأى ذلك (على) أهلّ بهما جميعاً فقال: لبيك بحجة وعمرة معاً، فقال عثمان: ترانى أنهى الناس عن شىء وأنت تفعله! فقال: ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس».

(١) صفة الصفوة (١) / ١٣٢ - ١٣٣.

وأخرج البيهقي بسنده عن عليّ - رضي الله عنه - قال: «لو كان الدين بالرأى لكان باطن الخفين أحقّ بالمسح من ظاهرهما، ولكن رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهرهما».

وهكذا يكون الاتباع للحبيب ﷺ الذي قال الله في حق من حاد عن هديّه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

بل ولقد حثّ الله الأمة كلها على اتباع الحبيب ﷺ فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكيف لا نتبع الحبيب ﷺ وهو الذي وصفه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عليّ - رضي الله عنه - والدعوة إلى الله

عن البراء أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأمره أن يقفل خالداً، إلا رجلاً كان ممن مع خالد، فمن أحب أن يعقب مع عليّ، فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع عليّ، فلما دنونا من القوم، خرجوا إلينا، ثم تقدم فصلّي بنا عليّ، ثم صفّنا صفّاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت (همدان) جميعاً، فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم. فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرّ ساجداً ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان! السلام على همدان!» (١).

قتاله - رضي الله عنه - للخوارج

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كنّا جلوساً ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج علينا من بعض بيوت نسائه. قال: فقُمنا معه، فانقطعت نعلهُ، فتخلّف عليها (عليّ) يخصفها. فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومضيّا

(١) أخرجه البيهقي ورواه البخاري مختصراً - كذا في البداية (٥ / ١٠٥).

معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: «إن منكم من يُقاتل على تأويل هذا القرآن، كما قاتلت على تنزيله». فاستشرفنا، وفيما أبو بكر وعمر، فقال: «لا، ولكنه خاصف النعل». قال: فجئنا نبشّره. قال: وكأنّه قد سمعهُ^(١).

وهو الذى قاتل الخوارج وقتلوه، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «طوبى لمن قتلهم وقتلوه»^(٢).

وقال ﷺ: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»^(٣).

وقال ﷺ: «الخوارج كلاب النار»^(٤).

وقال ﷺ: «لو يعلم الجيش الذى يصيبونهم ما قُضى لهم على لسان نبيهم لانتكلوا عن العمل»^(٥).

وقال ﷺ: «إن فى قتلهم أجراً عظيماً عند الله لمن قتلهم»^(٦).

ولما خرجت الخوارج على (على) وكانوا ثمانية آلاف من قُرَاء الناس، ونزل بحروراء فناظرهم (على)، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبد الله بن الكواء، فبعث (على) إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا، فأرسل إليهم: كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحداً، فإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب.

قال عبد الله بن شدّاد: فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدم الحرام، وذلك بقتلهم عبد الله ابن خباب بن الارت، وبقرؤا بطن سرّيته^(٧).

وعن سلمة بن كهيل قال: حدثني زيد بن وهب الجهني أنه كان فى الجيش الذى كانوا مع على - رضى الله عنه - الذين ساروا إلى الخوارج فقال على - رضى الله عنه -: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم

(١) رواه أحمد فى المسند (٨٢ / ٣) وإسناده حسن.

(٢) إسناده حسن: رواه ابن أبى عاصم فى السنة عن عبد الله بن أبى أوفى - وأخرجه أحمد.

(٣) صحيح: وقد ورد فى الصحيح أيضاً «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد».

(٤) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبى أوفى، وأحمد والحاكم عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

(٥) صحيح: أخرجه النسائى فى خصائص على، ورواه عبد الله بن أحمد فى السنة.

(٦) صحيح: أخرجه ابن ماجه وأحمد والترمذى عن ابن مسعود.

(٧) نقلاً من صلاح الأمة / د. سيد حسين (٩٢ / ٥).

بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم ﷺ لا تَكُلُوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد، وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدى عليه شعرات بيض.

فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذرائكم وأموالكم، والله إنني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس فسيروا على اسم الله. قال سلمة بن كهيل: فنزلني زيد بن وهب منزلاً حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ (عبد الله بن وهب الراسبي) فقال لهم: ألقوا الرماح وسلُّوا سيوفكم من جفونها فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء فرجعوا فوحشوا برماحهم وسلُّوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم قال: وقُتل بعضهم على بعض وما أُصيب من الناس يومئذ إلا رجلاً فقال لهم عليٌّ - رضي الله عنهم -: التمسوا فيهم (المُخْدَج) - الرجل الذي وصفه لهم النبي ﷺ - فالتمسوه فلم يجدوه فقام عليٌّ - رضي الله عنه - بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض قال: أخروهم فوجدوه مما يلي الأرض فكبر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله قال: فقام إليه عبيدة السلماني فقال يا أمير المؤمنين! أالله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو - حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف - (١).

وَحَانْ وَقْتُ الرَّحِيلِ

لقد بشره النبي ﷺ بالشهادة من قبل، وكان (عليٌّ) - رضي الله عنه - لا ينسى أبداً تلك البشرية العظيمة، فكان علي يقين من أنه سيقتل شهيداً مهما طال عليه العمر. فعن زيد بن وهب، قال: «قدم عليٌّ على قوم من أهل البصرة من الخوارج، فيهم رجل يقال له: الجعد ابن بعجة، فقال له: اتق الله يا علي فإنك ميت. فقال له عليٌّ - رضي الله عنه -: «بل مقتول، ضربت على هذا، يقصد قرنه، تخضب هذه، يعني لحيته من رأسه، عهد معهود، وقضاء مقضى، وقد خاب من افتري». وعن أبي مجلز قال: جاء رجل من مراد إلى (عليٍّ) وهو يصلي في المسجد، فقال:

(١) أخرجه مسلم (ص ٧٤٨) - وأبو داود (٤٧٦٨).

احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدر عليه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة^(١).

وقال الأصمعي الحنظلي: لما كانت الليلة التي أصيب فيها عليٌّ - كرم الله وجهه - أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة، فقام عليٌّ يمشي، وهو يقول:

أشدُّ حيازيمك للموت فإن الموت لائقا
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بواديك

أما عن قصة قتله - رضى الله عنه - فلقد اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا (أهل النهر) فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحننا منهم البلاد وثأرنا بهم لإخواننا.

فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، تعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها - وضعوا عليها السم - واتعدوا لخمس عشرة تخلو من رمضان سنة (٤٠ هـ) أن يشب كل علي صاحبه الذي توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم على المصر - المكان - الذي فيه صاحبه.

فأما ابن ملجم وكان عداؤه في كندة فخرج حتى أتى الكوفة، ولم يخبر من بها من إخوانه شيئاً كراهة أن يظهر، وكان بالكوفة من تيم الرباب عشرة وفيهم امرأة يقال لها (قطام ابنة الشحنة) قَتَلَ عَلِيٌّ أَبَاهَا وَأَخَاهَا يوم النهر، وكانت فائقة الجمال، فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت: لا أتزوجك حتى تشفى لى. قال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف، وعبد، وقينة (جارية مغنية) وقَتَلَ عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: هُوَ لَكَ مَهْرٌ، أَمَا عَلِيٌّ فَلَمْ أَرَكَ ذَكَرْتِهِ لِي وَأَنْتَ تَرِيدُنِي قَالَتْ: بَلِ التَّمَسُّ غُرَّتَهُ فَإِنْ أَصَبْتَ شَفَيْتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي وَتَهْنَأُ بِالْعَيْشِ مَعِي وَإِنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزِينَةُ أَهْلِهَا، فَقَالَ لَهَا: وَاللَّهِ مَا جِئْتُ هَذَا الْمَصْرَ إِلَّا لِذَلِكَ ثُمَّ اخْتَارَتْ لَهُ مَسَاعِدًا

من قومها واختار هو مساعداً آخر، ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة (٤٠هـ) ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح، فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادى: الحكم لله لا لك ولا لأصحابك. ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة^(١).

ولقى الإمام ربه - أخيراً - مصاباً بضربة سيف مسموم.. كما لقيه من قبل عمر الفاروق، مصاباً بضربة خنجر محموم!

وتأبى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد في حياته جديراً بها أكثر ما تكون الجدارة، ودالاً على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة..!

فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر في رأسه، حتى حُمِلَ إلى داره..

وإذ هو في لحظات الكارثة هذه، يأمر حامله والخائفين حوله أن يذهبوا إلى المسجد، ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تؤذن بفوات.. هذه الصلاة التي كان يتهيأ لها حين حال الاغتيال الأليم بينه وبين بلوغها أو إتمامها.. وحين يفرغون من صلاتهم، ويعودون إليه، كما يعود في نفس الوقت، بعض الرجال ممسكين بالقاتل - عبد الرحمن بن ملجم - يفتح الإمام عينيه، فتقعان عليه. فيهرز رأسه في أسى حين يعرفه ويقول:

- أهو أنت..؟ لطالما أحسنتُ إليك..!!

ويُلْقِي البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة، فيراها تتفجر غيظاً، وتضطرم نعمة، ويحس برد الموت يسرى في أوصاله، ويكاد يرى المصير الذي سيحقيق به «ابن ملجم». يكاد يرى الانتقام المروّع الذي سيثار به أولاده، وأصحابه، فيتقدم هو في إصرار ليحمي قاتله من أية مجاوزة أو تخطٍ لحدود القصاص المشروع.

وهكذا ناداهم إليه، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطعة لترسم في «العظمة الإنسانية» التي أفاءها القرآن على «عليّ» لوحة باهرة.

قال لبنيه، ولأهله:

«أَحْسِنُوا نَزْكَه.. وَأَكْرَمُوا مَثْوَاه..

فَإِنْ أَعَشْتُ، فَأَنَا أَوْلَى بِدَمِهِ قِصَاصًا أَوْ عَفْوًا..

وَإِنْ أُمْتُ، فَأَلْحَقُوهُ بِي، أَخَاصِمَهُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ..

وَلَا تَقْتُلُوا بِي سِوَاه..

(١) نقلاً من (الخلفاء الراشدون) للشيخ حسن أيوب (ص ٣١٩: ٣٢٠) بتصرف.

«إن الله لا يحب المعتدين»...!! (١)

قال العلماء بالسيرة: ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان. وقيل: ليلة إحدى وعشرين منه. سنة أربعين. فبقي الجمعة والسبت، ومات ليلة الأحد، وغسله ابنه وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن، ودفن في السحر (٢).

وقال الحسن بن علي: يا أيها الناس، لقد فارقكم أمس رجلٌ ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون، لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية، فما يرجع حتى يفتح الله عليه، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره - يعنى علياً - رضى الله عنه - ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادماً (٣).

وهكذا، أب المسافر إلى وطنه.. وعاد إلى منزله..!!

ورحل «ابن أبي طالب» عن الدنيا.. لكن حياته والأيام التي عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالى في حياة البشرية وتاريخها، وراحت تجذب إلى مدارها قيم الحق، والبطولة، والإيمان، والخير، والشرف.

وهكذا رحل الإمام، وما رحل..

وظعن، وما ظعن..

فهو الظاعن الحاضر..

وهو الراحل المقيم..

لقد فتح لذكره، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوى الدنيا دنياهم، واختار الله ورسوله، والدار الآخرة..

ولقد احتوشته العواصف، والأعاصير، لكى تُزيغه في ظلامها عن الطريق.. أو تُفقدته بعض رشده، أو تشغله عن غاياته ومبادئه.. فما زاغ عن الطريق (٤).

فرضي الله عن علي وسائر الصحابة أجمعين

(١) خلفاء الرسول / خالد محمد خالد (٥٩٨ / ٥٩٩) بتصرف.

(٢) صفة الصفوة (١ / ١٣٥).

(٣) أخرجه ابن حبان وأحمد والبخاري وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٩٦).

(٤) خلفاء الرسول (ص ٦٠١).

طلحة بن عبيد الله

مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ

محمد رسول الله ﷺ

مرحبًا مرحبًا بمن قَدَّمَ حياته فداءً للحبيب ﷺ في غزوة أُحُد.. مرحبًا بالشهيد الحى
الذى يضع أقدامه في الدنيا وهو يعلم أنه من أهل الجنة.
مرحبًا بمن شهد له النبي ﷺ أنه مَنَّ قَضَى نَحْبَهُ.

مرحبًا بالصحابي الجليل: طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، أبو محمد، أحد
العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد
أبي بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى^(١).

لقد كان طلحة - رضى الله عنه - صاحب النفس الطيبة التى تبحث عن الخير أينما
كان.. فكان يرى الجاهلية التى يعيشها الناس من حوله فتشمئز نفسه ويتمزق قلبه حزناً
وكمداً على تلك الحالة التى كان يتمنى هو وغيره - من أصحاب المروءة والنفوس النقية
الصافية التى فطرت على النقاء - أن تتغير وأن تبدل تلك الجاهلية إلى حياة نظيفة طاهرة
يعيش الناس فيها فى ظل الحب والوفاء والعدل والإخاء.

إنه عملاق من عمالقة الإسلام، وفارس من أشجع الفرسان، ورجل من أولئك
الرجال الذين كان لهم أطيب الأثر، وأعظمه فى الفتوحات الإسلامية الأولى. والده:
عبيد الله، كان من أشرف مكة، وأولى الحظوة فيها. وأمه: الصعبة بنت عبد الله، جدها
لأمها وهب بن عبد الله، صاحب العطاء والكرم.

وبين أبيه وأمه نمت طفولته، وترعرع شبابه، وتعلّم على أيديهما الكثير من شئون
الحياة والتخلق بالأخلاق الكريمة، والصفات الحميدة، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال تزوج

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٣٠).

حمنة بنت جحش، أخت زينب زوج النبي ﷺ.

نشأ طلحة - رضى الله عنه - فى مكة، فعرف سهولها ووديانها، وتنقل بين جبالها وقممها، وتعلم الرماية بالسهم، والإصابة بالرمح ولما شب عن الطوق ضاقت به جنات مكة، فاختر طريق التجارة. ومن هنا عرفته أسواق بصرى والشام، عرفته تاجرًا صدوقًا، وخبرته بائعًا سمحًا.

وسارت حياة طلحة - رضى الله عنه - بين ظعن وإقامة، وحل وترحال، وتوالت الأيام، وكرت الليالى، وهى لا تخرجه عن مزاولة التجارة. هذا العمل الشاق الذى رضىه لنفسه، واختاره لحياته.

وسرعان ما تحققت تلك الأمنية الغالية، فلقد بزغ نور الإسلام فأضاء الكون كله فى لحظة واحدة.. يوم أن نزل جبريل - عليه السلام - على الحبيب ﷺ ومعه النور الذى أضاء الله به القلوب المظلمة وهدى به النفوس التائهة فى دروب الحياة المتشابكة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

لقد بُعث محمد ﷺ وآمن برسالته أبو بكر - رضى الله عنه -. فلما سمع طلحة - رضى الله عنه - هذا الخبر لم يتلكأ ولم يتلعثم، بل إنه بمجرد أن دعاه أبو بكر استجاب لنداء الحق فهو يعلم يقينًا أن محمدًا هو الصادق الأمين بلا منازع، وأن أبا بكر هو التاجر الصدوق الذى لا يمكن أن يجتمع مع الحبيب ﷺ على ضلالة أبدًا.

وذهب طلحة وقلبه ينبض بكل قوة وشوق وحنين للقاء الحبيب ﷺ ليعلمها قوة فى وجه الكون كله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وعلى الرغم من مكانته بين قومه وثرائه، إلا أنه أودى فى سبيل الله، ولكن سرعان ما كشف الله عنه هذا العذاب والابتلاء.

ولما هاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة هاجر طلحة - رضى الله عنه - مع المهاجرين لينعم بصُحبة النبي ﷺ بعيدًا عن أعين كفار قريش وسطوتهم.

شهيد يمشي على الأرض

وها هو الحبيب ﷺ يبشر طلحة - رضى الله عنه - بأنه سيموت شهيداً بإذن الله - جل وعلا -

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء، فتحرك، فقال رسول الله ﷺ: «اسكن. حراء! فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»، وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص - رضى الله عنهم -^(١).

فلما علم طلحة بأنه سيموت شهيداً.. وذلك بعد أن سمع تلك البشرى من الحبيب ﷺ ظل يبحث عن الشهادة في مظانها... فشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ عدا غزوة بدر.

فاتفق أنه غاب عن وقعة بدر في تجارة له بالشام^(٢).

وفى يوم «أحد» أوجب طلحة - رضى الله عنه -

وفى غزوة أحد كان طلحة كعادته يبحث عن الشهادة التى بشره بها النبي ﷺ. لعل الله أن يكرمه بها فى ذلك اليوم.

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماماً، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت أن تكون سبباً فى مقتل النبي ﷺ وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين يتهبون غنائم العدو؛ غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟!

(١) أخرجه مسلم (٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) قال ابن سعد فى الطبقات (٣ / ١ / ١٥٤) لما تحين رسول الله ﷺ، ووصول عير قريش من الشام، بعث طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتحسسان خبر العير، فخرجتا حتى بلغا الحوراء. فلم يزا مقيمين هناك حتى مرت بهما العير، وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، قبل رجوع طلحة وسعيد إليه...».

أما قائداهم عبد الله بن جبير، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟!

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لنأتين الناس فلنصيب من الغنيمة^(١). ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش، ليشاركوه في جمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقعهم، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا.

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف منها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم - وهي عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتفت حوله المشركون، ولاثوا به، وتنادى بعضهم بعضاً، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ووقعوا بين شقي الرحى.

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أوامر التطويق، تطحن بين شقي رحى المشركين، كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ فلما نادى المسلمين: «هلم إلي، أنا رسول الله»، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف، ظهرت فيه نواذر الحب والتفاني والبسالة والبطولة.

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه؛ قال: «من يردّهم عنا وله الجنة؟» أو: «هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أي: القرشيين -: «ما أنصفنا أصحابنا»^(٢).

(١) أخرجه البخاري عن البراء بن عازب (١/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧) باب غزوة أحد.

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط (١).

وبعد سقوط ابن السكن بقي رسول الله ﷺ في القرشيين فقط.

ففي الصحيحين عن أبي عثمان؛ قال: لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله، وسعد (بن أبي وقاص) (٢).

فأما سعد بن أبي وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنيته، وقال: «أرم فذاك أبي وأمي» (٣). ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد (٤).

وعن جابر قال: لما كان يوم أحد وولّى الناس كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركه المشركون، فقال النبي ﷺ: «مَنْ للقوم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت» فقال رجل: أنا. قال: «أنت». فقاتل حتى قُتل. ثم التفت، فإذا المشركون فقال: «مَنْ لهم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا. قال: «أنت» فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي الله (طلحة) فقال: «مَنْ للقوم؟» قال طلحة: أنا. فقاتل طلحة قتال الأحد عشر، حتى قُطعت أصابعه فقال: «حسن». فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون». ثم ردّ الله المشركين (٥).

وعند الطبراني: «لو قلت: بسم الله لطارت بك الملائكة والناس ينظرون إليك».

وعند النسائي والبيهقي في الدلائل: «حتى تلج بك في جو السماء».

وعند أحمد: فقال له النبي ﷺ: «لو قلت بسم الله لرأيت يُبنى لك بها بيت في الجنة وأنت حيٌّ في الدنيا» (٦).

(١) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. [ابن هشام ٢ / ٨١].

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٢)، ومسلم (٤٧)، (٢٤١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧ / ١) (٥٨٠ / ٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٢٥) - ومسلم (٤٢) (٢٤١٢).

(٥) رواه الحاكم مختصراً (٣ / ٣٦٩) معرفة الصحابة، وله طرق، قال الألباني في الصحيحة رقم (٢١٧١) فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق.

(٦) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٢٩٤) وإسناده صحيح.

وعن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي يوم أحد^(١).
وجرح في تلك الغزوة تسعاً وثلاثين أو خمساً وثلاثين وشلت أصبعه أي السبابة
والتي تليها^(٢).

وقال النبي ﷺ فيه يومئذ: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض
فليتنظر إلى طلحة بن عبيد الله»^(٣).

وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان أبو بكر إذا ذكر
يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة^(٤).
وقال فيه أبو بكر أيضاً:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوأتم لها العينا^(٥)

عن عائشة وأم إسحاق بنتي طلحة قالتا: جرح أبونا يوم أحد أربعاً وعشرين جراحة،
وقع منها في رأسه شجرة مربعة، وقُطع نساؤه - يعنى العرق - وشلت أصبعه، وكان سائر
الجراح في جسده، وغلبه الغشى - الإغماء - ورسول الله ﷺ مكسورة ربايته، مشجوج
في وجهه، قد علاه الغشى، وطلحة محتمله - أي يحمل النبي ﷺ - يرجع به القهقري،
كلما أدركه أحد من المشركين، قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشعب^(٦).

حتى قال عنه ﷺ: «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع»^(٧).

(١) رواه البخاري عن قيس بن حازم - حديث رقم (٤٠٦٣).

(٢) البخاري (٣٦١ / ٧).

(٣) رواه الترمذي والحاكم عن جابر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٢).

(٤) فتح الباري (٣٦١ / ٧).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٨٢ / ٧).

(٦) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٣٢ / ١).

(٧) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم عن الزبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٠)،
بلفظ «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع» الصحيحة (٩٤٥).

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاء^(١) يسأله عمن قضى نَحْبَهُ مَنْ هو؟ فكانوا لا يجترئون على مسأَلته يوقرونه ويهابونه قال: فسأله الأعرابي فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم إنني اطلعت من باب المسجد - يعني طلحة - وعلى ثياب خضر فلما رآني رسول الله ﷺ قال: «أين السائل عمن قضى نَحْبَهُ؟» قال الأعرابي: أنا يا رسول الله. قال: «هذا ممن قضى نَحْبَهُ»^(٢).

وعن طلحة - رضى الله عنه - قال: عُقِرْتُ يوم أحد في جميع جسدي حتى في ذَكَرِي^(٣).

وظلحة يوم الشعب واسى محمداً
وقاه بكفيه الرِّمَّاحَ فَقُطِعَتْ
لدى ساعة ضاقت عليه وسدت
أصابعه تحت الرِّمَّاحَ فشلت

أدبه مع النبي ﷺ

أدب طلحة الخير: طلحة بن عبيد الله - رضى الله عنه -.

يظهر ذلك جلياً أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أحد؛ قال ابن إسحاق: نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها، وكان قد بدَّ^(٤) وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله حتى استوى عليها.

لقد أصاب العرج إحدى رجلي طلحة - رضى الله عنه - أثناء دفاعه عن النبي ﷺ ، ولما حمل طلحة النبي ﷺ تكلف استقامة المشي أدباً مع رسول الله ﷺ ، لئلا يشق على النبي ﷺ ، فاستوت رجله العرجاء لهذا التكلف، فشفي من العرج^(٥).

(١) في رواية الترمذي... قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نَحْبَهُ مَنْ هو؟

(٢) النحب النذر، وقيل: الموت وقيل: العهد وقيل غير ذلك - قال شعيب الأرناؤوط: والحديث رواه أبو يعلى

(٢ / ٢٦ - ٢٧) والترمذي (٣٧٤٢) بإسناد حسن.

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١ / ٣٩).

(٤) أي ضعف وأسن.

(٥) صلاح الأمة / د. سيد حسين (٥ / ٦٤٠ - ٦٤١).

دفاعه عن إخوانه وإحسان الظن بهم

عن مالك بن أبي عامر، قال: جاء رجل إلى طلحة فقال: أرايتك هذا اليماني هو أعلم بحديث رسول الله منكم - يعني أبا هريرة - نسمع منه أشياء لا نسمعها منكم، قال: أما أن قد سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، فلا أشك، وسأخبرك: إننا كنا أهل بيوت، وكنا إنما نأتى رسول الله ﷺ غدوة وعشية، وكان مسكيناً لا مال له - أبو هريرة - إنما هو على باب رسول الله، فلا أشك أنه قد سمع ما لم نسمع، وهل تجد أحداً فيه خيرٌ يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل؟^(١)

فيا ليتنا نعى هذا الدرس جيداً ونُحسن الظن بكل علمائنا فهم الذين يقفون على كل ثغر من ثغور الإسلام يدافعون عن هذا الدين ويبلغون رسالة الحبيب ﷺ إلى الدنيا بأسرها. ولذا فإن هؤلاء العلماء بمثابة الجهاز المناعي للأمة ضد كل غاشم يريد أن ينال من هذا الدين.

ولا تستطيع الأمة بحال من الأحوال أن تحيا بغير هذا الجهاز المناعي، وإلا أتها الأمراض من كل مكان، ودبّ فيها الضعف... فاعلموا لأهل العلم قدرهم ومنزلتهم.

إنفاقه في سبيل الله تعالى

عن قبيصة بن جابر قال: صحبتُ طلحة، فما رأيت أعطى لجزيل مالٍ من غير مسألة منه^(٢).

وعن موسى، عن أبيه (طلحة) أنه أتاه مالٌ من حضرموت سبعُ مئة ألف، فبات ليلته يتململ. فقالت له زوجته: ما لك؟ قال: تفكرتُ منذ الليلة، فقلت: ما ظنّ رجلٍ بربه بيتٌ وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلائك فإذا أصبحت، فادع بجفان وقصاع فقسّمه. فقال لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، وهى أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح، دعا بجفان، فقسّمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى على منها بجفنة، فقالت له زوجته: أبا محمد! أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقى. قالت: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم^(٣).

(١) قال الأرئؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الترمذى، وحسنه هو والحافظ في الفتح.

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١ / ١٥٧) والطبرانى فى الكبير (١٩٤).

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٠ - ٣١).

وعن سعدى بنت عوف المريّة قالت: دخلتُ على طلحة يوماً وهو خائر^(١)، فقلت: ما لك؟ لعل رايك من أهلك شيء؟ قال: لا والله، ونعم خليّة المسلم أنت، ولكن مالٌ عندي قد غمّني. فقلت: ما يغمُّك؟ عليك بقومك، قال: يا غلام! ادع لى قومى. فقسمه فيهم، فسألتُ الخازن: كم أعطى؟ قال: أربع مئة ألف^(٢).

وعن الحسن البصرى أن طلحة بن عبید الله باع أرضاً له بسبع مئة ألف. فبات أرقاً من مخافة ذلك المال، حتى أصبح فقرقه^(٣).

وعن على بن زيد قال: جاء أعرابي إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه لرحم ما سألتني بها أحداً قبلك، إن لى أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان، ودفعت إليك الثمن. فقال: الثمن، فأعطاه^(٤).
إنه طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الجود.

موقفه يوم الجمل... والشهادة في سبيل الله

عن علقمة بن وقاص الليثي قال: لما خرج طلحة والزبير وعائشة للطلب بدم عثمان، عرجوا عن منصرفهم بذات عرق، فاستصغروا عروة بن الزبير، وأبا بكر بن عبد الرحمن فردوهما، قال: ورأيت طلحة، وأحب المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت: يا أبا محمد! إنى أراك وأحب المجالس إليك أخلاها، إن كنت تكره هذا الأمر، فدعه، فقال: يا علقمة! لا تلمني، كنا أمس يداً واحدة على من سوانا، فأصبحنا اليوم جبلين من حديد، يزحف أحدهما إلى صاحبه، ولكنه كان منى شيء في أمر عثمان، مما لا أرى كفارته إلا سفك دمي، وطلب دمه^(٥).

قال الإمام الذهبي - رحمه الله - قلت: الذي كان منه في حق عثمان تمغفلٌ وتأليبٌ، فعله باجتهاد، ثم تغير عندما شاهد مصرع عثمان، فندم على ترك نصرته - رضى الله

(١) خائر النفس: غير نشيط.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (١٤٨ / ٩) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١ / ٣٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (١ / ٣١).

(٥) أخرجه الحاكم (٣ / ٣٧٢)، وفيه «في طلب دمه» بدل «وطلب دمه» وسكت الحاكم عنه. ولكن الذهبي

قال في مختصره: سنده جيد. وهو كما قال.

عنهما - وكان طلحة أول من بايع عليًا، أُرهِقَهُ قَتْلُهُ عُثْمَانَ، وأَحْضَرُوهُ حَتَّى بَايَعَ (١).

ولَكِن طَلْحَةَ وَالزَّيْبِر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - اعْتَزَلَا تِلْكَ الْحَرْبَ فَلَمْ يَقَاتِلَا، وَذَلِكَ عِنْدَمَا رَأَى (عِمَارًا) يَقَاتِلُ فِي صَفِّ (عَلِيٍّ) فَتَذَكَّرَا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لِعِمَارٍ: تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ (٢).

وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي جَيْشِ مُعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الَّذِي يَقَاتِلُ عِمَارًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَخَشِيََا مِنَ الْخَوْضِ فِي هَذَا الْقِتَالِ. وَمَا زَادَ حِمَاسَهُمَا لَاعْتِزَالِ تِلْكَ الْحَرْبِ - قَوْلَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلزَّيْبِرِ: يَا زَيْبِرُ أَنْشُدْكَ اللَّهَ هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: تَقَاتِلُهُ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ؟ قَالَ - الزَّيْبِرُ: أَذْكَرُ، ثُمَّ مَضَى الزَّيْبِرُ مُنْصَرِفًا (٣).

فَانْسَحَبَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ وَقُتِلَا أَثْنَاءَ اعْتِزَالِهِمَا لِتِلْكَ الْحَرْبِ، فَأَمَّا الزَّيْبِرُ فَقَدْ تَعَقَّبَهُ رَجُلٌ اسْمُهُ «عَمْرُو بْنُ جَرْمُوزٍ» فَقَتَلَهُ غَدْرًا.

وَأَمَّا طَلْحَةُ فَيُقَالُ: إِنَّهُ جَاءَهُ سَهْمٌ غَرِبَ - أَيْ لَا يُدْرِي مِنَ الَّذِي رَمَاهُ -.

وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي رَمَاهُ هُوَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ.

فَعَنْ قَيْسٍ قَالَ: رَأَيْتُ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ حِينَ رَمَى طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ بِسَهْمٍ، فَوَقَعَ فِي رُكْبَتِهِ، فَمَا زَالَ يَنْسَحُ حَتَّى مَاتَ (٤).

وَعَنْ أَبِي سَبْرَةَ قَالَ: نَظَرَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ يَوْمَ الْجَمَلِ فَقَالَ: لَا أَطْلُبُ بِثَأْرِي بَعْدَ الْيَوْمِ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ (٥).

قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قُلْتُ: قَاتَلَ طَلْحَةَ فِي الْوُزْرِ بِمَنْزِلَةِ قَاتِلِ (عَلِيٍّ).... وَعَنْ (عَلِيٍّ) قَالَ: «بَشِّرُوا قَاتِلَ طَلْحَةَ بِالنَّارِ» (٦).

وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ مَطْرَفٍ: أَنَّ عَلِيًّا انْتَهَى إِلَى طَلْحَةَ وَقَدْ مَاتَ، فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَأَجْلَسَهُ،

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩١٥) الفتن - وأحمد (٣ / ٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٣ / ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم (٣ / ٣٧٠) وابن سعد (٣ / ١٥٩) مطولاً، وأورده الحافظ في الإصابة (٥ / ٢٣٥) وقال: سنده صحيح.

(٥) أورده الحافظ في الإصابة (٥ / ٢٣٥) وقال: إسناده صحيح.

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ٣٦، ٣٧).

ومسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه، وقال: «ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة»^(١).

وعن قيس بن عباد، قال: «سمعت علياً - رضى الله عنه - يوم الجمل يقول لابنه الحسن: «يا حسن، وددتُ أنى كنتُ متُّ منذ عشرين سنة»^(٢).

وعن أبى حبيبة - مولى لطلحة - قال: دخلت على (على) مع عمران بن طلحة بعد وقعة الجمل فرحب به وأدناه ثم قال: إني لأرجو أن يجعلنى الله وأباك ممن قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]^(٣).

حفظ الله له بعد موته

إن الله يحفظ العبد المؤمن بعد موته كما كان يحفظه وهو حي.

وها هو طلحة - رضى الله عنه - بعد موته بأكثر من ثلاثين سنة يفتحون قبره وينقلونه إلى مكان آخر، وإذا به لم يتغير منه إلا شعيرات فى إحدى شقَى لحيته.

فعن المشنى بن سعيد قال: أتى رجلٌ عائشة بنت طلحة فقال: رأيت طلحة فى المنام، فقال: قل لعائشة تحولنى من هذا المكان! فإنَّ النَّزَّ - الرطوبة أو الماء - قد آذانى. فركبت فى حشمها، فضربوا عليه بناء واستثاروه. قال: فلم يتغير منه إلا شعيرات فى إحدى شقَى لحيته، أو قال رأسه، وكان بينهما بضع وثلاثون سنة.

وحكى المسعودى أن عائشة بنته هى التى رأت المنام^(٤).

فرضى الله عن طلحة وهن سائر الصحابة أجمعين

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٩ / ١٥٠): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٩ / ١٥٠) رواه الطبرانى وإسناده جيد.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٦٠) والطبرى فى تفسيره (١٤ / ٣٦) - وتفسير ابن كثير (٤ / ١٦٤).

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١ / ٤٠).

الزبير بن العوام

حواري رسول الله ﷺ المشهود له بالجنة
أول من سل سيفه في سبيل الله

يا لها من مناقب اجتمعت لهذا الصحابي الجليل.
إنه حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سل سيفه في سبيل الله... أبو عبد الله - رضى الله عنه - أسلم وهو حَدَث، له ست عشرة سنة.
وقد ورد أن الزبير كان رجلاً طويلاً، إذا ركب خطت رجلاه الأرض، وكان خفيف اللحية والعارضين^(١).
ولقد كان الزبير منذ صغره فارساً مغواراً لا يخشى الردى - الموت - أينما كان... ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ قط.
وكان يحب النبي ﷺ حباً ملك عليه قلبه وجوارحه فكان يخشى عليه من نسيم الهواء، بل من أدنى من ذلك.

دفاعه عن النبي ﷺ

وفي يوم من الأيام سرت إشاعة بين الناس أن الرسول ﷺ قُتل فما كان من الزبير إلا أن أخذ سيفه وخرج على الناس كالإعصار المدمر يريد أن يتثبت من الخبر فلقى الحبيب ﷺ فقال: مالك يا زبير؟ قال: أخبرت أنك أخذت - قُلت - فصلى عليه ودعا له ولسيفه.
وفي رواية: فقال النبي ﷺ ما لك؟ قال: أخبرت أنك أخذت، قال: فكنت صانعاً ماذا؟ قال: كنت أضربُ به من أخذك. فدعا له ولسيفه^(٢).

(١) السير للإمام الذهبي (١/ ٤١ - ٤٢).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: رواه الحاكم في المستدرک (٣/ ٣٦٠ - ٣٦١) وانظر الاستيعاب (٣/ ٣١١)، وأسد الغابة (٢/ ٢٥٠) والإصابة (٤/ ٨).

كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء

لقد كان يحب الشهادة في سبيل الله، ويبحث عنها في مظانها حتى إنه من حبه للشهادة كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء.

قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عبيد الله التيمي يسمى بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، وإنى أسمى بنى بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا، فسمى (عبد الله) بعبد الله بن جحش، (والمنذر) بالمنذر ابن عمرو، (وعروة) بعروة بن مسعود، (وحمزة) بحمزة بن عبد المطلب، (وجعفر) بجعفر بن أبي طالب، (ومصعباً) بمصعب بن عمير، (وعبيدة) بعبدة بن الحارث، (وخالد) بخالد بن سعيد، (وعمر) بعمر بن سعيد بن العاص^(١).

صبره على الأذى في سبيل الله

وعلى الرغم من شرفه ونسبه في قومه إلا أنه أخذ حظه من الظلم والتعذيب والاضطهاد.

وكان الذي يتولى تعذيبه (عمه).

قال يثيم عروة: هاجر الزبير وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان عمه يعلقه ويدخن عليه، وهو يقول: «لا أرجع إلى الكفر أبداً»^(٢).

ولقد هاجر الزبير إلى الحبشة الهجرتين - الأولى والثانية - ثم عاد ليشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها.

ومن تأمل وصف الصحابة - رضى الله عنهم - لجسد الزبير لعلم كيف كان يقاتل الزبير - رضى الله عنه -.

عن عروة قال: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن في عاتقه إن كنت لأدخل أصابعي فيها ضُربَ ثنتين يوم بدر وواحدة يوم اليرموك^(٣).

(١) الطبقات لابن سعد (٣ / ٧٤).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٩ / ١٥١): رجاله ثقات إلا أنه مرسل، وأخرجه الحاكم (٣ / ٣٦٠).

(٣) السير للإمام الذهبي (١ / ٥٢) - وأخرجه البخاري (٧ / ١٠٠) فضائل الصحابة.

وعن علي بن زيد قال: أخبرني من رأى الزبير وإن فى صدره مثل العيون، من الطعن والرمى (١).

الهجرة إلى الحبشة

ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب الحبيب ﷺ أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا فى جوار (النجاشي) ذلكم الملك العادل. فكانوا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ. وظلوا على تلك الحالة من الأمن والاستقرار إلى أن نزل رجل من الحبشة لينازع النجاشي فى الملك فحزن المسلمون لذلك حزناً شديداً وخافوا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي وهو لا يعرف حق الصحابة الأطهار ولا يعرف قدرهم. وهنا أراد الصحابة - رضى الله عنهم - أن يعرفوا أخبار الصراع الدائر بين النجاشي وبين هذا الرجل - على الجانب الآخر من النيل -.

قالت أم سلمة - رضى الله عنها :-

فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: من رجل يخرج حتى يحضر وقية القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا؛ قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سناً. قالت: فنفيخوا له قريةً فجعلها فى صدره، ثم سبَّح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملُتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت: فدَعَوْنَا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له فى بلاده، قالت: فوالله إنا لعلَى ذلك مُتوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكّن له فى بلاده (٢).

جهاده فى سبيل الله

لقد بذل (الزبير) الكثير والكثير فى سبيل الله فلقد جعل نفسه وماله وقفاً لله - عز وجل - فأكرمه الله ورفعته فى الدنيا والآخرة.

فها هو الزبير - رضى الله عنه - كانت عليه عمامة صفراء معتجراً بها يوم بدر... فعن

(١) صفة الصفوة (١ / ١٤١).

(٢) السيرة لابن هشام (١ / ٢٧٩).

عُرُوهُ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ عَلَى الزَّبِيرِ يَوْمَ بَدْرٍ عِمَامَةٌ صَفْرَاءُ فَتَنَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَى سِيْمَاءِ الزَّبِيرِ (١) - أَيْ عَلَى هَيْئَتِهِ - .

فِيهَا مِنْ مَنْقِبَةٍ لَا تَوَازِيهَا الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا.

وَفِيهِ يَقُولُ عَامِرُ بْنُ صَالِحٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ:

جَدِّي ابْنُ عَمَّةٍ أَحْمَدٍ وَوَزِيرُهُ	عِنْدَ الْبَلَاءِ وَفَارَسُ الشُّقْرَاءِ
وَعُدَّةُ بَدْرٍ كَانَ أَوَّلَ فَارَسٍ	شَهِدَ الْوَعْيَ فِي اللَّأَمَةِ الصَّفْرَاءِ
نَزَلَتْ بِسِيْمَاءَ الْمَلَائِكُ نُصْرَةً	بِالْحَوْضِ يَوْمَ تَأَلَّبَ الْأَعْدَاءُ

وَهُوَ مِمَّنْ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ فِيمَا نَقَلَهُ مُوسَى بْنُ عَقِبَةَ، وَابْنُ إِسْحَاقَ وَلَمْ يَطُولِ الْإِقَامَةُ بِهَا (٢).

وَعَنِ الزَّبِيرِ قَالَ: لَقِيتُ يَوْمَ بَدْرٍ عَبِيدَةَ بْنَ سَعْدِ بْنِ الْعَاصِ وَهُوَ مُدْجِجٌ لَا يُرَى إِلَّا عَيْنَاهُ وَكَانَ يَكْنَى أَبَا ذَاتِ كَرْشٍ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ بِالْعَتَرَةِ فَطَعَنْتُهُ فِي عَيْنِهِ فَمَاتَ. قَالَ الزَّبِيرُ: لَقَدْ وَضَعْتُ رَجُلِي عَلَيْهِ، فَكَانَ الْجَهْدُ أَنْ نَزَعْتُهَا - يَعْنِي الْحَرْبَةَ - فَلَقَدْ انْشَى طَرَفُهَا (٣).
وَقَتَلَ الزَّبِيرُ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَّهُ نُوْفَلَ بْنَ خُوَيْلِدٍ بْنِ أَسَدٍ، وَكَذَا عَبِيدَةَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ.

وَفِي يَوْمِ أَحُدٍ

وَرَأَى النَّبِيُّ يَوْمَ «أَحُدٍ» رَجُلًا يَقْتُلُ الْمُسْلِمِينَ قِتْلًا عَنِيفًا، فَقَالَ: «قُمْ إِلَيْهِ يَا زَبِيرُ» فَرَفَى إِلَيْهِ الزَّبِيرُ، حَتَّى إِذَا عَلَا فَوْقَهُ اقْتَحَمَ عَلَيْهِ فَاعْتَنَقَهُ، فَأَقْبَلَا يَنْحَدِرَانِ حَتَّى وَقَعَا إِلَى الْأَرْضِ، فَوَقَعَ الزَّبِيرُ عَلَى صَدْرِهِ وَقَتَلَهُ (٤).

كَانَ مِنَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﷺ

قَالَ الزَّبِيرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: جُمِعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَوِيهِ مَرَّتَيْنِ فِي أَحَدٍ وَفِي قَرِيظَةٍ (٥).

(١) ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (٦ / ٨٤) وَنَسَبَهُ إِلَى الطَّبْرَانِيِّ وَقَالَ: هُوَ مَرْسَلٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ.

(٢) السَّيْرُ لِلْإِمَامِ الذَّهَبِيِّ (١ / ٤٧).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧ / ٣٦٥) الْمَغَازِي.

(٤) تَهْذِيبُ ابْنِ عَسَاكِرَ (٥ / ٣٥٨).

(٥) أَسَدُ الْغَابَةِ (٢ / ٢٥٠).

وعن هشام عن أبيه، قالت عائشة: يا ابن أختي! كان أبواك - يعني الزبير وأبا بكر - من ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

لما انصرف المشركون من أحد، وأصاب النبي ﷺ وأصحابه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: من يتدب لهؤلاء في آثارهم، حتى يعلموا أن بنا قوة، فانتدب أبو بكر والزبير في سبعين، فخرجوا في آثار المشركين، فسمعوا بهم، فانصرفوا، قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٤]. لم يلقوا عدواً^(١).

وفي يوم الخندق

روى البخاري، ومسلم عن جابر: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق: من يأتينا بخبر بني قريظة؟ فقال الزبير: أنا، فذهب على فرس، فجاء بخبرهم. ثم قال الثانية، فقال الزبير: أنا، فذهب، ثم الثالثة، فقال النبي ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيُّ الزَّبِيرِ»^(٢).

قال علي بن أبي طالب: أشجع الناس الزبير،... ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال.

وقال الثوري: نجدة الصحابة: حمزة وعلي والزبير.

وعن عبد الله بن الزبير قال: «كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف، قال: أو هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتينى بخبرهم؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه فقال: فذاك أبي وأمي»^(٣).

وعن ابن أبي الزناد قال: ضرب الزبير يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة بالسيف على مغفره، فقطعه إلى القربوس^(٤)، فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب الزبير، يريد أن العمل ليد له لا للسيف^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧) المغازي، وأخرج مسلم الجزء الأول (٢٤١٨) الفضائل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٩) فضائل الصحابة - ومسلم (٢٤١٥) الفضائل.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (٢٤١٦).

(٤) القربوس: مقدم السرج ومؤخره.

(٥) السير للإمام الذهبي (١/ ٥١).

وفى يوم حنين

«ويوم (حنين) طاعن الزبير المشركين حتى أزالهم عن أماكنهم، وكان قائد المشركين يراقب سير القتال، فأخبره أصحابه أنهم يرون فارساً واضحاً رمحه على عاتقه، عاصباً رأسه بملاءة حمراء، فقال: هذا الزبير بن العوام، وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له. فلما انتهى الزبير إلى مواضع المشركين وأبصرهم، قصدهم، فلم يزل يطاعنهم حتى أراحهم عنها» (١).

لله درُّ أشجع الناس الذى قال فيه على بن أبى طالب: «يغضب كالنمر، ويشبُّ وثوب الأسد» (٢).

وفى يوم اليرموك

عن عروة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير يوم اليرموك: ألا تشدُّ فتشدُّ معك؟ فقال: إني إن شددتُ كذبتُم فقالوا: لا تفعل، فحمل عليهم حتى شق صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مُقبلاً فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: كنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير. قال عروة: وكان معه عبد الله بن الزبير يومئذ، وهو ابن عشر سنين فحمله على فرسٍ ووكل به رجلاً» (٣).

قال الذهبي في السير معلقاً: «هذه الواقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله؛ فإن عبد الله كان إذ ذاك ابن عشر سنين» (٤).

وذكر ابن كثير أن الواقعة هي «اليرموك». ولا مانع من وقوع ذلك في الموقعتين. ويا لروعة إقدام الزبير حين يُحجم الأبطال من صحابة رسول الله ﷺ، ولا يصبرون معه» (٥).

(١) قادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٥) للواء الركن محمود شيت خطاب - ط. دار الفكر.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٥ / ٣٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٧٥).

(٤) السير للإمام الذهبي (١ / ٦٣).

(٥) علو الهمة / د. سيد حسين (٣ / ٣٢٠).

قال ابن كثير: «وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ، فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذ جرحين بين كتفيه. وفي رواية: جرح»^(١).

ويقول ابن كثير مرة أخرى: «خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليرموك، فتشرفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العليا، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين، من أولهم إلى آخرهم»^(٢).

وفي فتح مصر (شجاعة نادرة)

«ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتحها كانت معه قوات تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمده - يطلب المدد من الرجال - فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفًا، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع. وكتب إليه: «إني أمددتك بأربعة آلاف، على كل ألف منهم رجل مقام ألف». وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال»^(٣).

وحين قدم الزبير على عمرو وجده محاصرًا حصن (بابلون) فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرق الرجال حول الخندق، وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهر، فقبل للزبير: «إن بها الطاعون». فقال: «إنما جئنا للطعن والطاعون»^(٤).

«وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبير: «إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين». فوضع سُلماً وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق

(١) البداية والنهاية (٧ / ١١).

(٢) البداية والنهاية (٧ / ٢٦٠).

(٣) فتوح مصر والمغرب (ص ٦١) ومعجم البلدان (٦ / ٣٧٦)، وقادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٨، ٢٢٦).

(٤) طبقات ابن سعد (٣ / ١٠٧)، والبلاذري (ص ٢١٥).

الحمام ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو؛ خوفاً من أن ينكسر، فلما رأى الروم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فتح حصن بابلون أبوابه للمسلمين، فانتهدت بفتحها المعركة الحاسمة لفتح مصر، وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المقوقس^(١).

ولله در حسان حين يقول:

أقام على عهد النبي وهدية	حواريه والقولُ بالفعل يُعدلُ
أقام على منهاجه وطريقه	يُوالى ولّى الحق والحقُ أعدلُ
هو الفارس المشهور والبطل الذي	يصولُ إذا ما كان يومٌ محجلُ
إذا كشفت عن ساقها الحربُ حشها	بأبيض سباق إلى الموت يُرقل ^(٢)
وإنَّ امرأ كانت صفة أمه	ومن أسد في بيتها لمؤئل
له من رسول الله قُربى قريبة	ومن نصرة الإسلام مجد مؤئل
فكم كربة ذب الزبير بسيفه	عن المصطفى والله يعطى فيجزل
ثناؤك خيرٌ من فعال معاشر	وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل ^(٣)

خيرة الزبير بن العوام - رضى الله عنه -

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضى الله عنها - قالت: تزوجنى الزبير - رضى الله عنه - وما له فى الأرض مالٌ ولا مملوك ولا شىء غير فرسه. قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى للناضحة، وأعلفه وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، فكان يخبز لى جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق. قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله ﷺ على رأسى، وهى على ثلثى فرسخ. قالت: فجئت يوماً والنوى على رأسى، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه فدعا لى، ثم قال «أخ أخ»؛ ليحملنى خلفه، فاستحييت أن أسير مع

(١) قادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٩، ٢٢٧).

(٢) يقال: أرقل القوم إلى الحرب إرقالاً: أسرعوا، والإرقال: ضرب من الخبب، وهى سرعة سير الإبل.

(٣) ديوان حسان (١٩٩ - ٢٠٠) طبعة دار صادر البيروتية.

الرجال، وذكرتُ الزبير وغيرته. قالت: وكان من أغبر الناس. قالت: فعرف رسولُ الله ﷺ أني قد استحييتُ فمضيتُ، فجئتُ الزبير فقلتُ: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسِي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركبَ معه، فاستحييتُ وعرفتُ غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه!! قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني (١).

وَحَانْ وَقْتُ الرَّحِيلِ

وبعد حياة طويلة مليئة بالعطاء والتضحية والفداء كان الموعد في يوم الجمل فلقد شهد الزبير يوم الجمل مع طلحة وعائشة - رضى الله عنهم جميعاً - غير أنه عندما ذكره (على) بما قاله النبي ﷺ انصرف عنهم.

فعن أبي حرب بن الأسود الديلي، قال: شهدت الزبير خرج ريداً علياً، فقال له على: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقاتله وأنت له ظالم؟»، فقال: أذكر، ثم مضى الزبير منصرفاً (٢).

وانصرف الزبير يوم الجمل عن على، فلقيه ابنه عبدالله، فقال: جُبْنَا، جُبْنَا! قال: قد علم الناس أني لست ببجبان، ولكن ذكرني (على) شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ فحلفت أن لا أقاتله، ثم قال:

تَرَكُ الْأُمُورَ الَّتِي أَخْشَى عَوَاقِبَهَا فِي اللَّهِ أَحْسَنُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ
وَقِيلَ: إِنَّهُ أَنْشَدَ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ أَنَّ عَلِيَّ نَافِعِي أَنَّ الْحَيَاةَ مِنَ الْمَمَاتِ قَرِيبُ
فَلَمْ يَنْشَبْ أَنْ قَتَلَهُ ابْنُ جُرْمُوزَ.

عن جون بن قتادة قال: كنت مع الزبير يوم الجمل، وكانوا يسلمون عليه بالإمرة، إلى أن قال: قطعته ابن جرموز ثانياً، فأثبتته، فوقع، ودُفِنَ بوادي السباع، وجلس (على) - رضى الله عنه - يبكي عليه هو وأصحابه (٣).

(١) حياة الصحابة للكاندملوى (٢/ ٦٩١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) السير للإمام الذهبي (١/ ٦٠ - ٦١).

قاتل الزبير في النار

لقد أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ أن قاتل الزبير من أهل النار.

وأخبر الحبيب ﷺ أن الزبير سيموت شهيداً.

فمن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء. فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكن. حراء! فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص - رضى الله عنهم -^(١).

قال الإمام النووي - رحمه الله - وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ، منها إخباره أن هؤلاء شهداء، وماتوا كلهم غير النبي ﷺ وأبي بكر شهداء، فإن عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير - رضى الله عنهم - قُتلوا ظلمًا شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقُتل الزبير بوادي السباع بقرب البصرة منصرفًا تاركًا للقتال، وكذلك طلحة اعتزل الناس تاركًا للقتال، فأصابه سهم فقتله. وقد ثبت أن من قُتل مظلومًا فهو شهيد^(٢).

وها هو قاتل الزبير (ابن جرموز) - عليه من الله ما يستحقه - يستأذن على (علي) فقال: من هذا؟ فقال: ابن جرموز يستأذن. فقال: ائذنوا له. ليدخل قاتل الزبير النار. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبي حوارى وإن حوارى الزبير»^(٣).

وفي رواية: جىء برأس الزبير إلى علي، فقال علي: تبوأ يا أعرابي مقعدك من النار، حدثني رسول الله ﷺ أن قاتل الزبير في النار^(٤).

قال الشعبي - رحمه الله -: أدركت خمس مئة أو أكثر من الصحابة يقولون: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير في الجنة.

قال الإمام الذهبي: قلت: لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن البدرين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذين أخبر تعالى أنه رضى عنهم ورضوا

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) مسلم مع شرح النووي (١٥ / ٢٧١ - ٢٧٢).

(٣) رواه الحاكم (٣ / ٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) قال الأرناؤوط: الفضل بن أبي الحكم روى عنه غير واحد، وقال أبو حاتم: شيخ بصرى، وذكره ابن حبان في الثقات. وباقي رجال الإسناد ثقات.

عنه، ولأن الأربعة قُتلوا، ورزقوا الشهادة، فنحن مُحِبون لهم، باغضون للأربعة الذين قتلوا الأربعة^(١).

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانت تحت الزبير بن العوام، وكان أهل المدينة يقولون: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد، كانت عند عبد الله بن أبي بكر فقتل عنها، ثم كانت عند عمر ابن الخطاب فقتل عنها، ثم كانت عند الزبير فقتل عنها، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بهمة	يوم اللقاء وكان غير مُعَرِّدٍ
يا عمرو لو نبهته لوجدته	لا طائشاً رعى البنان ولا اليد
ثكلتك أمك هل ظفرت بمثله	فيمن مضى فيما تروح وتغتدي؟
كم غمرة قد خاضها لم يشه	عنها طرادك يا ابن نقع الفدقد
والله ربك إن قتلت مُسلماً	حلت عليك عقوبة المتعمد ^(٢)

حرصه على أداء دينه عند الموت

عن عبد الله بن الزبير قال: جعل الزبير يوم الجمل يوصيني بدينه، ويقول: إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي. قال: فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله. قال: ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولاي الزبير اقض عنه، فيقضيه. وإنما دينه الذي كان عليه: أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف فإني أخشى عليه الضيعة. قال: فحسب ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف. فقتل ولم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضين، فبعتهما (يعنى: وقضيت دينه) فقال بنو الزبير: أقسم بيننا ميراثنا. فقلت: والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه.

فجعل كل سنة ينادى بالموسم فلما مضى أربع سنين قسم بينهم.

وكان للزبير أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف. فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف^(٣).

(١) السير للإمام الذهبي (١/ ٦٢).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٩) فرض الخمس - باب بركة الغازي بماله حياً وميتاً.

وكيف لا يحرص الزبير - رضى الله عنه - على أداء الدين وهو الذى كان يُغدق الأموال على الفقراء واليتامى والمساكين.

فمن نهيك قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم. يقول: يتصدق بها، وفى رواية أخرى فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شيء.

وعن جويرية قالت: باع الزبير داراً له بستمائة ألف. قال: فقيل له: يا أبا عبد الله غُبت. قال: كلا والله لتعلمن أنى لم أُغبن هى فى سبيل الله^(١).

وهكذا رحل الشهيد المبارك عن دنيانا ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه - رضى الله عنهم - فى جنة الرحمن إخواناً على سررٍ متقابلين.

فرضى الله عن الزبير وعن سائر الصحابة أجمعين

عبد الرحمن بن عوف

من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة
وهم في بطون أمهاتهم

يا ترى من ذاك الرجل العظيم الذي فاز بتلك المنقبة العظيمة.
إنه مشهود مهيب يرويه لنا ابنه.

فعن إبراهيم بن عبد الرحمن، قال: غشي على عبد الرحمن بن عوف في وجعه حتى ظنوا أنه قد فاضت نفسه، حتى قاموا من عنده، وجللوه. فأفاق يكبر، فكبر أهل البيت، ثم قال لهم: غشي على أنفأ؟ قالوا: نعم. قال: صدقتم! انطلق بي في غشيتي رجلان أجد فيهما شدة وفظاظة، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بي حتى لقيا رجلاً، قال: أين تذهبان بهذا؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين. فقال: ارجعا، فإنه من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة وهم في بطون أمهاتهم، وإنه سيمتع به بنوه إلى ما شاء الله، فعاش بعد ذلك شهراً^(١).

إنه الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف الذي كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو. وقيل: عبد الحارث. وقيل: عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن. أمه: الشفاء بنت عوف، أسلمت وهاجرت.

أسلم عبد الرحمن قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد، وصلى رسول الله ﷺ خلفه في غزوة تبوك^(٢).

(١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٦٧)، وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٠٧) من طريق: أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، بأطول مما هنا. وأخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٩٥) من طريق: محمد بن كثير العبدى، عن سليمان بن كثير، عن الزهري. وذكره الحافظ في المطالب العالية (٤٠٠٧) ونسبه إلى أبي إسحاق. وقال البوصيري: إسناده صحيح. وذكره صاحب الكنز (٣٦٦٨٩) ونسبه إلى أبي نعيم، وابن عساكر.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٤٢).

وهو أحدُ العشرة، وأحد الستة أهل الشورى، وأحد السابقين البدرين، القرشي الزهري. وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام^(١).

صَّافٍ يَعْجُزُ الْقَلَمُ عَنْ وَصْفِهِ

لقد كان من أهم الدعائم التي أقام بها النبي ﷺ دولته المسلمة - تلك المؤاخاة التي أوجدها بين المهاجرين والأنصار - وكان من بين هؤلاء الذين آخى النبي ﷺ بينهم (سعد بن الربيع الأنصاري، وعبد الرحمن بن عوف المهاجري).

فمن أنس - رضى الله عنه - قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك^(٢).

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: «لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو يوماً، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة. فقال النبي ﷺ: «مهيّم؟» قال: تزوجت. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب - أو وزن نواة من ذهب -^(٣).

مَكَانَتُهُ فِي قَلْبِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -

لقد احتل عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - مكانة سامقة في قلوب الصحابة رضى الله عنهم جميعاً.

فعن المسور أنه قال: بينما أنا أسير في ركب بين عثمان وعبد الرحمن قدامى وعليه خميصة سوداء فقال عثمان: من صاحب الخميصة السوداء؟ قالوا: عبد الرحمن، قال: فتاداني عثمان فقال: يا مسور قلت: لبيك يا أمير المؤمنين فقال: من زعم أنه خير من

(١) السير للإمام الذهبي (١ / ٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧ / ٣١٧) مناقب الأنصار.

(٣) أخرجه البخاري (٧ / ١٤٠) مناقب الأنصار.

خالك في الهجرة الأولى وفي الهجرة الآخرة فقد كذب^(١).

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: جلسنا مع عمر فقال: هل سمعت عن رسول الله ﷺ شيئاً أمر به المرء المسلم إذا سها في صلاته، كيف يصنع؟ فقلت: لا والله، أو ما سمعت أنت يا أمير المؤمنين من رسول الله في ذلك شيئاً؟ فقال: لا والله. فبينما نحن في ذلك أتى عبد الرحمن بن عوف فقال: فيم أنتما؟ فقال عمر: سألته، فأخبره. فقال له عبد الرحمن: لكنى قد سمعت رسول الله يأمر في ذلك. فقال له عمر: فأنت عندنا عدلٌ، فماذا سمعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سها، أحدكم في صلاته حتى لا يدرى أزد أم نقص، فإن كان شك في الواحدة والثنتين، فليجعلها واحدة، وإذا شك في الثنتين أو الثلاث، فليجعلها ثنتين، وإذا شك في الثلاث والأربع، فليجعلها ثلاثاً حتى يكون الوهم في الزيادة، ثم يسجد سجدتين، وهو جالس، قبل أن يسلم، ثم يسلم^(٢)».

قال الإمام الذهبي: فأصحاب رسول الله ﷺ وإن كانوا عدولاً فبعضهم أعدل من بعض وأثبت، فهنا عمر قنع بخبر عبد الرحمن^(٣).

جملة من مناقبه - رضى الله عنه -

تالله لا أدرى كيف أكتب عن مناقب هذا الصحابي الجليل الذى يجعل القلم متحيراً من كثرة مناقبه.

ولكنى وجدت أن كل المناقب لا توازى - وإن اجتمعت - تلك المنقبة العظيمة ألا وهى صلاة النبى ﷺ خلفه.

فمن المغيرة بن شعبه أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك. قال (المغيرة): فبرز رسول الله قبل الغائط، فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى أخذت أهريق على يديه من الإداوة وغسل يديه ثلاث مرات ثم غسل وجهه ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق كُماً جبته فأدخل يديه فى الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثم توضأ على خفيه ثم أقبل.

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٢٥) والحاكم (٣/ ٣٠٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٩٠) والترمذي (٣٩٨) - والحاكم (١/ ٣٢٤ - ٣٢٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) السير للإمام الذهبي (١/ ٧٣).

قال المغيرة: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف فصلّى لهم فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلّى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: «أحسستم» أو قال: «أصبتم» يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها^(١).

وفى رواية: عن عمرو بن وهب الثقفي، قال: كنا مع المغيرة بن شعبة، فسئل: هل أمّ النبي ﷺ أحدٌ من هذه الأمة غير أبي بكر؟ فقال: نعم. فذكر أن النبي ﷺ توضأ ومسح على خفيه وعمامته، وأنه صلى خلف عبد الرحمن بن عوف، وأنا معه، ركعة من الصبح وقضينا الركعة التي سبقنا^(٢).

ومن مناقبه أن النبي ﷺ شهد له بالجنة، وأنه من أهل بدر الذين قيل لهم «اعملوا ما شئتم»... ومن أهل هذه الآية:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] (٣).

وعن أبي سعيد قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيءٌ فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(٤).

وفى رواية: قال ﷺ: «دعوا لي أصحابي أو أصيحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(٥).

وعن سعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ كان على حراء ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، فقال: «اثبت حراء! فإنما عليك نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ»^(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤) وأبو داود (١٥٢) وأحمد (٤ / ٢٤٩ - ٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٨١) والنسائي (١ / ٧٧) الطهارة.

(٣) السير للإمام الذهبي (١ / ٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٤١) وأبو يعلى (٢ / ٣٩٦).

(٥) ذكره الهيثمي في المجمع (١٠ / ١٥) ونسبه إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) عن أبي هريرة.

(٦) رواه أحمد (١ / ١٨٨ - ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) في السنن - والترمذي (٣٧٥٨) في المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقال أبو عمر بن عبد البر: كان محدوداً في التجارة. خلف ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومئة فرس. وكان يزرع بالجحرف^(١) على عشرين ناضحاً.

قال الإمام الذهبي: قلت: هذا هو الغني الشاكر، وأويس فقير صابر، وأبو ذر أو أبو عبيدة زاهد عفيف^(٢).

وعن بسرة بنت صفوان: أن النبي ﷺ سألها: «من يخطب أم كلثوم بنت عقبة؟»، قالت: فلان وفلان وعبد الرحمن بن عوف، فقال: «أنكحوا عبد الرحمن بن عوف، فإنه من خيار المسلمين، ومن خيارهم من كان مثله»^(٣).

إنفاقه في سبيل الله

لقد عاش الصحابة - رضى الله عنهم - مع كل آية من آيات القرآن الكريم، بل وتعايشوا معها.

فها هو عبد الرحمن بن عوف يستمع إلى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وإلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَلَىٰ عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].. فيُسرع الخطأ

لينفق ماله لله - جل وعلا - رغبة فيما عند الله وزهداً في تلك الدنيا الفانية التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

عن طلحة بن عبد الله بن عوف قال: كان أهل المدينة عيالاً على عبد الرحمن ابن عوف: ثلث يقرضهم ماله، وثلث يقضى دينهم، ويصل ثلثاً^(٤).

وعن عروة أن عبد الرحمن بن عوف أوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله، فكان الرجل يعطى منها ألف دينار.

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

(٢) السير للإمام الذهبي (١ / ٩٢).

(٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه يعقوب بن حميد، وسليمان بن سالم، وكلاهما وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. المجمع برقم (١٤٨٩٣).

(٤) السير للإمام الذهبي (١ / ٨٨).

وعن الزهري أن عبد الرحمن أوصى للبدرين، فوجدوا مئة، فأعطى كل واحد منهم أربع مئة دينار، فكان منهم عثمان، فأخذها (١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهلي من بعدي» قال (٢) فباع عبد الرحمن ابن عوف حديقة بأربع مائة ألف قسمها في أزواج النبي ﷺ (٣).

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأزواجه: «إن الذي يحتو عليكم بعدي لهو الصادق البار. اللهم اسق عبد الرحمن بن عوف من سلسيل الجنة» (٤).

بل لقد تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة وقيل: إنه اعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً (٥).

وعن أنس قال: رأيت عبد الرحمن بن عوف، فُسِّم لكل امرأة من نسائه بعد موته مئة ألف (٦).

زهده في الدنيا ومحاسنته لنفسه

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه: أن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - أتى بطعام، وكان صائماً، فقال: قُتِل مصعب بن عمير - رضي الله عنه - وهو خير مني كُفِّن في بُردة، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا - أي ظهر رأسه - وأراه قال: وقُتِل حمزة - رضي الله عنه - وهو خير مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أُعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عُجِّلَتْ لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام (٧).

(١) السير للإمام الذهبي (١ / ٩٠).

(٢) القائل (فباع) هو أبو سلمة.. كما عند الترمذي (لكنها عنده بلفظ أوصى) (٣٧٥٠).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣ / ٣١١ - ٣١٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات - مجمع الزوائد (١٤٨٩٨).

(٥) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤ / ٩١).

(٦) السير للإمام الذهبي (١ / ٩٠).

(٧) أخرجه البخاري (١٢٧٥).

زهده في الإمارة والخلافة

وعن عبد الرحمن بن أزهر أن عثمان اشتكى رُعافًا ، فدها حُمران فقال: اكتب لعبد الرحمن العهد من بعدى. فكتب له، وانطلق حمران إلى عبد الرحمن، فقال: البُشُرى. قال: وما ذاك؟ قال: إنَّ عثمان قد كتب لك العهد من بعده. فقام بين القبر والمنبر، فدعا، فقال: اللهم إن كان من تولية عثمان إِيَّاي هذا الأمر، فأُمِّتْني قبله. فلم يمكث إلا ستة أشهر حتى قبضه الله^(١).

قال الذهبي: «من أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف: عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محايًا فيها، لأخذها لنفسه أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه: سعد بن أبي وقاص^(٢)».

تواضعه - رضى الله عنه -

عن سعد بن الحسن التميمي، قال: كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف من بين عبَّيده. يعنى: من التواضع في الزُّيِّ.

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين علموا فعملوا.. علموا قول رسولهم ﷺ: «البذاذة من الإيمان»^(٣). والبذاذة: اللباس دون اللباس والتواضع، ورثانة الثياب في الملبس والمفرش.

وقد قال ﷺ: «مَنْ ترك اللباس تواضعًا لله، وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى ينخيرَه من أى حُلٍّ الإيمان شاء يلبسها»^(٤). ولله درُّ القائل:

ليسَ الجمالُ بِمِثْرٍ فاعلمْ وإن رُدِّيتَ بُرْدًا
إنَّ الجمالَ معادنٌ ومحاسنٌ أورثنَ مجدًا

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ٨٨).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ٨٦).

(٣) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي أمامة الخارثي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٧٩).

(٤) رواه الترمذي والحاكم عن معاذ بن أنس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٥).

الدعوة إلى الله

أخرج الدارقطني عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: دعا النبي ﷺ عبد الرحمن ابن عوف - رضي الله عنه - فقال: «تجهّزْ فإنني باعثك في سرية». فذكر الحديث، وفيه: فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه، فسار حتى قدم دومة الجندل، فلما دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي - رضي الله عنه - وكان نصرانياً وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن مع رجل من جهينة - يقال له رافع بن مكيث - إلى النبي ﷺ يخبره، فكتب إليه النبي ﷺ، أن تزوج ابنة الأصبغ، فتزوجها، وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن^(١).

وحان وقت الرحيل

وها هو يرحل بكل هدوء بعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية والجهد في سبيل الله بالنفس والمال.

عن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال: لقد رأيت سعد بن أبي وقاص في جنازة عبد الرحمن بن عوف عند قائمتي السرير فجعل يقول: واجبلأه^(٢).

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده أنه قال: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول يوم مات عبد الرحمن: اذهب ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت رنقها^(٣).

عاش - رضي الله عنه - خمساً وسبعين سنة، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ودُفن بالبقيع وصلى عليه عثمان.

فرضى الله عنه وعن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) الإصابة في تراجم الصحابة (١/ ١٠٨).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٣٥) والحاكم (٣/ ٣٠٨).

(٣) قال الأرنؤوط: رواه الطبراني في الكبير (٢٦٣) بإسناد صحيح. والرنق: الكدر.

سعد بن أبي وقاص

أرم سعد فداك أبى وأمى

محمد رسول الله ﷺ

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش حاضره ولا أن يدرك مستقبله إلا بعد أن يأخذ الدروس والعبر من ماضيه.

ونحن أمة قد امتن الله عليها بباقة عطرة من الرجال الأفذاذ الأتقياء الذين يندر وجودهم فى أى أمة على مدى العصور والأزمان.

وإنى والله كلما قلبت الصفحات للوقوف على أخبار الصحابة - رضى الله عنهم - كنت أتعجب وأقول فى نفسى: كيف لا يعلم شبابنا، بل وفتياتنا تلك الأخبار لتكون لهم نوراً يضيء لهم الطريق إلى الله - جل وعلا - بل وليقتدوا بهم فى أفعالهم وأقوالهم فإن التشبه بالكرام فلاح.

وها نحن الآن على موعد مع واحد من هؤلاء الأخيار.

إنه سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد السابقين الأولين الذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأحد الستة أهل الشورى. وخال رسول الله ﷺ وبطل القادسية، وفاتح «المدائن» ومطفى نار المجوس المعبودة إلى الأبد.

ثباته على الحق. رضى الله عنه.

لقد كان سعد - رضى الله عنه - من أكرم فتيان مكة وأشرفهم نسباً، وكان قلبه يحترق شوقاً إلى يد حانية تمتد لتخرج هؤلاء القوم من ظلمات الجاهلية وفساد المعتقد إلى أنوار التوحيد والإيمان.. فلقد كان العرب قبل بعثة النبى ﷺ على أسوأ حال على مدى العصور والأزمان.

وأراد الحق - جل جلاله - الخير بهذه الأمة فأشرق نور الوحي فى أرجاء مكة ليضيء للمكون كله طريقه إلى الله - جل وعلا -

وعلى الرغم من أن سعداً كان يومئذ يستقبل ربيع السابيع عشر؛ فقد كان يضم بين برديه^(١) كثيراً من رجاحة الكهول^(٢)، وحكمة الشيوخ.

فلم يكن - مثلاً - يرتاح إلى ما يتعلق به لذاته^(٣) من ألوان اللهو، وإنما كان يصرف همه إلى برى^(٤) السهام، وإصلاح القسي^(٥)، والتمرس بالرماية حتى لكأنه كان يعد نفسه لأمر كبير^(٦).

والهداية أولاً وآخرها (منحة ريانية يقدفها الله في قلب من يشاء من عباده).

فقدف الله نور الهداية في قلب سعد - رضى الله عنه - فأسرع إلى الإسلام حتى إنه كان يقول: ما أسلم أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإنى لثالث الإسلام^(٧).

وقال يوسف بن الماجشون: سمعت عائشة بنت سعد تقول: مكث أبى يوماً إلى الليل وإنه لثالث الإسلام.

لكن إسلام سعد بن أبى وقاص لم يمرَّ سهلاً هيناً، وإنما عرضَ الفتى المؤمن لتجربة من أقسى التجارب قسوةً وأعنفها عنفاً؛ حتى إنه بلغ من قسوتها وعنفها أن أنزل الله سبحانه في شأنها قرآناً^(٨).

فمن أبى عثمان أن سعداً قال: نزلت هذه الآية في ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨] قال: كنت براً بأمى، فلما أسلمت، قالت: يا سعد! ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب، حتى أموت،

(١) برديه: ثوبيه.

(٢) رجاحة الكهول: عقل الكهول ورسالتهم.

(٣) لذاته: المماثلون له في السن.

(٤) برى السهام: إحدادها وإصلاحها.

(٥) القسي: الأقواس التي يرمى بها.

(٦) صور من حياة الصحابة (ص ٢٩١).

(٧) أخرجه البخاري (٣٧٢٧) وابن ماجه (١٣٢) وأحمد في فضائل الصحابة (١٣٢٠).

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٨٤): قال ذلك بحسب اطلاعه والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفى إسلامه، ولعله أراد بالاثنيين الآخرين خديجة وأبا بكر، أو النبي ﷺ وأبا بكر، وقد كانت خديجة أسلمت قطعاً فلملح شخص الرجال.

(٨) صور من حياة الصحابة (ص ٢٩٢).

فُتْعِرَ بِي، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلني يا أمه، إني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جُهدت، فلما رأيتُ ذلك، قلت: يا أمه! تعلمين والله لو كان لك مئة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركتُ ديني. إن شئت فكلني أو لا تأكلني. فلما رأت ذلك أكلت» (١).

ولقد بذل سعد - رضي الله عنه - نفسه ووقته وماله في سبيل الله.

وكان الحبيب ﷺ يحبه من كل قلبه حتى إنه كان يفتخر بأنه خاله.

فمن جابر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأقبل سعد بن أبي وقاص فقال ﷺ: «هذا خالي فليُرني امرؤ خاله» (٢).

بل كان - رضي الله عنه - ممن فازوا بتلك المنقبة العظيمة... فعن عبد الله ابن ظالم قال: خطب المغيرة فنال من (علي) فخرج سعيد بن زيد فقال: ألا تعجب من هذا يسب علياً، أشهدُ على رسول الله ﷺ أنا كنا على حراء أو أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أثبت حراء أو أحد! فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد» فسَمي النبي، وأبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، وطلحة، والزبير، وسعداً، وعبد الرحمن، وسمي سعيدٌ نفسه - رضوان الله عليهم - (٣).

بل لقد كان من الذين أمر الله نبيه ﷺ بأن يقربهم منه... فعن سعد قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] (٤).

وكان سعد - رضي الله عنه - هو أول من رمى بسهم في سبيل الله... عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ سريةً فيها سعد بن أبي وقاص إلى جانب من الحجاز يدعى (رابغ) وهو من جانب الجحفة. فانكفأ المشركون على المسلمين، فحماهم سعد يومئذ

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨) الفضائل - وأحمد (١/ ١٨١ - ١٨٢) والترمذي (٣١٨٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/ ٤٩٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٨٨، ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤١٣) وابن ماجه (٤١٢٨) والنسائي في فضائل الصحابة (١١٦).

بسهامه، فكان هذا أول قتال في الإسلام، فقال سعد:

ألا هل أتى رسول الله أنى
حميتُ صحابتي بصدور نبلى
فما يعتدُّ رام في عدوِّ
بسهم يا رسول الله قبلى (١)

حارس النبي ﷺ

لقد بلغت محبة النبي ﷺ في قلب سعد مبلغاً عظيماً حتى إنه كان يتمنى أن يفديه بنفسه وولده وماله والدنيا كلها.

عن عائشة قالت: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة. قالت: فسمعنا صوت السلاح، فقال رسول الله: من هذا؟ قال سعد بن أبي وقاص: أنا يا رسول الله جئت أحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غطيظه (٢).

اللهم اشف سعداً وأتم له هجرته

وكان الحبيب ﷺ يبادلُه هذا الحب ويخصه بزيارته له.

عن عائشة بنت سعد، أن أباهما قال: تشكيت بمكة شكوى شديدة، فجاءني النبي ﷺ يعودني - يزورني - فقلت: يا نبي الله! إنى أترك مالا، وإنى لم أترك إلا بنتاً واحدة، فأوصي بثلاثي وأترك الثلث؟ قال: لا. قلت: فأوصي بالنصف وأترك النصف؟ قال: لا. قلت: فأوصي بالثلث وأترك الثلثين؟ قال: الثلث والثلث كثير. ثم وضع يده على جبهته، ثم مسح يده على وجهي وبطني، ثم قال: اللهم اشف سعداً، وأتم له هجرته، فما زلت أبجد برده على كبدى فيما يخال إلى حتى الساعة» (٣).

ولما توفي رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى ظل سعد على عهد زاهد عابداً مجاهداً في سبيل الله.

وكان الصحابة يعرفون له قدره ومنزلته.

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٥٩٤ - ٥٩٥) والإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٥) الجهاد - ومسلم (٢٤١٠) الفضائل.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٥٩) المرض - ومسلم (١٦٢٨) والنسائي (٦/ ٢٤١).

الله يستجيب دعاءه - رضى الله عنه -

ولقد امتن الله عليه بأن جعله مستجاب الدعوة.. وذلك ببركة دعاء النبي ﷺ له عندما قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»^(١).

وفى عهد أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - شكوا أهل الكوفة سعداً - رضى الله عنه - وقالوا: إنه لا يُحسن صلى. فقام سعد وقال: «إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعامٌ إلا ورقُ الشجر، حتى إن أحدنا ليضعُ كما يضعُ البعيرُ أو الشاةُ ما له خلط، ثم أصبحت بنو أسدٍ تُعزّرنى على الإسلام لقد خبتُ إذا وضلَّ عملي»^(٢).

وفى رواية عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال: «شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر - رضى الله عنه - فعزله واستعمل عليهم عماراً فشكوا حتى ذكروا أنه لا يُحسن صلى فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن صلى قال أبو إسحاق: أما أنا والله فإننى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرج منها، أصلى العشاء فأركد فى الأوليين وأخفُ فى الآخرين قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل معه رجلاً - أو رجلاً - إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجداً إلا سأل عنه ويشنون معروفًا حتى دخل مسجداً لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له أسامة ابن قتادة يكنى أبا سعدة قال: أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة فأطّل عمره وأطّل فقره وعرضه للفتن، وكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتنى دهوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق يغمزهن»^(٣).

(١) رواه الترمذى (٣٧٥٢) والحاكم (٤٩٩ / ٣) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٢٨) - ومسلم (٢٩٦٦) والترمذى (٢٣٦٥).

(٣) أخرجه البخارى (٧٥٥) وأخرجه مسلم (٤٥٣) مقتصرًا على الجزء الأول منه.

خوفهم من دعائه عليهم

وكان الناس من حوله يخافون من دعائه عليهم لعلمهم بأن الله - جل وعلا - يستجيب دعاءه في التو واللحظة.

عن سعيد بن المسيب قال: كنت جالساً مع سعد فجاء رجل يقال له الحارث بن برصاء وهو في السوق، فقال له: يا أبا إسحاق إني كنت آنفاً عند مروان فسمعتة وهو يقول: إن هذا المال مالنا نعطيه من شئنا قال: فرفع سعد يده وقال: أفأدعو؟ فوثب مروان وهو على سريره فاعتنقه وقال: أنشدك يا أبا إسحاق ألا تدعو فإنما هو مال الله^(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: خرجت جارية لسعد عليها قميص جديد، فكشفتها الريح، فشدَّ عمر عليها بالدرة، وجاء سعد ليمنعه، فتناولوه بالدرة، فذهب سعد يدعو على عمر، فتناولوه الدرة وقال: اقتص، فعفا عن عمر^(٢).

وكان عمر - رضى الله عنه - يحبه ويعرف له قدره ومنزلته، فعن عبد الله ابن عمر، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه مسح على الخفين، وأن عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال: إذا حدثك شيئاً سعد عن النبي ﷺ فلا تسأل عنه غيره^(٣).

جهاده في سبيل الله تعالى

ولقد شهد سعد - رضى الله عنه - مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وأبلى فيها بلاءً حسناً.

قال ابن مسعود - رضى الله عنه -: لقد رأيت سعداً يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرجال^(٤).

وعن عامر الشعبي، قال: قيل لسعد بن أبي وقاص: متى أصبت الدعوة؟ قال: يوم بدر، كنت أرمى بين يدي النبي ﷺ فأضع السهم في كبد القوس، ثم أقول: اللهم زلزل

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/ ٥٠٠) وقال العدوى في فضائل الصحابة: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني برقم (٣٠٩) في الكبير. وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٣ - ١٥٤) ونسبه إلى الطبراني، وقال: ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٢) عن ابن عمر - رضى الله عنهما -.

(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ١٠٠).

أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وافعل بهم، وافعل، فيقول النبي ﷺ: «اللهم استجب لسعد»^(١).

وفى غزوة «أحد» عندما عصى الرُّمّة أمر رسول الله ﷺ وتركوا الجبل فاستطاع المشركون أن ينقضوا على المسلمين وأن يحدثوا فيهم مقتلة عظيمة وأرادوا بعد ذلك قتل الحبيب ﷺ فثبت معه سعد بن أبي وقاص مع ثلة من الأنصار وطلحة بن عبيد الله.

وكان سعد - رضى الله عنه - يرمى بالنبل دفاعاً عن رسول الله ﷺ.

قال سعد: «فلقد رأيته ﷺ يناولني النبل وهو يقول: ارم فداك أبى وأمى، حتى إنه ليناولني السهم ما له من نصل، فيقول: ارم به»^(٢).

وعن (على) - رضى الله عنه - قال: «ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد ابن مالك»^(٣) فإنى سمعته يقول يوم أحد: يا سعد ارم فداك أبى وأمى»^(٤).

وعن سعد - رضى الله عنه - قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول الله: «ارم فداك أبى وأمى»، فنزعت بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جبهته، فوقع وانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»^(٥).

بل إنه - رضى الله عنه - رأى الملائكة يوم «أحد».

عن سعد - رضى الله عنه - قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد»^(٦).

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١٤٨٥١): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البخارى (٦ / ٢٩٠٥ فتح) الجهاد - ومسلم (٤ / ١٨٧٦ ح ٤١) فضائل الصحابة.

(٣) هو سعد بن أبى وقاص، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٧ / ٨٤): وفى هذا الحصر نظر لما تقدم فى ترجمة الزبير أنه ﷺ جمع له أبويه يوم الخندق... ويجمع بينهما بأن علياً - رضى الله عنه - لم يطلع على ذلك أو مراده بذلك بقيد يوم أحد. والله أعلم.

(٤) أخرجه البخارى (٤٠٥٩) - ومسلم (٢٤١١) والترمذى (٣٧٥٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٤١٢) الفضائل - باب مناقب سعد.

(٦) رواه البخارى (٧ / ٤١٤، ٤١٥) المغازى، ومسلم (١٥ / ٦٦) الفضائل. قال النووي: فيه بيان كرامة النبي ﷺ على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه وبيان أن الملائكة تقاتل وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر وهذا هو الصواب خلافاً لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح فى الرد عليه وفيه فضيلة الثياب البيض وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء، بل يراهم الصحابة والأولياء وفيه منقبة لسعد بن أبى وقاص الذى رأى الملائكة والله أعلم. شرح النووي (١٥ / ٦٦).

قال الحافظ: هما جبريل وميكائيل.

وظل سعد - رضى الله عنه - يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ثابتاً حتى توفى رسول الله وبقي سعد على عهده الذى كان عليه يشهد المشاهد مع أبى بكر وعمر - رضى الله عنهم جميعاً - حتى كانت الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر - رضى الله عنه - وهنا قام سعد - رضى الله عنه - كالأسد الضارى يشق صفوف الأعداء ليحقق للإسلام أعظم الانتصارات.

لما تجهز الفُرسُ لقتال العرب، قال عمر بن الخطاب: «والله لأضربنَّ ملوك المعجم بملوك العرب» وكتب عمر إلى عماله: «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إلىَّ، والعجل العجل»^(١). وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش، فصرفه عن ذلك أهل مشورته، فجمع عمر الناس، وقال لهم: «إنى كنت عزمتُ على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً، فأشيروا على برجل»، وكان سعد يومذاك على صدقات (هوازن) فلما وصل كتاب منه - حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه - فقال عمر: وجدته! قالوا: من هو؟ قال: «الأسد عاديًا سعد بن مالك»^(٢). وقال: «إنه شجاعٌ رام»^(٣).

وقال عبد الرحمن بن عوف: «الأسد فى برائه: سعد بن مالك الزهرى».

ويستدعى عمر سعداً ويقول له: «إنى قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتى، فإنك تقدم على أمر شديد كربه، لا يخلص منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، وأعلم أن لكل عدة عتاداً، وعتاد الخير الصبر، فاصبر على ما أصابك»^(٤).

وفى القادسية نظم سعدُ الجيش، وعبأه للحرب، وجعل على كل عشرة رجال عريقاً، وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وولَّى الحروب رجالاً، فولَّى على مقدماتها ومجنباتها وساقاتها وطلائعها ومُشاتها وفرسانها، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبئة، حتى يحول دون مباغته العدو لقواته.

ولم ينسَ سعد القضايا الإدارية فى جيشه، فعين مسئولاً عن القضاء، وجعله مسئولاً

(١) الطبرى: (٢ / ٦٦٠)، وابن الأثير: (٢ / ١٧٢).

(٢) الطبرى: (٣ / ٤).

(٣) البلاذرى: (ص ٢٥٥).

(٤) تاريخ الطبرى (٣ / ٤ - ٥).

عن قسمة الفَيء أيضاً، وعيّن مسئولاً عن الوعظ والإرشاد، وعيّن مترجماً يجيد اللغة الفارسية، كما عيّن كاتباً تنتهى إليه الأمور الكتابية.

ووصل جيش المسلمين القادسية، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس، ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة، فعادت كلها بالفتح والغنائم والسلامة، وأرسل وفوداً من رجالات المسلمين إلى (كسرى) وإلى (رستم) يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين: الإسلام أو الجزية، أو السيف، فكان لهذه الوفود تأثير معنوى حاسم على كسرى وقائده رستم.

وتنهياً الفريقان للقتال، وقبل أن يأذن سعد بالقتال، بعث ذوى الرأى والعقل والنجدة إلى الناس، ليحرضوهم على القتال، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهى سورة الأنفال، فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها^(١).

ونادى منادى سعد فى جيشه: «ألا إن الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد فى أمر الله يا أيها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد».

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام (سعد) فأصابته بعرق النساء، ويحبون ودماميل منعته من الركوب، بل حتى من الجلوس، فلم يستطع أن يركب ولا أن يجلس فاعتلى القصر وأكب من فوقه على وسادة فى صدره يشرف على الناس، وأسفل منه فى الميدان خليفته؛ (خالد بن عرفطة) يرمى إليه من أعلى بالرقاع فيها أمره ونهيه، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر^(٢).

وأكب سعد على وجهه مطلقاً على جيشه، فخطبهم وقال: «إن الله هو الحق، لا شريك له فى الملك، وليس لقوله خلف قال جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

إن هذا ميراثكم وموعد ربكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتُجبونهم وتُسبونهم إلى هذا اليوم، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة وعز من وراءكم، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله

(١) الطبرى (٤٧ / ٣) وابن الأثير (٢ / ١٨١ - ١٨٢).

(٢) الطبرى (٣ / ٥٣٠، ٥٣١، ٥٧٣).

لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقرب ذلك أحداً إلى أجله، وإن تغسلوا وتهنأوا وتضعفوا تذهب ربحكم وتويقوا آخرتكم». ثم قال: «إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمتعنى أن أكون مكانه إلا وجمي الذي يعودني وما بهي من الحبون، فإني مكب على وجهي، وشخصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري، ويعمل برأبي».

قال الطبري: «فقرئ على الناس فزادهم خيراً، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه وتحادثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع»^(١).

لك الله أيها «الليث في برائه» تدير أشرس المعارك.. المعركة الفاصلة، وأنت منبطح على وجهك في شرفتك، وباب دارك مفتوح، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حياً أو ميتاً.

دما ملك تنبح وتنزف، وأنت عنها في شغل، فأنت من الشرف تكبر، وتصيح أوامر لجنودك: «الزموا مواقفكم، لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر، فإذا صليت الظهر فإني مكبر تكبيرة، فكبروا وشدوا شسع نعالكم واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعطه أحد قبلكم، واعلموا أنما أُعطيتموه تأييداً لكم، فإذا كبرت الثانية فكبروا وتهيأوا ولتستم عدتكم، فإذا كبرت الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم الناس ليرزوا ويطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)».

وبعد ثلاثة أيام ونصف يوم تهاوى جنود الفرس كالذباب المترنح.. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار...!!

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم - باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا - مقاومة أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية، فلقد صبر الفرس في هذه المعركة صبراً عجيباً وغير معهود منهم، وأظهروا قدرة قتالية فائقة، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا في هذه المعركة أربعة أيام، وخسر المسلمون في القادسية أكثر من خمسة وعشرين في المائة من قواتهم.

والقادسية أعظم أثراً في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون، بل من كل

الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن (سعد) النفيس وفرط شجاعته، وما إقامته بالقصر مع ما به من علة تمنعه من مباشرة القتال إلا إفراطاً في الشجاعة، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي: «ولو عرّاه الصف فواق ناقة لأخذ برمته، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه».

وكتب سعد إلى عمر يخبر النصر على المجوس فقال: «أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائنها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه، ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الأجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين، لا نعلمهم الله بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن - إذا جن الليل - دوى النحل، وهم آساد الناس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا يفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم»^(١).

فتح البيت الأبيض

عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عصبة من أمتي يفتحون البيت الأبيض؛ بيت كسرى». رواه أحمد ومسلم.

وروى مسلم عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لتفتحن عصابة من أمتي كنز آل كسرى الذي في الأبيض».

أمضى سعد شهرين في القادسية بعد المعركة، وكاتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فيما يفعل، فكتب إليه عمر بالمسير إلى «المدائن» عاصمة كسرى. وتحرك الجيش المنتصر باتجاه المدائن، وسار المسلمون من نصر إلى نصر في «برس» وفي بابل، وفي «بهرسير». وبذلك أصبح جيش المسلمين في الضفة المقابلة للمدائن، وحاول سعد أن يؤمن عبور جيشه في السفن، فلم يقدر على شيء منها؛ لأن الفرس ضموا السفن ليعزموها المسلمين من الإفادة منها^(٢). وكان النهر عريضاً طافحاً بالماء، يقذف بالزبد لشدة جريانه، وموجه متلاطم، وزاد المد فيه، وارتفعت مياهه ارتفاعاً كبيراً، وفي ليلة من

(١) تاريخ الطبري (٣ / ٥٨٣).

(٢) الطبري (٣ / ١١٩).

ليالى سعد، رأى رؤيا خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمت مياه دجلة الهادرة وعبرت، وقد أقبلت من المد بأمرٍ عظيم.

عبور لا مثيل له فى التاريخ

فصدق الرؤيا، وعزم على عبور النهر، فجمع الجيش وقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم فى سفنهم، وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه، فقد كفاكموه أهل الأيام، وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل»^(١).

وندب سعد الناس للعبور، ثم قال: «من يبدأ ويحمى لنا الفراض»^(٢) لكيلا يمنعونا من العبور». فانتدب عاصم بن عمرو التميمي، وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات، فعبروا هؤلاء المغاوير، وعبر سعد مع جيشه بعدهم، ففاجأوا أهل فارس بأمر لم يكن فى حسابهم.

سبحان الله!! نهر هادر لا يقل عمق مياهه عن ستة أمتار تخوضه الخيول سباحة وعلى رأسها الفرسان يقاتلون.

قال لهم سعد وهم يخوضون ليصلوا إلى شاطئ أسبائير: «قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»^(٣).

لقد اقتحموا دجلة ما يكثرثون، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر كما يتحدثون فى مسيرتهم على الأرض.

لنجحت خطة سعد نجاحاً يذهل له المؤرخون، لنجاحاً أذهل سعداً نفسه وأذهل صاحبه ورفيقه فى المعركة «سلمان الفارسي»، «عامت بهم الخيل وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن فى

(١) الطبرى (٣/ ١١٩)، وابن الأثير (٢/ ١٩٨)، وفتوح الشام للواقدي (٢/ ١٢٧).

(٢) الفراض: جمع فريضة، وهى ثغور المخاضة من الناحية الأخرى ويسمى فى المصطلح العسكرى رأس جسر.

(٣) الطبرى (٤/ ٤٨).

الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات». فقال له سلمان: «الإسلام جديد، ذُكِّيتَ لهم والله البحور، كما ذُكِّلَ لهم البر، أما والذي نفسى بيده ليخرجنَّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً. لم تضع منهم شكيمة فرس»^(١). فطبَّقوا الماء حتى ما يرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حديثاً منهم فى البر لو كانوا فيه، فخرجوا منه - كما قال سلمان - لم يفقدوا شيئاً، ولم يغرق منهم أحد، إلا رجلاً من بارق يُدعى (غرقدة) زال عن ظهر فرس له شقراء، قال أبو عثمان النهدي: كَأْنى أنظر إليها تنفض أعرافها عرياً والغريق طاف، فشئى القعقاع عنان فرسه إليه، فأخذه بيده فجره حتى عبر، فقال البارقي - وكان من أشد الناس -: عجز الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع، وكان للقعقاع فيهم خؤولة.

ما تقاتلون إلا الجن

نظر جنود «يزدجرد» إلى هذه الخيل التى ملأت دجلة، وجعلوا يرددون بالفارسية (ديوان آمد) ويقول بعضهم لبعض: «والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن».

قال أبو عثمان النهدي: «طبقت دجلة خيلاً ودواب حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد، فخرجت بنا خيلنا إليهم تنفض أعرافها، لها صهيل، فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء».

وفزع يزدجرد ملك الفرس، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات... فدلاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض فى زنبيل.. ليفر من المدائن ومعه ألف طباح وألف فهاد وألف بازيار.

حتى خيولهم أصابها الرعب نصراً لأنصار الله؛ فقد جاء فى تاريخ الطبرى (٥٣/٤): «أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس، وفيهم فارس منهم يعترض على طريق من طرقها، يحمى مؤخرة أصحابه فى فرارهم، وهو يضرب فرسه للإقدام فيحجم، ثم يضربه للهرب فيتقاعس، حتى لحقه رجل من جيش سعد يدعى ثقيفاً من بنى عدى بن طريف، فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه. ودخل سعد المدائن، وانتهى إلى إيوان كسرى، فأقبل يقرأ قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ (٢٧)﴾

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿[الدخان: ٢٥ - ٢٨]﴾^(١).

فالفَتْوحَاتُ الإسلاميةُ إِذْ نَ الْتَى جَرَتْ فِي الْعِرَاقِ، وَفِي شَرْقِهِ وَشِمَالِهِ حَتَّى نَهَايَةِ سَنَةِ عَشْرِينَ الْهَجْرِيَّةِ، فَتَحَهَا سَعْدٌ بِنَفْسِهِ، أَوْ أَرْسَلَ إِلَيْهَا الْجِيُوشَ وَالْقَادَةَ لِفَتْحِهَا، وَحَتَّى الْجَيْشَ الَّذِي فَتَحَ نَهَاوَنْدَ أَرْسَلَهُ سَعْدٌ، وَلَكِنْ فَتَحَهَا جَرَى بَعْدَ عَزْلِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ فَتَحَ سَعْدٌ لِهَذِهِ الْبِلَادِ فَتَحًا مُسْتَدَامًا. لَقَدْ فَتَحَ سَعْدُ الْعِرَاقَ، وَأَكْثَرَ بِلَادِ فَارَسَ، وَأَذَرْبَيْجَانَ، وَالْجَزِيرَةَ وَبَعْضَ أَرْمِينِيَّةٍ، أَيْ أَنَّهُ فَتَحَ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ الْعِرَاقَ الْحَدِيثَ، وَأَكْثَرَ إِيْرَانَ بِحُدُودِهَا الْيَوْمَ، وَفَتَحَ الْقِسْمَ الْجَنُوبِيَّ مِنْ تَرْكِيَا الْمَتَاخِمَةِ لِإِيْرَانَ، وَالْقِسْمَ الْوَاقِعَ فِي شِمَالِي إِيْرَانَ وَالَّذِي يَحُدُّ رُوسِيَا. وَفَوْقَ ذَلِكَ مِصْرَ الْكُوفَةِ وَكُوفَهَا، فَأَصْبَحَتْ الْقَاعِدَةُ الْأَمَامِيَّةُ لِلْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الشَّرْقِ كُلِّهِ، وَأَمَدَّتْ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ بِعَدَدٍ ضَخْمٍ مِنْ قَادَةِ الْفَتْحِ وَالْفَاتِحِينَ.

فَرَضَى اللَّهُ عَنْ سَعْدِ الْفَاتِحِ الْعَظِيمِ.

وَأَخِيرًا تَبْقَى كَلِمَةٌ:

سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَارَسَ الْيَمَنَ عَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبُ عَنْ سَعْدٍ فَقَالَ: «مَتَوَاضِعٌ فِي سَخْبَائِهِ، عَرَبِيٌّ فِي نَمْرَتِهِ»^(٢)، أَسَدٌ فِي تَامُورِهِ»^(٣)؛ يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ، وَيَقْسِمُ بِالسُّوِيَّةِ، وَيَبْعُدُ فِي السَّرِيَّةِ؛ يَعْطِفُ عَلَيْنَا عَطْفَ الْأُمِّ الْبَرَّةِ؛ وَيَنْقُلُ إِلَيْنَا حَقَّنَا نَقْلَ الذَّرَّةِ»^(٤).^(٥)

وَعَنْ عُمَرَ أَنَّهُ لَمَّا أُصِيبَ جَعَلَ الْأَمْرَ شُورَى فِي السَّتَةِ، وَقَالَ: مَنْ اسْتَخْلَفُوهُ فَهُوَ الْخَلِيفَةُ بَعْدِي، وَإِنْ أَصَابَتْ سَعْدًا وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ الْخَلِيفَةُ بَعْدِي، فَإِنِّي لَمْ أَتَزَعْهُ - يَعْنِي عَنْ الْكُوفَةِ - مِنْ ضَعْفٍ وَلَا خِيَانَةٍ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَلَمَّا اسْتُخْلِفَ عُثْمَانُ عَزَلَ عَنِ الْكُوفَةِ (الْمَغِيرَةِ) وَأَمَرَ عَلَيْهَا (سَعْدًا)^(٦).

وَبَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَوَقَعَتْ الْفِتْنَةُ وَأُطْلِتْ بِرَأْسِهَا بَيْنَ (عَلِيٍّ)

(١) الطبري (٤ / ١٦).

(٢) كَسَاءٌ فِيهِ خُطُوطٌ بَيْضٌ وَسُودٌ، تَلْبَسُهُ الْأَعْرَابُ.

(٣) التَّامُورُ: هُوَ عَرِينُ الْأَسَدِ، وَهُوَ بَيْتُهُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ.

(٤) أَسَدُ الْغَابَةِ (٢ / ٢٩٢) وَالْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ لِلْمُجَاحِظِ (٢ / ٦٨).

(٥) نَقْلًا مِنْ صِلَاحِ الْأَمَةِ فِي عُلُوِّ الْهَمَةِ / د. سَيِّدُ حُسَيْنٍ (بِتَصْرِيفٍ).

(٦) الْإِصَابَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَبَّارٍ (٤ / ١٦٣) نَقْلًا مِنْ السِّبْرِ لِلْإِمَامِ الدَّهْمِيِّ (١ / ١١٨).

و(معاوية) - رضى الله عنهما - وكان الصحابة مجتهدين ومتأولين. والمجتهد إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.. فلم يكن منهم واحدٌ يريد سفك الدماء أو يريد زعامة أو يريد دنيا، وإنما كانوا جميعاً يريدون وجه الله - فرضى الله عنهم جميعاً وأرضاهم -.

اعتزاله للفتنة

وعندما وقعت الفتنة بين أصحاب الحبيب ﷺ اعتزل سعدٌ - رضى الله عنه - تلك الفتنة، وقال: «ما أزعجنى بقميصي هذا أحق مني بالخلافة، جاهدت وأنا أعرف بالجهاد ولا ألتجع نفسي إن كان رجلاً خيراً مني، لا أقاتل حتى يأتوني بسيفٍ له عينان ولسانٌ فيقول: هذا مؤمن وهذا كافر»^(١).

وعن علي بن زيد عن الحسن قال: لما كان الهيجُ في الناس، جعل رجل يسأل عن أفاضل الصحابة، فكان لا يسأل أحداً إلا دلَّه على سعد بن مالك.

وروى عمر بن الحكم: عن عوانة قال: دخل سعد على معاوية، فلم يسلم عليه بالإمرة، فقال معاوية: لو شئت أن تقول غيرها لقلت، قال: فتحن المؤمنون ولم تؤمرك، فإنك معجب بما أنت فيه، والله ما يسرنى أني على الذي أنت عليه وأنى هزقت محجمة دم^(٢).

وعن عمر بن سعد، عن أبيه، أنه جاءه ابنه عامر، فقال: «أى بنى، أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأساً؟ لا والله، حتى أعطى سيفاً، إن ضربت به مسلماً، نبا عنه، وإن ضربت كافراً قتله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب الغنى الخفى التقي»^(٣).

اعتزل الفتنة ففاز بتلك المنقبة العظيمة

عن حسين بن خارجة الأشجعي قال: لما قُتل عثمان، أشكلت على الفتنة، فقلت: اللهم أرني من الحق أمراً أتمسك به، فرأيتُ في النوم الدنيا والآخرة بينهما حائط، فهبطت الحائط، فإذا بنفر، فقالوا: نحن الملائكة، قلت: فأين الشهداء؟ قالوا: اصعد.

(١) قال الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٩٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١ / ١٢٢).

(٣) قال الأرئوط: إسناده حسن: رواه أحمد (١ / ١٧٧) والحبلى لأبي نعيم (١ / ٩٤).

الدرجات، فصعدتُ درجةً ثم أخرى، فإذا محمد وإبراهيم (صلى الله عليهما) وإذا محمد يقول لإبراهيم: استغفر لأمتي، قال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم اهراقوا دماءهم، وقتلوا إمامهم، ألا فعلوا كما فعل خليلي سعد؟.

قال: قلتُ: لقد رأيتُ رؤيا، فأتيت سعداً، فقصصتها عليه، فما أكثر فرحاً، وقال: قد خاب من لم يكن إبراهيم - عليه السلام - خليله، قلتُ: مع أي الطائفتين أنت؟ قال: ما أنا مع واحد منهما، قلتُ: فما تأمرني؟ قال: هل لك من غنم؟ قلتُ: لا، قال: فاشتر غنماً، فكن فيها حتى تنجلي^(١).

وقال الإمام الذهبي: «اعتزل سعد الفتنة، فلا حضر الجمل ولا صفين ولا التحكيم، ولقد كان أهلاً للإمامة كبير الشأن - رضى الله عنه -»^(٢).

زهده في الإمارة

وكان سعد - رضى الله عنه - لا يطمع في أي شيء من حطام الدنيا فهو يعلم أن كل نعيم دون الجنة فهو سراب، وأن كل عذاب دون النار فهو عافية.. فكان لا تطمح نفسه إلا في جنة الرحمن - جل وعلا -.

عن عامر بن سعد أن أباه سعداً، كان في غنم له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: أهوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: يا أبت أَرْضَيْتَ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيًّا فِي غَنَمِكَ، وَالنَّاسُ يُتَنَازَعُونَ فِي الْمَلِكِ بِالْمَدِينَةِ، فَضَرْبَ صَدْرِ عَمْرٍ، وَقَالَ: اسْكُتْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقَى الْغَنَى الْخَفَى»^(٣).

دفاعه عن إخوانه

عن مصعب بن سعد، عن سعد أن رجلاً نال من (عليٍّ) - رضى الله عنه - فدعا عليه سعد بن مالك^(٤)، فجاءته ناقة أو جمل فقتله فأعتق سعد نسمة وحلف أن لا يدعو على أحد^(٥).

(١) قال الأرئوط: رجاله ثقات: أخرجه الحاكم (٣/ ٥٠١ - ٥٠٢) وانظر الإصابة (٣/ ٨). تنجلي: تنكشف.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١٢٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٥) الزهد - وأحمد (١/ ١٦٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٤).

(٤) هو سعد بن أبي وقاص.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/ ٤٩٩) وقال العدوي: إسناده حسن.

وفى رواية: عن قيس بن أبي حازم قال: كنت بالمدينة فينا - فينما - أنا أطوف في السوق إذ بلغت أحجار الزيت فرأيت قوماً مجتمعين على فارس قد ركب دابة وهو يشتم على بن أبي طالب والناس وقوف حواليه إذ أقبل سعد بن أبي وقاص فوقف عليهم فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل يشتم على بن أبي طالب فتقدم سعد فأفرجوا له حتى وقف عليه فقال: يا هذا علام تشتم على بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله ﷺ؟ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟ وذكر حتى قال: ألم يكن ختن رسول الله على ابنته؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ في غزواته؟ ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم إن هذا يشتم ولياً من أوليائك فلا تفرق هذا الجمع حتى تريحهم قدرتك. قال قيس: فوالله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته في تلك الأحجار فانفلق دماغه ومات^(١).

صبره على البلاء

لما قدم سعد بن أبي وقاص مكة، وقد كان كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفني. وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم. فذكر قصة، قال في آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد عليك بصرك؟! فتبسم وقال: يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى^(٢).

وحن وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد في سبيل الله نام سعد - رضى الله عنه - على فراش الموت ليُسلم روحه إلى بارئها - جل وعلا - ويلحق بالحبيب ﷺ في جنة الرحمن.. فهو من العشرة المبشرين بالجنة.

عن مصعب بن سعد أنه قال: كان رأس أبي في حجرى، وهو يُقضى. فبكيت، فرفع رأسه إليّ، فقال: أى بُنى ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك. قال: لا تبك فإن الله لا يعذبني أبداً. وإنى من أهل الجنة^(٣).

(١) أخرجه الحاكم (٤٩٩ / ٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٣٦٨).

(٣) الطبقات لابن سعد (٣ / ١ / ١٠٤) نقلاً من السير للذهبي (١ / ١٢٢).

قال الإمام الذهبي: قلت: صدق والله، فهنئاً له.

وعن الزهري أن سعد بن أبي وقاص لما احتضر، دعا بخلق جبة صوف، فقال: كفنوني فيها، فإني لقيت المشركين فيها يوم بدر، وإنما خبأتها لهذا اليوم^(١).

وعن أم سلمة أنها قالت: لما مات سعد، وجيء بسريره، فأدخل عليها، جعلت تبكي وتقول: بقية أصحاب رسول الله ﷺ^(٢).

ومات سعد في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، فحُمِلَ على رقاب الرجال إلى المدينة وصلى عليه مروان بن الحكم، وهو يومئذ والي المدينة، ثم صلى عليه أزواج النبي ﷺ في حجرهن، ودُفِنَ بالبقيع^(٣).

فرضى الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٩٦)، والطبراني في الكبير (٣١٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٥) وقال: ورجاله ثقات إلا أن الزهري لم يدرك سعداً.

(٢) السير للإمام الذهبي (١/ ١٢٣).

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٤٧).

سعيد بن زيد

أسدٌ في معركة اليرموك ... ومن العشرة المبشرين بالجنة

أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن السابقين الأولين البدرين، ومن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه.

شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ - ما خلا بدر - وشهد حصار دمشق وفتحها، فولاه عليها أبو عبيدة بن الجراح، فهو أول من عمل نيابة دمشق من هذه الأمة^(١).

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

لقد كان (زيد بن عمرو بن نفيل) والد سعيد بن زيد فريداً في عصره وزمانه، فقد كان الناس يعبدون الأصنام وهو يعبد الواحد الديان. فخرج من صلبه هذا الابن المبارك (سعيد بن زيد) ليكون واحداً من العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة.

وكان (زيد بن عمرو) يُحیی الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مه! لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فياخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها^(٢).

وكان يعيب على قريش، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟.

وحتى نسعد بتلك السيرة العطرة فتعالوا بنا لنرى كيف كان حال (زيد بن عمرو) وما هي قصته لنعرف كيف خرجت تلك الثمرة من أغصان هذه الشجرة المباركة.

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٤ / ١٨٨) والإصابة (٤ / ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً (٣٨٢٨) في المناقب - والحاكم ووصله وصححه (٣ / ٤٠٤) ووافقه الذهبي.

رحلة التوحيد

اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويمكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيداً لهم [في] كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة [نفر] نجياً^(١)، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض؛ قالوا: أجل - وهم: ورقة بن نوفل وعبيد الله ابن جحش، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب؛ وعثمان بن الحويرث؛ وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم! ما حَجَرَ نُطِيفَ به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع!؟ يا قوم! التمسوا لأنفسكم [ديناً] فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الخفية، دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة؛ فلما قدمها تنصراً، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصراً، وحسنت منزلته عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم؛ وبأدى قومه بعيب ما هم عليه.

وعن أسماء بنت أبي بكر - رضى الله عنهما - قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مُسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحداً على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته.

قال ابن إسحاق: وحدثت أن ابنه، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمر بن

(١) النجى: جماعة يتحدثون سرّاً يخفون حديثهم عن غيرهم.

الخطاب - وهو ابن عمه - قالاً لرسول الله ﷺ: أنستغفرُ لزُيدِ بن عمرو؟ قال: نعم فإنه يُبعثُ أمةً وحده^(١).

وقال زيد بن عمرو بن نفيل في فراق دين قومه، وما كان لقي منهم في ذلك:

أرباً واحداً أم ألف رباً	أدينُ إذا تُقسّمتُ الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعزى جميعاً	كذلك يفعلُ الجلدُ الصبورُ
فلا العزى أدينُ ولا ابتيها	ولا صنمى بنى عمرو أزورُ
ولا هبلاً أدينُ، وكان رباً	لنا في الدهر إذ حلمى يسيرُ
عجبتُ وفي الليالى مُعجباتُ	وفي الأيام يعرفها البصيرُ
بأنَّ الله قد أفنى رجالاً	كثيراً كان شأنهم الفجورُ
وأبقى آخرين يسرُّ قوم	فيزبلُ منهم الطفلُ الصغيرُ ^(٢)
وبينا المرءُ يفتُرُ ثابَ يوماً	كما يتروحُ الغصنُ المطيرُ ^(٣)
ولكنُ أعبدُ الرحمن ربى	ليغفرَ ذنبى الربُّ الغفورُ
فتقوى الله ربكم احفظوها	متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهمُ جنانُ	وللكفارِ حاميةٌ سكيرُ
وخزى في الحياة، وإن يموتوا	يلاقوا ما تضيقُ به الصدورُ

وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلبُ الحنيفية دين إبراهيم ﷺ، فكانت صفة بنت الحضرى كلما رأتُه قد تهباً للخروج وأرادَه أذنت به الخطاب بن نفيل.

وكان يعاتبه على فراق دين قومه.

وكان الخطاب قد آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة، ووكل به الخطابُ شاباً من شباب قريش وسفهاًتهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة؛ فكان لا يدخلها إلا سرّاً منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وأذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحدٌ منهم على فراقه.

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٤٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) يزبل: زبلَ الطفل إذا شب وكبر.

(٣) يفتُر: فتر الشيء يفتُر. سكن بعد حدثه. ثاب: رجع. يتروح: يهتز ويحتضر. وينبت ورقة بعد سقوطه.

ثم خرج يطلبُ دينَ إبراهيم عليه السلام، ويسألُ الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كله، حتى انتهى إلى راهب بميعة^(١) من أرض البلقاء^(٢) كانت ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفة دين إبراهيم؛ فقال: إنك لتطلبُ دينًا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظلم زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفة، فالحق بها، فإنه مبعوثُ الآن، هذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئًا منهما، فخرج سريعًا، حين قال له ذلك الراهبُ ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لحم عدوا عليه فقتلوه^(٣).

وفي آخر رمق من حياته رفع بصره إلى السماء، وقال: اللهم إن كنت حرمتني من هذا الخير فلا تحرم منه ابني «سعيدًا».

واستجاب الله دعوته المباركة فكان ابنه سعيد من السابقين إلى الدخول في الإسلام فقد أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم.

ولقد تحمّل سعيد - رضى الله عنه - نصيبًا من العذاب بسبب إسلامه.

فعن قيس بن حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: لو رأيتني موثقى^(٤) عمر على الإسلام أنا وأختي، وما أسلم^(٥)، ولو أن أحدًا انقض^(٦) لما صنعتُم بعثمان لكان محقوقًا أن ينقض^(٧).

وأسلمت مع (سعيد) زوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب. وجعلهما الله سببًا في إسلامه - وإن كان السبب الأساسي في إسلام عمر - رضى الله عنه - هو دعوة النبي ﷺ عندما قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب» وكان أحبهما إليه عمر^(٨).

(١) بميعة: أصل الميعة الموضع المرتفع من البقاع.

(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق قصبتها همان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة. قاله ياقوت.

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ١٩١ : ١٩٨) بتصرف.

(٤) أى أن عمر موثق سعيد بن زيد.

(٥) يعنى قبل أن يسلم عمر.

(٦) قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٧٦): وقال الداودي: معناه لو تحركت القبائل وطلبت بشار عثمان لكان أهلاً

لذلك. وفي هذا الحديث أفضلية سعيد بن زيد وأسبقته هو وزوجته رضى الله عنهما إلى الإسلام.

(٧) أخرجه البخارى (٣٨٦٧) عن قيس بن حازم.

(٨) رواه الترمذى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٩٠٧).

منقبة عظيمة

عن سعيد بن زيد - أن النبي ﷺ قال: «أسكن حراءُ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»، وعليه النبي، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، وسعيد بن زيد^(١).

الله يستجيب دعاءه

عن هشام بن عروة، عن أبيه أن أروى بنت أوبس ادّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئاً من أرضها فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيد: أنا كنت أخذ من أرضها شيئاً بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوّقه إلى سبع أرضين» فقال له مروان: لا أسألك بيئة بعد هذا. فقال: اللهم إن كانت كاذبة فعم - فأعم - بصرها واقتلها في أرضها. قال: فما ماتت حتى ذهب بصرها ثم بينا - بينما - هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت^(٢).

أهدى هذه القصة إلى كل ظالم على وجه الأرض ومعها قول الله - جل وعلا - : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

جهاده في سبيل الله

لقد شهد سعيد بن زيد - رضى الله عنه - المشاهد كلها ما خلا بدرًا، وذلك لأن النبي ﷺ كان قد أرسله في مهمة، فلما عاد وجد النبي ﷺ عائداً من الغزوة فضرب له النبي ﷺ بسهمه، فكان كمن شهداها.

وما زال يشهد المشاهد بعد وفاة الرسول ﷺ يبحث عن الشهادة في سبيل الله ولا يرضى عنها بديلاً.

(١) قال الأرنؤوط: رواه أحمد (١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٣١).

بطولاته في يوم أجنادين

كان سعيد بن زيد - رضى الله عنه - قائد الفرسان يوم أجنادين، وكان من أشد الناس، وهو الذي أشار على خالد ببدء القتال يوم أجنادين لما رمى الروم المسلمين بالنشاب، فصاح سعيد بن زيد بخالد قائلاً: «علام نستهدف لهؤلاء الأعلاج؛ وقد رشقونا بالنشاب حتى شملت^(١) الخيل؟!». فأقبل خالد إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «احملوا - رحمكم الله - على اسم الله». وحمل خالد على الروم، وحمل المسلمون معه بأجمعهم، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين.. على ميمتهم مرة، ثم على ميسرتهم، ثم صبروا لرشق نبالهم، وانطلق جيش المسلمين إلى الروم، فما صبر الروم لهم فَوْاقًا^(٢)، وانهزموا هزيمة شديدة، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وأصابوا معسكرهم وما حوى.

وعند الطبرى، عن ابن إسحاق: «فلما رأى القبقلار^(٣) ما رأى من قتال المسلمين، قال للروم: لقوا رأسى بثوب. قالوا: لم؟ قال: يوم البئس، لا أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا. فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لملْفَقٌ».

أسد في معركة اليرموك

ولعل أروع بطولاته تلك التي سجلها يوم اليرموك.

قال سعيد بن عمرو بن نفيل: لما كان يوم اليرموك كنا أربعاً وعشرين ألفاً أو نحواً من ذلك، فخرجت لنا الروم بعشرين ومائة ألف، وأقبلوا علينا بخطى ثقيلة، كأنهم الجبال تحركها أيد خفية وسار أمامهم الأساقفة والبطارقة والقسيسون يحملون الصليبان وهم يجهرون بالصلوات، فيرددها الجيش من ورائهم، ولهم هزيمٌ كهزيم الرعد. فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه، هالتهم كثرتهم، وخالط قلوبهم شيء من خوفهم. عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحض المسلمين على القتال، فقال: عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله، اصبروا؛ فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب،

(١) أي امتنعت ظهورها عن الركوب.

(٢) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت. والمراد: الزمن القصير.

(٣) قائد جيش الروم.

ومدحضة للعار. وأشرعوا الرماح، واستروا بالتروس، والزموا الصمت إلا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله. قال سعيد: عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين وقال لأبي عبيدة: إني أزمعت^(١) على أن أقضى أمري الساعة^(٢)، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول الله ﷺ؟ فقال أبو عبيدة: نعم، تُقرئه مني ومن المسلمين السلام، وتقول له: يا رسول الله، إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا. قال سعيد: فما إن سمعتُ كلامه، ورأيتَه يمتشق حُسامه ويمضي إلى لقاء أعداء الله، حتى اقتحمت^(٣) إلى الأرض وجثوتُ على ركبتي، وأشرعتُ رمحي، وطعنت أول فارس أقبل علينا، ثم وثبتُ على العدو، وقد انتزع الله كل ما في قلبي من الخوف، فثار الناس في وجوه الروم، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب الله للمؤمنين النصر^(٤).

«قال حبيب بن سلمة: اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فله در سعيد ما سعيد يومئذ إلا مثل الأسد، لما نظر إلى الروم وخافها، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبته، حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل الليث، فطعن بوابته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ - والله - يقاتل راجلاً - قتال الرجل الشجاع البأس - فارسًا، ويعطف الناس إليه^(٥)».

وحان وقت الرحيل

وبعد تاريخ حافل بالعطاء والتضحية والجهاد في سبيل الله رحل سعيد ابن زيد - رضي الله عنه - عن دنيا الناس إلى جنة الرحمن، فهو من العشرة المبشرين بالجنة. وتوفي بالعقيق فحُمِل إلى المدينة ودُفِن بها وغسَّله سعد بن أبي وقاص ونزل في قبره سعد وابن عمر، وذلك في سنة خمسين أو إحدى وخمسين وكان يوم أن مات ابن بضع وسبعين سنة.

فرضي الله عن سعيد وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) أزمعت: عزمت.

(٢) أقضى أمري الساعة: أي أموت في هذه الساعة.

(٣) اقتحمت إلى الأرض: رميتُ بنفسي بشدة على الأرض.

(٤) صور من حياة الصحابة (١/ ١٥٥ - ١٥٨) للدكتور عبد الرحمن رافت الباشا - طبع مؤسسة الرسالة.

(٥) تاريخ ابن عساکر (١/ ٥٤١)، الأزدي (٢٢٦).

أبو عبيدة بن الجراح

أمين هذه الأمة ... وفاتح بلاد الشام

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح» (١).

قال العلماء: والأمانة مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة، لكن النبي ﷺ خص بعضهم بصفات غلبت عليهم، وكانوا بها أخص (٢).

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: والأمين هو الثقة الرضى وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره لكن السياق يشعر بأن له مزيداً في ذلك، لكن خص النبي ﷺ كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها على غيره، كالحياة لعثمان، والقضاء لعلي ونحو ذلك (٣).

وها نحن على موعد مع أمين هذه الأمة.. أول من لُقّب بـ «أمير الأمراء» إنه أحد السابقين الأولين، ومن عزم الصديق على توليته الخلافة، وأشار به يوم السقيفة، لكمال أهليته عند أبي بكر. يجتمع في النسب هو والنبي ﷺ في فهر (اسم جده) شهد له النبي ﷺ بالجنة، وسمّاه أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمّة.

إسلامه - رضى الله عنه -

في تلك اللحظة التاريخية التي أسلم فيها أبو بكر - رضى الله عنه - خرج يدعو إلى الله ليأخذ بأيدي الناس من حوله إلى جنة الرحمن - جل وعلا - فكان من جملة من أسلموا على يديه (أبو عبيدة بن الجراح) - رضى الله عنه -

فكان بذلك ممن أسلموا مبكراً قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم. وكان ممن

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٤) - ومسلم (٢٤١٩).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٥ / ٢٧٣).

(٣) فتح الباري (٧ / ١١٧).

هاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية.

وذلك بعد أن أعلنت قريش العداء على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه - رضی الله عنهم - فهاجر أبو عبيدة مع من هاجر إلى الحبشة.

وعلى الرغم من الحفاوة البالغة التي قابلهم بها النجاشي (ملك الحبشة) إلا أن أبا عبيدة كان لا يتحمل أبداً أن يتعد عن حبيبه ﷺ فإن رؤية النبي ﷺ والجلوس معه والتعلم على يديه والاقتباس من هديه وأخلاقه لا يعدله أي نعيم ولا أي متاع في الدنيا بأسرها.

فسرعان ما عاد مرة أخرى إلى مكة مع إخوانه المهاجرين الذين وصل إلى مسامعهم تلك الإشاعة الكاذبة (بإسلام أهل مكة).

وما إن اقتربوا على أبواب مكة حتى علموا الحقيقة المؤلمة وعلموا أن قريشاً تنتظر رجوعهم لتسلط عليهم ألواناً من العذاب لا تخطر ببالهم.

ولم يدم بقاء (أبي عبيدة) بمكة طويلاً حتى أذن النبي ﷺ له ولأصحابه بالهجرة إلى المدينة (يثرب) لتكون هذه المدينة هي القاعدة المباركة التي تقوم على أرضها للإسلام دولة تُخرج للكون كله نماذج من الرجال والأبطال الذين تربوا بين يدي الحبيب ﷺ الذي رباه الله - جل وعلا - ليربى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

وشاهدت الطريق الممتدة إلى المدينة فارساً يطلق العنان لراحته لتسابق الريح، وتطوى الأرض تحت أقدامها طياً، حتى يلحق بالعصبة المؤمنة الفارة بدينها، ولم يكن هذا الفارس سوى أبي عبيدة بن الجراح الذي وقف أمام الرسول ﷺ ووجهه لا يكاد يُعرف من كثرة ما تراكم عليه من رمال الصحراء وعناء الطريق، فاستقبله الرسول ﷺ وهشاً لمقدمه، وأخى بينه وبين سعد بن معاذ - رضی الله عنه - (١).

درس في الولاء والبراء يوم بدر

وفي غزوة (بدر) قاتل أبو عبيدة - رضی الله عنه - قتالاً شديداً حتى كان المشركون يتعدون عن البقعة التي يقاتل فيها.. ولكن كان هناك فارسٌ يتصدى له كثيراً.. وأبو عبيدة يحيده عنه فلما أكثر الرجل من التصدي لأبي عبيدة هجم عليه كالأسد الضاري

(١) رجال أنزل الله فيهم قرآناً/ د. عبد الرحمن عميرة (٣/ ٣٤).

فقتله شر قتلة!!!

أتدرون من هو المقتول؟!...

إنه - والد أبي عبيدة -.

وأنزل الله في شأنه وشأن أبيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال سعيد بن عبد العزيز وغيره أنزلت هذه الآية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة - رضى الله عنهم - ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته^(١).

فيا له من موقف عظيم لأبي عبيدة يلقن فيه الدنيا كلها درسًا عظيمًا ليعلموا أن الولاء إنما يكون لله ولرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وأن البراء لا بد أن يكون من أعداء الله - جل وعلا -.

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

دفاعه عن النبي ﷺ يوم (أحد)

وفى يوم (أحد) لما عصى الرُّمّة أمر رسول الله ﷺ فانكشف المسلمون وأجهز عليهم المشركون ، فأصابوا منهم مَنْ أصابوا ، وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ وأرادوا قتله والتمثيل بجثته.

عن أنس بن مالك، قال: كُسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد، وشُحَّ في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم!» فأنزل الله - عز وجل - في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (١).

وكانت أخرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة ابن أبي وقاص بالحجارة فوق لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري، فشجّه في جبهته. وجاء فارس عنيد هو (عبد الله بن قمئة) فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ له، وهو يمسح الدم عن وجهه: «أقمأك الله» (٢).

وكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - ممن ثبتوا مع النبي ﷺ وأبلى يوم أحد بلاءً حسنًا، ونزع يومئذ الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنة رسول الله ﷺ من ضربة أصابته، فانقلعت ثنيتاه، فحسن ثغره بذهابهما، حتى قيل: ما روى هتم قط أحسن من هتم أبي عبيدة (٣).

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (٧/ ٤٢٢) معلقًا.

(٢) وقد سمع الله دعاء رسول الله ﷺ، فعند ابن عائذ فى «المغازى» أن ابن قمئة انصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها، فشد عليه نيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح البارى [٧/ ٣٦٦، ٣٧٣]).

(٣) الطبقات (٣/ ١ / ٢٩٨) - الاستيعاب (٥/ ٢٩٢) - المستدرک (٣/ ٢٦٦).

فانظر - رحمك الله - كيف بلغ الأدب بأبي عبيدة.. لا ينزع حلقتي المغفر بيده لثلاث يؤذي رسول الله ﷺ بل ينزعهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه.

وظل أبو عبيدة - رضى الله عنه - يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ويثبت ثبات الجبال، وهو يحمل إيماناً لا تعصف به الرياح ولا تزعزعه الأعاصير.

وكان النبي ﷺ يحبه حباً جماً، بل ويفتخر به كل الفخر.

عن عبد الله قال: سألت عائشة: أى أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إليه؟ قالت: أبو بكر، ثم عمر، ثم أبو عبيدة بن الجراح^(١).

بل قال ﷺ: «.... نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح»^(٢).

سرية (ذات السلاسل) وعدم حرصه على الإمارة

ولقد ظهر تواضعه - رضى الله عنه - وعدم حرصه على الإمارة فى تلك السرية - ذات السلاسل - ولا أقصد بذلك أنه لم يتواضع فى غيرها، ولكن الموقف هنا كان يدعونا للوقوف أمامه لتعلم هذا الدرس العظيم ألا وهو: أن المؤمن عليه أن يعمل لخدمة دينه وإن لم يكن ظاهراً أمام الناس، وذلك لأنه لا بد أن يتغنى بعمله هذا وجه الله تعالى.

لقد بعث الحبيب ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض «بلى» و«عذرة» ليدعو الناس إلى الإسلام، وكانت أم عمرو من «بلى» فتألفهم بذلك رسول الله ﷺ فسار عمرو حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يُقال له السلسل، وبذلك سميت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل؛ فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده... يطلب مدداً - فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر؛ وقال

(١) أخرجه الترمذى (٣٦٥٧) فى المناقب، وابن ماجه (١٠٢) فى المقدمة: باب فضل عمر. ورجاله ثقات. وأخرجه الحاكم (٧٣ / ٣) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده، كما فى الإصابة (٢٨٧ / ٥) من طريق: كهيمس، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة... وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى. وأخرجه البخارى (٣٦٦٢) فى فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذاً خليلاً، و(٤٣٥٨) فى المغازى: باب غزوة ذات السلاسل، من حديث عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: أى الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر بن الخطاب، فعد رجالاً.

(٢) صحيح سنن الترمذى (٢٩٥٩) - الصحيحة (٩٦٢ / ٢) للشيخ الألبانى.

لأبي عبيدة حين وجهه: «لا تختلفا»؛ فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه، قال له عمرو: إنما جئت مددًا لي، قال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلًا لينًا سهلًا، هينًا عليه أمر الدنيا فقال له عمرو: بل أنت مددٌ لي، فقال أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي: «لا تختلفا»، وإنك إن عصيتني أطعتك، قال: فإنني الأمير عليك، وأنت مددٌ لي، قال: فدونك، فصلَّى عمرو بالناس^(١).

سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر.. والرزق الذي ساقه الله إليهم

عن عبادة بن الصامت، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى سيف البحر. عليهم أبو عبيدة بن الجراح، وزودهم جرابًا من تمر، فجعل يقوتهم إياه، حتى صار إلى أن يعده عليهم عددًا، قال: ثم نفذ التمر، حتى كان يعطى كل رجل منهم كل يوم ثمرة. قال: فقسم يومًا بيننا. قال: فنقصت ثمرة عن رجل، فوجدنا فقدناها ذلك اليوم، قال: فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر، فأصبنا من لحمها وودكها، وأقمنا عليها عشرين ليلة، حتى سمنا وابتللنا، وأخذ أميرنا ضلعًا من أضلاعها، فوضعها على طريفه، ثم أمر بأجسمٍ بغير معنا، فحمل عليه أجسم رجل منا. قال: فجلس عليه. قال: فخرج من تحتها وما مست رأسه. قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبرها، وسألناه عما صنعنا في ذلك من أكلنا إياه، فقال: «رزقٌ رزقكموه الله»^(٢).

هذا أمين هذه الأمة

ولما جاء وفد نجران إلى الحبيب ﷺ كانت هناك منقبة عظيمة لأبي عبيدة - رضى الله عنه -

فإنه لما نزل الوفد بالمدينة، ولقى النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى - عليه السلام - فمكث رسول الله

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٩٩، ٤٠٠) وذكره ابن حجر العسقلاني في الفتح (٧/ ٦٧٤) ومال إلى تحسينه، وللحديث شاهد عند البخاري ومسلم في إرسال عمرو بن العاص في هذه الغزوة أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة (٧/ ٣٦٦٢، ٤٣٥٨/فتح) ومسلم في فضائل الصحابة (٤/ ٨/ ١٨٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «الصيد» باب «إباحة ميتة البحر» (٣/ ١٥٣٥ / ١٨، ١٧) بلفظ «هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا» وأحمد في «مستنده» (٣/ ٣١١).

﴿يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ﴾

﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ [عمران: ٥٩: ٦١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى بن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقرؤا بما قال في عيسى، فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره، فلما رأوا منه الجذ والتهيؤ خلّوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعتنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتاباً، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أميناً، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح^(١).

وفى رواية: قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»^(٢).

صور مشرقة من جهاده في سبيل الله تعالى

وظل أبو عبيدة ملازماً للعبادة والطاعة والدعوة إلى الله تعالى.. بل وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ حتى توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.
«وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أميناً، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أميناً...»

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٠) - ومسلم (٥٥) (٢٤٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥ / ٧) المغازي.

يحمل مسؤولياته في أمانة تكفي أهل الأرض لو اغترفوا منها جميعاً»^(١).

ولو لم يكن له إلا موقفه في سقيفة بني ساعدة لكفاه، وهو يجمع شمل المسلمين على أبي بكر.

ولقد سار تحت راية الإسلام أنى سارت جندياً، كأنه بفضلته وبإقدامه الأمير.. وأميراً كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحداً من عامة المقاتلين.

ولاه أبو بكر القيادة العامة في أرض الشام، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك، ولكن أبا بكر أصر على رأيه، فلما تخرج موقف المسلمين في أرض الشام واجتمعوا باليرموك، ولّى أبو بكر خالداً منصب القيادة العامة في الشام بدلاً من أبي عبيدة الذي بقى على جند (حمص)، ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر، وكان يقول عنه: «لا أمير على أبي عبيدة».

وصير خالداً موضع أبي عبيدة، وذلك في أثناء حصارهم لدمشق، الذي لم يتم فتح دمشق فيه، وكنتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه، طاوياً عليه صدر زاهد فطن، أمين.... حتى انتهت المعركة. وعلم خالد بأمر عزله، فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة، فقال: «يغفر الله لك، أذاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني، وأنت تصلى خلفي، والسلطان سلطانك؟!» فقال أبو عبيدة: «وأنت يغفر الله لك، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضى ذلك كله، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوان وقوام بأمر الله - عز وجل - وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالى أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة؛ لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله - عز وجل - وقليل ما هم».

مثل هذا كان الأمراء والفرسان يؤثرون قيادته على قيادة غيره.

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العدة ويأتى لأبي بكر قائلاً له ولمن كان عنده: «إنى أشهدكم أنى وإخوتى وفتيانى ومن أطاعنى من أهلى حبس فى سبيل الله، نقاتل المشركين أبداً حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا» وينضم إلى جيش أبي عبيدة، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبي سفيان، ولما يسأل عن ذلك يقول: «ابن عمى أحب

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٢٦٢).

إلى من هذا في قرابته، وهذا أحب إلى من ابن عمي في دينه، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ وولي وناصرى على ابن عمي قبل اليوم، وأنا أشد استئناساً إليه وأشد طمأنينة مني بغيره».

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد.

ويصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام.. ويصير تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولا وعرضا.. عتادا وعددا.. وحين ترمى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه، وانبهارهم بأمير الأمراء هذا؛ قام فيهم خطيبا، فقال لمن يفتنون بقوة، وعظمته وأمانته: «يا أيها الناس.. إني مسلم من قريش.. وما منكم من أحد - أحمر ولا أسود - يفضلني بتقوى إلا وددت أنى في إهابه، أو مسلاخه» - يعنى في جلده -.

حياك الله يا أبا عبيدة.. وحيّا الله ديننا أنجبك، ورسولا علمك.

و«لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحربية سبقتة إلى أهل الردة وإلى العراق وإلى الشام، فتحدث عنها العدو والصدیق، فإن شهرة أبي عبيدة في الحلم والرفق، وسعة الصدر، والأمانة والصدق، وحب السلام، قد سبقتة كذلك إلى أهل الشام؛ لذلك أحبوه ويسروا له مهمته، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام له صلحا، وبذلك حققت كثير من الدماء، واطمأنت كثير من النفوس».

لقد كان أبو عبيدة قائدا مكثا، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث، كما يقول عمر بن الخطاب^(١). وكان قائدا متبعا يتلقى الأوامر وينفذها بكل أمانة وإخلاص، وقد بقى بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى أتاها رأى عمر وأمره^(٢)؛ وهذا دليل على شدة ضبط أبي عبيدة، وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى.

ولعل هناك من يأخذ على أبي عبيدة تربيته الشديد قبل الإقدام على خوض معركة من معاركه، ويرد على هذه الفرية كبار الفرسان، فقد بلغ معاذ ابن جبل أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق، ورجع خالد ابن الوليد، فغضب معاذ وقال: أبأبى عبيدة يظن؟! والله إنه لمن خير من يمشى على الأرض^(٣).

(١) الطبرى (٢/ ٦٣١).

(٢) الطبرى (١/ ٥٩٩).

(٣) الإصابة (٤/ ١٢).

ولقد كان - رضى الله عنه - من القادة الذين يستشيرون رجالهم فى كل خطوة يخطونها، وعندما تحشد الروم لاستعادة أرض الشام، استشار أصحابه، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار فى (حمص) أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم، ولكن أبا عبيدة أخذ برأى الأكثرية.

وكان - رضى الله عنه - مهيباً؛ مؤثراً فى نفوس رجاله حين كان يتجول فى معسكراتهم وهو يقول: «ألا رب مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين غداً! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحاديات» (١).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: بلغ عمر أن أبا عبيدة حصر بالشام، ونال منه العدو، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه ما نزل بعد مؤمن شدة، إلا جعل الله بعدها فرجاً، وإنه لا يغلب عسر يسرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ الآية [آل عمران: ٢٠٠].

قال: فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد، فإن الله يقول: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ غِيثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، قال: فخرج عمر بكتابه، فقرأه على المنبر فقال: يا أهل المدينة! إنما يعرض بكم أبو عبيدة أو بى، ارغبوا فى الجهاد (٢).

جهاده فى (فحل) وفتحها

لقد كانت لأبى عبيدة فكرة سوقية - استراتيجية - ممتازة، فقد بعث بعض القوات لمشاغلة قوات الروم فى «فحل»، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها، ثم قصد «فحل» بقواته كلها، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوات المعاديتان فى «فحل» و«دمشق» على مقاومة المسلمين فى وقت واحد وفى مكان واحد.

كما أرسل خالدًا على رأس جيش؛ لضرب الجيش الرومى الذى كان متوجهاً إلى دمشق، مما أدى إلى فشل هذا الجيش فى مهمته؛ لأنه أصبح يقاتل فى جبهتين فى آن

(١) نقلاً من صلاح الأمة فى علو الهمة/ د. سيد حسين (ص: ٥١٠: ٥١٣) بتصرف.

(٢) أورده ابن المبارك فى «الجهاد» وقال الأرناؤوط: وإسناده قوى ورجاله ثقات - نقلاً من السير للإمام الذهبى

واحد؛ من الأمام يقاتل جيش يزيد بن أبي سفيان، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد.

جهاده في (اللاذقية) وفتحها

ولله درُّ القائد المكيث الذي يباغت قوات عدوه... وسلوا «اللاذقية» تُجيبكم؛ فقد سار أبو عبيدة إلى «اللاذقية» وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحه، إلا بجماعة كبيرة من الناس، فعسكر المسلمون على بُعد منها، ثم أمر فحفرت حفائر عظيمة، تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم، فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم؛ ودخلوا معهم المدينة، ففتحوها عنوة^(١).

أمين الأمة والدعوة إلى الله

قام أبو عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - بدعوة الروميين إلى الإسلام قبل بدء القتال معهم، فقد ذهب بنفسه، ومعه يزيد بن أبي سفيان وضرار بن الأزور والحارث بن هشام وأبو جندل بن سهيل - رضى الله عنهم - إلى القائد الرومى أخى الملك «تدراق» ودعوه إلى الله عز وجل، وكان ذلك قبل معركة اليرموك^(٢).

كما دعا أبو عبيدة - رضى الله عنه - الرسول الرومى الذى وفد إليه من قبل ماهان - وزير ملك الروم - طالبًا منه إرسال خالد بن الوليد - رضى الله عنه - إلى ماهان كى يتفاهم معه، وشرح الله صدره للإسلام، فاستجاب لدعوة أبى عبيدة - رضى الله عنه - وصاح: «اشهدوا علىّ بأجمعكم؛ أنى من المسلمين». ففرح المسلمون بإسلامه وصافحوه، ودعوا له بخير، وقالوا له: «ما أعزك علينا، وأرغبنا فيك، وأكرمك علينا! وما أنت عند كل امرئ منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه». قال الرومى: «فإنكم نعم ما رأيتم»^(٣). وكان هذا قبل معركة فحل.

(١) ابن الأثير (٢ / ١٩٠)، وفي البلاذرى ص ١٣٧: أن الذى فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت، ولكنه بأمر أبى عبيدة ومشورته، أو تحت قيادته.

(٢) البداية والنهاية (٧ / ٩ - ١٠).

(٣) فتوح الشام للأزدى (ص ١٩٨) وكتاب الفتوح لابن أعثم (١ / ٢٣٨).

تجرد وانصاف ونجاح باهر

ولقد كانت معارك التطهير، واستثمار فوز اليرموك أكبر المعارك التي أظهرت مقدرة أبي عبيدة الفذة «فقد فضل أبو عبيدة التخلي عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد، ولكن أبا عبيدة عاد إلى تولي القيادة العامة بعد اليرموك، فخاض معارك التطهير بنجاح باهر يكاد يعتبر معجزة عسكرية، إذا أدخلنا في حسابنا تفوق الروم الساحق على المسلمين، وسرعة إنجاز الفتح، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضحى بها المسلمون من أجل فتح البلاد كلها»^(١).

لله درُّ أبي عبيدة... من قاهر للروم وما أدراك ما الروم... بنو الأصفر حدٌ حديدٌ وركنٌ شديدٌ.

ومسك الختام فلسطين (إيلياء) بيت المقدس

ومسك الختام فلسطين «إيلياء» بيت المقدس، حاصرها حتى طلب أهلها من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام، وأن يكون المتولى لعقد الصلح عمر بن الخطاب، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر وفتح بيت المقدس.

تُرى ماذا يقول أبو عبيدة... لكأنني به ينادي من وراء الغيب: هل فتحنا فلسطين لئسلمها أحفادنا لليهود؟ واحسرتاه! وأسفاه.

خَيْرُ نَسْلٍ الدُّنْيَا كُلُّهَا خَيْرُكَ يَا أَبَا عبيدة

وها هو أبو عبيدة - رضى الله عنه - لا تستطيع الدنيا أن تصل إلى قلبه بحال من الأحوال.. فهو - إن كان - يعيش على الدنيا بجسده إلا أن روحه تسرح في جنة الرحمن فهو لا يريد سواها.

يرسل إليه عمر بن الخطاب بأربعة آلاف درهم وأربعمئة دينار، وقال لرسوله: «انظر ما يصنع»، فقسّمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمر رسوله بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: «الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا!»^(٢).

(١) قادة فتح الشام ومصر اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٨٠، دار الفكر.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٣).

ولما قدم عمر الشام، تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: «أين أخى؟» فقالوا: من؟ قال: «أبو عبيدة». قالوا: يأتيك الآن، فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسلم عليه، فقال عمر للناس: «انصرفوا عنا!»، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزل عليه، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه، فقال عمر: «لو اتخذت متاعاً» - أو قال شيئاً - فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيال»^(١).

وفى رواية أن عمر قال: «اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة» فقال له: «وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ!». ودخل عمر فلم ير في البيت شيئاً، فقال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لبدًا، وصفحة، وشئاً^(٢)، وأنت أمير! أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة^(٣) فأخذ منها كُسيرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قلت لك: إنك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين! يكفيك من الزاد ما بلغك المحل!! فقال عمر: «غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة»!^(٤)

إيثار يثوق الخيال

روى مالك الدار قال: إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أخذ أربعمئة دينار فجعلها في صرة، فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة ثم تله ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع.

قال: فذهب بها الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك. قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالى يا جارية: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان... حتى أنفذها.

فرجع الغلام إلى عمر وأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتله في البيت ساعة، حتى تنظر ما يصنع.

فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله: تعالى يا جارية اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهي إلى بيت فلان بكذا.

(١) الإصابة (٤ / ١٢) وأسد الغابة (٣ / ٨٦).

(٢) القربة الخلق.

(٣) السلة المستديرة.

(٤) نقلاً من صلاح الأمة / د. سيد حسين (ص ٥١٤ : ٥١٧) بتصرف.

فاطلعت امرأة معاذ فقالت: نحن والله مساكين فأعطينا، ولم يتبق في الخرقه إلا ديناران فدحا بهما^(١) إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فسر بذلك وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض^(٢).

وحن وقت الرحيل

عن الحارث بن عميرة قال: أخذ يدي معاذ بن جبل فأرسله إلى أبي عبيدة فسأله كيف هو - وقد طُعنا - فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث، وفرق منها - خاف منها - حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله ما يحب أن له مكانها حمر النعم^(٣).

وعن قيس بن مسلم، عن طارق أن عمر كتب إلى أبي عبيدة في الطاعون: إنه قد عرضت لي حاجة ولا غنى بي عنك فيها فعجل إلي، فلما قرأ الكتاب قال: عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقى ما ليس بياق. فكتب: إني قد عرفت حاجتك فحللني من عزيمتك، فإني في جند من أجتاد المسلمين لا أرغب بنفسى عنهم. فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: مات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكان قد؟

قال: فتوفي أبو عبيدة وانكشف الطاعون^(٤).

وذاث يوم، وأمير المؤمنين عمر الفاروق يُعالج - في المدينة - شئون عالمه المسلم الواسع، جاءه الناعي، أن قد مات أبو عبيدة.

وأسبل الفاروق جفنيه على عينين غُصَّتَا بالدموع... وغاض الدمع، ففتح عينيه في استسلام... وترحم على صاحبه، واستعاد ذكرياته معه - رضى الله عنه - في حنان صابر...

(١) دحا بهما: أى رمى بهما.

(٢) صفة الصفوة (١ / ٤٩١)، وحلية الأولياء (١ / ٢٣٧)، سير أعلام النبلاء (١ / ٤٥٦).

(٣) رواه الطبراني في الكبير برقم (٣٦٤) والحاكم (٣ / ٢٦٣) ورجاله ثقات سوى شهر بن حوشب، فهو مختلف فيه.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ١٨ - ١٩).

أمنية عمرية

وها هو عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتمنى تلك الأمنية الغالية وقد امتلأ قلبه حزنًا على فراق إخوانه وأحبابه، فقال يومًا لمن حوله: تمنوا، فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا فأنفقه فى سبيل الله ثم قال: تمنوا، فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لأولًا أو زبرجدًا أو جواهرًا، فأنفقه فى سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين، قال عمر: أتمنى، لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان^(١).

ومات أمين الأمة فوق الأرض التى طهرها من وثنية الفرس، واضطهاد الرومان...
وهناك اليوم تحت ثرى الأردن يثوى رفات نبيل، كان مستقرًا لروح خير، ونفس مطمئة...

وسواءٌ عليه - وعليك - أن يكون قبره اليوم معروفًا أو غير معروف...
فإنك إذا أردت أن تبلغه لن تكون بحاجة إلى من يقودك إليه..
ذلك أن عبير رُفاته، سيدُك عليه...!!^(٢)

رضى الله عن أبى عبيدة وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٣/ ٢٢٦) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٣١٠).

صهيب الرومي

ريح البليغ أبا يحيى

محمد رسول الله ﷺ

نشأ صهيب في بيئة مترفة يخيم عليها النعيم والسعادة، فقد كان أبوه حاكم «الأبلة» وعاملاً عليها لكسرى. وكان يعيش معه ابنه صهيب في القصر الذي يطل على شاطئ الفرات مما يلي الجزيرة والموصل. وكان أبوه من بني ثمر وأمه من بني تميم، ولكنه سُمي بصهيب الرومي؛ لأنه عاش زماناً طويلاً في بلاد الروم.

من التَّهْميم إلى الأسر

وبينما صهيب يعيش في تلك السعادة ويرفل في ذاك النعيم، وإذا بأمه تخرج به للنزهة ومعها الحشم والخدم إلى قرية «الشَّني» من أرض العراق، وإذا بالبلاد تتعرض لهجوم الروم، فقتلت الحُرَّاس ونهبت الأموال، وأسرت الذراري، وكان من جملة من أسرتهم (صهيب).

وبباع صهيب في أسواق الرقيق، وظل يتنقل من مكان إلى مكان، ومن خدمة سيد إلى خدمة سيد آخر إلى أن انتهى به التطواف إلى مكة المكرمة.

قيل اشتراه عبد الله بن جدعان وأعتقه.. وقيل: بل هرب صهيب من رق أسياده إلى مكة المكرمة، وحالف عبد الله بن جدعان، وظل يعمل معه في التجارة إلى أن أصبح عنده ثروة كبيرة.

حينئذ إلى الإسلام

وظل صهيب يترقب ظهور النبي ﷺ وبخاصة بعد أن سمع كاهناً من كهنة النصارى وهو يقول لسيد من أسياده: لقد أطل زمان يخرج فيه من مكة في جزيرة العرب نبي يصدق رسالة عيسى بن مريم ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فلما وصل صهيب إلى مكة واشتغل بالتجارة وامتلك ثروة كبيرة ظل قلبه يتطلع لأعظم ثروة ألا وهي نعمة الإسلام. ولم يلبث إلا قليلاً حتى سمع بمبعث النبي ﷺ فكان من المسارعين إلى الإسلام.

قصة إسلامه

* وذات يوم، سرى همسٌ في مكة أنَّ محمدَ بن عبد الله يدعو إلى دين جديد، دين يدعو إلى عبادة إله واحد، ونَبَذَ جميع الأصنام حتى اللات والعزى وهبل؛ ومضت أيام أخر، فإذا بالهمس يتعالى أكثر، وتتضح الرؤيا وتظهر معالم الدعوة إلى الإسلام جليّة، وأخذ الحق طريقه إلى نفس صهيب، فراح يتساءل: إلام يدعو محمد؟ ويأتيه الجواب من الواقع: إنه يدعو إلى التحرر من عبودية الأصنام، يدعو إلى التراحم والمساواة، إلى العدل، إلى الخروج من الظلمات إلى النور.

* وذات صباح، قبل أن تدب الحياة في مكة، وقبل أن يخرج الناس من دورهم، كان صهيب قد يَمَّم وجهه إلى دار «الأرقم بن أبي الأرقم»^(١).

مضى صهيب إلى دار الأرقم حذراً يتلفت، فلما بلغها وجد عند الباب عمار بن ياسر، وكان يعرفه من قبل، فتردد لحظة ثم دنا منه وقال: ما تريد يا عمار؟ فقال عمار: بل ما تريد أنت؟ فقال صهيب: أردت أن أدخل على هذا الرجل، فأسمع منه ما يقول. فقال عمار: وأنا أريد ذلك أيضاً. فقال صهيب: إذن ندخل معاً على بركة الله.

دخل صهيب بن سنان الرومي، وعمار بن ياسر على رسول الله ﷺ واستمعا إلى ما يقول، فأشرق نور الإيمان في صدريهما، وتسابقا في مد أيديهما إليه، وشهدا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأمضيا سحابة يومهما عنده ينهلان من هديه وينعمان بصحبته.

ولما أقبل الليل، وهدأت الحركة، خرجا من عنده تحت جُنع الظلام، وقد حمل كل منهما من النور في صدره ما يكفي لإضاءة الدنيا بأسرها^(٢).

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٥٠ - ٤٥١).

(٢) صور من حياة الصحابة (ص: ٢٠١ - ٢٠٢).

تَحْمِلُ الْأَذَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ

* بدأت الحياة عند صهيب من جديد، فقد شعر أنه وُلِدَ يوم دخل بيت الأرقم، وشهد أن لا إله إلا لله وأن محمداً رسول الله، أحس أنه وصل إلى هدفه المنشود، وسرعان ما تلاشت صور حياته الماضية وتفاهتها من ذاكرته، فقد أضحت حياته ذات عمق ومغزى، وأخذ نور الإيمان يسطع من وجهه، وكلمة التوحيد تنير له الدرب. وعندما أخذ صوت الإسلام يعلو ويرتفع، قرر المشركون محاربة الإسلام، وإيذاء جميع الداخلين به، واشتد غضب قريش حينما رأَتْ هؤلاء المستضعفين يدخلون في دين الله أفواجا، فلم يجدوا مُتنفِّساً لغيظهم إلا أن يثوروا بالضعفاء الذين أسلموا وأتبعوا محمداً ﷺ (١).

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأُمُّ سُمَيَّة، وصهيب، وبلال، والمقداد - رضى الله عنهم - فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ (٢).

فصبر صهيب على هذا الأذى راضياً بقضاء الله تعالى راغباً فيما عند الله مستعدياً هذا العذاب في سبيل الله فهو يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

ربح البيع أبا يحيى

وتأتى الهجرة المباركة ويهاجر النبي ﷺ وصاحبه، وتتوق نفس صهيب إلى الهجرة، فاعترضته قريش فضحى بماله كله من أجل أن يتركوه ليلحق بالنبي ﷺ وأبى بكر، ففاز بأعظم جائزة فقد أنزل الله فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، وقال له الحبيب ﷺ: ربح البيع

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٥١).

(٢) رواه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩) وابن عبد البر في الاستيعاب.

أبا يحيى.

وها هي قصته التي تُثليج الصدر: لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة فنشل كنيته فأخرج منها أربعين سهماً فقال: لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهماً، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلّفت بمكة قيتين فهما لكم.

ونزلت على النبي ﷺ: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع» قال: وتلا عليه الآية (١).

وعن أبي عثمان: أن صهيباً حين أراد الهجرة، قال له أهل مكة: أتيتنا صُعلوكاً حقيراً، فتغير حالك! قال: رأيتم إن تركت مالي، أمخلّون أئتم سبيلي؟ قالوا: نعم. فخلع لهم ماله. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «ربح صهيب! ربح صهيب!» (٢).

وعن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: أُرِيتُ دار هجرتكم سبخة بين ظهرائي حرة! فإما أن تكون هَجْرًا، أو يشرب.

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد كنت هممت بالخروج معه، فصددني فتیان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم بيظنه - ولم أكن شاكياً - فناموا، فذهبت، فلحقني ناسٌ منهم على بريد. فقلت لهم: أعطيكُم أواقى من ذهب وتُخلّونى؟ ففعلوا، فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب تجدوها، وخذوا من فلانة الحلتين. وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قُبَاء فلما رآني، قال: «يا أبا يحيى، ربح البيع!» ثلاثاً. فقلت: ما أخبرك إلا جبريل (٣).

وتالله إن الدنيا بكل ما فيها من زُخرف وزينة ومتاع لا تساوى أبداً قول النبي ﷺ لصهيب: ربح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى.

بَاقِيَةٌ مِنْ صَفَاتِهِ الْعِطْرَةِ

* تطالعنا كتب السيرة بوصف موجز لشخصية صهيب رضي الله عنه، فقد كان رجلاً أحمر شديد الحمرة، كثي شعر الرأس، متوسط الطول، في لسانه لُكْنَةٌ لمكثه مدة طويلة عند الروم، وكان حسن الشكل والثياب، حلو الشمائل، يحب الدعابة والمرح،

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٣/ ٣٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه.

(٢) قال الأرئوط: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٢٧-٢٢٨) ورجاله ثقات.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٧٢).

فَطَنًا حَاضِرَ الْبَدِيَّةِ.

* وكان صهيب رضى الله عنه كريم النفس سخي اليد، ولا عجب في ذلك، فهو ابن أمير، وحالف أحد الأجواد وهو «عبد الله بن جدعان» ثم علمه الإسلام الإنفاق^(١).

خُفَّةُ ظِلِّهِ

وكان صهيب - رضى الله عنه - يتمتع بخُفَّةِ الظل التي تجعل الإنسان لا يمل أبدًا من صحبته، بل يشتاق لمجالسته في كل وقت وحين.

فعن صهيب قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ قُبَاءً، وقد رَمَدْتُ في الطريق وجُعْتُ، وبين يديه رُطْبٌ، فوقعْتُ فيه. فقال عمر: يا رسول الله: ألا ترى صهيبًا يأكل الرُطْبَ وهو أَرَمَدٌ؟ فقال النبي ﷺ لى ذلك. قلت: إنما أكل على شق عيني الصحيحة. فتبسم.

وفي رواية أخرى: عن صهيب قال: قدمت على النبي ﷺ، وبين يديه خبز وتمر. فقال النبي ﷺ: «ادن فكل» فأخذت أكل من التمر، فقال النبي ﷺ: «تأكل تمرًا وبك رمد؟» قال: فقلت: إني أمضغ من ناحية أخرى، فتبسم رسول الله ﷺ^(٢).

جِهَادُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

لقد كان صهيب من كبار السابقين البدرين.

يقول صهيب عن نفسه: لم يشهد رسول الله ﷺ مشهدًا قط إلا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة إلا كنت حاضرها، ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزاة قط أول الزمان وآخره إلا كنت فيها عن يمينه أو عن شماله، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو قط حتى توفي رسول الله ﷺ^(٣).

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٥٨).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٢٨) وابن ماجه في الطب (٣٤٤٣). وقال البوصيري في الزوائد

(٢/ ٢١٣) إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٧٧).

مكائنه عند الله وعند رسوله ﷺ

* كانت مكانة صهيب تزداد في نفس الرسول ﷺ ، فقد كان دائماً بجوار النبي ، لا يتخلف عنه أبداً، ويحرصُ الحرص كله على أن ينال رضا النبي ﷺ ، وكان من السابقين إلى الإسلام؛ وكان الرسول ﷺ ينظر إلى صهيب والمستضعفين نظرة إكبار واحترام؛ فهو لاء في ميزان الإسلام أفضل من السادة الكفار^(١).

وإذا أردنا دليلاً على ذلك فما علينا إلا أن نتأمل هذا الحديث.

فمن عائذ بن عمرو، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأثنى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا. يغفر الله لك يا أخى^(٢).

مكائنه في قلوب الصحابة (رضي الله عنهم)

* توفي رسول الله ﷺ وهو راض عن صهيب، ثم جاء خليفته أبو بكر الصديق، فكان رجل الإسلام الذي أبطل الشرك وحارب المرتدين، ونصح الأمة، وعمل للإسلام وأهله، وقد عاش صهيب رضى الله عنه في كنف الصديق يؤدي ما عليه من واجبات، وكان أبو بكر رضى الله عنه يعرف لصهيب مكائنه عند رسول الله ﷺ ، وهو الحريص على احترامه واحترام المستضعفين أمثاله.

* وفي خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كانت لصهيب مكانة عظيمة، لا تقل عن المكانة ذاتها في حياة الصديق، فقد كان عمر محباً لصهيب أشد الحب، فكثيراً ما كان صهيب موضع استشارة عمر في مسائل الدين أو الغزوات، أو يكون رسوله لإنجاز بعض الأمور المتعلقة بالمسلمين^(٣).

وذاث يوم قال عمر - رضى الله عنه - لصهيب: «يا صهيب مالك تُكنى أبا يحيى

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) وأحمد (٦٤ / ٥) والنسائي في فضائل الصحابة (١٧٢).

(٣) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٦٠ - ٤٦١) بتصرف.

وليس لك ولد، وتقول: إنك من العرب وأنت رجل من الروم، وتُطعم الطعام الكثير وذلك سرف في المال؟» فقال صهيب - رضي الله عنه -: «إن رسول الله ﷺ كُنَّيَ أبا يحيى. وأما عن قولك في النسب وادعائي إلى العرب، فإنني رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل، ولكن سُبِّيت، سبَّتنِي الروم غلاماً صغيراً بعد أن عقلتُ أهلي وقومي وعرفت نسبِي. وأما قولك في الطعام وإسرافي فيه فإن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن خياركم مَنْ أَطْعَمَ الطعام ورد السلام» فذلك الذي يحملني على أن أَطْعِمَ الطعام»^(١).

* ولما طُعِنَ عمر بن الخطاب لم ينسَ قدر ومكانة صهيب حتى في تلك اللحظات العصيبة فاستناب صهيياً لكي يصلي بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام.

إنها لشهادة عظيمة من الفاروق عمر (رضي الله عنه) لصهيب، فقد كان يُقَالُ: صلى عمر على أبي بكر عندما توفي، وصلى صهيب على عمر، وبلغ من مكانة صهيب أيضاً أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَبْرِ عُمَرَ مَعَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ.

* وظلَّ صهيب رضي الله عنه يحتلُّ مكانة عظيمة في خلافة سيدنا عثمان، ينال احترام الخليفة، والمسلمين، ويبذل كل ما يملك في سبيل الله^(٢).

وَحَانَ وَقْتُ الرَّحِيلِ

* بقي صهيب رضي الله عنه يقضي حياته في الجهاد والعمل الصالح، يجاهدُ بنفسه وماله ابتغاءَ مرضاة الله إلى أنْ أَرَبَى عمره على السبعين، وحتى رأى أن الله قد أعزَّ جُنْدَهُ ونصرَ دينه، وأتمَّ نعمته على المؤمنين، فحطمت قلاع الكفر وحصون البغي في بلاد الروم وفارس، وترددت كلمة التوحيد في أركان الأرض، وشعر صهيب رضي الله عنه بالطمأنينة تستقر في أعماقه، وسرَّ بانتصارات المسلمين وعزَّتْهم^(٣).

وكان ممن اعتزل الفتنة وأقبل على شأنه.

وبعد حياة مديدة مملوءة بالتضحية والعطاء، فاضت روحه الطاهرة، ومات بالمدينة في شهر شوال سنة ثمان وثلاثين.

فرَضَى اللهُ عَنْ صَهِيبٍ وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٢٧).

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٦٣).

(٣) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٦٤).

سالم مولى أبى حذيفة

الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا

محمد رسول الله ﷺ

من السابقين الأولين البدرين المقربين العالمين.

كان غلاماً رقيقاً طيباً مباركاً وكان (لثية بنت يعار الأنصاري) وكانت ترى فيه من الخصال الطيبة ما حملها على أن تعتقه وتحرره.. فخشى زوجها (أبو حذيفة بن عتبة) على هذا الغلام الصغير من التيه والضياغ فى دروب الحياة المتشابكة فأخذه ومضى به إلى الحرم ووقف على ملا من قريش وقال لهم: اشهدوا أنى قد تبنت سالماً وقد أصبح منى بمنزلة ابنى. فأصبح الناس ينادونه بسالم بن أبى حذيفة.

ادعواهم لأبائهم

وبعد فترة يسيرة أذن الله للنور الإلهى أن ينبثق من بين أرجاء مكة لينير الكون كله بأنوار الهدى والرحمة.

لقد بعث الله محمداً ﷺ ليُخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وكان أبو حذيفة وابنه سالم من السابقين الأولين الذين شرح الله صدورهم للإسلام.

وبدأت أواصر المحبة بينهما تزداد يوماً بعد يوم، وذلك بعد أن جمع الإسلام بينهما وألقى الله المحبة الحقيقية بينهما.... قال تعالى:

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وبعد فترة يسيرة أبطل الإسلام عادة التبني وأمر الناس جميعاً أن يردوا الأبناء إلى

آبائهم، وذلك من أجل الحفاظ على الأنساب.. وفي ذلك نزل قوله تعالى:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الأحزاب: ٥].

أى انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناءً لآبائهم الأصلاء فاستجاب المسلمون لأمر الخالق - جل وعلا - ولكن أبا حذيفة أخذ يبحث طويلاً عن والد سالم فلم يجده، فأصبح الناس يطلقون على سالم (سالم مولى أبى حذيفة) وظل هذا الاسم معروفاً به إلى أن فارق الحياة.

صلة وثيقة وفراق مؤلم

وأخذ الاثنان يعبدان ربهما فى إخبات وخضوع وخشوع راجين أن يجمعهما الله تعالى فى جنته إخواناً على سرر متقابلين.

وفى غمرة هذه المحبة أراد أبو حذيفة أن يزداد قرباً وصلة بسالم - رضى الله عنهما - فزوجه من ابنة أخيه (فاطمة بنت الوليد بن عتبة) ذات الحسب والنسب.

وظلت السعادة حيناً من الدهر ترفرف فى سماء حياتهما حتى اشتد إيذاء المشركين على أصحاب النبی ﷺ مما جعل النبی ﷺ يحثهم على الهجرة إلى الحبشة فهاجر أبو حذيفة إلى الحبشة فاراً بدينه وعقيدته وإيمانه لكى تغسل شلالات الحبشة جراحاته هو وإخوانه من أصحاب الحبيب ﷺ.

أما سالم فلم يهاجر وآثر البقاء مع النبی ﷺ لياخذ منه القرآن غصاً طرياً كما أنزل وليتعلم العلم بين يدي الحبيب ﷺ.

منزلة عالية تعانق كواكب الجوزاء

وظل سالم - رضى الله عنه - على تلك الحالة ملاصقاً للنبي ﷺ يتلقى منه القرآن حتى أصبح واحداً من كبار حملة القرآن.. بل لقد بلغ منزلة عالية يعجز القلم عن وصفها.

فها هو - رضى الله عنه - يوم المهاجرين الأولين فى مسجد قباء وفيهم أبو بكر وعمر، فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: لما قدم المهاجرون الأولون العُصبة - موضع

بقباء - قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة، وكان أكثرهم قرآنًا» (١).

بل جعله النبى ﷺ واحداً من الأربعة الذين حثَّ النبى ﷺ أصحابه بأن يأخذوا القرآن عنهم.

فعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة، وأبى، ومعاذ بن جبل» (٢).

بل تدبروا معى جميعاً لهذا الوسام الذى وضعه النبى ﷺ على صدر هذا الصحابى الجليل.

فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت فقال: «أين كنت؟» قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد قالت: فقام وقمت معه حتى أستمع له ثم التفت إلى فقال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا» (٣).

بل لقد شهد له النبى ﷺ بالإيمان؛ فعن عمرو بن العاص، قال: كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبى حذيفة وهو مُحْتَبٌ بحمائل سيفه، فأخذت سيفى فاحتبيت بحمائله، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، ألا كان مفزعكم إلى الله وإلى رسوله؟» قال: «ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان؟» (٤).

(١) أخرجه البخارى (٦٩٢) - وفى الحديث فضيلة ظاهرة لسالم - رضى الله عنه - إذ قدمه كبار الصحابة من المهاجرين الأولين السابقين لإمامتهم. وقد وقع عند البخارى هذا الحديث فى الأحكام أيضاً (٧١٧٥) بلفظ: كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبى ﷺ فى مسجد قباء فيهم أبو بكر وعمر وأبو سلمة وزيد وعامر بن ربيعة، قال الحافظ فى الفتح (١٨٦ / ٢): واستشكل ذكر أبى بكر فيهم إذ فى الحديث أن ذلك كان قبل مقدم النبى ﷺ، وأبو بكر كان رفيقه، ووجهه البيهقى باحتمال أن يكون سالم المذكور استمر على الصلاة بهم فيصبح ذكر أبى بكر ولا يخفى ما فيه. وذكر الحافظ فى الفتح أيضاً (١٦٨ / ١٣) هذا الكلام بصياغة أخرى فقال: وقد تقدم الجواب عن استشكل عد أبى بكر الصديق فيهم لأنه إنما هاجر صحبة النبى ﷺ وقد وقع فى حديث ابن عمر أن ذلك كان قبل مقدم النبى ﷺ وذكرت جواب البيهقى بأنه يحتمل أن يكون سالم استمر يؤمهم بعد أن تحول النبى ﷺ إلى المدينة ونزل بدار أبى أيوب قبل بناء مسجده بها فيحتمل أن يقال فكان أبو بكر يصلى خلفه إذا جاء إلى قباء.

(٢) أخرجه البخارى (٣٨٠٦) ومسلم (٢٤٦٤) والترمذى (٣٨١٠).

(٣) رواه ابن ماجه (١٣٣٨) ورجاله ثقات - وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣٧١ / ١)، والحاكم فى المستدرک (٣ / ٢٢٥ - ٢٢٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) رواه أحمد (٢٠٣ / ٤) والنسائى فى الفضائل (١٩٦) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده صحيح.

لقاء في ميدان الشرف

وبعد غياب يلتقى (أبو حذيفة) بأخيه في الله (سالم) - رضى الله عنهما - على أرض الشرف والجهاد - في غزوة بدر - يقاتلان في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله فأثليج الله صدور المؤمنين بهذا النصر المؤزر على المشركين.

وظل أبو حذيفة وسالم - رضى الله عنهما - يجاهدان في سبيل الله - جل وعلا - مع النبي ﷺ في كل غزواته حتى توفي الحبيب ﷺ واستخلف المسلمون أبا بكر - رضى الله عنه - وخاض المسلمون حروب الردة التي كانت في قمة الشراسة والضراوة.

وحن وقت الرحيل

وفي معركة اليمامة التي كانت بين المسلمين وبين مسيلمة الكذاب قام أبو حذيفة وسالم - رضى الله عنهما - بضربان المثل في الشجاعة والإقدام والبحث عن الشهادة في سبيل الله أينما كانت.

وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة وراية الأنصار مع ثابت ابن قيس... واضطدم المسلمون والكفار.

وقاتلت بنو حنيفة (حلفاء مسيلمة الكذاب) قتالاً لم يُعهد مثله وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتاً حتى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: نخشى أن تؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذاً، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قُدماً، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فقتل شهيداً - رضى الله عنه - وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب - رضى الله عنه - (١).

وأما سالم - رضى الله عنه - فقد أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، ثم تناولها بشماله، فقُطعت. ثم اعتنق اللواء وجعل يقرأ: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٦ / ٣٢٩).

أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾ إلى أن قُتل (١).

وقبل أن تخرج روحه الشريفة وهو فى الرمق الأخير يبحث عن رفيق عمره الذى كان يتمنى من أعماق قلبه أن يجمعه الله به فى جنته كما جمعه به فى تلك الحياة على طاعته.

وإذا بالحق - جل جلاله - يجمع بينهما ويرزقهما الشهادة فى يوم اليمامة بل إن سالمًا وُجد هو ومولاه أبو حذيفة رأس أحدهما عند رجلى الآخر صريعين (٢).
ولسان حال كل واحدٍ منهما: غداً نلتقى فى الجنة إخوانًا على سررٍ متقابلين.

أمنية عمرية

وها هو الفاروق عمر - رضى الله عنه - يتمنى أمنية غالية توضح لنا مكانة سالم من قلب عمر - رضى الله عنهما -

فعن عمر - رضى الله عنه - أنه قال لأصحابه: تمنّوا. فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقهُ فى سبيل الله وأنصدق، وقال رجلٌ: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجداً وجواهرًا فأنفقهُ فى سبيل الله وأنصدق ثم قال عمر: تمنّوا فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان (٣).

فرضى الله عن سالم وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) صفة الصفوة (١/ ١٥٨).

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک (٣/ ٢٢٥) نقلاً من السير (١/ ١٦٩).

(٣) رواه الحاكم فى المستدرک (٣/ ٢٢٦) وصححه ووافقه الذهبى.

مصعب بن عمير

سفير الدعوة الأول للمدينة.. والداعية الشهيد

الفتاح الأول للمدينة والداعية الشهيد.. إنه مصعب بن عمير - رضى الله عنه...
الفائز بالآيات... المشرق بالهلات، جبل الرحمة والبركات... غاسل يثرب بالقرآن...
الوجه الفاتح للإيمان ديار الكفر... الماهد أرض رسول الله ﷺ... تبراس الدعاة وإمام
الفتاحين الفتى المنعم الذى صاغه الإسلام على يديه، تقدم حين نادت المغارم، وذهب إلى
لقاء ربه قبل مجيء الغنائم اختاره الله شهيداً بين يدي رسول الله ﷺ بعد أن أسلم على
يديه: أسيد بن حضير الذى تنزلت الملائكة لتلاوته القرآن وسعد بن معاذ الذى اهتز لموته
عرش الرحمن... مصعب غرة فتيان قريش، وأوفاهم بهاء وجمالاً وشباباً، ولؤلؤة أهل
مكة ومجالسهم وندواتهم، وبعد الإسلام صار أسطورة من أساطير الإيمان والفداء^(١).
ويا لها من دقائق ولحظات سعيدة لا تُحسب من العمر نقضيها مع السيد الشهيد
السابق البدرى القرشى العبدى (مصعب بن عمير) إنه سفير الدعوة الأول فهو أول من
دعا إلى الله فى المدينة المنورة.

لقد كان (مصعب) قبل الإسلام هو أنعم فتيان مكة، فلم يكن هناك من يلبس مثل
ثيابه ولا يضع مثل عطره حتى إنه كان إذا مر من طريق وجاء بعده أناس قالوا: لقد مر
مصعب بن عمير من هذا الطريق - مما يجدون من عطره الجميل -.

وفجأة تمر فوق رأسه سحابة الإيمان وتسقط ماءها كله عليه فيشرب منه ويغتسل
فيخالط الإيمان قلبه وجسده فى آن واحد، فإذا به يضع أقدامه على الأرض ورأسه
تناطح كواكب الجوزاء.. يمشى بكل ثقة على طريق الحق والخير إلى دار الأرقم ليعلن
للعالم كله أن الفتى المدلل (مصعب) قد أسدل عليه الستار.

ومنذ تلك اللحظة سيتحول هذا الفتى الريان المنعم إلى أسطورة عظيمة من أساطير
الدعوة والعطاء والفداء!!!

(١) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

صناعة الرجال

إنها قضية من أعظم وأجل القضايا التي يعجز عنها أى منهج علمى أو تربوى... ولكن منهج الإسلام ونور الوحي وقوة العقيدة هي التي تصنع الرجال والأبطال، وكل ذلك بتقدير الكبير المتعال.

لقد جاء الإسلام إلى أمة غارقة في أحوال الجاهلية فجاءهم الإسلام بمنهاج يحمل في طياته الهدى والنور والخير كله، فهو منهج يُنشئ الأجيال ويربى النفوس ويبني الحضارات، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فما إن يدخل الرجل في هذا الدين حتى يستشعر من اللحظة الأولى تلك الأمانة التي ألقاها الله على عاتقه.

فكان الرجل من أصحاب النبي ﷺ يحمل على كاهله أعباء الدعوة ويستعذب في سبيلها أسمى آيات الصبر والعذاب والتضحية ويواصل الليل والنهار من أجل أن ينشر الإسلام في أرجاء المعمورة... فلما أخلصوا لله - جل وعلا - فتح الله بهم القلوب والأمصار فما بين عشية وضحاها قامت للمسلمين دولة وسلطان وتأسست لهم حكومة وقيادة وأخضعوا لحكمهم الفرس والروم ودانت لهم الأمم حتى وقف هارون الرشيد يصور للعالم بسطة العالم الإسلامي فلم يجد غير أن يخاطب السحابة في كبد السماء قائلاً لها: أيتها السحابة أمطري حيث شئت، فإن خراجك سوف يأتيني إن شاء الله.

بل تأمل معي ما قاله شهيد الإسلام سيد قطب - رحمه الله - في كتابه «دراسات إسلامية» فصل انتصار محمد بن عبد الله.

(وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه - عليهم رضوان الله - صوراً حية من إيمانه، تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق... يوم صاغ من كل واحد منهم قرآناً حياً يدب على الأرض، يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام، يراه الناس فيرون الإسلام. إن النصوص وحدها لا تصنع شيئاً، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكاً.

ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يُلقي مواعظ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يُدبج خطباً، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة... أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم، وكان عمل محمد ﷺ أن يحوّل الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي، وتراهم العيون...

ولقد انتصر محمد بن عبد الله ﷺ، يوم أن صاغ من فكرة الإسلام شخصاً، وحوّل إيمانهم بالإسلام عملاً، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئآت وألوفاً، ولكنه لم يطبعها بالمداد - الحبر - على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف من القلوب. وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطي، وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله. اهـ.

ويكفي شريعة الإسلام فخراً أن يشهد لها الخصوم والأعداء بنمائها وحيويتها وخلودها.

شهد الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

ولم يأت هذا كله في غمضة عين وانتباهتها، بل جاء ببذل الدماء والأموال في سبيل الله فهؤلاء الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ الذين بلغوا المجد والعظمة بحملهم لرسالة الإسلام عقيدةً وقولاً وعملاً... فهذه هي مؤهلات النصر والتمكين: أن يتمسك المؤمن بعقيدة راسخة ويحوّل تلك العقيدة إلى واقع عملي ينظر إليه أعداء الدين على أنه جبل شامخ من القيم والأخلاقيات والمعاملات والعبادات، وبهذا يستطيع المسلم أن يحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا ومن فيها، فيجاهد ويضحى ويصبر ويبُلِّغ رسالة الإسلام^(١).

وهذا مصعب بن عمير هو واحد ممن تربوا بين يدي من ربّاه الله ليربّي به الأمم والأجيال - محمد بن عبد الله ﷺ -.

فإنه لم يكد مصعب يعلن إسلامه حتى علم أنه ألقي على كاهله أمانة عظيمة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها... فقام يدعو إلى الله على بصيرة.

(١) كتاب (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) للمصنف (ص: ٢٠ - ٢١).

يبتلى الرجل على قدر دينه

وكان مصعب - رضي الله عنه - يكتُم إسلامه في بداية الأمر خوفاً من بطش أمه، فقد كانت تتمتع بقوة عجيبة في شخصيتها تفوق الكثير من الرجال.

ولكن البلاء سُنَّة ثابتة، فلقد رآه «عثمان بن طلحة» وهو يدخل إلى دار الأرقم، ثم رآه مرة أخرى وهو يصلي، فذهب إلى أم مصعب - تسابق أقدامه الريح - وأخبرها بإسلام مصعب حتى كاد عقلها أن يطيش لهول المفاجأة التي وقعت عليها.

وهمت أمه بإيذائه - بالضرب - ولكن نور الإيمان التي كسى وجهه جعلها تتراجع عن ذلك، وتكتفى بحبسه في دارها.

وهنا نقول: إن صدق الإيمان يظهر واضحاً جلياً في الصبر على المحن والابتلاءات.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وذلك التميز لا يكون إلا في الابتلاء والامتحان الذي يفصل الصادقين عن الكاذبين. ولقد جاءت المواقف الإيمانية التي وقفها الصحابة - رضي الله عنهم - لتكون لنا كالشمس الساطعة في دنيا الحقيقة... فتعلم منها كيف يكون الإيمان الحقيقي الصادق فَنَسِيرُ على آثار خطواتهم إلى أن تكون خاتمة السعادة بمرافقتهم في جنات النعيم، فيكمل الله لنا النعمة بصحبة نبيه ﷺ ويسبغ علينا فضله ورحمته بالنظر إلى وجهه الكريم^(١).

(١) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص: ٦٢ - ٦٣).

سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا

ولكن الله دائماً وأبداً لا يُسلم أوليائه لأعدائه... فسرعان ما جاء الفرج من عند الله. فلقد استطاع مصعب - رضى الله عنه - أن يهرب من هذا الحبس وغافل أمه وحرأسه ومضى إلى بلاد الحبشة مهاجراً ليغسل جراحاته بشلالات الحبشة، ثم عاد مع من عاد من الحبشة ولم يلبث إلا قليلاً حتى هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة فاراً بدينه وإيمانه.

وكان مصعب من أنعم الناس عيشاً قبل إسلامه فلما أسلم زهد في الدنيا وترك زيتها وتفرغ للعبادة وطلب العلم.

ولقد منعه أمه من ثروتها وأبت أن ينال منها درهماً واحداً بعدما ترك عبادة الأصنام وسجد للواحد الديان.

يقول (على) - رضى الله عنه -: جئت المسجد فطلع علينا مصعب بن عمير في بُردة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأرفه ، فلما رآه رسول الله ﷺ ذكر ما كان فيه من النعيم، ورأى حاله التى هو عليها، فذرفت عيناه عليه، ثم قال: أنتم اليوم خير أم إذا غُذِيَ على أحدكم بجفنة من خبز ولحم؟ فقلنا: نحن يومئذ خير، نُكْفَى المؤنة، ونتفرغ للعبادة. فقال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ^(١).

وخرج مصعب من النعمة الوارفة التى كان يعيش فيها مؤثراً الشظف والفاقة (الفقر) وأصبح الفتى المتأنق المعطر ، لا يُرى إلا مرتدياً أخشن الثياب، يأكل يوماً، ويجوع أياماً، ولكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة، والمتألقة بنور الله، كانت قد جعلت منه إنساناً آخر يملأ الأعين جلالاً، والأنفس روعة^(٢).

سفير الدعوة الأول

ويا لها من منقبة عظيمة أن يختار الحبيب ﷺ مصعباً لأعظم وأجل مهمة في الكون، ألا وهى الدعوة إلى الله.

فبعثه النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ليكون سفير الدعوة الأول، وذلك بعد أن بايع الأنصار البيعة الأولى يفقههم ويقرؤهم القرآن، وكان يأتيهم في دورهم، فيدعوهم إلى

(١) أخرجه الترمذى (٢٤٧٨) فى صفة القيامة، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٤٦).

الإسلام فأسلم منهم خلق كثير وفشا الإسلام فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم فأذن له، فجمع بهم في دار بني خيثمة.

ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه في العقبة الثانية، فأقام بمكة قليلاً ثم قدم قبل رسول الله ﷺ المدينة فهو أول من قدمها.

وعن ابن شهاب قال: لما بايع أهل العقبة رسول الله ﷺ، ورجعوا إلى قومهم، فدعاهم إلى الإسلام سرّاً، وتلوا عليهم القرآن، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك، أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فليدع الناس بكتاب الله؛ فإنه قمن أن يتبع. فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، فلم يزل يدعو آمناً ويهدي الله تعالى الناس على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا قد أسلم أشرافهم. فأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكان المسلمون أعز أهل المدينة. فرجع مصعب إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ^(١).

هكذا هليكن الدهاة

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ (ابن خالة) أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر.

على بشر يقال لها: بشر مرق^(٢)، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفّها ضُعفاءنا، فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة منى حيث [ما] قد علمت كفتك ذلك، (هو ابن خالتي) ولا أجد عليه مقدماً، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضُعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع،

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦١).

(٢) بشر مرق: بشر بالمدينة.

فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم.. في إشرافه وتسهيله، ثم قال: ما أحسن هذا [الكلام] وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديتهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم (أسيد) بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم [قد] عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك^(١). قال: فقام سعد مُغضباً مبادراً، تخوفاً للذى ذكر [له] من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمانة، [أما والله] لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمّت هذا منى^(٢)، أتغشانا في دارينا بما نكره؟ - وقد قال أسعد بن زُرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيّد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالوا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشرافه وتسهيله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى

(١) ليخفروك: نقض عهده وخاس به وغدره وأخفر الذمة: لم يف بها.

(٢) ما رُمّت هذا منى: أى ما طمعت فيه ولا بلغت.

فيكم؟ قالوا: سيدنا [وأوصلنا] وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة^(١)؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون^(٢).

في مثل هدوء البحر وقوته، وتهلّل ضوء الفجر ووداعته، انساب نور الإيمان على يدي مصعب إلى سادات الأنصار: أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عباد... شاب يقود ويسير جبال الإيمان، ويكون في ميزان حسناته الأنصار من الأوس والخزرج^(٣).

فلله در مصعب بن عمير الداعية الذي على يديه أسلم الجبلان: سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، ولله در سعد بن معاذ، فقد كان إسلامه فتحًا على الأوس والأنصار، الداعية الذي أسلم بإسلامه قومه (الرجال والنساء). فليحسن الداعية خلقه مع أهله، وليجعل بينه وبينهم وصلًا، فوالله ما دخل بنو عبد الأشهل الإسلام بدايةً إلا حبا لسعد ميمون النقيبة حسن السيرة فيهم.

قال ابن شهاب: وكان أول من جمع الجمعة بالمدينة بالمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ^(٤) - يعني مصعب -.

وعن البراء أنه قال: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال - رضى الله عنهم»^(٥).

(١) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل. وقال ابن بزرج: اللهم نقيبة أي نفاذ رأي، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. [لسان/ نقب].

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩). وذكره ابن كثير في البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق، وقال جمال ثابت في تخريج السيرة النبوية لابن هشام: إسناده صحيح.

(٣) ترطيب الأفواه بذكر من يظلمهم الله/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٤) صفة الصفوة (١/ ١٦١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٩٢٤) وابن سعد في الطبقات (٣/ ١/ ٨٣).

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

وشهد (مصعب بن عمير) بدرًا وقَاتِل قتالاً شديداً، وبعد أن انقضت الغزوة بانتصار المسلمين... وأسر المسلمون عدداً من المشركين كان لمصعب موقفاً عظيماً في الولاء والبراء.

قال ابن إسحاق: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً».

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هشام أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، قال: فقال أبو عزيز: مرّ بي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى. فقال (مصعب): شدّ يدك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك. قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداًهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر. لو صية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها. قال: فأستحي فأردها على أحدهم. فيردها على ما يمسيها.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير (لأبي اليسر) وهو الذي أسره ما قال: قال له أبو عزيز: يا أخى هذه وصاتك بي؟! فقال له مصعب: إنه أخى دونك. فسألت أمه عن أغلى ما فدى به قرشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم. فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها^(١).

وقول مصعب - رضى الله عنه - لأبي اليسر: إنه أخى دونك؛ حقٌ وصدق، فإن الأخوة الإيمانية مقدمة على أخوة الرحم، والعلاقة الدينية مقدمة على علاقة النسب. قال الله - عز وجل - لنوح - عليه السلام - فى حق ابنه الكافر: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

ومما يدل على ذلك كذلك أن الرجل إذا مات وليس له إلا ابن كافر، فإنه لا يرثه، ويعود ماله إلى إخوانه المؤمنين، وهذا يدل على أن معانى الولاء والبراء كانت قوية عند الصحابة - رضى الله عنهم -^(٢).

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٥٤).

(٢) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص: ٤٦١).

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

ولقد حمل مصعب اللواء يوم أُحد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قمئة فضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾. وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه فضربها فقطعها، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه.

وقال ابن سعد: وقال عبد الله بن الفضل: قُتل مصعب، وأخذ اللواء ملكٌ في صورته، فجعل النبي ﷺ يقول له في آخر النهار: تقدّم يا مصعب. فالتفت إليه الملك وقال: لست بمصعب فعرف النبي ﷺ أنه ملك أيّد به (١).

قال ابن إسحاق: وقاتل مصعبُ بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قُتل، قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظنه رسول الله. فرجع إلى قريش، فقال: قتلتُ محمداً فلما قُتل مصعب، أعطى رسول الله ﷺ اللواء على بن أبي طالب، ورجالاً من المسلمين (٢).

وعن عبيد بن عمير قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من أحد مرّ على مصعب ابن عمير مقتولاً على طريقه فقرأ: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ادّخار الأجر لمصعب يوم القيامة

وبعد أن سالت دماء بطلنا على أرض الشرف والجهاد وقام الحبيب ﷺ يتفقد القتلى، فلما أشرف عليهم قال ﷺ: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنّه ما من جريح يُجرحُ في [سبيل] الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك»، «وانظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» - وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر [الواحد] (٣).

وعند جثمان مصعب سالت دموعه ﷺ.

(١) صفة الصفوة (١ / ١٦٢).

(٢) السيرة لابن هشام (٢ / ٧٣) وابن سعد (٣ / ١ / ٨٥).

(٣) رواه أحمد (٥ / ٤٣١) والنسائي (٤ / ٧٨) وقال جمال ثابت في تخريج السيرة النبوية لابن هشام: رجاله رجال الصحيح.

قال خباب بن الارت: هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه الله فوق أجرتنا على الله فمننا من مضى لم يأخذ من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قُتل يوم أحد وترك ثمرَةً فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجله بدا رأسه ولجعل على رجله شيئاً من إذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها^(١).

وظل أصحاب الحبيب ﷺ يذكرون مصعباً في كل وقت ولم يغب وجهه عنهم لحظة واحدة.

فهذا عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - أتى بطعام - وكان صائماً - فقال قُتل مصعب بن عمير - وهو خير منى - كُفِّنَ في بُرْدَةٍ إن غُطِّيَ رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّيَ رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقُتِلَ حمزة - وهو خير منى - ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ أو قال أُعْطِينَا من الدنيا ما أُعْطِينَا - وقد خَشِينَا أن تكون حسناتنا عُجِّلَتْ لنا - ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام^(٢).

ولا أملك عند وداع هذا البطل إلا أن أقول:

رضى الله عن مصعب وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) أخرجه البخارى (٣٨٩٧) ومسلم (٩٤٠).

(٢) أخرجه البخارى (١٢٧٥).

زيد بن ثابت

كاتب الوحي... وجامع القرآن

إن كل جهد - مادي أو أدبي، نفسي أو بدني - يبذله المؤمن في سبيل الله - مهما يبلغ من ضالة حجمه فهو محسوب له في «رصيد» حسناته عند الله، لا يضيع منه مثقال ذرة، حتى الخطوة التي تمشيها قدمه، وحتى الفلس يُتَفَقَّه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْحِطًا يَقِظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢١].

فلا عجب أن نرى ديناً كالإسلام يُقدِّم لنا - في مرحلة قوته وازدهاره - نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهاد، وبأعداد هائلة، تُقدِّم ما تملك من نفس ومال في سبيل الله وهي قريرة العين^(١).

وها نحن على موعدٍ مع رجل عظيم من هذا الصنف الكريم.

إنني عندما بدأت في كتابة تلك السطور عن هذا الصحابي الجليل أحسست كأني أقف أمام جبلٍ عظيم قد امتلأ بالحسنات والدرجات حتى ملأ ما بين السماوات والأرض.

ولمَ لا؟ وما من مسلم يفتح المصحف ويقرأ سورة أو آية من كتاب الله إلا وكان ذلك في ميزان حسنات هذا الصحابي الجليل، فهو كاتب الوحي للنبي ﷺ، وهو جامع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان (رضي الله عنهم جميعاً).

إنه زيد بن ثابت - رضي الله عنه - الإمام الكبير، شيخ المقرئين، والفرضيين، مفتي

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوي - ط. مكتبة وهبة.

المدينة، وكان من حملة الحُجَّة، وكان عمر بن الخطاب يستخلفه إذا حج على المدينة. وهو الذى تولى قسمة الغنائم يوم اليرموك. وقد قُتل أبوه قبل الهجرة يوم بُعث، فربى زيدٌ يتيماً. وكان أحد الأذكىاء. فلما هاجر النبى ﷺ أسلم زيد وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وفى غزوة بدر أراد هذا الفتى الصغير أن ينال شرف الجهاد والشهادة فى سبيل الله.. فأقبل على النبى ﷺ وقال: جُعِلت فداك يا رسول الله ائذن لى أن أكون معك وأجاهد أعداء الله تحت رايتك. فنظر إليه الرسول ﷺ نظرة سرور وإعجاب وطيب خاطره وردّه لصغر سنه.

فعاد الغلام حزيناً وأمه أكثر حزناً منه، فهى التى كانت تتمنى أن ترى ولدها الصغير مجاهداً فى سبيل الله.

المسلم لا بد أن يعلم ماذا يصنع لتصوره دينه

وما إن ردَّ النبى ﷺ زيداً حتى وقف مع نفسه وقفة صدق ينظر ويتأمل فى مواهبه وإمكاناته وكيف يستخدمها لنصرة الإسلام.. وإذا به يرى أن الله تعالى قد امتنَّ عليه بنعمة الحفظ الجيد والذاكرة المتوقدة ومحبة العلم والإقبال على طلبه.

فأخبر أمه برغبته الشديدة فى طلب العلم، وقامت هى بدورها لتخبر قومها برغبة ابنها، فقام رجال من قومه وأقبلوا به على رسول الله ﷺ.

فعن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال: أتى بى النبى ﷺ مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بنى النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة... فقرأت على رسول الله ﷺ؛ فأعجبه ذلك، وقال: «يا زيد! تعلَّم لى كتاب يهود؛ فإنى والله ما آمنهم على كتابى».

قال: فتعلمته. فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته - أتقته - وكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب إليهم^(١).

وقال زيد: قال لى رسول الله ﷺ: «أتُحسن السريانية؟» قلت: لا. قال: «فتعلمها». فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً^(٢).

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٠) وقال الأرئوط: وإسناده حسن.

(٢) قال الأرئوط: أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢) والحاكم (٣/ ٤٢٢) وإسناده صحيح.

وعن زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود قال: «إني والله ما آمن يهود على كتاب» قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم^(١).

كاتب الوحي

وبعد فترة يسيرة رأى النبي ﷺ من زيد بن ثابت - رضى الله عنه - الخير الكثير من دقته وإتقانه في الحفظ والكتابة وأمانته في النقل، وفهمه للنصوص، فكلفه بأعظم مهمة وُجدت في هذا الكون كله - ألا وهي كتابة الوحي الذي ينزل على رسول الله ﷺ - ويا له من شرف يعجز القلم عن وصفه.

إنها ثقة عظيمة وضعها النبي ﷺ في زيد - رضى الله عنه -.

فكان زيد يتلقى القرآن من فم الصادق المصدوق ﷺ غصاً طرياً وهو يتعاش مع كل آية وسبب نزولها، بل ومكان نزولها.

فأشرقت نفسه واستنار عقله وهو يلامس ويباشر أنوار القرآن عن قريب، بل ويزداد قرباً في كل يوم من الحبيب ﷺ. فيا لها من عيشة ما أجملها. ويا لها من لحظات ما أعذبها، ويا لها من مهمة مباركة ما أطيبها.

فلقد أصبح زيد - رضى الله عنه - هو المرجع الأول للقرآن في أمة الحبيب ﷺ.

موقفه الخالد يوم السقيفة

وظل زيد - رضى الله عنه - ملازماً للحبيب ﷺ يكتب له الوحي حتى توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

وفي يوم السقيفة حينما اجتمع المهاجرون والأنصار لاختيار خليفة المسلمين كادت أن تحدث فتنة عظيمة بينهم. وهنا جاء دور القرآن وحَمَلَة القرآن... بل لقد جاء دور كاتب الوحي الذي استنار بنوره حتى إنه ليهتدى - بإذن الله - إلى أصوب رأي في تلك المواقف التي يحار فيها أولوا الألباب.

عن أبي سعيد، قال: لما تُوفي رسول الله، قام خطباء الأنصار، فتكلموا، وقالوا: رجلٌ

(١) رواه الترمذى (٢٧١٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح..

منا، ورجلٌ منكم. فقام زيدُ بن ثابت، فقال: إنَّ رسول الله كان من المهاجرين ونحنُ أنصاره؛ وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره.

فقال أبو بكر: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، لو قلتم غير هذا ما صالحناكم^(١).

وبهذا الموقف وُدت نار الفتنة في مهدها ولله الحمد.

جمع القرآن في عهد أبي بكر - رضي الله عنه -

وفي أثناء حروب الردة - وعلى وجه الخصوص في معركة اليمامة - قُتل عددٌ كبير من حفظة القرآن، فكان لابد من جمع القرآن خوفاً من ضياعه.. وكان في مقدمة الأبطال الذين نالوا شرف هذه المهمة التاريخية - زيد بن ثابت - رضي الله عنه -.

فعن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - أنه قال: أرسل إلى أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة - أي عقب مقتل أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده... قال أبو بكر - رضي الله عنه -: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنني أخشى إن استحرَّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن.. قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه.. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فتبعت القرآن أجمعه من العسب والخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدُها مع أحد غيره: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾ حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٢) والطبراني (٤٧٨٥) وقال الذهبي: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في المجمع

(٦/ ١٨٣) رجاله رجال الصحيح.

عمر - رضى الله عنه - (١).

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة، كلهم من الأنصار، أبيّ، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد (٢).

وقد غدا زيد بن ثابت بفضل القرآن وتفقهه فيه وطول ملازمته لرسول الله ﷺ منارةً للمسلمين... يستشيرهم خلفاؤهم فى العضلات، ويستفتيهم عامتهم فى المشكلات، ويرجعون إليه فى الموارث خاصة؛ إذ لم يكن بين المسلمين - إذ ذاك - من هو أعلم منه بأحكامها وأحذق منه فى قسمتها؛ فقد خطب عمر - رضوان الله عليه - فى المسلمين يوم «الجابية» (٣) فقال:

أيها الناس؛ من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت زيد بن ثابت...

ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل...

ومن أراد أن يسأل عن المال فليأت إلى، فإن الله - عز وجل - جعلنى عليه والياً، وله قاسماً (٤).

مهمته الخالدة فى كتابة المصحف العثمانى

وكما وقف زيد - رضى الله عنه - هذا الموقف الخالد فى جمع القرآن فى عهد أبى بكر - رضى الله عنه - كان له دور عظيم فى كتابة المصحف فى عهد عثمان - رضى الله عنه - وذلك لجمع المسلمين على مصحف واحد خوفاً عليهم من الفرقة والاختلاف.

فعن أنس بن مالك - رضى الله عنه -: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالمصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها

(١) أخرجه البخارى (٤٩٨٦) فضائل القرآن - باب جمع القرآن / وأحمد (١٨٨ / ٥).

(٢) أخرجه البخارى (٤٦ / ٩) فضائل القرآن - باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ.

(٣) الجابية: قرية غربي دمشق اجتمع فيها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - مع الصحابة للتداول فى شئون الفتح، وخطب فيها خطبته المشهورة فسمى ذلك اليوم بيوم الجابية.

(٤) صور من حياة الصحابة (ص ٣٦٧).

إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق^(١).

علمه - رضى الله عنه - ومكانته في قلوب الصحابة - رضى الله عنهم -

عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «أفرض أمتي زيد بن ثابت»^(٢).

أى أعلمهم بعلم المواريث.

وقال جعفر بن برقان: سمعتُ الزهري يقول: لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض، لرأيتُ أنها ستذهبُ من الناس^(٣).

وعن حميد بن الأسود قال: قال مالك: كان إمام الناس عندنا بعد عمر زيد بن ثابت، وكان إمام الناس عندنا بعد زيد ابن عمر^(٤).

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: الناس على قراءة زيد، وعلى فرض زيد.

وعن الشعبي، قال: القضاة أربعة: عمر، وعليّ، وزيد، وابن مسعود^(٥).

وعن مسروق، قال: كان أصحاب الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ: عمر، وعليّ، وابن مسعود، وزيد، وأبى، وأبو موسى^(٦).

وعن ابن عباس، قال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن زيد بن ثابت، من الراسخين في العلم^(٧).

(١) أخرجه البخارى (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -

(٢) رواه أحمد والترمذى والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥) ..

(٣) تاريخ الفسوى (١ / ٤٨٦).

(٤) تاريخ الفسوى (١ / ٤٨٦ و ٢ / ٢٦٥، ٢٦٦).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٥ / ٤٥٠).

(٦) تاريخ الفسوى (١ / ٤٨١) - وتهذيب ابن عساكر (٥ / ٤٤٩). وقال الأرنؤوط: وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٧) تهذيب ابن عساكر (٥ / ٤٥١) ونسبه الحافظ فى الإصابة (٤ / ٤٣) إلى البغوى. وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

ولقد علم طلاب العلم من الصحابة والتابعين لزيد بن ثابت قدره ومنزلته، فكانوا يحملون له في قلوبهم كل محبة وتقدير وإجلال لمكانته العظيمة في العلم. فهذا هو ترجمان القرآن وبحر العلم (عبد الله بن عباس) يعرف لزيد بن ثابت قدره ومنزلته السامية.

فعن أبي سلمة، أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت. فأخذ له بركابه، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ ! فقال: إنا هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا^(١). ولقد كان زيد - رضى الله عنه - مع انشغاله في طلب العلم وتبليغه - يملأ بيته فرحاً وسعادة وسروراً.

فعن ثابت بن عبيد قال: كان زيد بن ثابت من أفكه الناس في أهله. وهكذا يجب على الداعية الذي ينشغل عن أهل بيته بالدعوة ومدارسة العلم أن يكون مصدر الفرح والسرور والسعادة لأهل بيته وأولاده.

وحيان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مباركة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية.. ساق الله فيها على يدي (زيد بن ثابت) الخير الكثير لنفسه وللأمة الإسلامية.. نام زيد - رضى الله عنه - على فراش الموت.

ولما مات - رضى الله عنه - قال أبو هريرة - رضى الله عنه -: مات حبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً.

وعن عمار بن أبي عمار قال: لما مات زيد بن ثابت قعدنا إلى ابن عباس في ظل القصر فقال: هكذا ذهاب العلم، لقد دفن اليوم علم كثير^(٢).

ورحل بطلنا عن هذه الدنيا.. وها نحن كلما قرأنا سورة أو آية من كتاب الله لا نستطيع أن ننسى أبداً من كتب هذا القرآن ومن جمعه.

فرضى الله عن (زيد) وجزاه الله خيراً الجزاء عن كل مسلم قرأ القرآن

من لدن محمد بن عبد الله ﷺ، والله أن يرث الله الأرض ومن عليها

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٠) وصححه الحاكم (٣/ ٤٢٣) وأقره الذهبي.

(٢) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٦١) والحاكم (٣/ ٤٢٨) ورجاله ثقات.

أنس بن مالك

اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه

محمد رسول الله ﷺ

إنه مما لا شك فيه أنه ما من مسلم في هذه الحياة الدنيا إلا ويتمنى أن لو عاش في عصر النبوة ورأى النبي محمداً ﷺ فتلك مكرمة لا تدانيها كل المكارم، فإن الصحابة الذين كانوا معه ﷺ تعلموا على يديه الخير الكثير، وكان أحدهم إذا أخطأ يجد الموجه الأول ﷺ يصلح له مساره ويبين له طريقه، بل كان النبي يبشر هذا بالجنة، وذاك بمحبة الله، وهذا بدخول الجنة بغير حساب، فكان الخير واضحاً، والشر كذلك، أما الآن فقد اختلطت الأوراق وأصبح الرجل الصالح في ظل هذه الغربة يشك حتى في نفسه، بل ويظن أحياناً من كثرة الفساد من حوله أنه ربما يكون مخطئاً فما إن يفتح كتاب الله وسنة رسول الله ويقرأ فيهما حتى يدرك، بل ويوقن أنه على الجادة وعلى طريق الحق. فإذا كان الأمر كذلك فكيف بمن عاش مع النبي ﷺ وتلقى الكلام مباشرة من فم الحبيب ﷺ (١).

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع عَلمٍ من أعلام الصحابة - رضى الله عنهم - لم يكن ملازماً للحبيب ﷺ فحسب، بل كان من المقربين إليه وعاش في خدمته عشر سنوات كانت هي أزهى وأجمل وأبهى سنوات عمره على الإطلاق.

ولمَ لا؟ وهو الذي يرى الحبيب ويتلقى العلم والأدب والنصائح الغالية بين يديه في كل لحظة... في الوقت الذي يتمنى فيه أحدنا أن لو كان رأى النبي ﷺ مرة واحدة - لا أقول في اللحظة بل في المنام -

فيا ترى من هو هذا العَلم؟

إنه الصحابي الجليل أنس بن مالك - رضى الله عنه -.

(١) «وأنذرهم يوم الحسرة» (ص: ٢٢) للمصنف - ط. مكتبة السنة.

الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجاري المدني، خادم رسول الله ﷺ، وقربته من النساء، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتاً.

روى عن النبي ﷺ علماً جمّاً. وعن أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاذ، وأسيد بن الحضير، وأبي طلحة، وأمه أم سليم بنت ملحان، وخالته أم حرام^(١).

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

لقد كان (أنس) طفلاً صغيراً، وكانت أمه هي (أم سليم) - الغميصاء - التي أسلمت لله - جل وعلا - وكان زوجها (مالك) - والد أنس - ما زال على دينه وكان يريد منها أن تترك دينها وتبقى على دين الآباء.

وفي يوم من الأيام خرج الرجل مغضباً فلقبه عدوً فقتله.. فنشأ (أنس) يتيماً منذ تلك اللحظة.

ولكن أمه (أم سليم) كانت امرأة مؤمنة راجحة العقل لم يشعر معها لحظة واحدة بمرارة اليتيم.

وكانت (أم سليم) تلقنه الشهادتين وتعلمه، بل وتغرس في قلبه محبة الله - جل وعلا - ومحبة رسوله ﷺ قبل أن يراه، فأصبح (أنس) في أشد شوقه لرؤية الحبيب ﷺ، بل لقد تمنى أن لو كان كبيراً لسافر إليه ليراه ويلازمه.

وما هي إلا فترة يسيرة حتى أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

وما إن علم (أنس) وكل من في (يثرب) - المدينة - هذه البشري العظيمة حتى امتلأت قلوبهم فرحاً وسعادة وسروراً بمقدم الحبيب ﷺ.

فكانوا يخرجون في كل يوم لاستقباله فإذا حان وقت الغروب كانوا يعودون والحزن يملأ قلوبهم.

وفي اليوم الموعود وصل إلى مسامعهم بأن الحبيب ﷺ على مشارف المدينة، فامتلات شوارع المدينة كلها بالرجال والنساء والأطفال... الكل يريد أن يرى خير مخلوق عرفته البشرية كلها ﷺ.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٩٦).

فلو اجتمعت أعياد الكون كله في تلك اللحظة ما كانت تساوي جزءاً من ألف جزءٍ من فرحة المسلمين بقدوم المصطفى ﷺ .

أنس - رضي الله عنه - يتشرف بخدمة الحبيب ﷺ

وما إن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة حتى جاءته (أم سليم) - رضي الله عنها - ومعه (أنس) - رضي الله عنه - فقالت له: يا رسول الله ﷺ ، هذا أنس ابني أبتك به يخدمك، فادع الله له. فقال: «اللهم أكثر ماله وولده». (قال أنس) فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي يتعادون على نحو من مئة اليوم^(١).

وكان أنس يقول: قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابنُ عشر، ومات وأنا ابنُ عشرين. وكُنْ أمهاتِي يَحْتَشِنِي على خدمة رسول الله ﷺ^(٢).

وظل (أنس) - رضي الله عنه - ملازماً للحبيب ﷺ وهو في سعادة يعجز القلم عن وصفها.

ولقد أحب النبي ﷺ حباً ملك عليه لُبّه وفؤاده وجوارحه.

قال أنس: «ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ ولا شممت ريحاً قط - أو عرقاً قط - أطيب من ريح - أو عرف - النبي ﷺ»^(٣).

ومن خلال ملازمته للحبيب ﷺ تعلّم الكثير والكثير من سنة الحبيب ﷺ ومن هديه وأخلاقه النبيلة وشمائله المباركة مما جعله من أكثر الصحابة علماً بحديث النبي ﷺ ، بل ومن أكثرهم تشبهاً بالنبي ﷺ في صلاته وعبادته وأخلاقه.

المرء مع من أحب

ولقد رأى (أنس) من النبي ﷺ ومن أخلاقه العذبة ما لم يره غيره حتى إنه كان لا يصدق نفسه أحياناً... ولسان حاله: هل هناك رجلٌ في هذا الكون كله بهذا الخلق الرفيع!!!

لقد كان النبي ﷺ مُحَلِّى بصفات الكمال المنقطعة النظير، وأدبُه ربه فأحسن تأديبه،

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨١) (١٤٣) فضائل الصحابة - باب من فضائل أنس بن مالك.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٩) (١٢٥) وابن سعد (٢٠ / ٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤ / ٦) المناقب.

حتى خاطبه مُثْنِيًا عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحبَّه إلى القلوب وصيرَه قَائِدًا تهوى إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا في دين الله أفواجًا^(١).

ولقد كان أنس - رضي الله عنه - يصف للناس الكثير والكثير من أخلاق الحبيب

ﷺ

فعن أنس - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - قال أحسبه فطيماً - وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير» لتُغرَّ كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلى بنا»^(٢).

وعنه - رضي الله عنه - قال: «والله! لقد خدمته تسع سنين. ما علمته قال لشيء صنعته. لم فعلت كذا وكذا؟ أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا»^(٣).

وعنه - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ فخرجت حتى أمرُّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «يا أنيس! أذهبت حيث أمرتك؟» قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله»^(٤).

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم ير مقدمًا ركبته بين يدي جليس له»^(٥).

وعن أنس - رضي الله عنه - أيضًا قال: «كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتلق به حيث شاءت»^(٦).

(١) الرحيق المختوم / للمباركفوري (ص ٥٣٧) ط. قرطبة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٣) الأدب - ومسلم (٢١٥٠) الأدب.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٠٩) الفضائل - باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا.

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٠) الفضائل - باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا.

(٥) رواه أبو داود (٤٧٩٤) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٧٢) في الأدب - باب الكبير.

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. قال: فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا. فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة»^(١). أى الفقر.

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: دخل علينا النبي ﷺ فقال (أى نام للقليلة) عندنا، فغرق وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلى العرق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: «يا أم سليم! ما هذا الذى تصنعين؟» قالت: هذا عرقك نجعله فى طيبنا وهو من أطيب الطيب^(٢) أى تضع عرقه فى العطر.

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس من قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت - وفى رواية: وقد استبرأ الخبر - وهو على فرس لأبى طلحة عري^(٣) فى عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا، قال: وجدناه بحرأ - أو إنه لبحر - قال: وكان فرساً يبطأ»^(٤). أى يعرف بالبطء والعجز وسوء السير.

ومن هنا اشتاق أنس - رضى الله عنه - لمرافقة النبي ﷺ فى الجنة كما رافقه فى الدنيا وكانت مرافقته للنبي ﷺ هى جنة الدنيا.

فعن أنس - رضى الله عنه - أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت» فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»^(٥).

فصحب أنس نبيه ﷺ أتم الصحبة، ولازمه أكمل الملازمة منذ هاجر، وإلى أن مات، وغزا معه غير مرة، وباع تحت الشجرة^(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢) الفضائل - باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١) الفضائل - باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به.

(٣) الفرس العري: أى ليس عليه سرج ولا أداة.

(٤) أخرجه البخارى (٢٩٠٨) الجهاد والسير - ومسلم (٢٣٠٧) الأدب.

(٥) متفق عليه عن أنس - صحيح الجامع (٦٦٨٩).

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٩٧).

حفظه لسرا النبي ﷺ

عن ثابت عن أنس، قال: أتى علي رسول الله ﷺ وأنا أَلْعَبُ مع الغلمان. قال: فسَلِّمْ علينا. فبعثني إلى حاجة. فأبطأتُ على أُمِّي. فلما جئتُ قالت: ما حبَّسَكَ؟ قلتُ: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالت: ما حاجته؟ قلتُ: إنها سرٌّ. قالت: لا تُحدِّثَنَّ بِسرِّ رسول الله ﷺ أحداً.

قال أنس: والله لو حدَّثْتُ به أحداً لحدَّثْتُكَ يا ثابت! (١)

وفى رواية عن أنس بن مالك قال: أسرَّ إلى نبيِّ الله ﷺ سرّاً. فما أخبرتُ به أحداً بعدُ. ولقد سألتني عنه أمُّ سليم - أمه - فما أخبرتُها به (٢).

الفوز بدعاء النبي ﷺ له

وها هو أنس - رضى الله عنه - يفوز بدعاء النبي ﷺ له.

عن أنس، قال: دَعَا لِي رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته»، فآله أكثر مالى حتى إنَّ كرمًا لى - شجرة - لتحملُ فى السَّنة مرتين، ووُلْدٌ لصلبى مئة وستة (٣).

وعن أنس أن النبي ﷺ دخل على أمِّ سليم، فأنته بتمر وسمن، فقال: «أعيدوا تمركم فى وعائكم، وسمنكم فى سقائكم، فإنى صائم» ثم قام فى ناحية البيت، فصلَّى بنا صلاة غير مكتوبة، فدعا لأمِّ سليم وأهل بيتها، فقالت: يا رسول الله! إنَّ لى خُوَيْصَةً. قال: «وما هى؟» قالت: خادمك أنس. فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لى به، ثم قال: «اللهم ارزقه مالا وولداً، وبارك له فيه». قال: فإنى لمن أكثر الأنصار مالا، وحدثنى أمينة ابنتى: أنه دُفِنَ من صلبى إلى مقدَّم (الحجاج) البصرة تسعة وعشرون ومئة (٤).

وعن أنس قال: دخل النبي ﷺ علينا، وما هو إلا أنا وأُمِّي وأم حرام خالتي فقال:

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) (١٤٥) فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) (١٤٦) فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه ابن عساكر (٣/ ٨٠ ب) وأخرجه بنحوه البخارى فى الأدب المفرد (٦٥٣)، وابن سعد (٧/ ١٩)

من طريقين عن سنان بن ربيعة، عن أنس... قال الأرناؤوط: وسنده حسن.

(٤) أخرجه البخارى (٤/ ١٩٨، ١٩٩) فى الصوم: باب من زار قومًا فلم يفطر عندهم.

قوموا فلاصلى بكم (فى غير وقت صلاة) فصلى بنا فقال رجل لثابت: أين جعل أنساً منه؟ قال: جعله عن يمينه. ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير من خير الدنيا والآخرة فقالت أمى: يا رسول الله! خويدمك أنس ادع الله له. قال: فدعا لى بكل خير، وكان فى آخر ما دعا لى به أن قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه»^(١).

حزنه لصراق الحبيب ﷺ

وبعد عشر سنوات قضائها أنس - رضى الله عنه - فى خدمة الحبيب ﷺ رحل الحبيب إلى الرفيق الأعلى فحزن أنس عليه أشد الحزن حتى إنه أحس أن الكون كله قد تغير لموت النبى ﷺ وأن الدنيا قد أظلمت من حوله.

عن أنس قال: لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»^(٢).

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء، وما نفضنا عن النبى ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»^(٣).

قال الخافظ ابن رجب - رحمه الله -: لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهِش فحولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية، وقال: إنما بُعث إليه^(٤).

ولا شك أن موت النبى ﷺ من أعظم المصائب؛ لأن بموته انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد العرب عن الدين، فهو أول انقطاع عرى الدين ونقصانه، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد وغير ذلك من الأمور التى لا أحصيتها.

(١) أخرجه مسلم (٦٦٠) عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -.

(٢) رواه البخارى (٧/ ٧٥٥) المغازى - وابن ماجه (١٦٣٠) الجنائز.

(٣) رواه الترمذى (١٣/ ١٠٤) المناقب - وصححه الألبانى فى مختصر الشمائل.

(٤) لطائف المعارف (١١٣ - ١١٤) باختصار.

قال ﷺ : «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبتة بي، فإنها من أعظم المصائب» (١).

فاصبر لكل مصيبة وتجلد	واعلم بأن المرء غير مخلد
واصبر كما صبر الكرام فإنها	نوب تنوب اليوم تكشف في غد
أو ما ترى أن المصائب جمة	وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة	هذا سبيلٌ لست عنه بأوحد
فإذا ذكرت مصيبة ومصابها	فاذكر مصابك بالنبي محمد

وعلى الرغم من ذلك فإن النبي ﷺ بينا بشريعته الحية التي من سار عليها فلن يضل أبداً، فقد قال ﷺ : «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض» (٢).

وقد أخبر النبي ﷺ عن الأجر العظيم لمن تمسك بدينه في زمان الفتن، فقال ﷺ : «يأتى على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر» (٣).

وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى

عاش أنس بن مالك بعد وفاة الرسول - عليه الصلاة والسلام - نيفاً (٤) وثمانين عاماً؛ ملأ خلالها الصدور علماً من علم الرسول الأعظم ﷺ ، وأترع (٥) فيها العقول فقهاً من فقه النبوة...

وأحيا فيها القلوب بما بثه بين الصحابة والتابعين من هدى النبي ﷺ ، وما أذاعه في الناس من شريف أقوال الرسول الأعظم ﷺ وجميل أفعاله.

وقد غدا أنس على طول هذا العمر المديد مرجعاً للمسلمين، يفرعون إليه، كلما أشكل عليهم أمرٌ، ويعوكون (٦) عليه كلما استغلق (٧) على أفهامهم حكمٌ.

(١) رواه البيهقي عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٧).

(٢) رواه الحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).

(٣) رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٠٢).

(٤) نيفاً: زيادة على.

(٥) أترع: ملأ.

(٦) يعوكون: يعتمدون.

(٧) استغلق: أشكل عليهم وغمض.

ولقد ظل أنس بن مالك يعيش مع ذكرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ما امتدت به الحياة...

فكان شديد البهجة بيوم لقائه، سَخِيَّ الدمعة على يوم فراقه، كثير التردد لكلامه... حريصاً على متابعتها في أفعاله وأقواله، يُحِبُّ ما أحب، ويكره ما كره، وكان أكثر ما يذكره من أيامه يومان: يوم لقائه معه أول مرة، ويوم مفارقتة له آخر مرة. فإذا ذكر اليوم الأول سعد به وانتشى^(١)، وإذا خطر له اليوم الثاني انتحب وبكى، وأبكى من حوله من الناس.

وكثيراً ما كان يقول: لقد رأيت النبي عليه الصلاة والسلام يوم دخل علينا، ورأيت يوم قبض منا، فلم أر يومين يُشبهانهما^(٢).

عبادته - رضى الله عنه -

قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سليم، - يعنى أنساً^(٣).

وقال أنس بن سيرين: كان أنس بن مالك أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر^(٤). وعن ثُمَامَة، قال: كان أنس يُصَلِّي حتى تَفْطَر قدماه دماً، مما يطيل القيام - رضى الله عنه -^(٥).

وقال سليمان التيمي: سمعت أنساً يقول: ما بقى أحدٌ صَلَّى القبليتين غيري^(٦). وعن ثابت قال: كان أنس بن مالك إذا ختم القرآن جمع ولده وأهل بيته فدعا لهم^(٧).

(١) انتشى: كأنه شَمَّ رائحة طيبة.

(٢) صور من حياة الصحابة (ص ١٣ : ١٤).

(٣) قال الأرنبوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد - وهو عند ابن عساكر (٣ / ٨٤ ب).

(٤) ابن عساكر (٣ / ٨٤ ب) نقلاً من السير للذهبي (٣ / ٤٠٠).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣ / ٤٠٠).

(٦) أخرجه البخاري (٨ / ١٣١) تفسير سورة البقرة - وابن سعد (٧ / ٢٠).

(٧) صفة الصفوة (١ / ٣٠٤).

كرامة ثابتة

عن ثابت البناني قال: جاء قَيْمُ أرضِ أنس، فقال: عطشت أرضوك؛ فتردّي أنس، ثم خرج إلى البرية، ثم صلّى، ودعا، فثارت سحابة، وغشيت أرضه ومطرت، حتى ملأت صهريجه، وذلك في الصيف، فأرسل بعض أهله، فقال: انظر أين بلغت؟ فإذا هي لم تعد أرضه إلا يسيراً^(١).

قال الإمام الذهبي - رحمه الله -: قلت: هذه كرامة بيّنة ثبتت بإسنادين^(٢).

أنس - رضي الله عنه - يرى النبي ﷺ كل ليلة في منامه

قال المثنى بن سعيد: سمعت أنساً يقول: ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي. ثم يبكي^(٣).

الله أكبر!!! قاله إننا لنشتاق إلى رؤية الحبيب ﷺ ولو مرة واحدة... وأنس - رضي الله عنه - يراه كل ليلة في منامه.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالسعادة والسرور لصحبته للحبيب ﷺ... وبالتضحية والبذل والعطاء - لرجائه فيما عند الله - نام أنس بن مالك - رضي الله عنه - على فراش الموت ليلحق بالحبيب ﷺ بعد أن ملأ الدنيا كلها بحديث رسول الله ﷺ.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.. وجمعنا الله به وبالحبيب ﷺ في جنته ومستقر رحمته.

فرضي الله عن أنس وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) ابن عساكر (٣/ ٨٥) نقلاً من السير للذهبي (٣/ ٤٠٠).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٠١).

(٣) قال الأرئوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٧/ ٢٠).

خَبَابُ بَنِ الْأَرْتِ

رَحِمَ اللَّهُ خَبَابًا فَلَقْدَ أَسْلَمَ رَاغِبًا وَهَاجِرَ طَائِعًا وَعَاشَ مُجَاهِدًا

عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

بينما كان هذا الصبي الذكي المبارك (خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ) يعيش بين أهله وأحبابه من قبيلة (بنى تميم) إذ أغارت قبيلة أخرى على قبيلته فسبت النساء واستاقت الأنعام وأخذت الذراري وكان هو من بينهم.

وظل (خَبَابُ) تتداوله الأيدي حتى وصل إلى مكة فاشترته (أم أنمار الخزاعية) من سوق النخاسين بعد أن رأت فيه ما يغريها على شرائه من صحة البدن وعلامات الذكاء والفطنة. ومضت به إلى بيتها، ثم دفعته بعد ذلك إلى قَيْنٍ - حدّاد - ليتعلم منه فن صناعة السيوف.

وبالفعل لم تمض سوى فترة يسيرة حتى أتقن الغلام فن صناعة السيوف، بل وصار بارعاً في صناعتها فاستأجرت له «أم أنمار» دُكَّانًا ليتولى هو بنفسه صناعة السيوف ولتربح من ورائه الكثير والكثير.

وكان الناس تزدد ثقتهم به يوماً بعد يوم مما يرون من براعته في صناعة السيوف، بل ومن صدقه وأمانته وأخلاقه الطيبة وبسمته التي لا تفارق وجهه.

السُّورُ يُشَقُّ ظِلَامُ الْجَاهِلِيَّةِ

وظل خباب على تلك الحالة وهو يفكر ليلاً ونهاراً ويقول في نفسه: كيف الخلاص من تلك الجاهلية التي يعيشها الناس في تلك المجتمعات... والتي كان هو ضحية من ضحاياها - ؟.

وإذا بالنور يأتي ليشقَّ ظلام الجاهلية.. فيسمع خَبَابُ من الناس من حوله أن هناك فتى يزعم أنه نبي، وأن الله أرسله إليهم.. فأحسَّ خَبَابُ أن الله أحياء في تلك اللحظة بهذا الخبر العظيم.

وفى التو واللحظة ترك دُكانه ومضى إلى النبی ﷺ وأقدامه تسابق الريح.

إنه يبحث عن خيط، بل عن زورق النجاة فى بحار الفتن، وما هو زورق النجاة جاء قريباً منه وما عليه إلا أن يمسك بطرف الخيط ليركب هذا الزورق الذى فيه النجاة.

وما إن رأى الحبيب ﷺ حتى دمعت عيناه وبسط يده ونطق الشهادتين، فكان سادس ستة أسلموا فى هذا الكون كله لله - جل وعلا -.

ثبَاتٌ عَلَى الْمَبْدَأِ

عن خَبَابٍ، قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا بِمَكَّةَ، فَعَمَلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ سَيْفًا، فَجِئْتُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. فَقَالَ: إِذَا بُعِثْتَ كَانَ لِي مَالٌ، فَسَوْفَ أَقْضِيكَ. فَقُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَنْزَلَتْ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ [مريم: ٧٨] (١).

رَحْلَةُ الْعَذَابِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه - الذى كان فى أشد شوقه لهذا النور - حتى قام لينفض غبار الجاهلية. ويصدع بكلمة الحق لا يصدده صاّد ولا يردّه رادّ فقام وأعلن إسلامه.

وما إن وصل خبر إسلامه إلى «أم أنمار» حتى مضت إليه مع أخيها «سباع ابن عبد العزى» ومعهما مجموعة من فتيان «خزاعة» ومضوا إلى خَبَابٍ وبعد أن تيقنوا من خبر إسلامه قاموا جميعاً يضربونه ويعذبونه أشد أنواع التعذيب.

فكانوا إذا اشتدت الهاجرة وكادت الشمس أن تُذيب الصخور أخرجوه إلى بطحاء مكة، ونزعوا عنه ثيابه وألبسوه دروع الحديد ومنعوا عنه الماء حتى إذا بلغ منه الجهد كل مبلغ طلبوا منه أن يكفر بدين محمد ﷺ وأن يقول خيراً فى اللات والعزى.. فيابى خَبَابٍ بكل عزة وثبات أن يفعل ما يريدون.

لقد كان حظ «خَبَابٍ» من العذاب كبيراً، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير.

(١) أخرجه البخارى (٣٢٧ / ٨) وهو فى الطبقات لابن سعد (٣ / ١٦٤).

لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان هو يقاوم العذاب بالصبر والتضحية.

وكان - رضى الله عنه - مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعاً من التشكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجراً، حتى لا يستطيع أن يقوم^(١).

لقد حولوا كل الحديد الذى كان عنده يصنع منه السيوف إلى قيود وسلاسل يُحمى عليها فى النار حتى تستعر وتتوهج ثم يطوقون بها جسده ويديه وقدميه.

حتى قال خباب: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برودة فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(٢).

إن النبى ﷺ لا يدخر جهداً فى نصيح أصحابه وتربيتهم على الصبر والثبات والثقة بنصر الله - عز وجل - ووعد، فقد أتاه خباب بعد أن عذب هذا العذاب الأليم والنبى ﷺ يعلمه بل ويعلم الأمة كلها أن أصحاب الدعوة لابد لهم من الابتلاء، فإن ثبتوا على الحق وآثروا مراد الشرع نصرهم الله - عز وجل - وأعزهم. فلا يتم التمكين إلا بعد المحنة والصبر والثبات^(٣).

وتلك هى سنة الله فى عباده المؤمنين.. تلك السنة التى لا تتبدل ولا تتغير أبداً.

قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبَةً الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

(١) رحمة للعالمين (١/ ٥٧).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٢٠٣) مناقب الأنصار.

(٣) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص: ٢٥٤).

قال ابن القيم - رحمه الله -: والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، ولیمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكبر الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشّه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذَّب العبد ونُقِيَ أُذُن له في دخول الجنة^(١).

العدل الإلهي والهجرة المباركة

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»^(٢). فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

ولما أذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه بالهجرة إلى المدينة تهيأ خباب للخروج، غير أنه لم يُبارح^(٣) مكة إلا بعد أن استجاب الله دُعاءه على أم أنمار... فقد أصيبت بصداع لم يسمع بمثل آلامه قط؛ فكانت تعوى من شدة الوجع كما تعوى الكلاب... وقام أبناؤها يستطبون^(٤) لها في كل مكان، فقبل لهم: إنه لا شفاء لها من أوجاعها إلا إذا دأبت على كفى رأسها بالنار... فجعلت تكوى رأسها بالحديد المحمى، فتلقى من أوجاع الكى ما ينسيها آلام الصداع^(٥).

(١) زاد المعاد للإمام ابن القيم (٣ / ١٨) ط. دار الرسالة.

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد وابن كثير في البداية (٣ / ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق - نقلاً من السيرة لابن هشام (١ / ٢٦٦).

(٣) يبارح: يغادر.

(٤) يستطبون لها: يبحثون لها عن الأطباء.

(٥) صور من حياة الصحابة (ص: ٤٢٩).

وَحَانْ وَقْتِ الْعَمَلِ لِهَذَا الدِّينِ

وبعد تلك الهجرة المباركة والنجاة من عذاب كفار قريش آن لهذا الجسد المتعب أن يستريح قليلاً ليسترد قواه وليبدأ مرحلة جديدة من العمل لهذا الدين.
فذاق خَبَاب طعم الراحة التي حُرِمَ منها زماناً طويلاً. ذاقها لأول مرة عندما أسلم بين يدي الحبيب ﷺ وذاقها مرة أخرى يوم أن هاجر إلى المدينة والتقى بإخوانه من الأنصار.
وما هو يبدأ صفحة جديدة مليئة بالجهاد والبذل والتضحية.. فيشهد مع النبي ﷺ غزوة بدر.

ثم يشهد غزوة أحد ويثليج. الله صدره ويقر عينه برؤية «سباع بن عبد العزى» أخى «أم أنمار» وهو يلقي مصرعه على يد أسد الله وأسد رسول الله ﷺ (حمزة بن عبد المطلب) - رضى الله عنه -.

وشهد (خَبَاب) المشاهد مع رسول الله ﷺ وهو يتمنى أن ينال الشهادة في سبيل الله.

وَحَانْ وَقْتِ الرَّحِيلِ

وطالت الحياة بخَبَاب حتى أدرك عهد الخلفاء الأربعة - رضى الله عنهم - وكانوا يحبونه ويوقرونه ويعرفون له قدره ومنزلته.

فها هو يدخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأجلسه على متكئه فقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خَبَاب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال خَبَاب: ما هو بأحق منى... إن بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لى أحدٌ يمنعنى، فلقد رأيتنى يوماً أخذونى فأوقدوا لى ناراً ثم سلقونى فيها، ثم وضع رجلٌ رجله على صدرى، فما اتقيت الأرض - أو قال: برد الأرض - إلا بظهرى، قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برّص^(١).

وبعد عمر طويل ملئ بالعذاب والبذل والتضحية نام خَبَاب على فراش الموت، وهو فى أشد الشوق للقاء الحبيب ﷺ.

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ١١٧).

عن طارق بن شهاب قال: جاء خبابًا نفرًا من أصحاب محمد ﷺ فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله، إخوانك تقدم عليهم غدًا. فبكى، وقال: أما إنه ليس بي جزع، ولكن ذكّرتموني أقوامًا وسميتم لي إخوانًا، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي، وإنني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم.

وعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: دخلنا على خباب بن الارت في مرضه فقال: إن في هذا التابوت ثمانين ألف درهم، والله ما شددت لها من خيط، ولا منعتها من سائل. ثم بكى فقليل: ما يبكيك؟ فقال: أبكى أن أصحابي مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئًا وإننا بقينا بعدهم حتى ما نجد موضعًا إلا التراب.

وعن قيس بن أبي حازم قال: أتينا خباب بن الارت نعوذه وقد اكتوى في بطنه سبعًا، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعوا بالموت لدعوت به، فقد طال مرضي. ثم قال: إن أصحابنا الذين مضوا لم تنقصهم الدنيا شيئًا، وإننا أعطينا بعدهم ما لا نجد له موضعًا إلا التراب^(١).

وهكذا لم يحجب نفسه عن دين الله لحظة واحدة ولم يحجب ماله عن الفقراء طرفة عين، وفاضت روحه إلى بارئها ليَجبر الله كسره في الجنة ولينسى العذاب الذي كان في الدنيا ولينعم بصحبة الحبيب ﷺ وأصحابه - رضى الله عنهم -.

وتوفي خباب بالكوفة سنة سبع وثلاثين، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وصلى عليه على بن أبي طالب حين منصرفه من صفين، وهو أول من قُبر بظهر الكوفة^(٢).

وقال (عليه) - رضى الله عنه - وهو واقف على قبره: رحم الله خبابًا فلقد أسلم راغبًا وهاجر طائعًا وعاش مجاهدًا.

فرضى الله عن خباب وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) صفة الصفوة (١) / ١٧٦.

(٢) صفة الصفوة (١) / ١٧٧.

سعد بن معاذ

هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء
وشهد سبعة سبعون ألفاً من الملائكة

محمد رسول الله ﷺ

إننا اليوم على موعد مع رجل فريد أجد نفسي - والله - عاجزاً عن أن أتكلم في حقه كلمة واحدة... ولم لأ؟ وهو الذي لما أسلم أشرقت المدينة كلها بإسلامه... إنه الرجل الذي وقف موقفاً عظيماً في غزوة بدر سطره على جبين التاريخ بسطور من النور... إنه الرجل الذي حكم بحكم الله من فوق سبع سموات... بل هو الذي اهتز عرش الرحمن لموته وشيعه سبعون ألفاً من الملائكة بل وحملوا جنازته.

إن السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما بالنسبة لعرش الرحمن كحلقة ألقيت في فلاة... يهتز هذا العرش لموت رجل مسلم فيا ترى كيف يكون قدر هذا الرجل الذي يهتز عرش الرحمن لموته.

إننا على موعد مع الصحابي الجليل سعد بن معاذ.

* عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان في بني عبد الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر^(١).

قال المناوي: قال ابن القيم: كان سعد في الأنصار بمنزلة الصديق (أبي بكر) في المهاجرين، لا تأخذه في الله لومة لائم، وخُتم له بالشهادة، وآثر رضا الله ورسوله على رضا قومه وحلفائه، ووافق حُكمه حُكم الله من فوق سبع سموات، ونعاه جبريل عليه السلام يوم موته، فحق له أن يهتز العرش له^(٢). وهذا متواتر.

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣ / ٧١).

(٢) فيض القدير للمناوي (٣ / ٦٤).

أسلم (سعد) فأشرقَّت شمس الإسلام على المدينة كلها

وتعالوا بنا لنعرف كيف دخل النور إلى قلب سعد وكيف كانت قصة إسلامه لله - جل وعلا - بل وكيف أنه لما أسلم أشرقَّت شمس الإسلام على المدينة كلها.

لقد كان سعد سيداً في قومه، وكان مشركاً وقتها، فلما أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير - رضى الله عنه - سفيراً للدعوة إلى الله تعالى في المدينة المنورة... وأسلم سعد على يديه، فكان إسلامه فاتحة خير على المدينة كلها.

فلقد كان إسلامه سبباً في أن تشرق شمس الإسلام على المدينة كلها.

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن مُعَاذ (ابن خالة أسعد بن زُرارة)، قد دخل به حائطاً من حوائط بني ظفر.

على بئر يقال لها: بئر مَرَق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حُضِير، يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا لِيُسَفِّها ضُعفاءنا، فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة منى حيث [ما] قد علمت كفتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضُعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلَّمه مُصْعَبُ بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا [الكلام] وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى

سعد وقومه وهم جلوس في ناديتهم، فلما نظر إليه سعد ابن معاذ مُقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم [قد] عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك^(١). قال: فقام سعد مُغضباً مبادراً، تخوفاً للذى ذكر [له] من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة، [أما والله] لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمّت هذا منى^(٢)، أتغشانا في دارينا بما نكره؟ - وقد قال أسعد بن زُرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما نكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهيله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد ابن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا [وأوصلنا] وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيية^(٣)؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زُرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام،

(١) ليخفروك: وفي بعض النسخ «ليخفروك». وأخفرو: نقض عهده وخاس به وغدره، وأخفر الذمة: لم يف بها.

(٢) ما رُمّت هذا منى: أى ما طمعت فيه ولا بلغت.

(٣) أيمننا نقيية: النقيية أيمن النعل، وقال ابن بُزرج: اللهم نقيية أى نفاذ رأى، ورجل ميمون النقيية: مبارك النفس، مظفر بما يحاول، [لسان/ نقب].

حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون^(١)....

وهكذا أسلم سعد - رضى الله عنه - وحمل أمانة هذا الدين على أعناقهم وذهب يدعو الناس إلى دين الملك - جل وعلا - وقلبه يتلهف شوقاً لرؤية الحبيب ﷺ ... وهكذا تكون ثمرة الدعوة الرحيمة.

فلما أذن الله لحبيبه ﷺ بالهجرة فرح (سعد) بمقدم النبي ﷺ فرحاً لا يستطيع القلم وصفه وظل ملازماً له يقبس من علمه وهديه وأخلاقه.
وأحب النبي ﷺ حباً جعله يتمنى أن يفديه بنفسه وماله.

موقف تاريخي في غزوة بدر

وها هي اللحظة التاريخية التي أظهر فيها سعد إيمانه وعقيدته وولاءه فوق موقفاً عظيماً لنصرة هذا الدين.

لما تحول الموقف يوم بدر من مجرد الحصول على العير إلى قتال بين المسلمين والمشركين أراد النبي ﷺ أن يعرف رأى الصحابة قبل الدخول في تلك المعركة الحاسمة فاستشار أصحابه - وقال: أشيروا على أيها الناس - فتكلم أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، وكذلك المقداد بن عمرو، وهؤلاء القادة الثلاثة الذين كانوا من المهاجرين، وهم أقلية في الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأى قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة - بيعة العقبة - لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «أشيروا على أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار، وحامل لوائهم سعد ابن معاذ، فقال: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «أجل»، قال: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٢). وقال: رواه الطبراني مرسلًا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث. وذكره ابن كثير في البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق وإسناده صحيح. وهذه قصة مشهورة صرح فيها ابن إسحاق بالسمع وذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدواً غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وفى رواية: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاطعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(١).

والله لا نعطيهم إلا السيف

وفى يوم الأحزاب لما تكالبت قوى الشرك بكتائبها الهائجة، وكادت تُغرق القلة المؤمنة، أراد رسول الله ﷺ أن يعقد صلحاً منفرداً بينه وبين غطفان، وسيديها: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، على أن تفك غطفان الحصار عن المدينة، وتنسحب بجيوشها وتخذل الأحزاب، على أن يعطيهم رسول الله ﷺ ثلث ثمار نخل المدينة، واستشار رسول الله السعدين (سعد ابن معاذ وسعد بن عباد)، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم - يعنى غطفان - لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة، إلا قرى^(٢) أو بيعاً، وإن كانوا ليأكلون العلهز^(٢) في الجاهلية في الجهد، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. ثم خرج سعد إلى سيدي غطفان وقد رفع صوته في تحدٍّ أرجعاً، ليس بيننا وبينكم غير السيف.

(١) أورده ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٤٧) بدون سند، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٤٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٤)، وذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٨) من حديث علقمة بن وقاص مرسلاً، وفي الباب عن أنس عند مسلم (١٧٧٩).

(٢) القرى: الضيافة، والعلهز: وبر يُخلط بدماء اللحم، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجذب.

يا للرجال! في وقت بلغت القلوب الحناجر من شدة الكرب وتقاطر البلايا! كلمات تصدر من فم الصادق سعد، تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة، فتبثُّ الأمل في نفوس المسلمين، وتدهش سيدى غطفان؛ فيفيقوا، ويعلمهم سعد أن الذى يصنع النصر قوة العقيدة، وزخم الإيمان بالله والثقة به^(١).

(سعد) يحكم يحكم الله من فوق سبع سموات

بل ها هو - سعد - مرة أخرى يحكم بحكم الله تعالى من فوق سبع سموات... ألم أقل لكم إننى أشعر بقمة العجز وأنا أتكلم عن مناقب هذا الصحابى الجليل.

عن عائشة - رضى الله عنها - فى قصة جرح سعد بن معاذ وغزوة الخندق قالت - رضى الله عنها -: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض من ورائى - يعنى حس الأرض - قالت: فإذا أنا بسعد ابن معاذ ومعه ابن أخيه الحرث بن أوس يحمل مجنة. قالت: فجلست إلى الأرض فمر (سعد) وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول:

لَبَّثُ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا حَمْلُ
مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت: فافتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تسبغة^(٢) له يعنى المغفر، فقال عمر: ما جاء بك لعمرى إنك لجريئة، وما يؤمنك أن لا يكون تجوز. قالت: فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت لى ساعتئذ فدخلت فيها قال: فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فإذا طلحة بن عبيد الله. فقال: ويحك يا عمر إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التجوز والفرار إلا إلى الله تعالى. قالت: ويرمى سعداً رجلاً من المشركين من قريش يقال له ابن العرقة بسهم له فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه - العرق - فدعا الله سعد فقال: اللهم لا تُمتنى حتى تُقرَّ عينى من بنى قريظة فيخرجوا من صياصبيهم^(٣) ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد فى المسجد قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته

(١) نقلاً من علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٧١ - ٣٧٢).

(٢) التسبغة: شىء من حلق الدروع والزررد يعلق بالخذوة دائراً معها ليستر الرقبة وجيب الدرع.

(٣) أى حصونهم، وكل شىء امتنع به وتحصن فهو صيصة.

وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بنى غنم، وهم جيران المسجد، فقال: من مر بكم؟ فقالوا: مر بنا دحية الكلبي، وكان دحية تشبه لحيته ووجهه جبريل عليه السلام. قالت: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا (أبا لبابة بن عبد المنذر)، فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد ابن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه وحف به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئا ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أتى لى أن لا يأخذنى فى الله لومة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم فأنزلوه. قال عمر: سيدنا الله. قال أنزلوه فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم. قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله - عز وجل - وحكم رسوله. قال: ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئا فأبقنى لها، وإن كنت قطعت الحرب بيته وبينهم فاقبضنى إليك. قالت: فانفجر كلمه - جرحه - وكان قد برا إلا مثل الخرص (١).

قالت: ورجع إلى قبه التى ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. قالت: فوالذى نفس محمد بيده إنى لأعرف بكاء عمر من بكاء أبى بكر وأنا فى حجرتى، وكانوا كما قال الله - عز وجل -: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. قال علقمة: فقلت: أى أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته (٢).

وفى بنى قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْمُرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأُورَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْنُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

(١) الحلقة الصغيرة من الحلقة.

(٢) قال الهيثمي: فى الصحيح بعضه رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقيه رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٦/ ١٣٧، ١٣٨).

أدب صدّيق الأنصار (سعد بن معاذ) مع النبي ﷺ

وفى رواية: أنه لما وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقر قيادة النبي ﷺ في بني قريظة؛ قال له النبي ﷺ: «احكم فيهم يا سعد». فقال: إن رسول الله ﷺ أحق بالحكم. فقال النبي ﷺ: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم». غير أن سعداً - وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود - أحب أن يستوثق من الجميع، ويأخذ عليهم العهد - الأوس وبني قريظة - بأن حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش. ووقف سعد ابن معاذ في المعسكر النبوي، ووجه حديثه إلى قومه الأوس خاصة، وإلى من في المعسكر عامة قائلاً: عليكم بذلك - عهد الله وميثاقه - أن الحكم كما حكمت؟ قالوا: نعم. ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها، ثم قال وهو معرض عن رسول الله ﷺ: إجلالاً وإكباراً: وعلى من هاهنا؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم»^(١). ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانباً في المعسكر؛ ليستوثق منهم قائلاً: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم. فحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم. ولما نطق سعد بن معاذ بالحكم، قال له النبي ﷺ: «حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات». فانظر إلى أدب سعد أثناء الحكم، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ وهو معرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ.

عرش الرحمن يهتز لموته ويشبهه سبهون الصا من الملائكة

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع تلك الكرامات التي حدثت لسعد بن معاذ - رضى الله عنه - تلك الكرامات التي تبهر العقول وتحير الألباب. فيها هو الحبيب ﷺ يدخل على سعد وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيراً من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته. ولينجزنك الله ما وعدك»^(٢). فيها هو سعد بن معاذ يهتز لموته عرش الرحمن - جل جلاله -

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٠).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات - أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢/ ٩).

قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» (١).

وعن أسماء بنت يزيد بن سكن قالت: لما توفي سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبي ﷺ: ألا يرقا دمعك ويذهب حزنك بأن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش؟ (٢).

قال الإمام النووي - رحمه الله -: قوله ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» اختلف العلماء في تأويله. فقالت طائفة هو على ظاهره واهتزاز العرش: تحركه فرحاً بقدوم روح سعد وجعل الله تعالى في العرش تمييزاً، حصل به هذا ولا مانع منه كما قال تعالى: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ وهذا القول هو ظاهر الحديث وهو المختار.

وقال المازري: قال بعضهم: هو على حقيقته وأن العرش تحرك لموته، قال: وهذا لا ينكر من جهة العقل؛ لأن العرش جسم من الأجسام يقبل الحركة والسكون. قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك إلا أن يقال إن الله تعالى جعل حركته علامة للملائكة على موته.

وقال آخرون: المراد اهتزاز أهل العرش وهم حملته وغيرهم من الملائكة، فحذف المضاف والمراد بالاهتزاز الاستبشار والقبول، ومنه قول العرب فلان يهتز للمكارم... لا يريدون اضطراب جسمه وحركته، وإنما يريدون ارتياحه إليها وإقباله عليها وقال الحربي: هو كناية عن تعظيم شأن وفاته والعرب تنسب الشيء المعظم إلى أعظم الأشياء فيقولون: أظلمت لموت فلان الأرض، وقامت له القيامة (٣).

وقال الإمام الذهبي - رحمه الله -: والعرش خلقٌ لله مسخرٌ إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله، وجعل فيه شعوراً لحب سعد، كما جعل تعالى شعوراً في جبل أحد بحبه النبي ﷺ. وقال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِىِّىْ مَعَهُ﴾ [سبا: ١٠] وقال: ﴿تَسْبِغُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ثم عمم فقال: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾. وهذا حق.

(١) متفق عليه عن جابر - وأخرجه مسلم وأحمد عن أنس.

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٩ / ٣٠٩) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في تلخيصه.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٣٢).

وفى صحيح البخارى قول ابن مسعود: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل^(١). وهذا باب واسع سبيله الإيمان^(٢).

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - يرفعه: «اهتز العرش لحب لقاء الله سعداً»^(٣).

الملائكة تحمل جنازة سعد

عن محمود بن لبيد قال: لما أُصيب أكحلُ سعد فثقل، حوّلوه عند امرأة يقال لها رُفيدة تُداوى الجرحى. فكان النبى ﷺ إذا مر به يقول: كيف أمسيت، وكيف أصبحت؟ فيخبره حتى كانت الليلة التى نقله قومه فيها وثقل، فاحتملوه إلى بنى عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله، فقيل: انطلقوا به. فخرج وخرجنا معه، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا، وسقطت أرديتنا، فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: «إني أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة» فانتهى إلى البيت، وهو يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعداً حزاماً وجداً

فقال: «كُلُّ باكية تكذبُ إلا أم سعد» ثم خرج به. قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتاً أخفَّ علينا منه. قال: «ما يمنعه أن يخفَّ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قطُّ قبل يومهم، قد حملوه معكم»^(٤).

سعد بن معاذ وضمة القبر

عن جابر - رضى الله عنه - قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوماً إلى سعد ابن معاذ حين تُوفى. قال: فلما صلى عليه رسول الله، ووُضع فى قبره، وسُوى عليه سبّح رسول الله ﷺ تسبيحاً طويلاً. ثم كبر فكبرنا. فقيل: يا رسول الله، لم سبحت ثم كبرت؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله - عز وجل - عنه^(٥).

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش، وفتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لم ينزلوا

(١) أخرجه البخارى (٣٥٧٩) وأحمد (٤٦٠ / ١).

(٢) السير للإمام الذهبى (٢٩٧ / ١).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣ / ٢ / ١٢) والحاكم (٢٠٦ / ٣) وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) أخرجه ابن سعد (٣ / ٢ / ٨٠٧) وحسنه الأرئوط فى السير (٢٨٧ / ١).

(٥) رواه أحمد (٣ / ٣٦٠، ٣٧٧) وصححه الحاكم (٢٠٦ / ٣) مختصراً ووافقه الذهبى.

إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضُمَّةً ثم أُفْرِج عنه» يعنى سعداً^(١).

قال الإمام الذهبي - رحمه الله -: قلت: هذه الضمة ليست من عذاب القبر في شيء، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه في الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه، وألم سؤاله في قبره وامتحانه، وألم تأثره ببكاء أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف وهوله، وألم الورود على النار، ونحو ذلك. فهذه الأراجيف كلها قد تنال العبد وما هي من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقى يرفق الله به في بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وقال: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ فنسأل الله تعالى العفو واللطف الخفي. ومع هذه الهزات، فسعد ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وأنه من أرفع الشهداء - رضى الله عنه - كأنك يا هذا تظن أن الفائز لا يناله هول في الدارين، ولا روع ولا ألم، ولا خوف. سل ربك العاقبة، وأن يحشرنا في زمرة سعد^(٢).

يقول حسان بن ثابت يرثي سعد بن معاذ - رضى الله عنه -:

لقد سحمت ^(٣) من دمع عيني عبرة	وحق لعيني أن تفيض على سعد
قتيل سوى في معرك فجعت به	عيون ذواري الدمع دائمة الوجد
على ملة الرحمن وارث جنة	مع الشهداء وفدها أكرم الوفد
فإن تك قد ودعتنا وتركتنا	وأمسيت في غرباء مظلمة اللحد
فأنت الذي يا سعد أبت بمشهد	كريم وأثواب المكارم والمجد
بحكمك في حي قريظة بالذي	قضى الله فيهم ما قضيت على عمد
فوافق حكم الله حكمك فيهم	ولم تعف إذ ذكرت ما كان من عهد
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى	شروا هذه الدنيا بجناتها الخلد
فنعم مصير الصادقين إذا دعوا	إلى الله يوماً للوجاهة والقصد ^(٤)

(١) أخرجه النسائي (٤ / ١٠٠) في الجنائز: باب ضمة القبر وضغطه، وابن سعد (٣ / ٢ / ٩) - وصححه

الألباني في صحيح الجامع (٦٩٨٧).

(٢) السير للإمام الذهبي (١ / ٢٩٠ - ٢٩١).

(٣) سحمت: سألت.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ١٣٢).

متأذيل سعد بن معاذ في الجنة

عن أبي إسحاق قال: سمعتُ البراء يقول: أهديت لرسول الله ﷺ حُلَّةً حرير، فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لتأذيل سعد بن معاذ في الجنة، خيرٌ منها وألين» (١).

وعن أنس - رضي الله عنه - أنه أهدى لرسول الله ﷺ جُبَّةً من سندس، وكان ينهي عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «والذي نفسُ محمد بيده! إن متأذيل سعد بن معاذ في الجنة، أحسنُ من هذا» (٢).

قال الإمام النووي - رحمه الله -: قال العلماء هذه إشارة إلى عظيم منزلة سعد في الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه مُعد للوسخ والامتهان فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد (٣).

صديق الأنصار سعد بن معاذ أقامة سامقة في علو المهمة في الصدق
يهد الصديق الأكبر - رضي الله عنه -

قال سعد بن معاذ - رضي الله عنه -: «ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف: ما صليتُ صلاة منذ أسلمتُ فحدثتُ نفسي حتى أفرغ منها.
ولا شيعتُ جنازة فحدثتُ نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقولٌ لها، حتى يُفرغ من دفنها.

وما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول، إلا علمتُ أنه حق».

فقال ابن المسيب: ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي ﷺ.

ويعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية رحل سعد بن معاذ ليلحق بحبيبه ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم -

فرضى الله عن سعد وتفن سائر الصحابة أجمعين

(١) أخرجه مسلم (٢٤٦٨) عن البراء - رضي الله عنه -

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦٩) عن أنس - رضي الله عنه -

(٣) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٣٤).

عمير بن سعد

وددت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد
أستعين بهم في أعمال المسلمين

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

إن الولاء والبراء أصلٌ عظيم من أصول العقيدة... ولقد أوجب الله علينا موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].
أى فقد برئ من الله وبرئ الله منه.

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبُغض في الله»^(١).

وعن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلم وتبرأ من الكافر»^(٢).

وها نحن نتعاشق بقلوبنا من خلال تلك السطور مع هذا الصحابي الجليل - عمير بن سعد - الذي ضرب المثل العظيم في الولاء والبراء.

(١) رواه أحمد وأبو شيبه والطبراني عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٦٦) والإيمان - ومسلم (٥٦) الإيمان.

ولنبداً القصة من أولها لنرى كيف أن الإيمان يجعل المؤمن لا يؤثر أحداً على ربه -
جل وعلا -.

لقد نشأ (عمير) يتيماً وتجرع مرارة اليتيم والفقر منذ نعومة أظفاره، فقد مات أبوه وهو
طفل صغير ولم يترك له شيئاً من حطام الدنيا.

وبعد فترة تزوجت أمه من رجل ثرى اسمه (الجلّاس بن سويد) فاحتضن الجلّاس
عميراً واعتبره ابناً له، وأغدق عليه من كل صنوف الخير حتى جعله ينسى أنه يتيم.

وتمر الأيام وتمضى الأعوام وما زالت المحبة تزداد بينهما شيئاً فشيئاً.

ولقد أسلم (عمير) وهو لم يجاوز العاشرة من عمره إلا قليلاً وتغلغل الإيمان في
أعماق قلبه، ورسخت جذوره وارتفعت أغصانه حتى بلغت عنان السماء، وها هي
شجرة الإيمان تثمر له الخشوع والخوف والحب والرجاء والإنابة، فقد كان (عمير) عابداً
زاهداً.

وظل عمير يعيش حياة هادئة مطمئنة.. كيف لا وهو الذي امتلأ قلبه حباً لله وحباً
لرسول الله ﷺ.

إنما وليكم الله

وفي السنة التاسعة من الهجرة المباركة علم النبي ﷺ أن الرومان يستعدون للقيام
بغزوة حاسمة ضد المسلمين.

فعزم النبي ﷺ على غزو الروم في «تبوك».

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى
القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قلّ ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى
بغيرها، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العُسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان،
وجلّى للناس أمرهم - وضّح - ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة
من سورة براءة - التوبة - تثيرهم على الجلال، وتحثهم على القتال. ورغبهم رسول الله
ﷺ في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله.

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم، إلا
وتسابقوا إلى أمثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون

تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ (١) ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لَا أُجِدُّ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، وكان عثمان بن عفان قد جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ فكان رسول الله ﷺ يُقلبها، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» (٢)، ثم تصدق وتصدق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير، ومائة فرس، سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله. ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله - وكانت أربعة آلاف درهم، وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مدًا أو مدنين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك، ومعاصد، وخلاخل، وقرط، وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] (٣).

وكانت تلك المشاهد التاريخية التي رآها (عمير) أمام عينيه من البذل والإنفاق والتضحية تُعرض أمام عينيه وكأنها خيال لا يحدث إلا في دنيا الأحلام... وما زالت تلك المشاهد يراها بعيني قلبه حتى عاد إلى بيته وهو يسأل نفسه سؤالاً لم يجد له إجابة: ما الذي جعل (الجلّاس) يُعرض عن الإنفاق على الرغم من أنه يملك ثروة كبيرة؟!!!

وبينما هو في هذا التساؤل وإذا به يجد الجلّاس أمام عينيه فاغتنمها فرصة لا تُعوّض وأخذ يقص عليه ما رآه من تسابق الصحابة - رضى الله عنهم - إلى البذل والإنفاق والتضحية.

(١) يطلبون منه أن يحملهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢) وأحمد (٦٣ / ٥) والحاكم (١٠٢ / ٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الرحيق المختوم (ص: ٤٦٨ : ٤٧٠) بتصرف.

وكان عمير يتوقع أن يذهب الجلاس في تلك الساعة لينفق من أمواله، ولكنه فوجئ بالجلاس يقول كلمة تُخرجه من الإسلام جملة واحدة.

قال له الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل - يعنى النبي ﷺ - صادقاً فيما يقول لنحن شرٌّ من الحمير!!!!

لقد شدّه^(١) عميرٌ مما سمع؛ فما كان يظن أن رجلاً له عقل الجلاس وسنّه، تند^(٢) من فمه مثل هذه الكلمة التي تُخرج صاحبها من الإيمان دفعةً واحدة، وتدخله في الكفر من أوسع أبوابه.

وكما تنطلق الآلات الحاسبة الدقيقة في حساب ما يُلْقَى إليها من المسائل، انطلق عقل الفتى عمير بن سعد يفكر فيما يجب عليه أن يصنعه: لقد رأى أن في السكوت عن الجلاس والتستر عليه خيانة لله ورسوله، وإضراراً بالإسلام الذي يكيد له المنافقون ويأتمرون به^(٣).

وأن في إذاعة ما سمعه عقوباً بالرجل الذي ينزل من نفسه منزلة الوالد، ومجازاة لإحسانه إليه بالإساءة... فهو الذي آواه من يَتَم وأغناه من فقر وعوضه عن فقد أبيه.

وكان على الفتى أن يختار بين أمرين أحلاهما مر. وسرعان ما اختار... فالتفت إلى الجلاس وقال: والله يا جلاس ما كان على ظهر الأرض أحدٌ بعد محمد بن عبد الله أحبَّ إليَّ منك...

فأنت آثر^(٤) الناس عندي، وأجلُّهم يدًا^(٥) عليَّ، ولقد قلت مقالة إن ذكرتها فضحتك، وإن أخفيتُها خُنت أمانتي وأهلكت نفسي وديني، وقد عزمْتُ على أن أمضي إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قلت، فكن على بينة من أمرك.

مضى الفتى عمير بن سعد إلى المسجد، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما سمع من الجلاس بن سويد.

فاستبقاه الرسول - صلوات الله عليه - عنده، وأرسل أحد أصحابه ليدعو له الجلاس.

(١) شدّه: دهش وتَحَيَّر.

(٢) تند: تشرد.

(٣) يأتمرون به: يحدث بعضهم بعضاً بإيذائه.

(٤) آثرُ الناس عندي: أحبُّ الناس وأقربهم إليَّ.

(٥) أجلُّهم يدًا: أعظمهم نعمة عليَّ.

وما هو إلا قليلٌ حتى جاء الجُّلاس فحياً رسول الله ﷺ ، وجلس بين يديه، فقال له النبي - عليه الصلاة والسلام -: «ما مقالة سمعها منك عمير بن سعد؟!...» وذكر له ما قاله. فقال الجُّلاس: كذب على يا رسول الله وافترى، فما تفوهت بشيء من ذلك.

والتفت الرسول - صلوات الله عليه - إلى عمير فرأى وجهه قد احتقن^(١) بالدم، والدموع تتحدّر مدراراً من عينيه؛ فتساقط على خديه وصدره وهو يقول:

اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به...

اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به...

فانبرى^(٢) الجُّلاس وقال: إن ما ذكرته لك يا رسول الله هو الحق، وإن شئت تحالفنا^(٣) بين يديك. وإنى أحلف بالله أنى ما قلت شيئاً مما نقله لك عمير. فما إن انتهى من حلقه وأخذت عيون الناس تتقل عنه إلى عمير بن سعد حتى غشيت^(٤) رسول الله - صلوات الله عليه - السكينة، فعرف الصحابة أنه الوحي، فلزموا أماكنهم، وسكنت جوارحهم، ولاذوا بالصمت^(٥)، وتعلقت أبصارهم بالنبي - عليه الصلاة والسلام -.

وهنا ظهر الخوف والوجل على الجُّلاس... وبدأ التلهف والتشوف^(٦) على عمير...

وظل الجميع كذلك حتى سرى^(٧) عن رسول الله ﷺ ، فتلا قوله جل وعلا: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِعَدِ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فارتعد الجُّلاس من هول ما سمع، وكاد ينعقد لسانه من الجزع، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ وقال: بل أتوب يا رسول الله... بل أتوب... صدق عمير - يا رسول الله - وكنت من الكاذبين. أسأل الله أن يقبل توبتي، جعلت فداك يا رسول الله.

(١) احتقن بالدم: تجمع الدم فيه.

(٢) انبرى: برز واندفع.

(٣) تحالفنا: حلف كل منا على صحة كلامه.

(٤) غشيت السكينة: نزلت عليه وغطته.

(٥) لاذوا بالصمت: التزموا الصمت وانقطعوا عن الكلام.

(٦) التشوف: التطلع.

(٧) سرى عن الرسول: زال عنه أثر الوحي.

وهنا توجه الرسول - صلوات الله عليه - إلى الفتى عمير بن سعد، فإذا دموع الفرح تبلل وجهه المشرق بنور الإيمان. فمد الرسول يده الشريفة إلى أذنه وأمسكها برفق وقال: «وَفَتْ أذُنُكَ - يا غلام - ما سمعت، وصدقك ربك».

عاد الجلّاس إلى حظيرة الإسلام وحسن إسلامه. وقد عرف الصحابة صلاح حاله مما كان يُغدّقه^(١) على عمير من بر. وقد كان يقول كلما ذُكرَ عمير: جزاه الله عنى خيراً، فقد أنقذنى من الكفر، وأعتق رقبتى من النار^(٢).

حائظ الإسلام العدل وبابه الحق

وها هو عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الذى كان لا يحابى أحداً ولا يجامل أبداً فى دين الله.. أراد أن يختار والياً على مدينة (حمص).

وكان - رضى الله عنه - يشترط شروطاً فى هؤلاء الولاة لا تكاد تسمع عنها إلا فى دنيا الأحلام.

فكان يختارهم من الزاهدين الورعين الصادقين المخبئين الصائمين القائمين الذين يفرون من الإمارة ولا يرغبون فيها.

فكان يقول فى نفسه: [أريد رجلاً إذا كان فى القوم، وليس أميراً عليهم بدا وكأنه أميرهم.. وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير، بدا وكأنه واحد منهم]!!!

أريد والياً، لا يميز نفسه على الناس فى ملبس، ولا فى مطعم، ولا فى مسكن... يقيم فيهم الصلاة... ويقسم بينهم بالحق... ويحكم فيهم بالعدل... ولا يغلق بابه دون حوائجهم^(٣).

وفى تلك اللحظة تبادر إلى ذهن عمر (عمير بن سعد) فاختره كما اختار من قبله (سعيد بن عامر) ليكمل من بعده مسيرة الزهد والورع والعدل والتضحية.

وكان عمير وقتها يجاهد فى سبيل الله فى بلاد الشام فدعاه أمير المؤمنين (عمر) وعهد إليه بولاية (حمص) فحاول «عمير» أن يعتذر عنها، لكن أمير المؤمنين ألزمه بها

(١) يغدقه: يعطيه بسخاء.

(٢) نقلاً من صور من حياة الصحابة (٢٤٥: ٢٤٨) بتصرف.

(٣) رجال حول الرسول ﷺ / خالد محمد خالد (ص: ٤٨١).

إلزامًا. فأذعن «عمير» لأمره على كره منه؛ لأنه كان يتمنى أن يظل عمره كله في الجهاد لكي يرزقه الله الشهادة في سبيله.

وذهب عمير إلى مدينة (حمص) ليبدأ الولاية بتلك الكلمات التي سطرها على جبين التاريخ بسطور من نور.

فما إن دخل المدينة حتى جمع الناس إلى صلاة جامعة، فلما انقضت الصلاة خطب في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد ﷺ ثم قال: ألا إن الإسلام حائط منيع وبابٌ وثيق، فحائط الإسلام العدل وبابه الحق فإذا نُقض الحائط وحُطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسلام منيعًا ما اشتد السلطان، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضربًا بالسوط، ولكن قضاءً بالحق وأخذًا بالعدل^(١).

وبتلك الكلمات الناصعة بدأ عمير حياته في مدينة حمص ومكث فيها عامًا كاملاً لا يصل منه أي شيء إلى أمير المؤمنين فكتب إليه (عمر): إذا وصلت رسالتي فأقبل بما جبيت من الفيء. فأخذ جرابه وقصعته، وعلّق إداواته، وأخذ عنزته^(٢)، وأقبل راجلاً - يمشى على رجليه - فدخل المدينة، وقد شحّب، واغبر، وطال شعره. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: ما شأنك؟ قال: ألسْتُ صحيح البدن، معي الدنيا! فظنَّ عمر أنه جاء بمال، فقال: جئت تمشي؟ قال: نعم. قال: أما كان أحدٌ يتبرع لك بدابة؟ قال: ما فعلوا، ولا سألتهم. قال: بئس المسلمون!

قال: يا عمر، إن الله قد نهاك عن الغيبة. فقال: ما صنعت؟ قال: الذي جبيته وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء، لأتيتك به. قال: جددوا لعمير عهدًا. قال: لا عملتُ لك ولا لأحد^(٣).

واستأذن (عمير) (عمرًا) أن يذهب إلى أهله في قرية من ضواحي المدينة فأذن له. وبعد فترة ليست بالطويلة أراد عمر - رضى الله عنه - أن يختبر صدق عمير ليطمئن قلبه من اختياره للولاية وحفظه للأمانة.

فبعث رجلاً يقال له الحارث وأعطاه مائة دينار وقال: انطلق إلى عمير حتى تنزل به كأنك ضيف فإن رأيت أثر شيء - من الثروة - فأقبل. وإن رأيت حالاً شديداً فادفع إليه

(١) الطبقات لابن سعد (٤ / ٢٧٧).

(٢) العنزة: عصا في قدر نصف الرمح أو أكبر يتوكأ عليها.

(٣) ٥١٣١. من تاريخ ابن الأثير (٢ / ٥٦١) بتصرف.

هذه المائة الدينار. فانطلق الحارث فإذا هو بعمير جالس يفلى قميصه إلى جنب الحائط فقال له عمير: انزل رحمك الله. فنزل ثم سأله فقال: من أين جئت؟ فقال: من المدينة. فقال: كيف تركت أمير المؤمنين؟ فقال صالحاً. قال: فكيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين. قال: أليس يقيم الحدود؟ قال: بلى ضرب ابنًا له على فاحشة. فقال عمير: اللهم أعن عمر فإنى لا أعلمه إلا شديد الحب لك.

قال: فنزل به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانوا يخصوصونه بها ويطوون حتى أتاهم الجهد. فقال له عمير: إنك قد أجعتنا فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل. قال: فأخرج الدينار فدفعها إليه فقال: بعث بها أمير المؤمنين فاستعن بها. قال: فصاح وقال: لا حاجة لى فيها فردها.

فقالت له امرأته: إن احتجت إليها وإلا فضعها فى مواضعها. فقال عمير: والله مالى شىء أجعلها فيه. فشقت المرأة أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء.

فرجع الحارث إلى عمر فقال: ما رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين حالاً شديداً. قال: فما صنع بالدينار؟ قال: لا أدري. قال: فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابى هذا فلا تضعه من يدك حتى تقبل. فأقبل إلى عمر فدخل عليه فقال له عمر: ما صنعت بالدينار؟ قال: صنعت ما صنعت وما سؤالك عنها؟ قال: أنشد عليك لتخبرنى ما صنعت بها. قال: قدمتها لنفسى فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. قال: رحمك الله. فأمر له بوسق من طعام وثوبين. فقال: أما الطعام فلا حاجة لى فيه قد تركت فى المنزل صاعين من شعير إلى أن أكل ذلك يكون قد جاء الله بالرزق (ولم يأخذ الطعام).

وأما الثوبان فإن أم فلان عارية - يعنى زوجته - فأخذهما وعاد إلى أهله^(١).

وددت أنى رجلاً مثل عمير بن سهد أستعيبن بهم من أعمال المسلمين

وظل حياته كلها زاهداً ورعاً لا يريد الولاية ولا المناصب، بل لا يريد الدنيا بأسرها فهو يريد أن يلحق بنبيه ﷺ ويخشى أن تحول الدنيا بينه وبين تلك الأمنية الغالية. ولم يلبث طويلاً حتى فاضت روحه إلى بارئها ليلحق بحبيبه وقره عينه محمد ﷺ. ومات الزاهد العابد.

فبلغ ذلك عمر فشق عليه وترحم عليه وخرج يمشى ومعه المشاؤون إلى بقيع الغرقد. فقال لأصحابه: ليتمنَّ كل رجل منكم أمنيةً. فقال رجل: يا أمير المؤمنين وددت أن عندى مالاً فأنفقه فى سبيل الله، وقال آخر: وددت أن لى قوة فأصبح بدلو زمزم لحجاج بيت الله، فقال عمر بن الخطاب: وددت أن لى رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم فى أعمال المسلمين^(١).

وعن عبد الرحمن بن عمير بن سعد قال: قال لى ابن عمر: ما كان من المسلمين رجلاً من الصحابة أفضل من أبيك.

وعن ابن سيرين، قال: كان عمر من عجب به بعمير بن سعد يسميه (نسيج وحده). وقال المفضل الغلابى: زُهادُ الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعمير بن سعد^(٢).

وبعد حياة طويلة مليئة بالزهد والورع والخشية نام (عمير) على فراش الموت وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها - جل وعلا - ليلى بحق بالحبيب ﷺ وأصحابه فى جنة الرحمن إخواناً على سررٍ متقابلين.

فرضى الله عن عمير وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٨).

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٢/ ١٠٥).

عبد الله بن مسعود

«سأقله في الميزان يوم القيامة أثقل من جبل أحد»
 من أحب أن يقرأ القرآن شحاً كما أنزل فليقرأ قراءة
 ابن أم عبد (ابن مسعود)

محمد (رسول الله ﷺ)

وها نحن على موعد مع رجل كان يرعى الغنم، فجاء الإسلام فصنع منه قمة تضيء
 سماء الإسلام، بل أصبح معجزة من معجزات الرسول ﷺ يوم أن استطاع - بإذن الله -
 أن يصنع من كل صحابي قرآناً يمشى بين الناس يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.
 لقد نسخ النبي ﷺ عشرات النسخ من المصحف، بل مئات، بل ألوفاً، ولكنه لم
 ينسخها بمداد من الحبر على صفحات الورق، ولكنه نسخها بمداد من النور على
 صفحات القلوب^(١).

ذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره، وقوى سلطانه على النفس، إنه يمد صاحبه
 بيقين لا يهن، وهمة لا تنى، وأمل لا يخبو، ودافع لا يتوقف، وعزم لا يخور. وهو
 يملك الدنيا ولكنها لا تملكه، ويجمع المال ولكنه لا يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا
 تبطره، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهره، لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته، وقوة إلى
 قوته، كالذهب الأصيل، لا تزيده النار إلا نقاءً وصفاءً.

وأنا أسألكم بالله... من كان يُصدّق أن مجموعة قليلة العدد، ضئيلة العدد، من
 جزيرة العرب، لم يكن لهم فلسفة اليونان، ولا مدنية الرومان، ولا حكمة الهند، ولا
 صنعة الصين، تملك الدنيا بزمامها، وترث ملك الأكاسرة، وتحطم إمبراطورية القياصرة،
 وتنتشر ديناً جديداً، وحضارة جديدة في الآفاق، وفي أقل من ربع قرن من الزمان^(٢).

إننا على موعد مع الرجل الذي كان النبي ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن... إنه

(١) من بديع كلام الشيخ/ سيد قطب - رحمه الله -

(٢) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى (ص ٢٧٨).

الرجل الذي شهد له النبي ﷺ بأن ساقه في الميزان يوم القيامة أثقل من جبل أحد. إننا على موعد مع عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - الإمام الخبير، فقيه الأمة. كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدرًا، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علمًا كثيرًا^(١).

أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. ويقال: كان سادسًا في الإسلام. وشهد المشاهد كلها. وكان صاحب سر رسول الله ﷺ ووساده، وسواكه، ونعليه، وطهوره في السفر. وكان يُشبه بالنبي ﷺ في هديه، ودله، وسمته. وكان خفيف اللحم قصيرًا شديد الأدمة.

وكان من أجود الناس ثوبًا ومن أطيب الناس ريحًا. وولى قضاء الكوفة وبيت المال لعمر وصدرًا من خلافة عثمان ثم صار إلى المدينة، فمات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودُفن بالبقيع وهو ابن بضع وستين^(٢).

كيف كانت قصة إسلامه ١١٩

وتعالوا بنا لنبدأ قصته من أولها... لقد كان لإسلامه قصة يحلو ذكرها وتأنس النفوس وتطيب القلوب بتكرارها.

فقد كان ابن مسعود يرعى الغنم لسيد من سادات قريش ألا وهو: عقبة ابن أبي معيط.

وكان ابن مسعود مخلصًا أمينًا ورعًا على الرغم من أنه لم يسمع بعد عن الإسلام وما يدعو إليه من الأمانة والصدق والإخلاص.

وفي يوم من الأيام كان ابن مسعود - رضى الله عنه - على موعد مع شمس الهداية ومع نور الإلهي فقد جاءه الحبيب ﷺ بخيرى الدنيا والآخرة.

ولترك الحديث لابن مسعود - رضى الله عنه - ليقص علينا قصته مع النبي ﷺ. عن ابن مسعود قال: كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: يا غلام! هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكنى مؤتمن، قال: فهل من شاة لم

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٦١).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٦٣).

ينزُ عليها الفحل؟ - أى لا تُدر لبنًا - فأتيته بشاة، فمسح ضرعها، فنزل لبنٌ، فحلب فى إناء، فشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص - أى انضم وأمسك عن إنزال اللبن - فقلص. (زاد الإمام أحمد) قال: ثم أتيته بعد هذا، ثم اتفقا فقلت: يا رسول الله! علّمنى من هذا القول، فمسح رأسى، وقال: يرحمك الله إنك غليمٌ معلّمٌ^(١).

وفى رواية قال ابن مسعود: فأتيته بعد ذلك فقلت علمنى من هذا القول: قال: إنك غلامٌ معلّمٌ فأخذت من فيه - فمه - سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد^(٢).

لقد انبهر عبد الله بن مسعود حين رأى عبد الله الصالح ورسوله الأمين ﷺ يدعو ربه، ويمسح ضرعًا لا عهد له باللبن بعد، فإذا هو يُعطى من خير الله ورزقه لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين...!!

وما كان يدرى يومها، أنه إنما يشهد أهون المعجزات وأقلها شأنًا، وأنه عما قريب سيشهد من هذا الرسول الكريم معجزات تهز الدنيا، وتملؤها هدى ونورًا..

بل ما كان يدرى يومها، أنه وهو ذلك الغلام الفقير الضعيف الأجير الذى يرعى غنم عُبّة بن أبى معيط، سيكون إحدى هذه المعجزات، يوم يخلق الإسلام منه مؤمنًا يهزم بإيمانه كبرياء قريش، ويقهر جبروت ساداتها^(٣).

لم يمض غير قليل حتى أسلم عبد الله بن مسعود وجعل نفسه فى خدمة النبى ﷺ .
ويا لها من مكانة عظيمة تعانق كواكب الجوزاء... فبعد أن كان ابن مسعود يرعى الأغنام وإذا به ينتقل إلى خدمة سيد الأنام ﷺ .

مكانته عند الله - عز وجل -

ولقد كان - رضى الله عنه - من بين هؤلاء الصحب الكرام الذين أنزل الله فى شأنهم قرآنًا يوصى فيه النبى ﷺ بألا يطردهم من مجلسه، بل يقربهم إليه فهم الذين سيبدلون دماءهم وأموالهم وأنفسهم لنصرة هذا الدين.

عن سعد قال: كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة، فقال المشركون: اطرّد هؤلاء عنك

(١) قال الأرئؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (٣٧٩ / ١) والفسوى فى المعرفة والتاريخ (٥٣٧ / ٢).

(٢) قال الأرئؤوط: رواه ابن سعد فى الطبقات (١١١ / ٣) وأحمد (٤٦٢ / ١) وأبو نعيم فى الحلية (١ / ١٢٥) وإسناده حسن.

(٣) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٢٩).

فلا يجترئون علينا، وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان نسيت اسمهما، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله وحدث به نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] (١).

وعن حذيفة أنه قال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن عبد الله بن مسعود من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة (٢).

أول من جهر بالقرآن

بل ها هو رجل العقيدة يتحرك بتلك العقيدة التي تعانق كواكب الجوزاء ليعلم الكون كله درساً عظيماً في العمل لهذا الدين والدعوة إلى الله في أشد المواقف.

عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن - بعد رسول الله ﷺ - بمكة عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يُسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعاً بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن ١ - ٢] قال: ثم استقبلها يقرأها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن، ولئن شئت لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون (٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) (٤٦) فضائل الصحابة.

(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٥٤٨) والحاكم (٣١٥ / ٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) إسناده صحيح متصل. وذكره القرطبي في تفسيره عن عروة بن الزبير (١٤٧ / ٧) وأخرجه الطبري في تاريخه (٣٣٤، ٣٣٥ / ٢).

نشأة شي ظلال الوحي

وظل ابن مسعود - رضى الله عنه - ملازمًا للحبيب ﷺ لا يفارقه في ليله أو نهاره... في حله أو ترحاله.

فاقتبس الكثير والكثير من هدى النبي ﷺ وأخلاقه وعلمه حتى أصبح من أقرب الناس سمًا وهديًا بالنبي ﷺ.

فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «سألنا حذيفة عن رجل قريب السمّ والهدى من النبي ﷺ حتى نأخذ عنه فقال: ما أعرف أحدًا أقرب سمًا وهديًا ودلاً بالنبي ﷺ من ابن أمّ عبد» (١). (٢) - يعنى ابن مسعود -.

وبلغت مكانته - رضى الله عنه - عند النبي ﷺ درجة عظيمة لا تخطر ببال فقد أذن له النبي ﷺ بالدخول عليه متى شاء فقال له ذات مرة:

«إذنك على أن يُرفع الحجابُ وأن تستمع سوادى حتى أنهاك» (٣).
السواد: السر.

حتى إن بعض الصحابة - رضى الله عنهم - كانوا يظنون في بادئ الأمر أن ابن مسعود - رضى الله عنه - من آل بيت النبي ﷺ من كثرة دخوله عليه.

فعن الأسود بن يزيد قال: سمعت أبا موسى الأشعري - رضى الله عنه - يقول: «قَدِمْتُ أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينًا ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ» (٤). (٥)

(١) أخرجه البخارى (٣٧٦٢) والترمذى (٣٨٠٧) وأحمد (٤٠١، ٣٨٩ / ٥).

(٢) فى رواية البخارى (٦٠٩٧): إن أشبه الناس دلاً وسمًا وهديًا برسول الله ﷺ لابن أم عبد من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه لا ندرى ما يصنع فى أهله إذا خلا. قال الحافظ فى الفتح (١٠٣ / ٧): سمّا أى خشوعًا، وهديًا أى طريقة ودلاً بفتح المهملة والتشديد: أى سيرة وحالة وهيئة وكأنه مأخوذ مما يدل ظاهر حاله على حسن فعاله.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٦٩) وأحمد (٤٠٤، ٣٨٨ / ١) وابن ماجه (١٣٩).

(٤) أخرجه البخارى (٣٧٦٣) - ومسلم (٢٤٦٠) والترمذى (٣٨٠٦).

(٥) قال الحافظ فى الإصابة (٢ / ٢٦٠): أمه (أى أم عبد الله بن مسعود) أم عبد الله بنت عبد ود بن سواة أسلمت وصحبت. وقال فى الفتح (١٠٣ / ٧) وكانت تكنى أم عبد.

جهاد دني سبيل الله

ولقد شهد ابن مسعود المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما تخلف أبداً عن مشهد منها. بل لقد كان له في يوم بدر موقفاً عظيماً عندما قتل أبا جهل، وذلك بعد أن أثبتته (ابنا عفراء) فقال النبي ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟». فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال: أنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه^(١).

فائدة: ولقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات فيمن قتل أبا جهل من الأربعة المتقدمين «معاذ بن عمرو بن الجموح، معاذ ومعوذ ابني عفراء وابن مسعود» فقال: فيحتمل أن يكون معاذ بن عفراء شد عليه مع معاذ بن عمرو، كما في الصحيح وضربه بعد ذلك (معوذ) حتى أثبتته، ثم حز رأسه ابن مسعود فتجمع الأقوال كلها. اهـ^(٢).

الله يرفع بهذا القرآن أقواماً

وكان من بين هؤلاء الذي رفع الله شأنهم وأعلى قدرهم (عبد الله بن مسعود) الذي كان ملازماً للحبيب ﷺ يأخذ منه القرآن غضاً طرياً حتى أصبح واحداً من أفضل الصحابة في قراءة القرآن وعلومه، مما دعا النبي ﷺ أن يوصي أصحابه بأنه يتعلموا القرآن من عبد الله بن مسعود.

فعن مسروق قال: «ذكر عبد الله عند (عبد الله بن عمرو) فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول: استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود - فبدأ به - وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل»^(٣).

ولم لا يكون (ابن مسعود) في تلك المكانة وهو الذي أخذ القرآن من فم النبي ﷺ مباشرة، وتعلمه من نبعه الصافي... ولك أن تتخيل معي أيها الأخ الكريم أنك تسمع القرآن من فم من أنزل عليه القرآن ﷺ.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت

(١) أخرجه البخاري (٣٩٦٢ / ٧) المغازي - ومسلم (١١٨ / ٣) (١٤٢٤) واللفظ للبخاري.

(٢) فتح الباري (٣٤٥ / ٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٨) - ومسلم (٢٤٦٤) والترمذي (٣٨١٠).

ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه» (١).

وعن شقيق بن سلمة قال: «خطبنا ابن مسعود فقال: والله لقد أخذت من فيّ - فم - رسول الله ﷺ بضعة وسبعين سورة. والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أنّي من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الحلق أسمع ما يقولون فما سمعت راداً يقول غير ذلك» (٢).

كان القرآن يخرج من فمه غصاً طرياً كما أنزل

عن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرّ بين أبي بكر وعمر، وعبد الله قائم يصلي، فافتتح سورة النساء يسجلها - يقرأها قراءة مفصلة - فقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأ ابن أمّ عبد» [فأخذ] عبد الله في الدعاء. فجعل رسول الله ﷺ يقول: «سَلْ تُعْطَ». [فكان] فيما سأل: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنات الخلد... قال عمر: والله لأغدون على عبد الله ولأبشرنه بتأمين رسول الله على دعائه، فأتى عمر (عبد الله) يبشره، فوجد أبا بكر خارجاً قد سبقه، فقال: إنك لسباق بالخير» (٣).

الحبيب ﷺ يبكي لسماع القرآن من ابن مسعود - رضى الله عنه -

ولقد أحب النبي ﷺ عبد الله بن مسعود حباً شديداً كان يزداد يوماً بعد يوم، وكان يقربه إليه لما يرى فيه من أمارات الذكاء والنجابة والأخلاق الرفيعة وحسن الاتباع.

وفي مرة اشتاق الحبيب ﷺ أن يسمع القرآن من فم ابن مسعود - رضى الله عنه - ويا لها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ على القرآن. قلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١] فغمزني برجله، فإذا عيناه تذرفان» (٤).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٢) - ومسلم (٢٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٠٠) - ومسلم (٢٤٦٢).

(٣) قال الأرئؤوط: إسناده حسن: وهو في المسند (١/ ٤٤٥، ٤٥٤) وأخرجه الحاكم بنحوه (٣/ ٣١٧).

(٤) أخرجه مسلم (٨٠٠) في المسافرين - باب فضل استماع القرآن - والبخاري (٤٠٤٩) فضائل القرآن.

ساق أثقل من جبل أحد

وتتعاقب الأيام والليالي ويأتى موقف عظيم يبين للناس مكانة عبد الله بن مسعود عند الله وعند رسول الله ﷺ .

فعن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: والذي نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد^(١) - أى من جبل أحد - بل يشهد له النبي ﷺ بأنه من أهل الإيمان والتقوى.

فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا» إلى آخر الآية. قال لى رسول الله ﷺ: «قيل لى: أنت منهم»^(٢).

بل قال الحبيب ﷺ ذات مرة لأصحابه: «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمّار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود»^(٣). فكانت وصية عظيمة لأصحابه علموا من خلالها قدر ابن مسعود ومكانته ومنزلته السامقة.

ولم لا؟ ولقد كان ابن مسعود - رضى الله عنه - يتابع النبي ﷺ ويأخذ عنه القرآن حتى آخر يوم فى حياته فعلم كل شىء عن القرآن وتفوّق على غيره من الصحابة - رضى الله عنهم - فى القرآن وعلومه.

فعن أبى ظبيان قال: قال لنا ابن عباس: أى القراءتين تقرأون؟ قلنا: قراءة عبد الله. قال: إن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن فى كل عام مرة، وإنه عرض عليه فى العام الذى قبض فيه مرتين فشهد عبد الله ما نُسَخ^(٤).

(١) رواه أحمد (١/ ٤٢٠ - ٤٢١) والطبرانى فى الكبير (٩/ ٧٥) وهو صحيح بمجموع طرقه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٩) والترمذى (٣٠٥٣) وأبو يعلى (٨/ ٤٧٥ - ٤٧٦).

(٣) رواه الترمذى (٣٨١٠) وابن ماجه (٩٧) والحاكم (٣/ ٧٥) وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) رواه النسائى فى فضائل الصحابة (١٥٤) والكبرى (٥/ ٧١، ٧٢) وقال العدوى: إسناده صحيح.

جهاده وقصة مقتل أبي جهل

وظل ابن مسعود - رضى الله عنه - ملازمًا للحبيب ﷺ ثابتًا على دينه وإيمانه.. تاليًا لكتاب ربه... حافظًا لسنة حبيبه ﷺ إلى أن جاء اليوم الذى أظلمت فيه المدينة كلها بموت النبي ﷺ، فحزن عليه ابن مسعود حزنًا شديدًا، فقد كان ﷺ حبيبه ورسوله ومعلمه وأستاذه.. ففقد كل ذلك فى لحظة واحدة. وبعد وفاة النبي ﷺ كان أصحابه - رضى الله عنهم - يعلمون قدر ابن مسعود - رضى الله عنه - ويعرفون مكانته ومنزلته.

وفى عهد أمير المؤمنين (عمر) - رضى الله عنه - كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة: إننى قد بعثت إليكم عمارًا أميرًا، وابن مسعود معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى^(١).

ولقد أحبه أهل الكوفة حبًا جمًّا لم يظفر به أحدٌ قبله ولا بعده.

خوشه - رضى الله عنه - وشكاؤه

وها هى صفحة مباركة من خوفه وخشيته لله - عز وجل -.

عن مسروق قال: قال رجل عن عبد الله: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إلى. فقال عبد الله: لكن ها هنا رجل ود أنه إذا مات لا يُبعث... يعنى نفسه.

وعن الحسن قال: قال عبد الله بن مسعود: لو وقفت بين الجنة والنار فقبل لى اختر نخيرك من أيهما تكون أحب إليك أو تكون رماذا؟ لأحببت أن أكون رماذا.

وعن أبى وائل قال: قال عبد الله: وددت أن الله غفر لى ذنبًا من ذنوبى، وأنه لا يُعرف نسبى^(٢).

وعن عون بن عبد الله، عن أخيه عبيد الله قال: كان عبد الله إذا هدأت العيون، قام فسمعت له دويًّا كدوى النحل^(٣).

(١) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٨٢) والحاكم (٣ / ٣٨٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) صفة الصفوة (١ / ١٦٧).

(٣) أخرجه الفسوى فى المعرفة والتاريخ (٢ / ٥٤٨) وابن سعد (٣ / ١ / ١١٠).

تواضعه - رضى الله عنه -

عن حبيب بن أبى ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشى معك. قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبع. وعن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله لو تعلمون ما أعلم من نفسي لحشيتم على رأسى التراب (١).

توقيره للنبي ﷺ حياء وميتا

ولقد كان - رضى الله عنه - يحب النبي ﷺ حباً جما ويوقره ويخاف أن يحدث بحديث واحد يزيد فيه كلمة أو ينقص منه حرفاً. عن مسروق قال: حدثنا عبد الله يوماً فقال: قال رسول الله ﷺ فرعدت حتى رعدت ثيابه، ثم قال: نحو ذا أو شبيهاً بذا (٢).

يقول عمرو بن ميمون: [اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة، ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ، إلا أنه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه: قال رسول الله، فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدّر عن جبهته، ثم قال - مستدرّكاً - قريباً من هذا قال الرسول]...!!

ويقول علقمة بن قيس: [كان عبد الله بن مسعود يقوم عشية كل خميس متحدثاً، فما سمعته فى عشية منها يقول: قال رسول الله غير مرة واحدة.. فنظرت إليه وهو معتمد على عصا، فإذا عصاه ترتجف، وتزعزع]...!!

إيثاره ثواب الآخرة على شهوات النفس

عن الأحوص الجشمي قال: دخلنا على ابن مسعود وعنده بنون له، ثلاثة غلمان، كأنهم الدنانير حسناً، فجعلنا نتعجب من حسنتهم فقال لنا: كأنكم تغبطونى بهم. قلنا: والله إى والله، بمثل هؤلاء يغبط المرء المسلم.

فرفع رأسه إلى سقف بيت له صغير، قد عشن فيه خطاف وباض، فقال: والذي

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٨).

(٢) قال الأرئوط: رجاله ثقات: أخرجه أحمد (١/ ٤٢٣) وابن سعد (٣/ ١/ ١١١).

نفسى بيده لأن أكون قد نفضت يدي عن تراب قبورهم أحب إلى أن يسقط عثر هذا الخطاف وينكسر بيضه.

وعن قيس بن جبير قال: قال عبد الله: حبذا المكروهان الموت والفقر، وإيم الله إن هو إلا الغنى والفقر، وما أبالي بأيهما بليت، إن حق الله في كل واحد منهما واجب، وإن كان الغنى إن فيه للعطف - على المساكين - وإن كان الفقر إن فيه للصبر^(١).

مكافئته ومنزلاته هي قلوب الصحابة - رضي الله عنهم -

وعن زيد بن وهب قال: إني لجالس مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابن مسعود، فكاد الجلوس يوارونه من قصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل عمر يكلمه، ويتهلل وجهه، ويضاحكه، وهو قائم عليه، ثم ولّى، فأتبعه عمرُ بصره حتى توارى، فقال: كُنَيْفٌ مُلَى^(٢). الكنيف: الوعاء.

وفي رواية: فقال: كُنَيْفٌ مُلَى فقهًا^(٣).

بل تأمل معي أخى الكريم هذا المشهد المهيّب.

* عن الشعبي قال: ذكروا أن عمر بن الخطاب لقي ركبًا في سفر له فيهم عبد الله بن مسعود، فأمر عمر رجلاً يناديهم: من أين القوم؟ فأجابه عبد الله: أقبلنا من الفج العميق. فقال عمر: أين تريدون؟ فقال عبد الله: البيت العتيق. فقال عمر: إن فيهم عالمًا. وأمر رجلاً فناداهم: أي القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى ختم الآية.

قال: نادهم أي القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية.. فقال عمر: نادهم، أي القرآن أجمع؟ فقال ابن مسعود: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. فقال عمر: نادهم أي القرآن أخوف؟ فقال ابن

(١) صفة الصفوة (١ / ١٦٨).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١١٠) وأبو نعيم في الحلية (١ / ١٢٩) وأخرجه الفسوى (٢ / ٥٤٣) في المعرفة والتاريخ، من طريق: عبد الرزاق عن الثوري، عن الأعمش، عن زيد بن وهب،... وإسناده صحيح. وكُنَيْفٌ: تصغير كنف، وهو الوعاء، وهو تصغير تعظيم كقول الحباب بن المنذر: أنا جُذَيْلُهَا المحكك، وعُذَيْقُهَا المرجب...».

(٣) رواه الحاكم (٣ / ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

مسعود: ﴿ليس بآمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجزأ به﴾ الآية. فقال عمر: نأدهم أى القرآن أرجى؟ فقال ابن مسعود: ﴿يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ فقال عمر: نأدهم: أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: اللهم نعم^(١).

وعن حبة بن جوين قال: لما قدم (على) الكوفة، أتاه نفرٌ من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، فقال: وأنا أقول فيه مثل الذى قالوا وأفضل، قرأ القرآن، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة^(٢).

وعن أبى الأحوص، قال: أتينا أبا موسى، فوجدتُ عنده عبد الله وأبا مسعود، وهم ينظرون فى مصحف، فتحدثنا ساعة، ثم راح عبدُ الله، فقال أبو مسعود: لا والله، لا أعلم رسول الله ﷺ ترك أحداً أعلم بكتاب الله من هذا القائم^(٣). يقصد ابن مسعود.

وعن تميم بن حذلم، قال: جالست أصحاب النبى ﷺ أبا بكر وعمر، وما رأيت أحداً أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة، ولا أحب إلى أن أكون فى مسلاخه منك يا عبد الله بن مسعود.

وعن مسروق، قال: شأمت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة نفر منهم: عمر، وعلى، وعبد الله، وأبى بن كعب، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم شأمت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى رجلين: على، وعبد الله (ابن مسعود).

وعنه قال: جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذا يروى الرجل، والإخاذا يروى الرجلين، والإخاذا يروى المائة، وكالإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم. فوجدت عبد الله من ذلك الإخاذا^(٤).

وعن أبى إسحاق قال: سمعت أبا الأحوص قال: «شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين مات ابن مسعود فقال أحدهما لصاحبه: أترأه ترك بعده مثله؟ فقال: إن قلت ذاك إن كان ليؤذن له إذا حُجِبْنَا ويشهد إذا غِبْنَا»^(٥).

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٥).

(٢) قال الأرنؤوط: سنده حسن: أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ١١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٦١) (١١٣) والفسوى فى المعرفة والتاريخ (٢/ ٤١٤).

(٤) صفة الصفوة (١/ ١٦٦).

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٦١) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٥٦).

كلمات قتلاً القلب ثورا

ولا يتعجب أحدنا - بعد تلك المناقب - أن يجد ينابيع الحكمة تجري على لسان ابن مسعود - رضى الله عنه - ولذا فإننى أهدى إليكم تلك الباقية العطرة من مواعظه وكلامه النفيس.

عن معن قال: قال عبد الله بن مسعود: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدباراً، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وإدبارها».

وعن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية».

وعن منذر قال: جاء ناس من الدهاقين إلى عبد الله بن مسعود، فتعجب الناس من غلظ رقابهم وصحتهم، فقال عبد الله: «إنكم ترون الكافر من أصبح الناس جسماً وأمراضه قلباً، وتلقون المؤمن من أصبح الناس قلباً وأمراضه جسماً، وإيم الله، لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكتتم أهون على الله من الجعلان».

وعن عبد الله قال: «مع كل فرحة ترحه، وما ملئ بيت حبرة إلا ملئ عبرة».

وعن الضحاك بن مزاحم قال: قال عبد الله: «ما منكم إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة إلى أهلها»^(١).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال: أتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن، علمنى كلمات جوامع نوافع، فقال له عبد الله: لا تشرك بالله شيئاً، وزك مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه، وإن كان حبيباً قريباً.

وقال عبد الله: «الحق ثقيل مرئى، والباطل خفيف وبيء ورب شهوة تورث حزناً طويلاً».

وعن عنبس بن عقبة قال: قال عبد الله بن مسعود: «والله الذى لا إله إلا هو ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان».

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية

أذن بهلاكها».

وعن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: «من استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا تأكله السوس ولا يناله السراق فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه».

وعن القاسم قال: قال رجل لعبد الله: أوصني يا أبا عبد الرحمن قال: «ليسعك بيتك، واكفف لسانك، وابك على ذكر خطيئتك».

وعن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم.

وعن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له: أد أمانتك. فيقول: من أين يارب؟ قد ذهبت الدنيا، فتمثل على هيئتها يوم أخذها في قعر جهنم، فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها حتى إذا ظن أنه خارج بها هوت وهوى في إثرها أبد الآبدين^(١).

وعن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً فإن آمن آمن وإن كفر كفر، وإن كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: لا تكونن إمعة. قالوا: وما الإمعة؟ قال: يقول أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت.

ألا ليوطنن أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس أن لا يكفر.

وعن سليمان بن مهران قال: بينما ابن مسعود يوماً معه نفر من أصحابه إذ مر أعرابي فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه^(٢).

وعن هزيل بن شرحبيل، عن عبد الله قال: من أراد الآخرة أضرب بالدنيا، ومن أراد الدنيا، أضرب بالآخرة، يا قوم فأضربوا بالفاني للباقي^(٣).

وعن عبد الرحمن بن حنبل عن ابن مسعود - رضى الله عنه - كان يقول إذا قعد: إنكم في عمر الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، من

(١) صفة الصفوة (١/ ١٧٣).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٧٤).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات - نقلاً من السير للذهبي (١/ ٤٩٦).

زَرَعَ خَيْرًا يُوشِكُ أَنْ يَحْصُدَ رَغْبَةً، وَمَنْ زَرَعَ شَرًّا يُوشِكُ أَنْ يَحْصُدَ نَدَامَةً، وَلِكُلِّ زَارِعٍ مِثْلُ مَا زَرَعَ، لَا يُسَبِّقُ بَطْلَىءٌ بِحِظِّهِ، وَلَا يُدْرِكُ حَرِيصٌ مَا لَمْ يُقَدِّرْ لَهُ، فَمَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا، قَالَ لَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ وُقِيَ شَرًّا، قَالَ لَهُ وَقَاهُ، الْمُتَّقُونَ سَادَةٌ، وَالْفُقَهَاءُ قَادَةٌ، وَمَجَالِسُهُمْ زِيَادَةٌ.

وعن عبد الله قال: اَرْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَكُنْ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَاجْتَنِبِ الْمُحَارِمَ تَكُنْ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ، وَأَدِّ مَا افْتَرَضَ عَلَيْكَ تَكُنْ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ (١).

وَحَانُ وَقْتِ الرَّحِيلِ

وبعد حياة طويلة مليئة بالعلم والخشية والاجتهاد والبذل والتضحية والرحمة والتواضع.. نام ابن مسعود - رضى الله عنه - على فراش الموت، فَقَدْ آنَ الْأَوَانُ لِيَلْحَقَ بِحَبِيبِهِ ﷺ الَّذِي لَطَّالَمَا مَلَأَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَلَطَّالَمَا تَعَلَّمَ عَلَى يَدَيْهِ.

وبينما هو - رضى الله عنه - على فراش الموت، وإذا بعثمان بن عفان - رضى الله عنه - يَأْتِي إِلَيْهِ يَعُودُهُ - يَزُورُهُ فِي مَرَضِهِ -.

عن أبي ظبية قال: مرض عبد الله، فعاده عثمان، وقال: ما تشكى؟ قال: ذُنُوبِي، قال: فما تشتهى؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أَمْرَضْنِي، قال: ألا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه (٢).

ومات ابن مسعود بالمدينة ودُفِنَ بِالْبَقِيعِ لِيَلْحَقَ بِأَحْبَابِهِ.

فَرَضَى اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٩٧).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٩٨).

ثابت بن قيس

يا ثابتاً أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً
وتدخل الجنة

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن اليوم على موعد مع رجل كريم وصحابي جليل شرفه النبي ﷺ وكرمه أيما تكريم فقال له: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة»... ويا لها - والله - من كلمات جمعت لهذا الصحابي الجليل خيري الدنيا والآخرة... ولم لا يكون له ذلك؟ وهو الذي خاف على نفسه أن يكون من أهل النار بمجرد أن علا صوته فوق صوت رسول الله ﷺ.

إننا على موعد مع ثابت بن قيس.

* يا لها من ثلة فازت ورب الكعبة بكل المكارم. لقد علم الكثيرون من أصحاب النبي ﷺ وهو ما زال حياً يرزق أنه من أهل الجنة!!!
وأنا أسألكم بالله - جل وعلا - أي أقدام تحمل الإنسان بعد تلك البشرية ليمشي على الأرض.

ونحن الآن على موعد مع صحابي جليل من هذا الصنف الكريم الذي علم أنه من أهل الجنة.

إنه (ثابت بن قيس) سيد من سادات الخرج وكان من نجباء أصحاب محمد ﷺ وكان خطيباً للأَنْصار.

فقد كان حسان بن ثابت شاعراً للرسول ﷺ، وكان ثابت بن قيس خطيباً له ﷺ وذلك بعد إسلامه..

* كان ثابتٌ جَهِيرَ الصَّوْتِ، خَطِيبًا، شَاعِرًا، كَاتِبًا، مُفَوِّهًا، فَصِيحًا، عَلِيمًا بِمَقَامَاتِ الْكَلَامِ، قَوَّامًا بِالْكَلِمَةِ الْفَاضِلَةِ، حَبَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِسَانًا قَوُّولًا، وَقَلْبًا عَقُولًا، وَلِسَانًا

بليغاً، يدرك ما يقول في مواقف الكلام، ويعرف مكان المقاتل في ضرب الحسام، فلقد خاض عدداً من المعارك في الجاهلية، التي كانت دائرة بين قومه الخزرج وبين الأوس، وكان آخرها يوم بُعث، حيث شارك بلسانه وسنانه في تلکم المعارك، ولكن الله عز وجل أكرم الأوس والخزرج، ووحدهم تحت كلمة الأنصار، فكانوا أنصاراً لرسول الله ﷺ، ومؤيدين خلص، ومؤمنين أكارم^(١).

مؤيد مع السعادة

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل مصعب بن عمير - رضى الله عنه - إلى المدينة يقرئ أهلها القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

ونزل مصعب بن عمير بالمدينة على أسعد بن زرارة من بنى النجار فأقام عنده، وكان أسعد من النفر الخزرجيين الذين أسلموا يوم عرض الرسول ﷺ دعوته، ومن الذين حضروا بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان مصعب بن عمير مثال الداعية اللبق الفطن، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حباه الله - تعالى - الحلم والصبر والأناة، فاستطاع أن ينشر الإسلام في المدينة. وذات يوم سمع ثابت بن قيس بالداعية المكي الذي ينزل بدار أسعد بن زرارة الخزرجي، وما كاد يستمع إلى القرآن الكريم يرتله مصعب بن عمير حتى أصاح إليه بسمعه وقلبه، فأسرت معاني القرآن وروعته ليه وفؤاده وما لبث أن شرح الله صدره للإيمان، فانطلق ينطق بالشهادة، وانضوى تحت لواء الإسلام، كما أسلمت أمه «كبشة بنت واقد» وكانت ذا عقل وافر، وحكمة وروية.

كما أسلمت حبيبة بنت سهل فتزوجها ثابت بن قيس - رضى الله عنه -^(٢).
وحين قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً وأخى بين المهاجرين والأنصار كان نصيب ثابت بن قيس في المؤاخاة «عامر بن أبى البكير»^(٣).



(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٥٦٦).

(٢) الطبقات الكبرى (٨ / ٤٤٥).

(٣) عامر بن أبى البكير صحابى جليل، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، أسلم مع إخوته الثلاثة (عائل وخالد وإياس) وما شهد بدرًا إخوة أربعة سواهم. واستشهد عامر يوم اليمامة (سير أعلام النبلاء: ١ / ١٨٧).

خطيب رسول الله ﷺ

وكان ثابت بن قيس خطيباً بليغاً جهير الصوت إذا خطب وقع كلامه في القلب مباشرة بلا تردد ولا تلعثم فلما شرح الله صدره للإسلام في بادئ الأمر وعلم بقدم النبي ﷺ إلى المدينة قام يستقبل الحبيب ﷺ مع باقة عطرة من فرسان قومه.

عن أنس قال: خطب ثابت بن قيس مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فقال: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: رضينا^(١).

فأثلجت تلك الكلمة قلوب الأنصار وشرحت صدورهم.

ولم لا؟ وقد وعدهم الحبيب ﷺ بالجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومنذ ذلك اليوم وأصبح ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ، فكان إذا جاءت الوفود بخطباتها وشعرائها قام لهم ثابت بن قيس لمنازلة الخطباء.

فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حُجُرَاتِهِ:

أن اخرج إلينا يا محمد، فأذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل»، فقام عطار بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل [والمن] وهو أهل، الذي جعلنا موكَّاً، ووهب لنا أموالاً عظيماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عدَّةً، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا رؤوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك.

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس، أخى بني الحارث بن الخزرج: «قم، فأجب الرجل في خطبته»، فقام ثابت، فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً،

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٣٤) وصححه وأقره الذهبي.

وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه وأتمه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه؛ أكرم الناس حسباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعلاً. ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم^(١).

فيا لها من كلمات تنقش على صفحات القلوب بمداد من النور.

الحبيب ﷺ يبشره بالشهادة والجنة

ولقد كان ثابت - رضى الله عنه - يحمل قلباً خاشعاً مخبتاً، وكان يتحلى بالخشية والخوف من كل ما يغضب الله - عز وجل - وإذا به في يوم من الأيام يقول للحبيب ﷺ: يا رسول الله! إنني أخشى أن أكون قد هلكت، ينهانا الله أن نحب أن نحمد بما لا نفعل، وأجدني أحب الحمد. وينهانا الله عن الخيلاء، وإنني امرؤ أحب الجمال، وينهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل رفيع الصوت، فقال: «يا ثابت! أما ترضى أن تعيش حميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنة»؟^(٢).

فيا لها من بشرى لا تقوم لها الدنيا بكل ما فيها.

إنها سعادة الدنيا والآخرة: يعيش حميداً ويُقتل شهيداً ويدخل الجنة.

بل ها هي بشرى من النبي ﷺ له بالجنة مرة ثانية.

فعن أنس بن مالك أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ إلى آخر الآية... جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: «أنا من أهل النار» واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد ابن معاذ فقال: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» قال سعد: إنه لجارى وما علمت له بشكوى - مرض - قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنني

(١) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ١٨٨: ١٩٠) - السيرة لابن هشام (٤/ ١٨٧ - ١٨٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبي -

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٦٢١): إسناده قوى، لكنه مرسل.

من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة» (١).

قصة طريفة له في يوم قريظة

لقد شهد ثابت - رضي الله عنه - المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ سوى (بدر) ولقد علمنا أن الحبيب ﷺ بشره بالشهادة في سبيل الله بل وبشره بأنه من أهل الجنة.

* ويوم قريظة كان لثابت بن قيس - رضي الله عنه - قصة طريفة مع أحد اليهود الذين وقعوا في الأسر، وحكم عليهم بالإعدام، وهو الزبير بن باطا اليهودي، وكان الزبير قد من على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية في يوم بعاث، أخذه فجزأ ناصيته، ثم خلى سبيله، فجاءه ثابت يوم قريظة، وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن! - كنية الزبير - هل تعرفني؟

قال الزبير: وهل يجهل مثلي مثلك؟

قال ثابت: إنني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي يوم بعاث.

قال: إن الكريم يجزي الكريم يا أبا محمد - كنية ثابت -.

* ثم إن ثابت بن قيس أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! هب لي الزبير، فإن له على منة، وأحببت أن أجزيه بها، فقال رسول الله ﷺ: «هو لك»، فأتى ثابت الزبير وقال له: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك.

قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة!

فأتى ثابت رسول الله ﷺ فاستوهبه أهله وولده فقال ﷺ لثابت: «هم لك».

فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك.

قال الزبير: أهل بيت الحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم؟!

فأتى ثابت - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله... ماله!

قال ﷺ: «هو لك».

فأتاه ثابت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك.

قال الزبير بن باطا اليهودي: أي ثابت! ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد - ملك اليهود -؟

قال ثابت: قُتِلَ مع مَنْ قُتِلَ.

قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي؛ حى بن أخطب؟

قال ثابت: قُتِلَ.

قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا كررنا، عزال بن شمويل؟

قال: قُتِلَ.

فقال: فما فعل المجلسان - يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة -؟

قال ثابت - رضى الله عنه -: ذهبوا، وقُتِلُوا، وفرغ منهم، ولعل الله عز وجل أن يهديك.

قال الزبير: أسألك بالله ويدي عندك يا ثابت إلا ما ألحقتنى بالقوم؛ فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو نضح حتى ألقى الأحبة.

فذكر ثابت - رضى الله عنه - لرسول الله ﷺ مقالة الزبير بن باطا، فأمر به، فقدمه ثابت فضرب عنقه.

* فلماً بلغ أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - قول الزبير: ألقى الأحبة، قال - رضى الله عنه -: يلقاهم والله فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً^(١).

وهنا أنشد ثابت بن قيس - رضى الله عنه - فى تلك الحادثة، يذكر الزبير ابن باطا اليهودي فقال:

وَفَتَّ ذِمَّتِي أَنِّي كَرِيمٌ وَأَنَّنِي	صَبُورٌ إِذَا مَا الْقَوْمُ حَادُوا عَنِ الصَّبْرِ
وَكُنَّ زَبِيرٌ أَعْظَمُ النَّاسِ مَنَّةً	عَلَى فَلَمَّا شُدَّ كَوْعَاهُ بِالْأَسْرِ
أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ كَيْمَا أَفْكُهُ	وَكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ بَحْرًا لَنَا يَجْرِي ^(٢)

(١) تاريخ الطبرى (١٠٢/٢) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازى ص ٣١٦) مع الجمع والتصرف.

(٢) تاريخ الطبرى (١٠٢/٢).

موقفه النبيل في بني المصطلق

عن عائشة أم المؤمنين قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها قالت:

فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ف وقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي قال: «فهل لك في خير من ذلك؟» قالت وما هو يا رسول الله.. «أقضى كتابتك وأتزوجك» قالت: نعم يا رسول الله قال: «قد فعلت» قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله فأرسلوا ما بأيدهم قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها^(١).

وقد حدث هذا بعد أن قال ثابت بن قيس للنبي ﷺ: هي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي.. فياله من موقف نبيل لا ينسى أبداً.

شهيداً يبحث عن الشهادة

فما زال ثابت يبحث عن الشهادة في مظانها... ففي كل غزوة غزاها يقول في نفسه: لعل أنال الشهادة هنا.... وظل هكذا يتلهف شوقاً لهذا اليوم الذي يلقي الله فيه شهيداً في سبيل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

إلى أن جاءت حروب الردة التي كانت الدولة فيها في أكثر المعارك لمسلمة الكذاب حتى وصل الأمر أن اقتحموا فسطاط - خيمة - خالد بن الوليد وهموا بقتل زوجته أم تميم.

(١) رواه أحمد (٢٧٧/٦) وأبو داود (٣٩٣١) وإسناده صحيح.

وكان ثابت بن قيس وقتها هو حامل لواء الأنصار.

فلما رأى الضعف والوهن قد دبَّ في صفوف المسلمين قام فقال: أوفَّ لهؤلاء ولما يعبدون! وأوفَّ لهؤلاء ولما يصنعون! يا معشر الأنصار، خلُّوا سُنَّتِي لعلِّي أصلي بحرَّها ساعة، ورجل قائم على ثُلَمَةٍ، فقتله وقتل.

وعن أنس قال: جثته وهو يتحنط، فقلت: ألا ترى؟ فقال: الآن يا ابن أخي. ثم أقبل، فقال: هكذا عن وجوهنا نقارعُ القوم، بثَّس ما عودتكم أقرانكم، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، فقاتل حتى قُتل^(١).

وعن أنس: أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة، وقد تحنَّط وليس ثوبين أبيضين، فكفَّن فيهما، وقد انهزم القوم، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وأعتذر من صنع هؤلاء، بثَّس ما عودتكم أقرانكم، خلُّوا بيننا وبينهم ساعة، فحمل، فقاتل حتى قُتل^(٢).

وخرَّ البطل صريعاً على أرض الشرف والجهاد، وقد نال الشهادة التي لطالما كان يتمناها والتي بشره بها حبيبه ﷺ. وأسلم البطل نفسه ليكون في حواصل طير خضر تأوى إلى تلك القناديل المعلقة عند عرش الرحمن وليسرح في أنهار الجنة وليكون من تلك الثلة المؤمنة ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

لك الله يا ثابت من فارس مغوار وبطل كرّار.. تلبس الكفن ببطولة وفداثة، وغيرك من أقزام عصرنا أولى بلبس الكفن من الأموات ذلاً وخزياً وهواناً!!

لقد جفت سواقينا وهدَّ الذلُّ مأوانا

ولم يترك لنا الأعداءُ غرساً في أراضينا

سوى أجياف موتانا

أخي إن ضجَّ بعد الحرب (يهودي) بأعماله

وقدس ذكرٌ من ماتوا وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٥) الجهاد.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤ - ٢٣٥) وصححه ووافقه الذهبي.

بل اتبعنى لنحضر خندقاً بالرفش والمعول
نُوارى فيه موتانا

بل اركع خاشعاً مثلى لنبكى حظَّ موتانا
أخى مَنْ نحن لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنا إذا قمنا ردانا الحزى والعمارُ
لقد خُمّت بنا الدنيا كما خُمّت بموتانا
فهاجِ الرفش واتبعنى لنحضر خندقاً آخرُ
نوارى فيه أحياناً^(١)

وهكذا نال ثابت بن قيس الشهادة في سبيل الله مع ثلَّة من الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - وكان دماءهم التى سالت على أرض المعركة كانت بداية النصر الكبير من الله - عز وجل - لمن خرجوا من ديارهم لا يرجون إلا أن تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى^(٢).

لقد نال ثابت الشهادة في سبيل الله بعد أن ترك أثراً حميداً لمن بعده، وفتح ثغرة في صفوف العدو، استطاع فرسان المسلمين من خلالها أن ينفذوا إلى قلب الأعداء وينتصروا عليهم.

لقد كان ثابتٌ من الرجال النجباء الذين صهرهم الإسلام ونقَّاهم، وهو أحد الذين تخرجوا من مدرسة الإسلام الأولى، وتشربت قلوبهم مبادئه، فكانوا من الصفوة المختارة التى مدحها رسول الله ﷺ وأثنى عليها، وقال فيه: «نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس»^(٣).

ولم يتوقف عطاء ثابت بن قيس بعد أن سقط شهيداً في ساحة الإيمان؛ لأن غراسه ما تزال تؤتى أكلها، فقد كان له من البنين ثلاثة: محمد ويحيى وعبد الله، رباهم على حب الجهاد والموت في سبيل الله، فقتلوا جميعاً في سبيل الله^(٤)، ونالوا شرف الشهادة،

(١) علو الهمة / د. سيد حسين (٣ / ٣٤٥ - ٣٤٦).

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٧٥).

(٣) أخرجه الترمذى والحاكم (٣ / ٢٣٣) وصححه ووافقه الذهبى - صحيح الجامع (٦٧٧٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (١ / ٣١٣).

وسالت دماؤهم الطاهرة فوارة لتروى الثرى الطيب، وليكونوا نموذج صدق لمن يريد العزة والكرامة ممن يأتي بعدهم. وهكذا سجل اسم ثابت بن قيس - رضى الله عنه - فى سجل أولئك الرجل الأفذاذ الذين ضربوا أروع الأمثلة فى الإسلام، وكانوا بحق ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

تتشييد وصيته بهذا الوقت !!!

لما استشهد ثابت - رضى الله عنه - رآه رجل - أى فى المنام - فقال له: «إنى لما قُلتُ، انتزع درعى رجل من المسلمين، وخبأه، فأكبَّ عليه برمة^(١)، وجعل عليها رحلاً، فأتى الأمير، فأخبره، وإياك أن تقول: هذا حلم، فتضيعه، وإذا أتيت المدينة، فقل لخليفة رسول الله ﷺ: إن على من الدين كذا وكذا، وغلami فلان عتيق، وإياك أن تقول هذا حلم، فتضيعه، فأتاه فأخبره الخبر، فنفذ وصيته!!

فلا نعلم أحداً بعدما مات أنفذت وصيته غير ثابت بن قيس - رضى الله عنه -^(٢).

فرضى الله على ثابت ومن سائر الصحابة أجمعين

(١) البرمة: قدر من الحجارة.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٥) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٢) وقال: رواه الطبرانى، وبنت ثابت بن

قيس لم أعرفها، وبقية رجاله ثقات. وقال البوصيرى: أصله فى البخارى (٣٦١٣) و(٤٨٤٦) ومسلم

(١١٩).

أبو طلحة الأنصاري

لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل

محمد رسول الله ﷺ

إننا مع كل صفحة من هذا الكتاب نعيش فيها بأرواحنا مع واحد من هؤلاء الأتقياء الأنقياء الذين ربّاهم الحبيب ﷺ على العقيدة الراسخة والإيمان الذي لا تزعه الجبال.... وكأننا نظير فوق السحاب ونلامس كواكب الجوزاء بمجرد أن نتعاش مع صفحة مضيئة من حياتهم.

ولذلك قال الحبيب ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» (١).

وها نحن نعيش، بل ونتعاش مع رجلٍ أسلم لله - جل وعلا - وكان إسلامه مهراً لامرأة من نساء أهل الجنة.

إنه أبو طلحة الأنصاري صاحبُ رسول الله ﷺ، ومن بنى أخواله، وأحدُ أعيان البدرين وأحدُ النُّقباء الاثنى عشر ليلة العقبة.

قصة إسلامه.. وزواجه من أم سليم

لقد أسلمت أم سليم - رضى الله عنها - وكان زوجها مالك - والد أنس - ما زال كافراً.. وذات مرة سمع مالك زوجته تردد بعزيمة أقوى من الصخر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، خرج من البيت غاضباً فلقبه عدو له فقتله.

ولما علمت أم سليم، بمقتل زوجها احتسبت وقالت: لا جرم، لا أفطم أنساً حتى يدع الثدى، ولا أتزوج حتى يأمرني أنس.

وذهبت أم أنس إلى الرسول ﷺ على استحياء وعرضت عليه أن يكون أنس خادماً

(١) أخرجه البخاري عن عائشة - ومسلم وأحمد عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٢٧٦٨).

عنده، فرحب وأقر عينها بذلك.

ومضى الناس يتحدثون عن أنس بن مالك وأمه بإعجاب وتقدير... ويسمع أبو طلحة بالخبر، فيتقدم للزواج من أم سليم ويعرض عليها مهرًا غاليًا، إلا أن المفاجأة أذهلته وعقلت لسانه عندما رفضت أم سليم كل ذلك بعزة وكرامة، وهي تقول: إنه لا ينبغي أن أتزوج مشرکًا، أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها آل فلان، وإنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحتقرت^(١). فأحس أبو طلحة بضيق شديد، فانصرف وهو لا يكاد يصدق ما يرى ويسمع، لكنه عاد في اليوم التالي يمنيها بمهر أكبر وعيشة رغيدة عساها تلين وتقبل. ولكن أم سليم الداعية اللبية الذكية - التي ترى الدنيا تتراقص أمام عينيها، حيث المال والجاه والشباب - تشعر بأن قلعة الإسلام في قلبها أقوى من كل نعيم الدنيا، فقالت بأدب جم: «والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرد ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهري ولا أسألك غيره»^(٢).

لقد هزت هذه الكلمات أعماقه وملأت كيانه، فقد تمكنت أم سليم من قلبه تمامًا، فليست هي المرأة اللعوب التي تنهار أمام المغريات. إنها المرأة العاقلة التي تفرض وجودها، وهل يجد خيرًا منها تكون زوجًا له، وأما لأولاده؟^(٣)

فألقي الله الإسلام في قلبه وأحسَّ بعظمة هذا الدين الذي يجعل تلکم المرأة لا تتأثر بمغريات الدنيا وزيتها، بل إنها تستعلى بإيمانها فوق ذلك كله.

فأراد أبو طلحة أن يعلن إسلامه فقال لها: فمن لي بذلك؟ قالت: النبي ﷺ. فانطلق يريد. فقال النبي ﷺ: «جاءكم أبو طلحة وغرة الإسلام بين عيني»^(٤).

ما شعر إلا ولسانه يردد (أنا على مثل ما أنت عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله). فالتفت أم سليم إلى ابنها أنس، وهي تقول بسعادة بالغة بعد أن هدى الله على يديها أبا طلحة: قم يا أنس فزوج أبا طلحة... فزوجها، وكان صداقها الإسلام.

(١) الطبقات لابن سعد (٨ / ٤٢٦) - الإصابة لابن حجر (٨ / ٣٤٣) بتصرف.

(٢) الإصابة لابن حجر (٨ / ٢٤٣) - الحلية (٢ / ٥٩ - ٦٠) بتصرف.

(٣) إنها الجنة يا أختاه / للمصنف (ص ٣٠) ط. دار الفردوس.

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده (٢ / ١٥٩، ١٦٠).

وبذلك قال ثابت - راوى الحديث عن أنس - : فما سمعنا بمهرٍ كان قط أكرم من مهر أم سليم : الإسلام^(١) - أى كان مهرها الإسلام - .

ومنذ تلك اللحظة عاش أبو طلحة - رضى الله عنه - فى رحاب الوحي ونوره وخالط الإيمان شغاف قلبه حتى أحسَّ وكأنه أسعد إنسان فى الدنيا كلها. ولمَ لا؟ وهو يعيش فى جنة الدنيا بإيمانه، بل وتعيش فى بيته امرأة من أهل الجنة!!!

فقد قال ﷺ ذات مرة: «دخلت الجنة فسمعت خشفةً بين يديّ فقلت: ما هذه الخشفة؟ فقيل: الغميصاء بنت ملحان»^(٢).

والغميصاء بنت ملحان هى أم سليم - رضى الله عنها - .
وفوق هذا النعيم كله أنه أحبَّ رسول الله ﷺ حبًّا ملكَ عليه فؤاده وجوارحه حتى كان يتمنى فى أى لحظة أن يفديه بنفسه وماله وبكل ما يملك.

ولقد كان (أبو طلحة) أحد السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة ومعه زوجه (أم سليم)، بل كان أحد النُّبَّاء الاثنى عشر الذين أمرهم الرسول ﷺ فى تلك الليلة على مسلمى «يثرب».

إنهما يؤففى الصابرون أجورهم بغير حساب

وشاء الله - عز وجل - أن يرزقه بولدٍ من أم سليم ملاً عليهما حياتهما.
وشاء الله أن يمتحنهما بهذا الطفل الجميل، فمرض الولد مرضاً شديداً، وذات مرة خرج أبو طلحة فمات الولد فتلفت (أم سليم) موت ابنها بصبرٍ وثباتٍ ورضاءٍ بقضاء الله فقالت: الحمد لله إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهنا أترك الحديث لأنس بن مالك - رضى الله عنه - ليقص علينا القصة كاملة.
فعن أنس - رضى الله عنه - قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. قال: فجاء فقربت إليه عشاءً فأكل وشرب، فقال: ثم تصنَّعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا

(١) قال الأرئؤوط: إسناده صحيح: أخرجه عبد الرزاق (١٠٤١٧) والطيالسى فى مسنده (٢٥٩٠).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس - صحيح الجامع (٣٣٦٨).

عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب وقال: تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما» قال: فحملت. قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً^(١) فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ قال: يقول أبو طلحة: إنك لتعلم يارب إنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجده الذي كنت أجده، انطلق، فانطلقنا قال: وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاماً فقالت لى أمى: يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ قال: فصادفته ومعه ميسم. فلما رآني قال: «لعل أم سليم ولدت» قلت: نعم فوضع الميسم قال: وجئت به فوضعت في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه - فمه - حتى ذابت ثم قذفها في (فى) الصبى، فجعل الصبى يتلمظها قال: فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى حب الأنصار التمر» قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله^(٢).

قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد حفظوا القرآن^(٣).

فيا لها من ذرية مباركة، ويا له من أجر عظيم في الدنيا لمن صبر على البلاء - هذا مع الخير الذى ينتظره فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر -

صُفُوحَاتُ مَشْرِقَةِ مَنْ جِهَادِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ

هو الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «لصوتُ أبى طلحة فى الجيش خيرٌ من ألف رجل»^(٤).

(١) يعنى لا يدخل على أهل بيته فى الليل إلا بعد أن يُخبرهم فينزل أولاً على المسجد فيصلى ركعتين. وهذا من أدبه ﷺ حتى تتجهز المرأة لزوجها فلا يرى منها ما يكره.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٤) عن أنس - رضى الله عنه -

(٣) أخرجه البخارى (٢٦٩ / ٣) الجناز - ومسلم (١٢٤ / ١٢٥).

(٤) صحيح، رواه الحاكم وابن عساكر عن جابر، وصححه الألبانى فى الصحيحة رقم (١٢٧٥) وصحيح الجامع (٥٠٨١).

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من فئة» (١).

بربك قل لى: إن كان هذا حال صوته، فكيف زنده ونبله، وسيفه ورمحه؟! لقد كان أبو طلحة - رضى الله عنه - ممن شهدوا بدرًا وأبلى في تلك الغزوة بلاءً حسنًا.

وفى يوم (أحد) كان من الأبطال الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ودافع عنه بكل ما يملك. عن أنس قال: لما كان يوم أحد، انهزم ناسٌ عن رسول الله، وأبو طلحة بين يديه مُجَوِّبًا عليه بحجفة، وكان راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة. وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل، فيقول ﷺ: «انثرها لأبى طلحة». ثم يُشرف إلى القوم. فيقول أبو طلحة: يا نبي الله، بأبى أنت، لا تُشرف، لا يُصيبك سهم، نحرى دون نحرِكَ.

قال: فلقد رأيتُ عائشة وأم سليم وإنهما لمُشمِرات (٢)، أرى خدام سوقهما، تنقُزان القُربُ على مُتُونهما، وتُفرغانها في أفواه القوم، وترجعان، فتملأنها. فلقد وقع السيفُ من يد أبى طلحة مرتين أو ثلاثًا من النَّعاس (٣).

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: «كان أبو طلحة يترس مع النبي ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى يشرف النبي ﷺ فينظر إلى موضع نبله» (٤). (٥)

عن أنس - رضى الله عنه - أن أبا طلحة كان يرمى بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد،

(١) صحيح، رواه أحمد والحاكم وابن سعد وأبو نعيم في الحلية والخطيب وابن عساكر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٠٨٢).

(٢) المشمرات: من التشمير.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨، ٢٧٩) في المغازي: باب غزوة أحد. والحجفة: الترس. ومُجَوِّبًا: يضم الميم وفتح الجيم وتشديد الواو المكسورة، أى مترسًا عليه. وخدم سوقهما، هى، الخلاخيل، جمع خدمة. تنقُزان: ثبان، والنقز: الوثب والقفز، كناية عن سرعة السير.

(٤) عند عبد بن حميد في المنتخب من الزيادة (من طريق ثابت عن أنس)، وكان أبو طلحة يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده ويقول يا رسول الله هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله إني قوى جلد فوجهنى فى حوائجك وابعثنى حيث شئت. وسندها صحيح.

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٠٢) وأحمد (٢٦٥ / ٣).

وكان رجلاً رامياً، وكان رسول الله ﷺ إذا رمى أبو طلحة، رفع بصره ينظر أين يقع سهمه. وكان يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده، ويقول: يا رسول الله، هكذا لا يصيبك سهم^(١).

وكان إذا بقي مع النبي ﷺ، جثا بين يديه، وقال: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء.

وفى يوم حنين

«وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سُلْبُهُ». فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم^(٢).

إنفاقه في سبيل الله تعالى

وكان - رضى الله عنه - كريماً لا يضمن ولا يبخل بالمال أبداً.

فعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ» قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ» وإن أحب أموالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال: فقال رسول الله ﷺ: «بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه^(٣).

(١) قال الأرئؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٢٨٦، ٢٨٧) وابن سعد (٣/ ٥٠٦).

(٢) قال الأرئؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أبو داود، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦١) - ومسلم (٩٩٨) وأحمد (٣/ ١٤١).

أبو طلحة يُختلِعُ بِشَهرِ النَّبِيِّ ﷺ

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة ثم انصرف إلى البدن فتحرها، والحجام جالس وقال بيده على رأسه فحلق شقه الأيمن فقسمه فيمن يليه ثم قال: «أحلق الشق الآخر» فقال: «أين أبو طلحة» فأعطاه إياه^(١).

ويا لها من منقبة عظيمة أن يخصّه الحبيب ﷺ من بين الصحابة - رضى الله عنه - بتلك الهدية الغالية.

عبادته - رضى الله عنه -

وعاش أبو طلحة - رضى الله عنه - حياته عابداً صائماً قائماً مجاهداً في سبيل الله.
عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سرّد الصوم بعد وفاة رسول الله ﷺ أربعين سنة لا يفطر إلا يوم فطر أو أضحى أو فى مرض^(٢).
وفى رواية عن أنس قال: كان أبو طلحة بعد النبى ﷺ لا يُفطر إلا فى سفرٍ أو مرضٍ^(٣).

كرامة ثابتة لأبى طلحة بعد موته

وها هو فى آخر أيامه - رضى الله عنه - لكن شيخوخته ما حالت بينه وبين الجهاد فى سبيل الله حتى آخر قطرة من دمه.

عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة (براءة) فأتى على هذه الآية ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فقال: ألا أرى ربي يستغفرنى شاباً وشيخاً؟ جهزوني.

فقال له بنوه: قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى قبض، وغزوت مع أبى بكر حتى مات، وغزوت مع عمر، فنحن نغزو عنك فقال: جهّزوني فجهّزوه، فركب البحر فمات

(١) أخرجه مسلم (١٣٠٥) والترمذى فى الحج (٧٣) وأبو داود (١٩٨١).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٣/ ٣٥٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

(٣) قال الأرئؤوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٣/ ٥٠٦).

فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد سبعة أيام فلم يتغير^(١).
وهناك في هذا المكان البعيد عن الأهل والعشيرة والأصحاب يُدفن أبو طلحة.
وإن كان مكانه بعيداً عن أعيننا إلا أنه ليس بعيداً عن عين الله - جل وعلا - الذي
سيجبر كسره يوم القيامة في جنات النعيم مع الحبيب ﷺ وأصحابه - رضی الله عنهم -.

فرضى الله عن أبي طلحة وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٥٣) وابن حبان (٢٢٥١) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣١٣) وقال: رواه أبو
يعلى ورجاله رجال الصحيح.

بلال بن رباح

سمع النبي ﷺ صوت نعليه في الجنة

وها نحن اليوم على موعد مع رجل سمع النبي ﷺ صوت نعليه في الجنة... إنه الرجل الذي رفع الأذان بصوته فوق الكعبة في بيت الله الحرام... بل إنه الرجل الذي اشتاقت إليه جنة الرحمن جل جلاله.

إننا اليوم على موعد مع صوت الإسلام بلال بن أبي رباح.

إن اسم «بلال» - رضى الله عنه - لا يسمعه أحدٌ في الكون كله إلا ويشعر بمعنى العزة والاستعلاء على حظوظ النفس. إنك لا تكاد تجد مسلماً في هذا الكون على مدار السنين واختلاف الأماكن إلا وهو يعرف بلالاً.

إنه صوت الإسلام الذي بدأ في مكة ووصل إلى أطراف الأرض في الصين وأستراليا والأمريكتين وجنوب إفريقيا.

إنه بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق، ومؤذن رسول الله ﷺ.

من السابقين الأولين الذين عُدُّوا في الله، شهد بدرًا، وشهد له النبي ﷺ على التعيين بالجنة.

فضل الأذان

وقبل أن نبدأ تلك القصة التي يحلو ذكرها والله في كل وقت وحين. أريد أن أذكر بعض الأحاديث التي ذكرها الحبيب ﷺ في فضل الأذان لكي نعلم قدر الرجل الذي سنذكر سيرته.

قال ﷺ: «من أذن ثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة، وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة، وبإقامته ثلاثون حسنة»^(١).

(١) رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٠٢).

- وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مدَّ صوته وأجره مثل أجر من صلى معه» (١).
- وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطبٍ ويابس» (٢).
- وقال ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة» (٣).

قصة إسلامه

وتعالوا بنا لنبدأ تلك القصة المباركة من أولها.

لقد كان بلالٌ عبدًا لأناسٍ من بنى جُمَحَ بمكة، فقد كانت أمُّه إحدى إماءهم وجواريهم.

وكان يترامى إلى سمعه أخبار النبي ﷺ، حيث كان يسمع أمية بن خلف - وهو أحد شيوخ بنى جُمَحَ - وهو يتحدث مع أصدقائه ورجال قبيلته عن الحبيب ﷺ وقلوبهم تمتلئ غيظًا وكُرهاً له.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا لا ينكرون أبدًا أمانة النبي ﷺ ولا رجولته ولا أخلاقه الطيبة ولا صدقه ورجاحة عقله... وكل ذلك يصل إلى سمع بلال - رضى الله عنه - حتى أحسَّ من داخله بأن هذا الدين هو الدين الحق وبأن هذا النبي ﷺ هو طوق النجاة الذى أرسله الله إلى تلك الأمة ليتشعلها من أوحال الجاهلية إلى أنوار التوحيد، ومن ثم إلى جنة الرحمن - جل وعلا -.

ويستجيب بلال لنداء الحق ويُفسح قلبه كله ليقبل هذا النور الذى جاء به الحبيب ﷺ من عند ربه - جل وعلا -.

فيذهب إلى النبي ﷺ ويُعلن إسلامه فيشعر وكأنه وكَّد في تلك اللحظة.

يُستشهد به العذاب فى سبيل الله

وما هى إلا ساعات معدودة حتى شاع خبر إسلامه - رضى الله عنه - وإذا بهؤلاء الذين نفخ الشيطان فى عقولهم، فظنوا أنهم هم السادة مع أنهم عبيدٌ لشهوات بطونهم وفروجهم... يعرفون خبر إسلام بلال - رضى الله عنه - فيصبون عليه العذاب صبا، ولا

- (١) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أُمَامَةَ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٣).
- (٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٤).
- (٣) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه عن معاوية - صحيح الجامع (٦٦٤٥).

يرقبون فيه إلا ولا ذمة.

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد - رضي الله عنهم -، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ^(١).

وروى ابن إسحاق وهو يصف شيئاً من عذاب قریش لبلال - رضي الله عنه - وغيره من المستضعفين.

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عدواً على من أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم.

وكان بلال، مولى أبي بكر - رضي الله عنهما - لبعض بنى جمح مؤلداً من مولديهم، وهو بلال بن رباح، وكان اسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة ابن جمح يخرجهم إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: [لا والله] لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى؛ فيقول وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ^(٢).

وهكذا يستعلى بلال - رضي الله عنه - بإيمانه بالله - جل وعلا - فكان يستعذب العذاب في سبيل الله مع أن الله قد رخص للمؤمنين وقتها أن ينطقوا بكلمة الكفر طالما أن قلبهم مطمئن بالإيمان لكي ينجو كل واحد منهم من بطش هؤلاء المجرمين، ولكن بلال كره أن يشمت أعداء الإسلام بالإسلام وأهله وأراد أن يعرف الكون كله أن المؤمن

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩) وابن عبد البر في الاستيعاب.

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٢).

لو اجتمعت عليه الدنيا بأسرها فلن تستطيع أن تحرك ذرة واحدة من جبال الإيمان الراسخة في قلبه... وذلك لأن الذي ثبتت تلك الجبال هو الخالق - جل جلاله -.

أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا

و ذات مرة يمر أبو بكر - رضى الله عنه - فيجد بلالاً - رضى الله عنه - يُعَذَّب في رمضاء مكة، وقد هانت عليه نفسه في سبيل الله وهو يردد هذا النداء الخالد: أحد... أحد.

فيذهب أبو بكر في التو واللحظة ويصفى التجارات ويأتى بالأموال ليشتري العبيد والأرقاء ليعتقهم خشية أن يفتنوا في دينهم.

قال عطاء الخراساني: كنت عند ابن المسيب فذكر بلالاً، فقال: كان شحيحاً على دينه، وكان يُعَذَّب في الله، فلقى النبي ﷺ فقال: لو كان عندنا شيء، ابتعنا بلالاً، فلقى أبو بكر (العباس)، فقال اشتر لي بلالاً، فاشتراه العباس، وبعث به إلى أبي بكر، فأعتقه (١).

وفي السيرة أن أبا بكر اشتراه بعبد أسود مشرك من أمية بن خلف (٢).

وعن ابن سيرين أن بلالاً لما ظهر مواليه على إسلامه مَطَّوهُ في الشمس، وعذَّبوه، وجعلوا يقولون: إلهك اللات والعزى، وهو يقول: أحدٌ أحد. فبلغ أبا بكر، فأتاهم، فقال: علام تقتلونونه؟ فإنه غير مطيعكم، قالوا: اشتريه. فاشتراه بسبع أواق، فأعتقه (٣).

وعن قيس قال: اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون في الحجارة بخمس أواق ذهباً، فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه، قال: لو أبيتُم إلا مئة أوقية لأخذته (٤).

فكان عمر - رضى الله عنه - إذا ذكر عنده أبو بكر قال: «أبو بكر سيدنا وأعتق بلالاً سيدنا» (٥).

بل لقد قال المفسرون في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾

(١) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٣٢) - وهو في أسد الغابة (١/ ٢٤٣).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٣١٨).

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ١ / ١٦٥) - ومطَّ الشئ يمطه مطاً إذا مدّه.

(٤) أخرجه ابن نعيم في الحلية (١/ ١٥٠) - نقلاً من السير للذهبي (١/ ٣٥٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٤) المناقب - وابن سعد (٣/ ١ / ١٦٦).

إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى».

قالوا: نزلت الآيات في حق أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليدّ كانت له عنده فنزلت ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾ (١).

وهكذا يكتب الله النجاة لبلال من أيدي المشركين ليبدأ حياة جديدة في رحاب الإيمان وفي صحبة سيد الأنام ﷺ... فأخذ بلال ينهل من هذا النبع الصافي مباشرة إلى أن جاء الوقت الذي أراد الله فيه أن يثلج صدره ويعلى قدره.

القرآن ينزل فيه - رضى الله عنه -

عن سعد، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون: اطرده هؤلاء عنك فلا يجترؤن علينا، وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل وآخران، فأنزل الله:

﴿ولا تشره الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣] (٢).

الله يغضب لغضبه - رضى الله عنه -

فها هي مكرمة لا تقوم لها الدنيا بكل ما فيها وذلك عندما أخبر الحبيب ﷺ أن الله يغضب لغضب بلال.

فعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله! ما أخذت سيوف الله من عنق نذو الله مأخذها قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم... لكن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

«فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخواناه! أغضبتكم؟ قالوا: لا. يغفر الله لك يا أخى» (٣).

فيا لها من مناقب لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاع زائل.

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٥٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٣) (٤٦) فضائل الصحابة - وابن ماجه (٤١٢٨) الزهد.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) - والنسائي في فضائل الصحابة (١٧٢).

الجنة تشتاق إلى بلال - رضى الله عنه -

ويعيش بلال - رضى الله عنه - بل ويتعايش مع الإسلام قلبًا وقالبا حتى أحبه النبي ﷺ حبًا يعجز القلم عن وصفه.

وذات مرة دخل النبي ﷺ على بلال وعنده صبرة من تمر قال: ما هذا يا بلال؟ قال: يا رسول الله ادخرته لك ولضيفانك. فقال: أما تخشى أن يكون له بخار في النار؟ أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا^(١).

ويأتى النبي ﷺ مرة أخرى بأعظم بشرى لبلال - رضى الله عنه - فيقول ﷺ «اشتأقت الجنة إلى ثلاثة: على وعمار وبلال»^(٢).

الله أكبر!!!... الجنة تشتاق إلى بلال!!!.

كيف استطاع بلال - رضى الله عنه - بعد تلك البشرى أن تحمله قدماء ليمشى على الأرض بين الناس؟!.

فمنذ فترة يسيرة كان عبداً حبشياً، والآن أصبح معروفاً في الأرض، بل وفي السماوات حتى اشتأقت الجنة إليه.

إن كثيرين من عليّة البشر، وذوى الجاه والنفوذ والثروة فيهم، لم يظفروا بمعشار الخلود الذى ظفر به «بلال» العبد الحبشى...!!

بل إن كثيرين من أبطال التاريخ لم ينالوا من الشهرة التاريخية بعض الذى ناله بلال. إن سواد بشرته وتواضع حسبه ونسبه وهوانه على الناس كعبد رقيق لم يحرمه حين أثر الإسلام ديناً من أن يتبوا المكان الرفيع الذى يؤهله له صدقه وبقينه وطهره وتفانيه^(٣).

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود والبخارى عن بلال وعن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥١٢).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٩٨) المناقب - والحاكم (١٣٧ / ٣) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) رجال حول الرسول ﷺ (ص ١٠٣ - ١٠٤) بتصرف.

النبي ﷺ يسمع صوت نعليه في الجنة

بل تصبح تلك البشرى حقيقة يسمعها النبي ﷺ بأذنيه.

فعن بريدة - رضي الله عنه - قال: «دعا رسول الله ﷺ بلالاً، فقال: يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ إني دخلت الجنة البارحة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر من ذهب مُربع فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: فأنا محمد. لمن هذا القصر؟ قالوا لرجل من العرب. قلت: أنا عربي. لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قريش. قلت: فأنا قرشي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب. فقال بلال: يا رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها، فقال رسول الله ﷺ: بهذا» (١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - «أن النبي، قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة. قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي» (٢).

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال النبي ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيت قصراً بفناءه جارية فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك. فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار» (٣).

قلت: وهذا كله ثمرة من ثمرات المداومة على العمل الصالح.

والجزاء من جنس العمل.

قال ابن حجر في الفتح: لما مشى بالأذان بين يدي النبي ﷺ فاتفق مثله في الجنة. ولا يلزم من ذلك دخول بلال الجنة قبل النبي ﷺ؛ لأنه في مقام التابع، وكأنه أشار

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠ / ٥) والترمذي (٣٦٨٩) والحاكم في المستدرک (٢٨٥ / ٣) وقال: صحيح على

شرط الشيخين، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٩) - ومسلم (٢٤٥٨) - قال أبو عبد الله: دف نعليك: يعني تحريك نعليك.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٩) ومسلم مختصراً (٢٤٥٧).

إلى بقاء بلال على ما كان عليه حال حياته، واستمراره على قرب منزلته، وفيه منقبة عظيمة لبلال^(١).

الهجرة المباركة

ولما أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة المباركة إلى المدينة هاجر «بلال» - رضى الله عنه - مع من هاجر من الصحابة - رضى الله عنهم -

ونزل في رحاب الأنصار الذين مدحهم الله تعالى بقوله:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَوْتَوْا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنُ نَفْسِهِ فَأْذَنَكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وما إن وصل بلال إلى المدينة المنورة حتى أصابته الحمى.

قالت عائشة: لما قدم النبي ﷺ المدينة، وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ أَمْرٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ والموتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أُلْقِعَ عنه يرفع عقيرته^(٢) ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتُ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوْلَى إِذْخِرَ^(٣) وَجَلِيلُ

وَهَلْ أُرِدْتُ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَةٍ^(٤) وَهَلْ يَبْدُون لِي شَامَةً وَطَفِيلُ^(٥)

اللهم العن عتبة، وشيبة، وأميه بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء^(٦).

(١) فتح الباري (٣/ ٤٣).

(٢) يرفع عقيرته: يرفع صوته.

(٣) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

(٤) مجنة: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية.

(٥) شامة وطفيل: جبلان بقرب مكة.

(٦) أخرجه البخاري (١٨٨٩) في فضائل المدينة: باب (١٢)، و(٣٩٢٦) في مناقب الأنصار: باب مقدم النبي

ﷺ وأصحابه المدينة، و(٥٦٥٤) في المرض: باب عيادة الرجال النساء، و(٥٦٧٧) فيه: باب من دعا برفع

الوباء والحمى. وأحمد (٦/ ٢٦٠)، وابن سعد (٣/ ١ / ١٦٥) كلهم من طريق: هشام، عن أبيه، عن =

فكان بلال - رضى الله عنه - يحنّ ويشتاق إلى مكة، على الرغم من العذاب الذى كان يعانيه فيها، لكنه لم ينسَ أبداً أنه ذاق حلاوة الإيمان لأول مرة فى حياته - فى مكة -.

بداية الأذان

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: «كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يوماً فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أو لا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة.

وبداية الأذان لها قصة تطيب القلوب بذكرها.

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، استحکم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفُرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفُرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله ﷺ - حين قدمها - إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواعيتها، بغير دعوة، فهم رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه؛ ثم أمر بالناقوس، فنُحت ليُضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، أخو بلحارث بن الخزرج (النداء) - الأذان - فأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله [إنه] طاف بى هذه الليلة طائف: مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده، فقلت [له]: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها

= عائشة... وتماه، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا فى صاعنا، وفى مدنا، وصححها لنا، وانقل حماتها إلى الجحفة.

عليه، فليؤذن بها، فإنه أُنْدى صوتًا منك». فلما أُذِنَ بها بلالٌ سمعها عمرُ بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجرُّ رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد [على ذلك]» (١).

وبذلك كان بلال - رضى الله عنه - أول مؤذن في الإسلام.

الله يقتصص لبلال من أمية بن خلف في يوم «بدر»

ولقد شهد بلال مع نبيه ﷺ غزوة بدر، وقاتل فيها قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حسناً. وشاء الله - عز وجل - أن يقتصص له من «أمية بن خلف» الذي كان يعذبه في رمضان مكة.

وها هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - يقص علينا كيف مكّن الله لبلال من أمية بن خلف.

قال عبد الرحمن بن عوف: كان أمية بن خلف صديقاً لى بمكة، وكان اسمى عبد عمرو، فتسميت - حين أسلمت - عبد الرحمن.... حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقفٌ مع ابنه، على بن أمية، آخذ بيده، ومعى أذراع، قد استلبتها، فأنا أحملها. فلما رآنى قال [لى]: يا عبد عمرو، فلم أجبه؛ فقال: يا عبد الإله؟ فقلت: نعم؛ قال: هل لك فى، فأنا خيرٌ لك من هذه الأذرع التى معك؟ قال: قلت: نعم، ها الله إذا. قال: فطرح الأذراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة فى اللبن؟ [قال] ثم خرجت أمشى بهما (٢).

وفى رواية: قال ابن عوف - رضى الله عنه -: قال لى أمية بن خلف، وأنا بينه وبين

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب «الصلاة» باب «بدء الأذان» (١ / ح ٤٩٩) والبخارى فى «خلق أفعال العباد» (ص ٤٨) والدارمى فى كتاب «الأذان» باب «فى بدء الأذان» (١ / ١١٨٧) والترمذى فى كتاب «الصلاة» باب «ما جاء فى بدء الأذان» (١ / ح ١٨٩) وأحمد فى «مسنده» (٤ / ٤٣) وابن خزيمة (١ / ٣٧٠) والبيهقى فى «السنن الكبرى» (١ / ٣٩١) (٤٢٧). وهو حديث صحيح صحيحه جماعة من الأئمة كالبخارى والذهبي والنووى وغيرهم، وانظر تلخيص الحبير لابن حجر (٢ / ٢٠٨).

(٢) أخرجه الطبرى فى التاريخ (٢ / ٣٥) وابن الأثير فى الكامل (٢ / ١٢٧) وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١ / ٣٩٩) وقالوا: أخرجه ابن إسحاق من طريقين الأول قال فيه: حدثنى يحيى بن عباد عن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال... به، والثانى قال: وحدثنى عبد الله بن أبى بكر وغيرهما أن عبد الرحمن بن عوف ثقة أمين... فذكره وإسنادهما صحيح.

ابنه آخذٌ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامه في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب؛ قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل؛ قال عبد الرحمن: فوالله إنني لأقودهما إذ رآه بلال معي - وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام، فيُخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيُضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تُفارق دين محمد؛ فيقول بلال: أحدٌ أحد. قال: فلما رآه قال: رأس الكُفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجأ. قال: قلت: أي بلال، أبأسيرى! قال: لا لنجوت إن نجأ. قال: قلت: أسمع يا بن السوداء؟ قال: لا لنجوت إن نجأ. قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكُفر أمية بن خلف، لا لنجوت إن نجأ. قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة وأنا أذب عنه - أدافع عنه - قال: فأخلف رجلٌ السيف، فضرب رجل ابنه فوق، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط. قال: فقلت: انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسياقهم، حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أذراعي، وفجعني بأسيرى^(١).

بلال يؤذن فوق الكعبة في يوم فتح مكة

وتمر الأيام مسرعة... ويعود رسول الله ﷺ إلى مكة فاتحاً منتصراً بعد أن خرج منها وهو يبكي ويقول: «والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله وإنك لأحب بلاد الله إلى رسول الله ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت».

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما -: «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان ابن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائماً، فسأله: أين صلى رسول الله ﷺ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه. قال عبد الله: فنسيت أن أسأله: كم صلى سجدة؟^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب «الوكالة» باب «إذا وكل المسلم حربياً في دار الحرب» (٤/ ح ٢٣٠١ / فتح) وفي كتاب «المغازي» (٧/ ٣٩٧١) مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦١١) المغازي.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة (١).

ويؤذن بلال... فيا لروعة الزمان، والمكان، والمناسبة...!!

كفّت الحياة في مكة عن الحركة، ووقفت «الألوف المسلمة» كالنسمة الساكنة، تردد في خشوع وهمس كلمات الأذان وراء بلال.

والمشركون في بيوتهم لا يكادون يصدقون: أهذا هو محمد وفقراؤه الذين أخرجوا بالأمس من هذه الديار...؟؟

أهذا هو حقاً، ومعه عشرة آلاف من المؤمنين...؟؟

أهذا هو حقاً الذي طاردناه، وقتلناه، وقتلنا أحب أهله وقرباه إليه...؟؟

أهذا هو حقاً، الذي كان يخاطبنا منذ لحظات ورقابنا بين يديه، ويقول لنا: [اذهبوا.. فأنتمُ الطلقاء]...!!

ولكن ثلاثة من أشرف قريش، كانوا جلوساً بفناء الكعبة، وكأنما يلفحهم مشهد بلال وهو يدوس أصنامهم بقدميه، ويرسل من فوق رُكائهم المهيل صوته بالأذان المنتشر في آفاق «مكة» كلها كعبير الربيع...

أما هؤلاء الثلاثة، فهم: أبو سفيان بن حرب - وكان قد أسلم منذ ساعات - وعتاب ابن أسيد، والحارث بن هشام - وكانا لم يسلموا بعد - (٢).

فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لاتبعته - يقصد النبي ﷺ - فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عنى هذا الحصى، فخرج عليهم النبي ﷺ، فقال: «قد علمتُ الذي قُلْتُم»، ثم ذكر ذلك لهم؛ فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحدٌ كان معنا، فنقول أخبرك (٣).

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١١).

(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص ١١٦، ١١٧) بتصرف.

(٣) هكذا ذكره ابن هشام من غير إسناد، وكذلك ذكره ابن كثير في «التفسير» (٣/ ١٣٢) من طريق ابن إسحاق من غير سند.

وَحَانُ وَقْتُ الرِّحِيلِ

وظل بلال - رضى الله عنه - يؤذن لرسول الله ﷺ طوال حياته، فلما انتقل الحبيب ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحان وقت الصلاة قام بلال يؤذن في الناس - والنبي الكريم ﷺ مُسَجًى^(١) لم يُدفن بعد - فلما وصل إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله»... خنقته العبرات... واحتبس^(٢) صوته في حلقه... وأجهش المسلمون في البكاء، وأغرقوا في النحيب. ثم أذن بعد ذلك ثلاثة أيام. فكان كلما وصل إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله» بكى وأبكى... عند ذلك طلب من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ أن يعفيه من الأذان بعد أن أصبح لا يحتمله^(٣). (٤)

وطلب من أبي بكر - رضى الله عنه - أن يأذن له بالخروج إلى الشام للجهاد والمرابطة.. وكان الصديق يحبه حباً جماً، فتردد في بادئ الأمر، فقال له بلال: «إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعمل الله»^(٥).

وفى رواية: «فذرني أعمل لله». فأذن له أبو بكر - رضى الله عنه -.

قال ابن كثير - رحمه الله - ولما توفي رسول الله ﷺ كان - بلال - فيمن خرج إلى الشام للغزو، ويقال: إنه أقام يؤذن لأبي بكر أيام خلافته والأول أصبح وأشهر^(٦).

وظل في بلاد الشام عابداً زاهداً ينتظر اليوم الذي يلحق فيه بالحبيب ﷺ وأصحابه - رضى الله عنهم -.

ونام أول وأعظم مؤذن عرفته الدنيا (على فراش الموت).

قال سعيد بن عبد العزيز: لما احتضر بلال قال: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه، قال: تقول امرأته: واويلاه! فقال: وافرحاه! (٧).

(١) مُسَجًى: مغطى.

(٢) احتبس صوته في حلقه: لم يستطع الكلام.

(٣) لا يحتمله: لا يطيق أن يؤذن في غياب رسول الله ﷺ.

(٤) صور من حياة الصحابة (ص ٣٢١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٦) البداية والنهاية (٥ / ٢٨٩).

(٧) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١ / ٣٥٩).

ولفظ أنفاسه الأخيرة - رضى الله عنه - وخلد الله اسمه فى العالمين وأعلى قدره فى الآخرة فى جنات النعيم.

وإنى والله أسأله تعالى أن يجمعنى وإياكم مع النبى ﷺ وأصحابه لننعم بصحبتهم فى الجنة لتصبح الجنة جنتين.

وإن كنا حُرُماً من سماع بلال - رضى الله عنه - وهو يؤذن فى الدنيا فلسوف نسمع أذانه فى الجنة !!!

أليس الله هو القائل - سبحانه وتعالى -: ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم﴾ [فصلت: ٣١].

فإننا إذا دخلنا الجنة - برحمة الله - وأردنا أن نسمع أذان بلال - رضى الله عنه - فسوف يسمعنا الله هذا الأذان فهو القادر على كل شيء.

فالسalam عليك يا مؤذن رسول الله ﷺ حتى نلتقى بك فى جنة الرحمن - إن شاء الله - إخواناً على سررٍ متقابلين لننعم بجوار الحبيب ﷺ فى الجنة ف«المرء مع من أحب»^(١).

فرضى الله عن بلال وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) متفق عليه عن أنس - صحيح الجامع (٦٦٨٩).

عكرمة بن أبي جهل

بائع على الموت في معركة اليرموك

* كَانَ وَاحِدًا مِنَ الَّذِينَ وَقَفُوا فِي وَجْهِ الْإِسْلَامِ وَالسَّلَامِ بِعَنْفِ قَرَابَةِ عَشْرِينَ عَامًا، لَمْ يَتَوَقَّفْ خِلَالَهَا عَنْ تَقْدِيمِ الْأَذَى لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وَعِنْدَمَا قَذَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَلْبِهِ نُورَ الْإِيمَانِ، نَدِمَ عَلَى كُلِّ لَحْظَةٍ قَضَاهَا بَعِيدًا عَنْ نِعْمَةِ الْحَقِّ، وَالصِّرَاطِ السَّوِيِّ، وَأَخَذَ يَسْجُلُ فِي صَفَحَاتِ حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ أَعْمَالًا تَسْمُ بِالصَّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ، وَيُنْفِقُ أَمْوَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي سَبِيلِ الشَّهَادَةِ، وَعَبَّرَ عَنْ صِدْقِ نِيَّتِهِ أَصْدَقَ تَعْبِيرٍ، فَنَالَ دَرَجَاتِ الشَّهَادَةِ، وَمَنَازِلَ الْخُلُودِ. فَالْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَالْمَهْمُ هُوَ لَحْظَةُ التَّغْيِيرِ وَالِدُخُولِ فِي الدِّينِ، وَالْإِذْعَانُ لِلخَالِقِ الْمَوْلَى، وَقَطَعَ كُلَّ الْعِلَاقِ مَعَ مَاضِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَبَدَّلَ ذَلِكَ أَعْمَالًا صَالِحَةً، وَسُلُوكًا حَسَنًا^(١).

إنه الصحابي الجليل عكرمة بن أبي جهل الذي يصدق عليه قول الحق - جل وعلا - ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فلقد كان أبوه (أبو جهل) صاحب القلب الميت الذي لم يعرف الله يومًا ولم يؤمن به أبدًا، وعلى الرغم من ذلك يُخرج الله من صلبه هذا الصحابي الجليل صاحب القلب الحي الذي جاء إسلامه متأخرًا، ولكنه أراد أن يبذل الخير، وأن يجود بنفسه وماله في اللحظات الأخيرة من عمره، وكأنه في سباق مع الزمن ليعوّض ما فاتته من الخير مع رسول الله ﷺ.

رحلة مريّة

وتبدأ رحلة هذا الصحابي الجليل عندما نشأ في أحضان هذا الأب الكافر الذي أخذ على نفسه العهد بعداوة رسول الله ﷺ فوجد (عكرمة) نفسه مدفوعًا إلى عداوة النبي ﷺ ومحاربته طاعة لأبيه الذي كان يعتمد عليه في كل صغيرة وكبيرة.

وجاءت غزوة بدر فدخلها عكرمة، وكان أبوه قد أقام ثلاثة أيام ينحر الجُزور ويشرب

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٧٥٤).

الخمور وتعزف له القيان بالمعازف. وما إن بدأ القتال في تلك المعركة الفاصلة حتى قُتل أبو جهل - قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء واحتز رأسه عبد الله بن مسعود - رضى الله عنهم -.

وعاد عكرمة إلى مكة بعد أن ترك جثة أبيه خلفه في بدر فلم يستطع أن يأتى بها ليدفنها في مكة.

وهناك تغيرت الأحوال.. وأصبحت عداوة للإسلام ليست حمية لقومه ولدينه فحسب... وإنما ثأراً لمقتل أبيه.

فأخذ يحرض الناس من حوله على عداوة الإسلام والمسلمين إلى أن جاءت غزوة أحد فخرج عكرمة، وأخرج معه زوجه (أم حكيم) لتكون مع النسوة وراء الصفوف لتضرب معهن على الدفوف تحريضاً لقريش على القتال وتشبيهاً لفرسانهم إذا حدثتهم أنفسهم بالفرار.

وكان خالد بن الوليد على ميمنة الجيش، وعكرمة بن أبي جهل على الميسرة... وقاتلا قتالاً شديداً إلى أن أخطأ الرماة من أصحاب النبي ﷺ وتركوا الجبل فانقضَّ خالد وعكرمة ومن معهما على المسلمين فقتلوا سبعين من أصحاب النبي ﷺ. ففرح عكرمة بهذا وقال أبو سفيان: هذا بيوم بدر.

وفي يوم الخندق لما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتُها العرب، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً، يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، لينبوا به طريقاً يمكنهم من العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق

فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وطلع، وخرج على بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الشفرة التي أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له على بن أبي طالب، وقال كلمة حمى لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على (علي)، فتجاولا وتصاولا، حتى قتله علي - رضى الله عنه - وانهزم الباقون، حتى اقتحموا من الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو^(١).

فراره يوم فتح مكة

عن سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - قال: لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين... فذكر الحديث؛ وفيه: وأما عكرمة فركب البحر فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئا. فقال عكرمة: والله لئن لم يُنجنى في البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك على عهدك إن عافيتني مما أنا فيه أن أتى محمداً حتى أضع يدي في يده، فلا أجدنه إلا عفواً كريماً. قال: فجاء فأسلم^(٢).

قصة إسلامه

لما تسلل عكرمة هارباً من مكة إلى اليمن.. مضت زوجته أم حكيم إلى النبي ﷺ وطلبت منه الأمان لزوجها عكرمة بعد أن أسلمت بين يدي رسول الله ﷺ فأعطاهما الأمان لزوجها.

فخرجت في طلبه فأدركته عند ساحل البحر في منطقة تهامة، فجاءت به إلى النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

وبدأ عكرمة صفحة جديدة مشرقة كلها تضحية وبذل وفداء.. وكان عكرمة إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني يوم بدر^(٣).

(١) الرحيق المختوم (ص ٣٣٠ - ٣٣١).

(٢) رواه أبو داود والنسائي عن سعد بن أبي وقاص.

(٣) السير للإمام الذهبي (١ / ٣٢٣).

وكان يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربي.. كتاب ربي.. وهو يبكي على تلك الأيام التي قضاها في عداوته لرسول الله ﷺ.

عكرمة في صفوف فرسان المسلمين المجاهدين

* في ركب المجاهدين الفرسان من الصحابة، سار عكرمة - رضوان الله عليه - وغدا واحداً من شجعانهم وعبادهم، وبدأ رحلة جهاده بتكسير الآلهة المزعومة، والأصنام المتوزعة في البيوت، فكان لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره، وكيف لا يسرع إلى ذلك، وقد سمع منادى رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَلَا يَرْكُنْ فِي بَيْتِهِ صَنْمًا إِلَّا كَسَرَهُ أَوْ حَرَقَهُ»^(١).

* لقد أضحى عكرمة من فرسان المدرسة المحمدية، نسي الماضي القاتم كله، لقد استضاء بنور الله ونور الإيمان، فأضاء له طريق الجهاد، فشهد المشاهد بعد إسلامه مع رسول الله ﷺ، وأخلص فيها، وبرهن على صدق إسلامه، ففي غزاة حنين، كان له موقف طيب، ومقالة تدل على حسن إسلامه وبلائه^(٢).

* هذا؛ وقد بعثه ﷺ عام حجته على هوازن يجمع صدقاتها^(٣)، فقام بعمله خير قيام، وتوفي رسول الله ﷺ وعكرمة يقوم بعمله، وكان يومئذ بتبالة - بلد باليمن - فعاد بعد أن أنهى عمله ليكون مع ركب المجاهدين تحت لواء خليفة المسلمين الأول؛ أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -

* وقد أوكل إليه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عددًا من المهام، وكلها تكللت بالنجاح والظفر. وكان لعكرمة - رضي الله عنه - في قتال أهل الردة كريم الأثر، حيث جاهد المرتدين من بني حنيفة.

* ثم استعمله أبو بكر - رضي الله عنه - على جيش، وبعثه إلى أهل عُمان، وكانوا قد ارتدوا، فرزقه الله عز وجل الظفر عليهم، وعادوا إلى حظيرة الإسلام، وعاد إلى المدينة، وهو يحمل بشائر النجاح لأبي بكر - رضوان الله عليه -^(٤).

(١) المغازي (٢/ ٨٧١).

(٢) انظر: السيرة الحلبية (٣/ ٧٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٤) والاستيعاب (٣/ ١٤٩) والإصابة (٢/ ٤٨٩).

(٤) فرسان من عصر النبوة (ص: ٧٦٢ - ٧٦٣).

الشهادة في سبيل الله

لما كان يوم اليرموك، تقدّم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن ينشأ القتال، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز - المبارزة - وتنازل الأبطال وتجاولوا، وحمى الحرب وقامت على ساق. فنادى عكرمة: «قاتلتُ رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منكم اليوم؟! مَنْ يبائعُ على الموت؟ فبايعه أربعمئة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار ابن الأزور، فاستبسلوا وقاتلوا قُدَّام فسطاط خالد، حتى أثبتوا جميعاً جراحاً. وأتى خالد بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجهيهما، ويُقطرُ الماءَ في حلقيهما.

فرضى الله عن شهيد اليرموك عكرمة، الذي قال فيه ابن كثير: «يُقال: إنه لا يُعرف له ذنبٌ بعد ما أسلم»^(١).

قال الشافعي: كان محمود البلاء في الإسلام، رضى الله عنه.

قال أبو إسحاق السبيعي: نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالاً شديداً، ثم استشهد، فوجدوا به بضعا وسبعين من طعنة ورمية وضربة^(٢).

وهكذا يجب على المسلم أن يستدرك ما فاتته وأن يبدأ صفحة جديدة كلها طاعة لله وتضحية وبذل وعطاء من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

فرضى الله عن عكرمة الذي سالت دماؤه على أرض الشرف والقتال... تلك الدماء التي لطالما امتزجت بحُب الله وحُب رسوله ﷺ واشتاقت إلى نُصرة دين الله.

فرضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) البداية والنهاية (٧/ ١١) (٧/ ٣٥) والطبري (٣/ ٤٠١).

(٢) السير للإمام الذهبي (١/ ٣٢٤).



حمزة سيد الشهداء يوم القيامة

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن اليوم على موعد مع سيد الشهداء...

ها نحن على موعد مع أسد الله وأسد رسول الله ﷺ الذي لما نال شرف الشهادة في سبيل الله جعل الله روحه في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل عرش الرحمن - جل وعلا -.

إننا على موعد مع حمزة بن عبد المطلب.

✽ ما أشد حاجة الإنسان إلى قوة تسند ظهره، وتشد أزره، وتأخذ بيده، وتُدلل له العقبات، وتقهر أمامه الصعاب، وتُنير له الطريق...

وليست هذه القوة المنشودة إلا في ظلال العقيدة، ورحاب الإيمان بالله.

الإيمان بالله هو الذي يمدنا بروح القوة، وقوة الروح، فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يبالى بشيء في جنب الله، إنه قوى وإن لم يكن في يديه سلاح، غنى وإن لم تمج خزائنه بالفضة والذهب عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع، راسخ وإن اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان^(١).

ولكن مع كل هذا فقد علّمنا الحق - جل وعلا - أن نأخذ أيضاً بأسباب القوة المادية التي تتمثل في الرجال الأقوياء الأتقياء الذين يحملون هم الإسلام، وقبل ذلك كله هم يحملون أكفانهم بين أيديهم ويُقدّمون أرواحهم ودماءهم من أجل نُصرة هذا الدين العظيم.

ولذلك كان الحبيب ﷺ يتمنى من أعماق قلبه أن يشرح الله صدر عمه وأخيه في الرضاعة - حمزة - للإسلام.

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوي (ص ٢٦١).

ومن هنا كانت البداية

وتعالوا بنا لتعيش بقلوبنا وأرواحنا مع قصة أسد الله وأسد رسوله ﷺ .

كان حمزة - رضى الله عنه - يعيش فى أحد البيوتات المحيطة بالكعبة وعاش هناك طفولته وشبابه بين أترابه من أطفال قريش وشبابها.

ولقد كان سريع الحركة.. قوى البنية.. يتقن الرمي غاية الإتقان، ولذلك كان يحب الصيد حباً شديداً فكان يخرج إلى الوديان الفسيحة ويصعد فوق قمم الجبال يمارس هوايته التى لا تفارقه أبداً - ألا وهى الصيد - وعند غروب الشمس يعود مرة أخرى إلى أدراجه ليشارك فتيان قريش فى اللهو واللعب والانغماس فى شهوات الدنيا.

وما علم (حمزة) - رضى الله عنه - أنه سترك هذا كله فى وقت قريب ليحمل هم هذا الدين وليكون أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، بل وليصبح سيد الشهداء يوم القيامة.

الدعوة الإسلامية تشرق بأنوارها

* ها هى الأيام تمضى، والدعوة الإسلامية تشرق بأنوارها على أم القرى، وتعطر الدنيا برحيقها، ولم يفتّر المشركون فى تقديم وجبات سريعة ومتتالية من الأذى، وضربات من الكيد العنيف للإسلام والمسلمين، وكان من أشدهم عداوة وضراوة لرسول الله ﷺ: أبو جهل بن هشام فرعون الأمة، الذى راح يفرغ حقه فى المسلمين، وراح يسخر من الدعوة، ويسخر كل ما يملك فى سبيل الصّد عن سبيل الهدى، ويصب جام غضبه على المؤمنين المستضعفين^(١).

وكان (حمزة) - رضى الله عنه - يتعجب لهذا العداء، فهو يعلم ابن أخيه جيداً ويعرف عنه رقة الشماثل ومكارم الأخلاق وفوق ذلك كله فهو الصادق الأمين الذى اجتمع الناس على محبته وإجلاله وتوقيره.

وفى يوم من الأيام يخرج (حمزة) - رضى الله عنه - كعادته لممارسة هوايته المفضلة - الصيد - وبعدها قضى وقته فى تلك الهواية وعاد ومعه من الخير الكثير والكثير.

وفى طريق عودته يحدث أمر لم يكن فى الحسبان فيكون سبباً فى إسلامه... فيا ترى

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٥٧).

ما الذي حدث؟!

تعالوا بنا لنفتح سوياً صفحة نعرف من خلالها كيف أسلم أسد الله - رضى الله عنه.

إسلام حمزة - رضى الله عنه .

إن الأفق المتلبد بالسحب قد يتولد منه برق يضىء .

لقد غبرت على المسلمين في مكة أيام غلاظ، اضطرت بيوتاً عديدة أن تفر بدينها، وبقي من بقي منهم يكابد العنت من شطط المشركين وكيدهم، إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جعلت قريشاً تتروى في أمرها قبل أن تقدم على إساءاتها المبيتة.

أسلم «حمزة» بن عبد المطلب، عم النبي - عليه الصلاة والسلام - وأخوه من الرضاع، وهو رجل قوى الشكيمة^(١).

ولقد كان إسلامه في بداية الأمر أنفة ثم شرح الله صدره بنور اليقين، فاستمسك بالعروة الوثقى وصار من أفاضل المؤمنين واعتز به المسلمون أيما إعزاز.

أما عن قصة إسلامه فيروى لنا ابن إسحاق أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ عند الصفا فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ... ومولاة لعبد الله ابن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك [منه]، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - أقبل متوشحاً قوسه^(٢) راجعاً من قنص له - كان يصطاد - وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّهم شكيمة. فلما مر بمولاة عبد الله بن جدعان، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عمار، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفاً من أبي الحكم بن هشام؛ وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ.

(١) فقه السيرة للنزالي (ص ١٣٦).

(٢) متوشحاً: أى يتقلده كما يتقلد السيف والرجل يتوشح بحمالة سيفه فتقع الحمائل على عاتقه اليسرى وتكون اليمنى مكشوفة. [السان مادة/ وشح].

فغضب حمزة غضباً شديداً لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعداً لأبى جهل إذا لقيه أن يُوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجّه شجّةً منكّرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول؟ فردّ ذلك على إن استطعت . فقامت رجالٌ من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة، فإنّي والله قد سببتُ ابن أخيه سبّاً قبيحاً... وتمّ حمزة - رضى الله عنه - على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأنّ حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه^(١).

ومنذ تلك اللحظة التي أسلم فيها حمزة - رضى الله عنه - واستقر الإيمان في قلبه وهو يحمل همّ هذا الدين ويتمنى أن يبذل من أجله الغالى والنفيس، بل وأن يضحي في سبيله بالنفس والمال وبكل ما يملك.

وظل حمزة ملازماً للحبيب ﷺ ملازمة الرجل لظله، فلا يفارقه في حلّه وترحاله.

الهجرة المباركة

ولما أذن النّبي ﷺ لأصحابه بالهجرة كان حمزة من أوائل المهاجرين واستقر في المدينة المنورة وأخى النّبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة (رضى الله عنهما).. ولقد بلغت هذه المؤاخاة الكريمة بينهما مبلغاً عظيماً فهي محبة خالصة لوجه الله تعالى لا تشوبها أى شائبة من طلب حطام الدنيا وزهرتها الفانية.

سرية سيفب البحر

* ومضى حمزة - رضى الله عنه - في طريق الإيمان، والذود عن الدّعوة، حتى بلغ مقاماً لم يبلغه غيره من المسلمين، فهو سيّد الشهداء بشهادة سيّد الخلق رسول الله ﷺ، وهو أسدُ رسوله ﷺ، كان إسلامه عزّاً للمسلمين، ومنعة وقوة لرسول الله ﷺ، أخذت به قريش فأصابها المقيمُ المُقعد، وشرقت بإسلامه، فكان شجّاً في حلاقيمتها، إذ أذلّ كبرياءها، وقُتل كُبراءها، وظهرت به الدّعوة بعد استخفافها، وأعلنت بصوته كلمة الحق بعد استتارها، وجُهر بالتكبير لله تعالى على سَمْع طغاة الشُّرك، فأراهم حقارة عقولهم

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٦٧) وقال: رواه الطبراني مرسلأ ورجاله رجال الصحيح.

في دناءة معبوداتهم، وأراهم عزة الحق وانتصاره، فكان إسلامه ظفراً، ومنعة، وفتحاً^(١).
 وما هو في لحظة واحدة يتحول من النقيض إلى النقيض... يترك الصيد واللهو والغناء ويخلع ثوب الجاهلية على أعتاب التوحيد والإيمان ويحمل هم الدين في قلبه ويبدأ صفحة جديدة يبذل فيها المال والنفس لنصرة دين الله - جل وعلا... وهكذا ينبغي لكل من أكرمه الله بنعمة الهداية أن يبدأ فوراً صفحة جديدة لنصرة دين الله فإن العمل لهذا الدين من أعظم عوامل الثبات.

وما هي أول سرية خرج فيها المسلمون للقاء العدو كان أميرها حمزة.
 ففي شهر رمضان سنة ١هـ أرسل رسول الله ﷺ سرية وأمر عليها حمزة ابن عبد المطلب.

وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص^(٢)، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء، حتى حجز بينهم، فلم يقتلوا^(٣).

(أسد الله) وجهاده في سبيل الله

ولكن تمر الأيام وتأتي الفرصة المناسبة التي يكشر فيها الأسد عن أنيابه ليعلم المشركون أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الأبطال الذين يحرصون على الموت أكثر من حرص المشركين على الحياة.

وما هو أسد الله وأسد رسوله ﷺ (حمزة بن عبد المطلب) يقودها حملة - لا تبقى ولا تذر - ضد المشركين.

جهاده في ضرورة بدر

* يوم بدر، وما أدراك ما يوم بدر؟! يوم بدر هو يوم الفرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين الموحدين في إيمانهم الراسخ، وقوة يقينهم؛ وجمع الفجرة

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٦١).

(٢) العيص: - بالكسر -: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

(٣) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٠٠) بتصرف.

الكفرة في غرورهم المهزول الضئيل، وكفرهم الغشوم الهزيل.

* يوم بدر هو يوم الفِصل بين حياة وحياة.

* يوم عَكَتُ فيه كلمةُ الله - وهي العليا منذ الأزل -

* ويومٌ تسفَلْتُ فيه كلمةُ الكفر - وهي السفلى منذ القدم -

* يوم بدر يومٌ فَتَحَ الله به للحقّ وأهله أبواب الكرامة والعزّة، فكَرَّم الحقُّ على أهله وعزّاً، وكرّموا به وعزوا؛ لما فيه من نصرٍ وظفر.

* يوم بدر؛ يومَ فَتَحَ الله به للباطل وأهله سراديب الهاوية، فاندحر واندحروا، وارتفع الحقُّ شامخاً، وتسامى إلى الآفاق مضيئاً مشرقاً متلألئاً، واندحر الباطل منكوساً يهوى إلى وادي الفناء ذليلاً محسوراً.

* وفي بدر، عباً رسولُ الله ﷺ جيشه للقتال، مادياً ومعنوياً، كيما يواجه أعداءه وهو على أكمل استعداد، وكان حمزة - رضى الله عنه - يتشوّق إلى القتال ليظهر فروسيته أمام الحبيب الأعظم سيدنا محمد رسول الله ﷺ، فيحظى بالرضا والدعوات النبوية المباركة (١).

فها هي صفحة من صفحات أسد الله وأسد رسوله ﷺ، تلکم الصفحة التي سطرها على جبين التاريخ بسطور من النور.

فإنه لما وقف المسلمون والمشركون وجهاً لوجه في غزوة بدر كان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمته، أو لأموتن دونه، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخّب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد - [زعم] - أن يبرّ يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض (٢).

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٦٦).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٢٨).

المبارزة يوم بدر

وبعد أن استطاع حمزة أن يقتل الأسود بن عبد الأسد المخزومي في الحوض خرج بعده عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم عوف، ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد. أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث. وقم يا حمزة. وقم يا علي». فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة. وقال حمزة: حمزة. وقال علي: علي. قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارز عبيدة. وكان أسن القوم. عتبة [بن] ربيعة. وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله. وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه. وكرّ حمزة وعليّ بأسيفهما على عتبة فذقفا عليه. واحتملا صاحبهما. فحازاه إلى أصحابه^(١).

وعن أبي ذر - رضى الله عنه - أنه كان يقسم فيها قسماً إن هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر^(٢).

جهاده في غزوة أحد

لم يهدأ بال قريش مذ غشيتها في «بدر» ما غشيتها وكان ما جدّ من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضراماً، فلما استدارت السنة، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله. فخرج الجيش الناصر في عدد يربو - يزيد - على ثلاثة آلاف.

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة

(١) هكذا رواه ابن إسحاق بدون إسناد وأخرجه أبو داود في كتاب «الجهاد» باب «في المبارزة» (٣/ ح/

٢٦٦٥) وأحمد في «مسنده» (٩٤٨) من حديث علي بن أبي طالب وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٤٣) ومسلم (٣٠٣٣) وابن ماجه (٢٨٣٥).

الرجال دون أن تُصاب حرمااتهم وأعراضهم؟^(١)

وكان زعماء قريش يهدفون بمحركاتهم الجديدة هذه إلى رجلين اثنين: الرسول - عليه صلاة الله وسلامه - وحمزة - رضى الله عنه وأرضاه -.

أجل... والذي كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج للحرب، يرى كيف كان «حمزة» بعد الرسول، بيت القصيد وهدف المعركة..

ولقد اختاروا قبل الخروج، الرجل الذي وكلوا إليه أمر حمزة، وهو عبدٌ حبشى، كان ذا مهارة خارقة في قذف الحربة.. جعلوا كل دوره في المعركة أن يتصيد «حمزة» ويصوب إليه ضربة قاتلة من رمحه، وحذروه من أن ينشغل عن هذه الغاية بشيء آخر، مهما يكن مصير المعركة واتجاه القتال.

ووعده بثمان غال وعظيم - هو: حُرَيْثه.. فقد كان الرجل واسمه «وحشى» عبداً لجُبَيْر بن مطعم.. وكان عم جبير قد لقي مصرعه يوم بدر، فقال له جبير: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طُعيمة ابن عدى فأنت عتيق.

ثم أحالوه إلى «هند بنت عتبة» زوجة أبي سفيان لتزيده تحريضاً ودفعاً إلى الهدف الذي يريدون..

وكانت هند قد فقدت في معركة «بدر» أباه، وعمها، وأخاها، وابنها.. وقيل لها: إن «حمزة» هو الذي قتل بعض هؤلاء، وأجهز على البعض الآخر..

من أجل هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيات تحريضاً على الخروج للحرب، لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذي تتطلبه المغامرة...!!^(٢)

ولقد لبثت أياماً قبل الخروج للحرب، ولا عمل لها إلا إفراغ كل حقد لها في صدر «وحشى» ورسم الدور الذي عليه أن يقوم به..

ولقد وعدته إن هو نجح في قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة - فلقد أمسكت بأناملها قرطها اللؤلؤي الثمين وقلائدها الذهبية التي تزدحم حول عنقها، ثم قالت وعيناها تحدقان في وحشى: [كُلُّ هذا لك، إن قتلت حمزة]...!!!

وسال لعاب وحشى.. وطارت خواطره تواقفةً مُشتاقةً إلى المعركة التي سيربح فيها

(١) فقه السيرة للغزالي (ص ٢٨٨).

(٢) مع العلم بأنها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها - رضى الله عنها -.

حريته، فلا يصير بعدُ عبدًا أو رقيقًا، والتي سيخرج منها بكل هذا الحلى الذي يزين عنق زعيمة نساء قريش، وزوجة زعيمها، وابنة سيدها...!!

كانت المؤامرة إذن.. وكانت الحرب كلها تريد «حمزة» - رضى الله عنه - بشكل واضح وحاسم^(١).

الأسد في أرض المعركة يقاتل بسيفين

والتقى الجيشان وحمى الوطيس.. وقام أسد الله (حمزة) يصول ويجول في أرض المعركة يشق الصفوف شقًا ويهدد المشركين بسيفه هداً.

* لقد كانت بطولة حمزة يوم أحد من أروع البطولات في عالم الفروسية، وكانت بطولته أرفع بطولات الأبطال، فكان - رضوان الله عليه - يقاتل قتال الليوث المغاوير، ويندفع إلى قلب جيش المشركين فيبدد جموعهم، وهو يغامر مغامرة منقطعة النظير، فينكشف عنه الأبطال والكُماة الشجعان، ويتطايرون أمامه كما تتطير أوراق الخريف أمام الرياح العاتية.

بل لقد كان يقاتل قتال الليوث المهتاجة فصدَّ حملة اللواء من بنى عبد الدار واقتنص أرواحهم فردًا فردًا.

عن سعد بن أبي وقاص قال : كان حمزة يُقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسدُ الله^(٢).

ولولا أن ترك الرماة مكانهم فوق الجبل، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا غنائم العدو المهزوم.. لولا تركهم مكانهم وفتحهم الشجرة الواسعة لفرسان قريش لكانت «غزوة أحد» مقبرة لقريش كلها: رجالها.. ونسائها.. بل وخيلها.. وإبلها...!!

لقد دهم فرسانها المسلمين من ورائهم على حين غفلة، وأعملوا فيهم سيوفهم الظامئة المجنونة.. وراح المسلمون يجمعون أنفسهم من جديد، ويحملون سلاحهم الذي كان بعضهم قد وضعه حين رأى جيش قريش ينسحب ويؤلى الأديار.. ولكن المفاجأة كانت قاسية وعنيفة.

(١) رجال حول الرسول ﷺ / لخالد محمد خالد (ص ٢١٥: ٢١٦).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ٦) والحاكم (٣ / ١٩٤) وصححه ووافقه الذهبي.

ورأى «حمزة» ما حدث فضاعف قوته ونشاطه وبلاءه..

وأخذ يضرب عن يمينه وشماله... وبين يديه ومن خلفه... و«وحشى» هناك يرقبه، ويتحين الفرصة الغادرة ليوجه نحوه ضربته^(١)... وحمزة يقاتل بكل قوة وكأنه يرى الجنة أمام عينيه وهو يتذكر قول النبي ﷺ: «حمزة سيد الشهداء يوم القيامة».

سيد الشهداء

وها هي رياح الموت تهب على أرض المعركة، وها هي اللحظة التي قدرها الله - جل وعلا - ليرحل حمزة - رضى الله عنه - عن الدنيا وليصبح سيد الشهداء.

قال ﷺ: «حمزة سيد الشهداء يوم القيامة»^(٢)

ولنترك الحديث لو وحشى ليحكى لنا كيف استطاع أن يقتل (حمزة).

يقول وحشى: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر - قتل - فلما سارت قريش إلى أحد، قال لى جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق، قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، فلما أخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة، وأتبصره، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الحمل الأورق، يهد الناس بسيفه هدأ، ما يقوم له شيء، فوالله إنى لأتهدأ له، أريده وأستر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى؛ فلما رآه حمزة قال: هلم يابن مقطعة البظور. قال: فضربه ضربة كأن ما أخطأ رأسه. قال: وهزئت حربتى، حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، ف وقعت فى ننته، حتى خرجت من بين رجله، وذهب لينوء نحوى، فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيت فأخذت حربتى، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق. فلما قدمت مكة أعتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت على المذاهب فقلت: الحق بالشام، أو باليمن، أو ببعض البلاد؛ فوالله إنى لفى

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢١٧).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٣ / ١٩٥) والشيرازى فى الألقاب، عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح

الجامع (٣١٥٨) - الصحيحة (٣٧٤).

ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك! إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته.

فلما قال لي ذلك، خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق، [فلما] رآني قال: «أوحشي؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة»، قال: فحدثته، فلما فرغت من حديثي قال: «ويحك! غيب عني وجهك»، فلا أرينك. قال: فكنت أتككب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله ﷻ (١) - أي حتى توفاه الله -.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة! خرجت معهم بحربتي التي قتلت بها حمزة. فلما التقى الناس، نظرت إلى مسيلمة وفي يده السيف، فوالله ما أعرفه، وإذا رجل من الأنصار يريد من ناحية أخرى، فكلانا يتهايا له. حتى إذا أمكنني، دفعت عليه حربتي، فوقع في. وشد الأنصاري عليه، فضربه بالسيف، فربك أعلم أينما قتله، فإن أنا قتلت، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقتلت شر الناس (٢).

روحه في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة

هكذا رحل (أسد الله) عن الدنيا - ليس شهيداً فحسب، بل سيداً للشهداء - وفاز بتلك المنقبة العظيمة التي أخبر عنها الحبيب ﷺ بعد الغزوة.

عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عند الحرب ولا يزهدوا في الجهاد، قال الله: أنا أبلغهم عنكم. فأنزلت ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] (٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب «المغازي» باب «قتل حمزة بن عبد المطلب» (٧/ ٤٠٧٢ / فتح) وأحمد في «مسنده» (٣/ ٥٠١) من حديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمري وليس فيه ذكر أنه غلب عليه الخمر، وأخرج أبو داود الطيالسي في «مسنده» (ص ١٨٦ / ١٣١٤) بلفظه. وإسناده صحيح.

(٢) قال الأرئؤوط: إسناده قوى إلى وحشي. وأخرجه ابن هشام (٢/ ٧٠ - ٧٣)، وابن الأثير في «أسد الغابة» ٥/ ٤٣٨ - ٤٤٠، وابن عبد البر في «الاستيعاب» ١١/ ٥١ وكلهم من هذا الطريق. وأخرجه البخاري (٤٠٧٢) في المغازي: باب قتل حمزة - رضى الله عنه -.

(٣) قال الأرئؤوط: رجاله ثقات، ورواه أبو داود (٢٥٢٠) في الجهاد: باب في فضل الشهادة، والحاكم (٢/ =

التمثيل بجسده الطاهر - رضى الله عنه -

ولم يكتف أعداء الله بقتله، بل مثلوا بجسده، فإنه عندما بحث الصحابة ومعهم الحبيب ﷺ عن (حمزة) وجدوه قد بقر بطنه، واحتمل وحشى كبدته إلى (هند) في نذر نذرتة حين قتل أباه يوم بدر.

فدفن في غرة كانت عليه، إذا رفعت إلى رأسه، بدت قدماه، فغطوا قدميه بشيء من الشجر^(١)... وتأتى اللحظة الأليمة التي وقف فيها رسول الله ﷺ أمام جسد عمه حمزة الذي كان يحبه من كل قلبه... فيها هو الآن قد فارق الدنيا كلها.

فعن أنس قال: لما كان يوم أُحُد وقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد جُدع ومثل به، فقال: «لولا أن تجد صفة في نفسها، لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطيور». وكفن في غرة إذا خُمِرَ رأسه، بدت رجلاه، وإذا خُمِرت رجلاه بدا رأسه. ولم يُصل على أحد من الشهداء. وقال: «أنا شهيدٌ عليكم» وكان يجمع الثلاثة في قبر، والاثنين فيسأل: أيهما أكثر قرآنًا فيقدمه في اللحد، وكفن الرجلين والثلاثة في ثوب^(٢).

وعن ابن عمر قال: رجع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، فسمع نساء بنى عبد الأشهل يبكين على هلكاهن. فقال: «لكن حمزة لا بواكى له» فجئن نساء الأنصار، فبكين على حمزة عنده، فرقد، فاستيقظ وهن يبكين. فقال: «يا ويحهن! أهنَّ ها هنا حتى الآن، مروهنَّ، فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم»^(٣).

ولقد ذهب أصحاب الرسول يتبارون في رثاء «حمزة» وتمجيد مناقبه العظمى..

= (٨٨، ٢٩٧). وأخرجه مسلم في صحيحه (١٨٨٧) من طريق الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون» قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل. فاطلع إليهم ربهم اطلاع فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١٧٩).

(٢) قال الأرئؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨) وأبو داود (٣١٣٦) الجنايز.

(٣) قال الأرئؤوط: مسنده قوى. وأخرجه أحمد (٢/ ٨٤) وابن ماجه (١٥٩١).

فقال حسّان بن ثابت في قصيدة طويلة له:

دع عنك داراً قد عفا رسمها
اللابس الخيل إذا أحجمت
أبيض في الذروة من هاشم
وابك على حمزة ذي النائل
كالليث في غابته ، الباسل
لم يمرّ دون الحق بالباطل

وقال عبد الله بن رواحة:

بكت عيني وحق لها بكائها
على أسد الإله غداة قالوا:
أصيب المسلمون به جميعاً
وما يغني البكاء ولا العويل
أحمزة ذاكم الرجل القليل
هناك وقد أصيب به الرسول
وأنت الماجد البر الوصول
أبا يعلى، لك الأركان هدت

وقالت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ وأخت حمزة:

دعاهُ إله الحق ذو العرش دعوةً
فذلك ما كنا نرجى ونرتجى
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
لحمزة يوم الحشر خير مصير
على أسد الله الذي كان مدرهاً
بكاءً وحزناً، محضري ومسيري
أقول وقد أعلى النعي عشيرتي
يدود عن الإسلام كل كفور
جزى الله خيراً من أخ ونصير

وعن عقبه أن النبي ﷺ صلى على قتلى أحدٍ صلاته على الميت، فهذا كان قبل موته بأيام^(١).

ابن عوف - أحد العشرة المبشرين بالجنة -

وشهادته (لحمزة) بأنه خير منه

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - أتى بطعام - وكان صائماً - فقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني كفّن في بُردة إن غطّي رأسه بدت رجلاه، وإن غطّي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقُتل حمزة - وهو خير

(١) أخرجه البخاري (١٣٤٤) الجنايز - ومسلم (٢٢٩٦) الفضائل.

منى - ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ - أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا - وقد خَشِينَا أَنْ تكون حسنَاتُنَا عُجِّلَتْ لنا ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام^(١).

كرامة ثابتة (لأسد الله) بعد موته

قال ﷺ: «رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلِبِ وَحَنْظَلَةَ بْنَ الرَّاهِبِ»^(٢).

وعن جابر بن عبد الله، قال: لما أَرَادَ معاويةُ أَنْ يُجْرِيَ عَيْنَهُ الَّتِي بِأُحُدٍ كَتَبُوا إِلَيْهِ: إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُجَرِّبَهَا إِلَّا عَلَى قُبُورِ الشَّهَدَاءِ، قَالَ فَكُتِبَ: انْبُشُوهُمْ. قَالَ: فَرَأَيْتُهُمْ يُحْمَلُونَ عَلَى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ كَأَنَّهُمْ قَوْمُ نِيَامٍ، وَأَصَابَتِ الْمَسْحَاةُ طَرْفَ رَجُلٍ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلِبِ فَانْبَعَثَ دَمًا^(٣)... وَكَأَنَّهُ قَدْ مَاتَ الْآنَ.

وهكذا يؤيد الله أوليائه بالنصرة والتأييد وبالكرامات في حياتهم وبعد موتهم، ثم يرزقهم بالنعيم المقيم في جنته.

فرضى الله عن حمزة وعن سائر الصحابة أجمعين

ونسأل الله أن يجمعنا بهم وبالعبيد ﷺ في جنته ومستقر رحمته

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٦٣).

(٣) الطبقات لابن سعد (٧/٣).

عمير بن وهب

شيطان قريش يصبح داعية إلى الله تعالى

حقاً إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن - جل وعلا - يقلبها كيف يشاء .
فبينما كان عمير بن وهب الذي كان أهل مكة يلقبونه بـ «شيطان قريش» يجول بفكره
وبجسده وبكل ما يملك من أجل أن يحارب النبي ﷺ وأصحابه - رضى الله عنهم -
وقلبه قد امتلأ حقداً على الإسلام وأهله . وإذا بالحق جل جلاله يأخذ بناصيته إلى
الإسلام ليكون واحداً من أصحاب النبي ﷺ .

ففى يوم بدر كان (عمير) واحداً ممن حملوا السيوف ليقضوا على الإسلام فى مهده .
ونظراً لحفته وحسن تقديره فإن كفار قريش بعثوه وقالوا له: أحرز لنا أصحاب
محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاث مئة رجل،
يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أملهونى حتى أنظر ألقوم كميناً أو مدد؟ قال: فضرب
فى الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم، فقال: ما وجدت شيئاً، ولكنى قد
رأيت، يا معشر قريش، البلىا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس
معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً
منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم - يعنى ما
رأيكم - .

وكان كلام عمير يفت فى عضدهم إلا أن أبا جهل أفسد عليهم رأيهم وأصر على
ملاقاة المسلمين .

وبدأت ملحمة بدر الكبرى التى أعز الله فيها جنده وهزم المشركين شر هزيمة وأنزل
ملائكته .

وعصفت الهزيمة بقلوب قريش وجلس عمير بن وهب - الذى ترك ولده أسيراً فى
أيدى المسلمين - حزيناً على ابنه وعلى تلك الهزيمة التى حلت بكفار قريش .
وهو الذى كان يؤذى النبي ﷺ وأصحابه ويلقون منه العناء وهو بمكة .

فجلس مع صفوان بن أمية في الحجر يسير فذكر أصحاب القليب - أي المشركين الذين قُتلوا وألقوا في بئر قليب - ومصائبهم.

فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة: ابني أسيرٌ في أيديهم؛ قال: فاغتنمها صفوان وقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أو أسيرهم ما بقوا، لا يسعني شيءٌ ويعجز عنهم؛ فقال له عمير: فاكتم [عني] شأني وشأنك، قال: أفعل.

قال: ثم أمر عميرٌ بسيفه، فشُحذ له^(١) وسُم - أي وضع فيه السم - ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر ابن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً بالسيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرّش^(٢) بيننا، وحزّرنا^(٣) للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمرُ على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير ابن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: «فادخله عليّ» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّيه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ، وعمرٌ أخذٌ بحمالة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير»، فدنا ثم قال: انعموا صباحاً (وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم)، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة»، فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد؛ قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه؛ قال: «فما بال سيف في عنقك؟» قال: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً! قال: «اصدقني، ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك؛ قال ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما

(١) فشُحذ له: أي أحد له، تقول شحذت السكين إذا أحددتها.

(٢) حرّش بيننا: أفسد، والتحريش: الإفساد بين الناس وإغراء بعضهم ببعض.

(٣) حزّرنا: قدر عددنا، نقول هم محدودة ألف، تريد أنهم يقدرون بألف.

أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ علىّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمّل لك صفوان [بن أمية] بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك»، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنني لا أعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ: «فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»، ففعلوا^(١).

وقف عمير وقفة صادقة مع نفسه يتذكر كيف استطاع أن يحمل سيفه لقتل النبي ﷺ الذي جعله الله سبباً لخروجه من الظلمات إلى النور.

وتمر تلك الذكريات المؤلمة وهو يتمنى أن يقدم شيئاً لدين الله ليمحو تلك الصفحات السوداء التي امتلأت بها صحيفته من عداوته للإسلام وأهله.

ثم هو أيضاً جلس يفكر في عظمة هذا الدين!!! وكيف أنه منذ ساعات جاء يحمل سيفه يريد قتل الحبيب ﷺ، وما إن أعلن إسلامه لله - جل وعلا - أصبح أخاً لكل هؤلاء الصاحب الكرام يحتل مكاناً عظيماً في قلوبهم. أي سماحة تلك التي جاء بها الإسلام؟! .. وأي دين هذا الذي يحوّل تلك العداوة في لحظة واحدة إلى محبة صادقة لا يشوبها شيء من الكذب أو النفاق؟! إنه دين عظيم.... إنه هو الدين الحق وما سواه فهو باطل.

وتحولت تلك الخواطر فجأة إلى واقع عملي.. فلقد أحس عمير بأنه لا بد أن يقوم وينفض غبار الغفلة ويحمل أمانة هذا الدين ويدعو الدنيا كلها إليه.

قال: يا رسول الله، إنني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله - عز وجل - وأحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية - حين خرج عمير بن وهب - يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تُنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الركبان، حتى قدم راكباً فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا

يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذى من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناسٌ كثيرٌ (١).

واكتملت السعادة في قلبه

لم ينسَ عمير صديقه الذي دعاه لقتل النبي ﷺ «صفوان بن أمية» فبعد أن لامس الإيمان شغاف قلب عمير أراد الخير لصفوان فذهب يدعوه إلى الإسلام لتكتمل فرحته بإسلامه.

ففر صفوان عامداً للبحر، وأقبل عمير بن وهب، إلى رسول الله، فسأله أماناً لصفوان، وقال: قد هرب، وأخشى أن يهلك، وإنك قد أمنت الأحمر والأسود. قال: «أدرك ابن عمك فهو آمن» (٢).

فبعث إليه رسول الله ﷺ ابن عمه بردائه أماناً لصفوان، ودعاه إلى الإسلام وأن يقدم، فإن رضى أمراً، وإلا سيره شهرين.

فلما قدم على النبي ﷺ ناداه على رؤوس الناس: يا محمد، هذا جاءني بردائك، ودعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت، وإلا سيرتني شهرين. فقال: «انزل أبا وهب» فقال: لا والله حتى تبين لي. قال: لك تسير أربعة أشهر.

فخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن بحنين؛ فأرسل إلى صفوان يستعيره أداة وسلاحاً كان عنده. فقال: طوعاً أو كرهاً؟ قال: «لا، بل طوعاً».

ثم خرج معه كافراً، فشهد حنيناً والطائف كافراً، وامراته مسلمة؛ فلم يفرق بينهما حتى أسلم، واستقرت عنده بذلك النكاح (٣).

(١) قال السيوطي في الخصائص الكبرى (١ / ٣٤٤): أخرجه الطبراني وأبو نعيم من طريق أبي عمران الجوني عن أنس موصولاً بسند صحيح - وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٨٦ - ٢٨٧) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٦ / ٤٣٢) نقلاً من السير (٢ / ٥٦٥ - ٥٦٦).

(٣) أخرجه مالك (٢ / ٧٥ - ٧٦) في النكاح: باب نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله، وهو من بلاغات مالك التي لا يعلم اتصاله من وجه صحيح، قال ابن عبد البر: وهو حديث مشهور معلوم عند أهل السير، وابن شهاب إمام أهل السير، وكذلك الشعبي.

فاكتملت سعادة عمير بإسلام صفوان ليكون أخًا له في الإسلام كما كان صديقًا له في الجاهلية.

واستمر عمير في تلك المسيرة العطرية يدعو إلى الله ولا يفتر أبدًا لأنه يعلم أن هؤلاء جميعًا سيكونون في ميزان حسناته يوم القيامة.

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية في سبيل الله والدعوة إلى الله نام (عمير) على فراش الموت وفاضت روحه إلى بارئها - جل وعلا - ليلحق بالحبيب ﷺ في جنات النعيم.

فرضى الله عن عمير وعن صفوان وعن سائر الصحابة أجمعين

حذيفة بن اليمان

صاحب سر رسول الله ﷺ ورفيقه في الجنة

وها نحن اليوم على موعد مع صاحب سر رسول الله ﷺ... مع أعلم الناس بالفتن إلى يوم القيامة (بعد رسول الله ﷺ)... مع الرجل الذي كان سبباً في جمع الناس على مصحف واحد... بل إننا على موعد مع الرجل الذي أخبره الحبيب ﷺ بأنه سيكون رفيقاً له في الجنة.

إننا على موعد مع حذيفة بن اليمان.

إنني أشعر وأنا أكتب تلك السطور عن هذا الصحابي الجليل وكأن الكون كله ينظر ويتأمل ويقول: كيف نستطيع أن نترجم عن هذا الصحابي ترجمة تليق بقدره ومكانته.

أيها المسلمون: أعيروني القلوب قبل الأسماع لتعلموا كيف استطاع رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يقدم لدين الله ما لا يستطيع جيلٌ بكل طاقاته وإمكانياته أن يقدم نصف ما قدم. ولست مبالغاً في ذلك فهو واحدٌ ممن تربو بين يدي الحبيب ﷺ الذي رباه الله - جل وعلا - وصنعه على عينه ليربّي به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

إنه حذيفة بن اليمان من نجباء أصحاب محمد ﷺ وهو صاحب السر^(١).

وكان والد حذيفة مكّي من «بنى عبس».

وكان قد أصاب دماً في قومه، فهرب إلى المدينة، وحالف بنى عبد الأشهل، فسمّاه قومه «اليمان» لحلفه لليمانية، وهم الأنصار^(٢).

* ثم تزوج اليمان امرأة هي الربّاب بنت كعب الأشهلية، فولدتُ له: حذيفة،

(١) أي: صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلمه أحد غيره، والمراد بالسر: ما أعلمه به النبي ﷺ من أحوال المنافقين. انظر البخاري (٧ / ٧١ - ٧٣) في المناقب: باب مناقب عمار وحذيفة - رضي الله عنهما - والمستدرك (٦ / ٤٤٩).

(٢) المستدرك (٣ / ٣٣٠) والإصابة (٢ / ٢٢٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢ / ١٥٢).

وسعدًا، وصفوان، ومُدَجَّجًا، وليلى، وقد أسلمت الرباب، وبايعت رسول الله ﷺ، وكان لليمان أيضًا ابنتان أخريان هما: فاطمة، وأم سلمة.

رحلة إلى الإيمان الحقيقي

* أطلَّ الإسلامُ بنوره على جزيرة العرب، وانتشر بإشعاعه وتألقه في حنايا النفوس، ورأى الناسُ في الدينِ مشابةً لهم، وملاذًا آمنًا، فأسرعَ اليمانُ ونفرٌ من قومه إلى مكة، وأعلنوا إسلامهم أمام رسول الله ﷺ، وعادَ اليمانُ إلى المدينة وقد أسلم أهله وأولاده جميعًا، ووجدوا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في مناحي حياتهم، والبلسم مما كانوا يعانون منه.

* نشأ حذيفة في بيت مسلم، ثم رحل بصحبة والده إلى مكة المكرمة، وهناك التقت يمينُ رسول الله ﷺ بيمين حذيفة، حيثُ أعلن إسلامه، وسرت في نفسه موجهٌ من الحبِّ والإكبار لرسول الله ﷺ الذي خيره بين الهجرة والنصرة، فاختر حذيفة النصر، وعاد إلى المدينة المنورة^(١).

ولذلك قال له الحبيب ﷺ: «إن شئت كنت من المهاجرين وإن شئت كنت من الأنصار فاختر أحب الأمرين إلى نفسك» فقال حذيفة... رضى الله عنه... «بل أنا أنصارى يا رسول الله ﷺ».

ولما أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة فرح حذيفة فرحًا شديدًا ولازم النبي ﷺ ملازمة الحبيب لحبيه لينهل من هذا النبع الصافي ويأخذ من هديه وسمته وأخلاقه.

ولقد أحبه النبي ﷺ حبًا جمًّا وكان النبي ﷺ بنظرة واحدة إلى أى رجل يعلم صفاته وإمكاناته ومزاياه من أول وهلة... فأحسَّ النبي ﷺ أن حذيفة يملك ذكاءً يندر وجوده وسرعة بديهة تجعله يعالج أعتى المواقف والأزمات بيسر وسهولة وهو في الوقت ذاته يؤتمن على أخطر الأسرار ولا يذيعها ولو انطبقت السماوات على الأرض.

وكان الحبيب ﷺ يضع الرجل المناسب في المكان المناسب ويستخدم طاقات أصحابه فيما يخدم الدين على أعلى مستوى.

(١) فرسان من عصر النبوة / أحمد خليل جمعة (ص: ٤٠).

وكانت أكبر مشكلة تواجه المسلمين في المدينة هي وجود المنافقين^(١) من اليهود وأشياعهم^(٢)، وما يحيكونه للنبي - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه من مكائد ودسائس ومؤمرات.

فأفضى^(٣) النبي - صلوات الله عليه - لحذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين - وهو سر لم يُطلع عليه أحدًا من أصحابه - وعهد إليه برصد حركاتهم، وتتبع نشاطهم، ودرء خطرهم^(٤) عن الإسلام والمسلمين...

ومنذ ذلك اليوم دُعي حذيفة بن اليمان «بصاحب سر رسول الله ﷺ»^(٥).

فعن إبراهيم قال: ذهب علقمة إلى الشام فأتى المسجد فصلى ركعتين فقال: اللهم ارزقني جليسا فقعد إلى أبي الدرداء فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة قال: أليس فيكم صاحب السر الذي كان لا يعلمه غيره - يعني حذيفة -...»^(٦).

حتى كان أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - وهو الملهم الفطن الأريب، يستدلُّ برأى حذيفة، وببصيرته في اختيار الرجال ومعرفتهم.

ولقد أوتى «حذيفة» من الحصافة ما جعله يدرك أن الخير في هذه الحياة واضح لمن يريد.. وإنما الشر هو الذي يتنكر ويتخفى، ومن ثم يجب على الأريب أن يُعنى بدراسة الشر في مآتيه، ومظانه^(٧). وذلك من باب قول القائل:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

أعلم الناس بالفتن إلى قيام الساعة

ولو أردنا أن نعرف قدر هذا الرجل العظيم فما علينا إلا أن نتدبر هذا الحوار الذي دار بينه وبين رسول الله ﷺ:

(١) المنافق: هو من ستر الكفر بقلبه وأظهر الإيمان بلسانه.

(٢) أشياعهم: أنصارهم.

(٣) أفضى النبي لحذيفة: أسر إليه وأخبره.

(٤) درء خطرهم: دفع خطرهم.

(٥) صور من حياة الصحابة (٣٠١ - ٣٠٢) بتصرف.

(٦) أخرجه البخاري (٦٢٧٨) والنسائي في الفضائل (١٩٤) وأحمد (٤٤٩ / ٦ - ٤٥١).

(٧) رجال حول الرسول / خالد محمد خالد (ص: ٢٤٦).

عن حذيفة - رضى الله عنه - قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى، فقلت: يا رسول الله: إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دُعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها: قلت: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

وعنه أيضاً أنه قال: والله إنى لأعلم الناس بكل فتنة هى كائنة فيما بينى وبين الساعة^(٢).
وعنه أيضاً أنه قال: قام فىنا رسول الله مقاماً، فحدثنا بما هو كائن إلى قيام الساعة، فحفظه من حفظه، ونسيه من نسيه^(٣).

قال الإمام الذهبى - رحمه الله -: قلت: قد كان ﷺ يُرَتِّل كلامه ويفسره، فلعله قال فى مجلسه ذلك ما يكتب فى جزء؛ فذكر أكبر الكوائن، ولو ذكر أكثر ما هو كائن فى الوجود، لما تهيأ أن يقوله فى سنة، بل ولا فى أعوام، ففكر فى هذا^(٤).
عن زاذان: أن علياً سئل عن حذيفة، فقال: علم المنافقين، وسأل عن العضلات؛ فإن تسألوه تجدوه بها عالماً^(٥).

وهكذا عكف حذيفة - رضى الله عنه - على دراسة الشر والأشرار والنفاق والمنافقين لكى يحذر منهم، بل ويحذر الأمة من شرورهم.

(١) أخرجه البخارى (٤٥٣ / ٦) - ٤٥٤) علامات النبوة.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩١) الفتن - وأحمد (٤٠٧، ٣٨٨ / ٥).
(٣) أخرجه البخارى (٤٣٣ / ١١) - القدر - ومسلم (٣٨٩١) (٢٣).
(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٣٦٦ / ٢).
(٥) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط فى تخريج السير: رجاله ثقات، وفى المستدرک (٣٨١ / ٣) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة وإسماعيل، عن قيس قال: سئل على - رضى الله عنه - عن ابن مسعود، فقال: قرأ القرآن، ثم وقف عند شبهاته، فأحل حلاله، وحرم حرامه، وسئل عن عمار، فقال: مؤمن نسي، وإذا ذكر ذكر، وسئل عن حذيفة، فقال: كان أعلم الناس بالمنافقين.

وعن أبي يحيى، قال: سألت رجل حذيفة، وأنا عنده، فقال: ما النفاق؟ قال: أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به^(١).

وكان النبي ﷺ قد أسرَّ إلى حذيفة أسماء المنافقين، وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة^(٢)... حتى كان أمير المؤمنين عمر وهو الملهم الفطن الأريب يستدل برأى حذيفة وبصيرته في اختيار الرجال ومعرفتهم.

بل وقد ناشده عمر عندما علم أن النبي ﷺ أسرَّ إليه بأسماء المنافقين فقال: أنا من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكى أحداً بعدك^(٣).

وظل حذيفة بن اليمان مؤتمناً على أسرار المنافقين ما امتدت به الحياة، وظل الخلفاء يرجعون إليه في أمرهم، حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان إذا مات أحد المسلمين يسأل: أحضر حذيفة للصلاة عليه؟... فإن قالوا: نعم، صلى عليه، وإن قالوا: لا، شك فيه، وأمسك عن الصلاة عليه.

وقد سأله ذات مرة: أفي عمالي أحدٌ من المنافقين؟ فقال: واحدٌ، فقال: دكنى عليه، فقال: لا أفعل.. قال حذيفة: لكنَّ عمر ما لبث أن عزله كأنما هُدى إليه... فلقد كان عمر يملك فراسة وشفافية يندر وجودها.

استغفار النبي ﷺ لله ولأمة

وظل حذيفة ملازماً للحبيب ﷺ لينهل من هذا النبع الصافي.

عن حذيفة بن اليمان قال: سألتني أمي: منذ متى عهدك بالنبي ﷺ؟ فقلت: منذ كذا وكذا. فنالت مني وسبتني فقلت لها: دعيني فإنني أتى النبي ﷺ فأصلي معه المغرب ولا أدعه حتى يستغفر لي ولك، فصليت معه المغرب فصلى إلى العشاء ثم انقفل وتبعته فعرض له عارض وأخذه وذهب فاتبعته فسمع صوتي فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة. فقال: «مالك؟» فحدثته بالأمر فقال: «غفر الله لك ولأمك، أما رأيت العارض الذي عرض لي قبل؟» قلت: بلى، قال: «هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يُسلم عليَّ وبشرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٢/ ٣٦٣).

(٢) انظر البخاري (١٣/ ٤٠، ٤١) في الفتن، ومسلم (١٤٤) والترمذي (٢٢٥٩).

(٣) نسبه في الكنز (١٣/ ٣٤٤) إلى رسة - نقلاً من السير (٢/ ٣٦٤) للذهبي.

وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»^(١).

ولقد كان حذيفة - رضى الله عنه - يخشى ربه فى السر والعلانية، وكان لا يحب أن يطّلع أحدٌ على عمله وكان يحب العزلة خوفاً على نفسه وعلى دينه من الفتن التى هو أعلم الناس بها بعد النبى ﷺ.

قال حذيفة - رضى الله عنه -: والله لو ددت أن لى إنساناً يكون فى مالى ثم أغلق على باباً فلا يدخل على أحد حتى ألحق بالله - عز وجل -.

وعن الأعمش قال: بكى حذيفة فى صلاته، فلما فرغ التفت فإذا رجل خلفه فقال: لا تعلمن بهذا أحدًا^(٢).

ما السبب فى تغيبه عن غزوة بدر

ولعل السؤال الذى يخطر على البال فى تلك اللحظة: ما السبب الذى جعل حذيفة - رضى الله عنه - يتغيب عن غزوة بدر؟.

ويتولى حذيفة بنفسه الجواب على هذا السؤال فيقول: ما منعنى أن أشهد بدرًا إلا أنى خرجت أنا وأبى، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً! فقلنا: ما نريد إلا المدينة؛ فأخذوا العهد علينا: لنصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأخبرنا النبى ﷺ. فقال: «نفى بعهدهم، ونستعين الله عليهم»^(٣).

موقف يوم (أحد) زاده عند رسول الله ﷺ خيراً

ولما جاء يوم أحد وخاض المسلمون تلك الغزوة أمام مشركى قريش، وكان فى جند المسلمين (حذيفة) مع أبىه اليمان.. فأما حذيفة فقاتل قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها، وأما أبوه فقد استشهد يومئذ. قتله بعض الصحابة غلطاً، ولم يعرفه؛ لأن الجيش يختفون فى لآمة الحرب، ويسترون وجوههم؛ فإن لم يكن لهم علامة بيّنة، وإلا ربما قتل الأخ أخاه، ولا يشعر.

ولما شدوا على اليمان يومئذ بقى حذيفة يصيح: أبى! أبى! يا قوم! فراح خطأ.

(١) رواه النسائى فى فضائل الصحابة (١٩٣) والكبرى (٥ / ٨٠ - ٨١) وحسنه شعيب الأرناؤوط فى السيرة..

(٢) صفة الصفوة (١ / ٢٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٨) الجهاد - المسند (٥ / ٣٩٥).

فتصدق حذيفة عليهم بديته^(١).

وفى رواية: عن محمود بن لبيد، قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد، رفع حُسيل ابن جابر، وهو اليمان أو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش، في الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه، وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقى لواحد منا من عمره إلا ظمء حمار^(٢)، إنما نحن هامة^(٣) اليوم أو غد، أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ؟ فأخذنا أسيافهما ثم خرجا، حتى دخلا في الناس، ولم يُعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حُسيل بن جابر، فاختلف عليه أسياف المسلمين، فقتلوه ولا يعرفونه^(٤)، فقال حذيفة: أباي، فقالوا: والله إن عرفناه - يعني: ما عرفناه - وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه - يعطيه الدية - فتصدق حذيفة بديته على المسلمين؛ فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً^(٥).

يوم الخندق ومرافقة النبي ﷺ في الجنة

* قصة حذيفة بن اليمان - رضى الله عنهما - بين حشود الأحزاب، وتخلله جموعهم وصفوفهم بأمر رسول الله ﷺ يتعرف أخبارهم، ويسبر أحوالهم، ويكشف

(١) أخرجه البخارى (٢٧٩ / ٧) وابن سعد (٢ / ٤٥).

(٢) ظمء الحمار: الظمء: مقدار ما يكون بين الشربتين وأقصر الإظماء ظمء الحمار؛ لأنه لا يصبر عن الماء فضرِب مثلاً بقرب الأجل.

(٣) الهامة: طائر يخرج من رأس القنبل إذا قُتل «فرعموا» أنه لا يزال يصيح اسقونى - اسقونى - اسقونى حتى يؤخذ بثأره فضرِبته العرب مثلاً للموت.

(٤) قيل إن الذى قتله خطأ هو عتبة بن مسعود أخو عبد الله بن مسعود، وعتبة هو أول من سُمى المصحف مصحفاً.

(٥) ذكره ابن حجر فى الفتح (٤٢٠ / ٧) وقال ابن حجر فى الإصابة (٢٠٤ / ١) بعد ذكر الحديث تحت ترجمة ثابت بن وقش بن زغبة وقصة والد حذيفة فى ذلك فى الصحيح من حديث عائشة، ولكن ليس فيه ذكر ثابت.

وأخرجه البخارى فى صحيحه من كتاب «المغازى» باب «إذ همت طائفتان...» (٧ / ح ٤٠٦٥ / فتح) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى حديث أوله: لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصاح إبليس أى عباد الله أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمانى فقال: أى عباد الله أبى أبى فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه فقال حذيفة غفر الله لكم. قال عروة فما زالت فى حذيفة منه بقية صبر حتى لحق بالله. اهـ.

عن أسرارهم، وما نزل بهم من كوارث البلاء، وفوادم المحن، وما تفعله بهم الرياح التي أرسلها الله عز وجل عليهم، وقاصفات العواصف، مما جعل مقامهم في منازلهم من ميدان المعركة محالاً... من أشهر قصص الفروسية والشجاعة، ومن أسير قصص المغازي، وأوسعها تداولاً في المصادر الوثيقة الموثوقة من مصادر حديثة وتاريخية وسيرة وما شابه ذلك.

عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالحنديق، وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل^(١)، ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ» - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا»، قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جلسائه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع^(٢) والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تظمنن لنا قدرًا، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جملة وهو معقول - مربوط - فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ «أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني»، ثم شئت، لقتلته بسهم.

(١) هويًا من الليل: قطعة منه.

(٢) الكراع: الخيل. والخف: الإبل.

قال حذيفة: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط^(١) لبعض نسائه، مرَّاجِل.

قال ابن هشام: المراجِل: ضرب من وشى اليمن.

فلما رَأَى أدخلني إلى رجليه، وطرح على طرف المرط. ثم رجع وسجد، وإنى لفيه، فلما سلَّم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بهم فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم^(٢).

قال ابن إسحاق: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح^(٣).

وبهذا الموقف الذي وقفه (حذيفة) واستجابته لأمر رسول الله ﷺ أصبح واحداً ممن فازوا برفقة الحبيب في الجنة.. ويا لها من بشرى لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من زينة ومتاع زائل.

وتمر الأيام الجميلة مسرعة إلى أن جاء اليوم الذي أظلمت فيه الدنيا كلها بموت النبي ﷺ... فحزن حذيفة عليه حزناً كاد أن يمزق قلبه.

ولأيقته على المدائن

وبعد أن انتقل الحبيب ﷺ إلى جوار ربه ظل (حذيفة) على عهده عابداً صائماً قائماً مجاهداً في سبيل الله - جل وعلا -.

عن ابن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب إذا بعث أميراً كتب إليهم: إني قد بعثت إليكم فلاناً وأمرته بكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا.

فلما بعث حذيفة إلى المدائن كتب إليهم إني قد بعثت إليكم فلاناً فأطيعوه. فقالوا: هذا رجل له شأن. فركبوا ليتلقوه فلقوه على بغل تحته إكاف، وهو معترض عليه، رجلاً من جانب واحد. فلم يعرفوه فأجازوه.

(١) المرط: الكساء.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٩٢، ٣٩٣) وذكره ابن كثير في البداية (٤/ ١١٣) وأخرجه الحاكم (٣/

٣١) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٠١ - ٢٠٢) بتصرف.

فلقيهم الناس فقالوا: أين الأمير؟ قالوا: هو الذي لقيتم. قال: فركضوا في أثره، فأدركوه وفي يده رغيف وفي الأخرى عرق وهو يأكل. فسلموا عليه فنظر إلى عظيم منهم فناولته العرق والرغيف قال: فلما غفل ألقاه، وقال: أعطاه خادمه.

وفي رواية أخرى عن ابن سيرين: أن حذيفة كان راكباً على حمار له إكاف، وبيده رغيف وعرق من لحم فقالوا: سلنا ما شئت. فقال: أسألكم طعاماً آكله وعلفاً لحماري هذا ما دمت فيكم. فأقام ما شاء الله ثم كتب إليه عمر أن أقدم. فقدم فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق - اختبأ له - في مكان لا يراه. فلما رآه على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه - احتضنه - وقال: أنت أخي وأنا أخوك.

عن ابن سيرين قال: إن حذيفة لما قدم المدائن قدم على حمار له إكاف وبيده رغيف وعرق، وهو يأكل على الحمار^(١).

وكان يكره أن يدخل عليه رجل ليُثنى عليه أو ليمدحه، بل كان يحب من يأتي إليه ويذكر له عيوبه ليُصلح من نفسه ما خفى عليه، ولذلك كان لا يكره شيئاً أكثر من الكذب والنفاق.

فعن عمار بن عبد، عن حذيفة قال: إياكم ومواقف الفتن. قيل وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه^(٢).

صور مشرقة من جهاده في الفتوحات الإسلامية

ولعل قليلاً من الناس من يعلم أن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - كان من أصحاب السبق العظيم في فتوحات العراق كلها.

ففي (همدان والري والدينور) تم الفتح على يديه.

وفي معركة (نهاوند) كانت المعركة الكبرى، حيث احتشد الفُرس في مائة ألف مقاتل وخمسين ألفاً، والمسلمون في ثلاثين ألفاً يقودهم الإيمان بالله والعقيدة الراسخة التي سكبها الحبيب ﷺ في قلوب أصحابه حتى كان الواحد منهم يقابل جيشاً بأكمله فلا

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٥٥).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٦).

يخاف ولا يخشى إلا الله وحده.

وكتب عمر كتابه فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرن سلام عليك، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرأ فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة^(١)، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار، والسلام عليك. فسر في وجهك ذلك حتى تأتي (ماه) فإنني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا وأكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله».

وكتب عمر إلى نائب الكوفة - عبد الله بن عبد الله - أن يعين جيشاً ويبعثهم إلى نهاوند، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن، فإن قُتل النعمان فحذيفة، فإن قُتل فنعيم ابن مقرن. وولى السائب بن الأقرع قسم الغنائم. فسار حذيفة في جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماء، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق، وقد أرصد في كل كورة ما يكفيها من المقاتلة، وجعل الحرس في كل ناحية، واحتاطوا احتياطاً عظيماً، ثم انتهوا إلى النعمان بن مقرن حيث اتعدوا، فدفع حذيفة بن اليمان إلى النعمان كتاب عمر وفيه الأمر له بما يعتمد في هذه الواقعة، فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً من المقاتلة.

وتعبثت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفاً هائلة. في عدد وعدد لم ير مثله، وقد تغلغل كثير منهم بعضهم في بعض وألقوا حسك الحديد وراء ظهورهم حتى لا يمكنهم الهرب ولا الفرار، ولا التحيز. ثم إن النعمان بن مقرن - رضى الله عنه - كبر الأولى وهز الراية فتأهب الناس للحملة، ثم كبر الثانية وهز الراية فتأهبوا أيضاً، ثم كبر الثالثة وحمل وحمل الناس على المشركين وجعلت راية النعمان تنقض على الفرس كأنقضاض العقاب على الفريسة، حتى تصافحوا بالسيوف فاقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله في موقف من المواقف المتقدمة، ولا سمع السامعون بوقعة مثلها، قُتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبق وجه الأرض دمًا، بحيث إن الدواب كانت تطبع فيه، حتى قيل

(١) الغيضة: المكان الملتف الشجر.

إن الأمير النعمان بن مقرن زلق به حصانه في ذلك الدم فوق وجاءه سهم في خاصرته فقتله، ولم يشعر به أحد سوى أخيه سويد، وقيل نعيم، وقيل غطاه بثوبه وأخفى موته ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان، فأقام حذيفة أخاه نعيماً مكانه، وأمر بكتف موته حتى ينفصل الحال لئلا ينهزم الناس. فلما أظلم الليل انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون وكان الكفار قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل وحفروا حولهم خندقاً، فلما انهزموا وقعوا في الخندق وفي تلك الأودية نحو مائة ألف وجعلوا يتساقطون في أودية بلادهم، فهلك منهم بشر كثير نحو مائة ألف أو يزيدون، سوى من قُتل في المعركة ولم يفلت منهم إلا الشريد^(١)... فشارك حذيفة في تلك المعركة الكبيرة وأخذ الراية بعد مقتل النعمان بن مقرن.

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للفرس على أيدي الموحدين الذين امتلأت قلوبهم حباً لله ولرسول الله ﷺ ولنصرة دين الله.

حكمة وخبرة نادرة

إن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنهما - كان عبقرياً في حكمته حين تضمه صومعته، وعبقرياً في فدائيته حين يقف على أرض القتال، وهو كذلك، العبقرى في كل مهمة تُوكل إليه، ومشورة تُطلب منه.. فحين انتقل «سعد بن أبي وقاص» والمسلمون معه من المدائن إلى الكوفة، واستوطنوها.. وذلك بعد أن أنزل مُناخ المدائن بالعرب المسلمين أذىً بليغاً، مما جعل عمر يكتب لسعد كي يغادرها فوراً بعد أن يبحث عن أكثر البقاع ملاءمة، فينتقل بالمسلمين إليها... يومئذ، من الذي وُكل إليه أمر اختيار البقعة والمكان..؟

إنه «حذيفة بن اليمان».. ذهب ومعه «سلمان بن زياد»، يرتادان للمسلمين المكان الملائم..

فلما بلغا أرض الكوفة، وكانت حصباء جرداء مرملة، شمَّ حذيفة عليها أنسام العافية، فقال لصاحبه: هنا المنزل إن شاء الله.

وهكذا خُططت الكوفة وأحالتها يدُ التعمير إلى مدينة عامرة.. وما كاد المسلمون

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١١٠: ١١٣) بتصرف.

ينتقلون إليها، حتى شفى سقيمهم، وقوى ضعيفهم، ونبضت بالعافية عروقهم...!! -
ياذن الله -.

لقد كان «حذيفة» واسع الذكاء، متنوع الخبرة، وكان يقول للمسلمين دائماً:
[ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة.. ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا.. ولكن
الذين يأخذون من هذه.. ومن هذه] (١).

حرصه على الاتباع

وفى الصحيح أنه قال: «يا معشر القراء، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموها لقد سبقتم
سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتكم ضلالاً بعيداً...»، وفى رواية ابن
المبارك: «فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً».

وعنه - رضى الله عنه -: «أخوف ما أخاف على الناس اثنتان: أن يؤثروا ما يرون على
ما يعلمون، وأن يضلوا وهم لا يشعرون».

وعنه: «أنه أخذ حجرين، ووضع أحدهما على الآخر، ثم قال لأصحابه: هل ترون ما
بين هذين الحجرين من النور؟ قالوا: يا أبا عبد الله، ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً.
قال: والذي نفسى بيده، لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما بين هذين
الحجرين من النور، والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شيء قالوا: تركت السنة».

وعنه أنه قال: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، ولتنقضن
عرى الإسلام عروة عروة، وليطأن نساؤكم وهن حيض، ولتسلكن طريق من كان قبلكم
حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئن طريقهم، ولا تخطئ بكم، وحتى تبقى
فرقتان من فرق كثيرة، تقول إحداهما: ما بال الصلوات الخمس، لقد ضل من كان قبلنا،
إنما قال الله: ﴿أقم الصلاة طرفى النهار وزلفى من الليل﴾ لا تصلون إلا ثلاثاً. وتقول
الأخرى: إنما المؤمنون بالله كإيمان الملائكة، ما فيها كافر ولا منافق. حق على الله أن
يحشرهما مع الدجال».

(١) رجال حول الرسول ﷺ: (ص: ٢٥٥).

كان سبباً في جمع المسلمين على مصحف واحد

* وظلَّ حذيفة - رضى الله عنه - شديد الاهتمام بالقرآن الكريم، حتى إنه كان السبب في جمع المسلمين على مصحف واحد، عندما لاحظ أنَّ الاختلاف والفرقة قد بدأت تدب بين صفوف المسلمين، حينما كان يغزو مع أهل العراق في أرمينية وأذربيجان، وذلك في خلافة عثمان - رضى الله عنه - فسارع حتى قدم المدينة، وعرض على عثمان وجهة نظره، فسارع عثمان إلى ذلك، وجمع الصحابة، فاستقر رأيهم على كتابة القرآن الكريم، ثم أرسل منه نسخاً إلى الأمصار، وبذلك جمع الناس على مصحف واحد.

* وبهذا التصرف المحمود قطع عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف والاختلاف، وحصن القرآن الكريم من أن يتطرق إليه شيء من التحريف، أو الاختلاف على مرَّ العصور، وتعاقب الأزمان^(١).

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -: «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا المصاحف في المصاحف رد عثمان المصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»^(٢).

* وهكذا سجل حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - أثراً وضيئاً في تاريخ القرآن الكريم، وسيظلُّ ماثلاً يرشح بالعبير، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٤٨: ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨٧) كتاب فضائل القرآن.

فارس من فرسان الحكمة والبلاغة

* وحذيفة - رضى الله عنه - واحد من فرسان الحكمة النابعة من الفيوضات الربانية، والفتوحات الرحمانية، إذ إن أقواله تسيل بالرقّة والرحمة، والحنان، وتفوح بما يعطر المجالس، وتسكن في القلوب، لأنها ممتزجة برحيق الذكر الحكيم، ومختلطة بأنفاس النبوة الشريفة، من ذلك قوله الشهير في أصناف القلوب:

القلوب أربعة: قلبٌ أغلف^(١)، فذلك قلب الكافر.

وقلبٌ مصفّح^(٢)، فذلك قلب المنافق.

وقلبٌ أجرد في سراج^(٣)، فذاك قلب المؤمن.

وقلبٌ فيه نفاق وإيمان، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيب.

ومثل النفاق مثل القرحة، يمدّها قيح ودم، فأيهما ما غلب عليه غلب^(٤).

* ولنسمع إلى هذه الموازنة اللطيفة، والأدب الرائع، والنصيحة اللينة في قوله: إن الحق ثقيل، وهو مع ثقله مرىء، وإن الباطل خفيف، وهو مع خفته وبىء، وترك الخطيئة أيسر وخير من طلب التوبة؛ ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً^(٥).

وحنان وقت الرحيل

وبعد حياة مليئة بالزهد والكفاح والبذل والتضحية نام رفيق النبي ﷺ في الجنة على فراش الموت لتفيض روحه الطاهرة إلى ربها - عز وجل - الذي كتب الموت على الخلائق وهو الحي الذي لا يموت.

عن النزال بن سبرة، قال: قلت لأبي مسعود الأنصاري: ماذا قال حذيفة عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ثلاثاً. ثم قال: اشترُوا لي ثوبين أبيضين؛ فإنهما لن يتركا عليّ إلا قليلاً حتى أبدل بهما خيراً منهما، أو أسلبهما

(١) «قلب أغلف»: لا يعي لعدم فهمه، كأنه حُجب عن الفهم.

(٢) «قلب مصفّح»: هو الذي له وجهان، يلقى أهل الكفر بوجه وأهل الإيمان بوجه.

(٣) «قلب أجرد في سراج»: أي: ليس فيه غل ولا غش، فهو على أصل الفطرة، فتور الإيمان فيه يزهر.

(٤) حلية الأولياء (١/٢٧٦).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٦/٢٥٩).

سلباً قبيحاً^(١).

وعن زياد، مولى ابن عياش، قال: حدثني من دخل على حذيفة في مرضه الذي مات فيه فقال: لولا أني أرى أن هذا اليوم آخر يوم وأول يوم من الآخرة لم أتكلم به، اللهم إنك تعلم أني كنت أحب الفقر على الغنى، وأحب الذلة على العز، وأحب الموت على الحياة، حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم^(٢).

* ونزلت كوكبة من الملائكة الكرام، وقبضوا روح حذيفة - رضى الله عنه - وصعدوا بها إلى بارئها راضية مرضية؛ لتستقر في عليين، وانتهت بوفاته حياة حافلة بالهجرة، والجهاد، والفروسية، والفتوحات، والعلم، والزهد، والحكمة، والفضل، وبحسب حذيفة أن يقرن اسمه باسم رسول الله ﷺ فيقال: صاحب سر رسول الله ﷺ.

* توفي حذيفة سنة ست وثلاثين من الهجرة بعد عثمان بأربعين يوماً^(٣).

* وبعد؛ فما أجمل أن نختم سيرة حذيفة، بما افتتح به أبو نعيم ترجمته إذ قال: العارف بالمحن وأحوال القلوب، والمشرف على الفتن والآفات والعيوب، سأل عن الشر فأتقاه، وتحرى الخير فاقتناه، سكن عند الفاقة والعدم، وركن إلى الإنابة والندم، وسبق رتق الأيام والأزمان، أبو عبد الله حذيفة بن اليمان.

* رضى الله عن فارس الأحزاب: حذيفة بن اليمان، وأوسع له في الفراديس منزلاً، ونفع المسلمين بسيرته العطرة، وجعلهم يقتدون به في العبادة، وحفظ السر والجهاد، وطلب العلم النافع^(٤).

فرضى الله عن حذيفة وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) المستدرک (٣ / ٣٨١) نقلاً من السير للإمام الذهبي (٢ / ٣٦٨).

(٢) صفة الصفوة (١ / ٢٥٦).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٦ / ٢٦٢).

(٤) فرسان من عصر النبوة (ص: ٥٤).

عمار بن ياسر

«إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَقِي إِلَى عَمَارٍ»
«صَبِرَ آلُ يَاسِرٍ فَإِنْ مَوَّعَدَكُمْ الْجَنَّةُ»

محمد (رسول الله ﷺ)

إننا اليوم على موعد مع قصة الصبر على البلاء.
إن الله سبحانه وتعالى جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجُنْدًا لا يُهزم
وحصناً حصيناً لا يُثلم.

قال ﷺ: «ما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).

ولقد ذكر الله الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً فقال سبحانه:
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يُهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

لذا قال الإمام ابن تيمية: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فوالله لو لم يكن في القرآن آية عن الصبر سوى هذه الآية لكانت كافية، فإن الذي
سُعطى هو الله سبحانه وتعالى.

ولقد جمع الله للصابرين أموراً لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ
رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]^(٢).

وها نحن نعيش بل ونتعاش من خلال تلك السطور مع قصة الصبر على البلاء.

إنها قصة تتكرر في كل يوم، بل في كل مكان وزمان.

إنه الصراع الدائم بين الإيمان والكفر الذي قال عنه الحق - جل وعلا - ﴿وَلَا يَزَالُونَ

(١) متفق عليه عن أبي سعيد - صحيح الجامع (٥٨١٩).

(٢) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص ٩٨ - ٩٩).

يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ امْتُطِئْتُمْ عَنْهُ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿وَذُرُوا لِرَبِّهِمْ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

فهيا بنا لتعيش مع تلك القصة ولنقترب أكثر من هذا الصحابي الجليل الذي اشتاقت الجنة إليه... نعم - والله - لقد اشتاقت جنة الرحمن إلى هذا الصحابي الجليل. إنه عمار بن ياسر - رضى الله عنهما - الإمام الكبير أبو اليقظان العنسي المكي مولى بنى مخزوم، أحد السابقين الأولين، والأعيان البدرين. وأمه: هي سمية مولاة بنى مخزوم، من كبار الصحابييات وهي أول شهيدة في الإسلام... وأول عنصر أبدأ به الحديث عن هذا الصحابي الجليل هو:

موعد مع السعادة

وتبدأ القصة عندما قدم ياسر - والد عمار - من اليمن مع أخويه الحارث ومالك إلى مكة ليعثوا عن أخ لهم فقدوه منذ سنوات، ومن هذا الوقت وهم يطوفون في البلدان بحثاً عنه فأنتهى بهم المطاف في أرض مكة فبحثوا عنه فلم يجدوه فعاد (الحارث ومالك).

وأما (ياسر) فلم يعد لأنه أحسَّ بسعادة عجيبة ونشوة غريبة جعلته يؤثر البقاء في مكة وهو لا يعلم أنه بذلك قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه، بل وأشرفها.

وكان من عادة العرب أنه إذا دخل رجل غريب إلى أى بلدة واستقر بها فلا بد أن يحالف سيدها من سادات القوم ليمنعه من أذى الناس وليستطيع أن يعيش حياة هادئة مطمئنة في ذلك المكان.

فحالف (ياسر) (أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي) فأحبه الرجل من أعماق قلبه لما رأى منه من نبيل الخصال وكريم الفعال ونفاسة معدنه، وأراد أن يتقرب منه أكثر من ذلك فزوجه من أمة له تدعى «سمية بنت خباط» فأحببت له غلاماً مباركاً ألا وهو «عمار بن ياسر».

واكتملت الفرحة يوم أن أعتقه أبو حذيفة وحرره من العبودية.. ثم مات أبو حذيفة.

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

وبعد قرون طويلة عاشتها البشرية في ظلمات الشرك والجاهلية، وإذا بشمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة لتخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار التوحيد والإيمان ولتنقلهم من البؤس والشقاء إلى سعادة الدنيا والآخرة... إلى جنة الدنيا التي تثمر لهم بعد ذلك جنة الآخرة.

إنهم على موعد مع حياة جديدة.. بل إن صح القول - مع مولد جديد - وفي تلك الساعات يسمع عمار - رضى الله عنه - عن تلك الرسالة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - فانفتح قلبه لنداء الإيمان، وذهب إلى دار الأرقم وأقامه تسابق الريح وكأنه يسابق الزمن. فما إن وصل ورأى النبي ﷺ وسمع منه حتى كاد يطير من شدة الفرح.

نعم إن هذا الدين هو طوق النجاة للبشرية كلها. فما كان منه إلا أن بسط يده للحبيب ﷺ وقال بقلبه ولسانه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

من أعظم البر بالوالدين

ولما لامس الإيمان شغاف قلب (عمار) - رضى الله عنه - عاد إلى أبويه يحمل لهما النور والخير والإيمان.. لقد عاد إليهما ومعه جنة الدنيا.

فما إن عرض عليهما الإسلام حتى استجابا في التو واللحظة ما تلعثم واحد منهما ولا تلكاً.

وهذا والله هو أعظم البر بالوالدين.. أن يكون الولد سبباً في دخولهما الجنة ولجائهما من النار.

وانطلقت الأسرة الكريمة المباركة في رحلتها إلى جنة الرحمن.. وعلى الرغم من أن الطريق صعب وشاق وطويل، لكن عاقبته محمودة وغالية.. ويكفى أن يضع المؤمن قدميه على أول الطريق ويستعين بالملك - جل وعلا -.

صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة

وما هي إلا ساعات معدودة حتى طار خبر إسلامهم إلى «بنى مخزوم» فاستشاطوا غضباً.

وصبوا على آل ياسر أشد العذاب.

فكانوا إذا حميت الظهيرة يأخذونهم إلى بطحاء مكة ويلبسونهم دُرُوع الحديد، ويمنعون عنهم الماء ويصهرونهم في الشمس المحرقة ويصبون عليهم من جحيم العذاب ألواناً؛ حتى إذا بلغ منهم الجهد مبلغاً أعادوا معهم الكرة في اليوم الذي يليه.

وكان هذا شأن كل من أظهر إسلامه بمكة، ولكن درجات العذاب كانت تتفاوت فيما بينهم.

عن عبد الله قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فألبسهم المشركون أدراع الحديد، وصفدوهم في الشمس، وما فيهم أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحدٌ^(١).

وبينما هم على تلك الحالة من العذاب والتنكيل وإذا بالحبيب المصطفى ﷺ يمر عليهم ويقول لهم: «أبشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة»^(٢).

الله أكبر... لقد هبت رياح الجنة على قلوبهم فأطفأت نار العذاب في لحظة واحدة. وعن عمرو بن ميمون قال: عذب المشركون عماراً بالنار. فكان النبي ﷺ يمرُّ به، فيمر يده على رأسه، ويقول: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، على عمار كما كنتِ على إبراهيم. تقتلك الفئة الباغية»^(٣).

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩) والحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه. وقال الذهبي: صحيح..

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٨٨) وقال مصطفى العدوي: صحيح لشواهده. أما قوله ﷺ: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» فرواه الحاكم (٣/ ٣٨٣) وسكت عنه الحاكم والذهبي لأنه منقطع.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١/ ١٧٧) نقلاً من السير للذهبي (١/ ٤١٠).

وهنا بدأت نُسوسهم تشعر بالراحة والطمأنينة.. وبدلاً من المعاناة التي كانوا يجدونها من أثر التعذيب أصبحوا يستعذبون العذاب في سبيل الله ويحلمون بالجنة ليلاً ونهاراً.

وهكذا فإنه لا بد أن نعلم أن الدين الذي رفع محمد ﷺ لواءه، ليس حركة إصلاح عابرة وعارضة.. إنما هو نهج حياة للبشرية المؤمنة.. ولا بد للبشرية المؤمنة هذه أن توثق مع الدين تاريخه بكل بطولاته، وتضحياته، ومخاطراته.

إن هذه التضحيات النبيلة الهائلة، هي «الخرسانة» التي تهب الدين والعقيدة ثباتاً لا يزول، وخلوداً لا يبلى..!!

إنها «العبر» يملأ أفئدة المؤمنين ولاءً، وغبطة، وحُبوراً. وإنها «المنار» الذي يهدي الأجيال الوافدة إلى حقيقة الدين، وصدقه وعظمته..

وهكذا، لم يكن هناك بد من أن يكون للإسلام تضحياته وضحاياه.

ولقد أضاء القرآن الكريم هذا المعنى للمسلمين في أكثر من آية..

فهو يقول: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

[البقرة: ٢١٤].

أجل.. هكذا علم القرآن حمَلته وأبناءه أن التضحية جوهر الإيمان، وأن مقاومة التحديات الغاشمة الظالمة بالثبات وبالصبر وبالإصرار... إنما تُشكل أبهى فضائل الإيمان وأروعها...

ومن ثم فإن دين الله هذا وهو يضع قواعده، ويرسى دعائمه، ويُعطي مثله، لا بد له أن يدعم وجوده بالتضحية، ويزكي نفسه بالفداء، مختاراً لهذه المهمة الجليلة نفرّاً من أبنائه وأوليائه وأبراره يكونون قدوة سامقة ومثلاً عالياً للمؤمنين القادمين^(١).

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٦٠ - ٢٦١) بتصرف.

أول شهيدة في الإسلام

وبدأت المحنة تتحول إلى منحة ربانية بعد أن بشرهم النبي ﷺ بالجنة، وهنا تقوم (أم عمار) سمية - رضى الله عنها - لتكتب بدمها سطوراً من النور على جبين التاريخ لتكون أول شهيدة في الإسلام. وذلك عندما تعرض لها الهالك أبو جهل - عليه من الله ما يستحقه - فطعنها في موطن عفتها فقتلها.

واستشهد ياسر (والد عمار) - رضى الله عنه - تحت وطأة التعذيب.

فإن عادوا فعد

فلما لم يبق سوى (عمار) - رضى الله عنه - اشتد الكفار عليه وأذاقوه من العذاب ألواناً.

عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عماراً، فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ. وذكر آلهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله. والله ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهم بخير، قال: «فكيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان. قال: «فإن عادوا فعد»^(١).

وعن قتادة أن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ نزلت في عمار^(٢).

الهجرة المباركة

وكتب الله النجاة لعمار - رضى الله عنه - ولأمثاله من المستضعفين عندما أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.

وهاجر عمار - رضى الله عنه - فراراً بدينه وهو الذي فقد أمه وأباه محتسباً ذلك كله عند الله - عز وجل -.

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة، في ترجمة عمار بن ياسر: واتفقوا على أنه نزلت فيه هذه الآية. وانظر

ابن سعد (٣/ ١ / ١٧٩).

فلما وصل إلى «قباء» دعاهم لبناء مسجد ليقموا فيه الصلاة فاستجابوا له.. وتم بناء المسجد.

فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: أول من بنى مسجداً يصلى فيه عمار^(١).

وهذا درس عظيم لكل مسلم ليتعلم أن البذل والعطاء للإسلام لا بد أن يكون في كل لحظة من عمره، بل في أشد لحظات عمره وهي لحظات الابتلاء في سبيل الله تعالى.

وعاش عمار - رضى الله عنه - مع إخوانه من الأنصار - رضى الله عنهم - فنسى كل العذاب الذى نزل بجسده وأحس وكأنه بين أبويه لم يفقد واحداً منهما.. من كثرة ما يجد من رحمة الأنصار ورقة قلوبهم.

ولما هاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة تمت فرحة عمار - رضى الله عنه - بقدومه.. فكان ملازماً للنبي ﷺ لا يفارقه أبداً.

وكان النبي ﷺ يحبه من أعماق قلبه ويقربه إليه دائماً.

مناقبه وفضائله - رضى الله عنه -

وها هي جملة من مناقبه وفضائله - رضى الله عنه -

عن (علي) قال: استأذن عمار على النبي ﷺ فقال: «من هذا؟» قال: عمار، قال: «مرحباً بالطيب المطيب»^(٢).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة: على وعمار وسلمان»^(٣).

الله أكبر... الجنة تشتاق إلى رجل... أى منقبة هذه وأى كرامة هذه... والله إن الكلمات كلها لتوارى خجلاً وحياءً أمام تلك الكرامة.

وعن خالد بن الوليد قال: كان بينى وبين عمار كلام، فأغلظتُ له، فشكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: «مَنْ عادى عماراً عاداه الله، وَمَنْ أَبْغَضَ عماراً أَبْغَضَهُ اللهُ» فخرجت، فما شئ أحبَّ إلىَّ من رضى عمار، فلقيته فرضى^(٤).

(١) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٧٨) والحاكم (٣ / ٣٥٨).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٩٩) والحاكم فى المستدرک (٣ / ٣٨٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٢٩٣): رواه أحمد والطبرانى ورجالهم رجال الصحيح.

وقال ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار وثمسكوا بعهد ابن مسعود»^(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أَرشدهما»^(٢).

وعن (علي) - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عمار مكي إيماناً إلى مُشاشه»^(٣).

وعن عكرمة قال: قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه. فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى علي ذكر بناء المسجد فقال: «كنا نحمل لبنه لبنه وعمار لبنتين لبنتين فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قال: يقول عمار: أعود بالله من الفتن»^(٤).

عمار أجير من الشيطان

عن علقمة قال: قدمت الشام فصليت ركعتين ثم قلت: اللهم يسر لي جليساً صالحاً. فأتيت قوماً فجلست إليهم. فإذا شيخ قد جاء حتى جلس إلى جنبي. قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء. فقلت: إني دعوت الله أن يسر لي جليساً صالحاً فيسرك لي. قال: ممن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة قال: أو ليس عندكم ابن أم عبد - ابن مسعود - صاحب النعلين والوساد والمظهرة؟ أفياكم الذي أجاره الله من الشيطان يعني علي لسان نبيه ﷺ؟^(٥) - يعني عمار - أو ليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلم

(١) رواه الترمذي عن ابن مسعود والرويانى عن حذيفة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٤٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٩٩) وأحمد (١١٣ / ٦) وابن ماجه (١٤٦) - صحيح الجامع (٤١٠٢).

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٠٣).

(٤) أخرجه البخارى (٤٤٧) وأحمد (٩٠ / ٣ - ٩١).

(٥) والمراد به عمار، وانظر رواية البخارى (٣٢٨٧)، (٦٢٧٨)، وأحمد (٤٤٩ / ٦) وقد أورد الحافظ فى هذا المعنى أقوالاً منها: أن المراد بقوله (على لسان نبيه) قول النبي ﷺ: «ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ويحتمل أن يكون المراد بذلك حديث عائشة مرفوعاً: «ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أَرشدهما» فكونه يختار أَرشد الأمرين دائماً يقتضى أنه قد أجير من الشيطان الذى من شأنه الأمر بالغي قال: ويحتمل أن تكون الإشارة بالإجارة المذكورة إلى ثباته على الإيمان لما أكرهه المشركون على النطق بكلمة الكفر.

أحدٌ غيره؟ ثم قال: كيف يقرأ عبدُ الله ﴿والليل إذا يغشى﴾ فقرأتُ عليه: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى﴾ قال: والله لقد أقرأنيها رسول الله ﷺ من فيه إلى في^(١).

وكان من نفيس كلام (عمار) - رضى الله عنه -: ثلاثة من كُنَّ فيه، فقد استكمل الإيمان، أو قال: من كمال الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم^(٢).

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

ولقد شهد عمار - رضى الله عنه - بدرًا مع رسول الله ﷺ وكان المسلم الوحيد الذي خاض المعركة وأبواه مؤمنان شهيدان. وشهد مع النبي ﷺ كل المشاهد.

ولما توفي رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى ارتدت أكثر قبائل العرب عن الإسلام، فكان لعمار - رضى الله عنه - موقفًا عظيمًا في يوم «اليمامة».

قال ابن عمر: رأيت عمارًا يوم اليمامة على صخرة، وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون؟! أنا عمار بن ياسر، هلموا إليّ. وأنا أنظر إلى أذنه قد قُطعت فهي تُذبذب، وهو يقاتل أشد القتال^(٣).

ولايته على الكوفة

وتدبروا معى هذه الصفحة الناصعة من ولايته - رضى الله عنه -.

ولقد ضرب عمار - رضى الله عنه - في ولايته المثل الأعلى في الرحمة والعدل والتواضع والإنصاف.

عن حارثة بن مضرب قال: قرئ علينا كتابُ عمر: أما بعد، فإني بعثتُ إليكم عمارَ ابن ياسر أميرًا، وابن مسعود معلمًا ووزيرًا، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بابن أمّ عبد - ابن

(١) أخرجه البخارى (٣٧٤٢) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٩٤).

(٢) علقه البخارى فى الإيمان، ووصله عبد الرزاق فى المصنف (١٩٤٣٩) وأحمد فى كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٨١).

مسعود - على نفسه.

(رواه شريك) فقال: أثرتكم بهما على نفسي^(١).

قال عبد الله بن أبي الهذيل: رأيت عماراً اشترى قنّاً بدرهم، وحمله على ظهره وهو أمير الكوفة^(٢).

وهذا مثلٌ عظيم في التواضع.. بل تدبر معي هذا التواضع الذي يعجز القلم عن وصفه.

فعن طارق بن شهاب قال: إن أهل البصرة غزوا نهاوند، فأمدهم أهل الكوفة وعليهم عمار، فظفروا، فأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة شيئاً. فقال رجل تميمي: أيها الأجدة! تريد أن تشاركنا في غنائمنا؟ فقال عمار: خير أذننى سبيت، فإنها أصيبت مع رسول الله ﷺ. قال: فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: إن الغنيمة لمن شهد الواقعة^(٣).

وكان عمر - رضى الله عنه - كعادته يسأل الناس عن الولاة خشية أن يحيدوا عن العدل ويجور أحدهم في حكمه.

فسأل (عمر) أهل الكوفة عن (عمار) فأثنوا عليه، وقالوا: والله ما أنت امرأته علينا، ولكن الله أمره، فقال عمر: اتقوا الله وقولوا كما يقال، فوالله لأنا أمرته عليكم، فإن كان صواباً، فمن قبل الله، وإن كان خطأ إنه من قبلى.

وعن الحارث بن سويد: أن رجلاً من الكوفة وشى بعمار إلى عمر، فقال له عمار: إن كنت كاذباً، فأكثر الله مالك وولدك، وجعلك موطأ العقبين.

ويقال: سعوا بعمار إلى عمر في أشياء كرهها له، فعزله، ولم يؤنبه.

وعن الشعبي، قال عمر لعمار: أساءك عزلنا إياك؟ قال: لئن قلت ذاك لقد ساءنى حين استعملتنى وساءنى حين عزلتنى^(٤).

(١) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٨٢) نقلاً من السير للذهبي (١ / ٤٢٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٨٢) والقت: الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب.

(٣) قال شعيب الأرنؤوط في تخريج السير: إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٨١ - ١٨٢) والبيهقي في سننه (٩ / ٥٠).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ٤٢٣).

موقفه يوم صفين (وساعة الرحيل)

ولما وقعت الفتنة بين (علي) و(معاوية) - رضى الله عنهما - كان عمار - رضى الله عنه - فى صفّ (علي) - رضى الله عنه -.

وكان قد بلغ من العمر يومئذ ثلاثاً وتسعين سنة. وكان عمار بن ياسر قليل الكلام، طويل السكوت، وكان عامة قَوْلُه : عائذُ بالرحمن من فتنة، عائذُ بالرحمن من فتنة، فعرضت له فتنة عظيمة^(١).

وعن عمار بن ياسر أنه قال: وهو يسير إلى (صفين) إلى جنب الفرات: اللهم لو أعلم أنه أرضى لك عنى أن أرمى بنفسى من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلت، ولو أعلم أنه أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى الماء فأغرق نفسى فعلت، وإنى لا أقاتل إلا أريد وجهك وأنا أرجو أن لا تخيبنى وأنا أريد وجهك... يا لها من كلمات تُصدع الأفئدة وتفتت الجبال.

وعن أبى البختري قال: قال عمار يوم صفين: ائتونى بشربة لبن، قال: فشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن» ثم تقدم فقتل^(٢).

وعن الزهرى: عن أبيه، عن مَنْ حدثه: سمع عماراً بصفين يقول: أذفت الجنان، وزوجت الحور العين، اليوم نلقى حبيبنا محمداً ﷺ^(٣).

وقُتل عمار - رضى الله عنه - ونزفت دماؤه الشريفة التى لطالما امتزجت بحب الله وحب رسوله ﷺ، ولطالما احترقت شوقاً لنصرة دين الله - جل وعلا -.

قتله رجل اسمه - أبو الغادية - ويقال: قتله رجل آخر فالله أعلم.

ولما قُتل عمار، دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار. وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية» فقام عمرو فزعا إلى معاوية فقال: ما شأنك؟ قال: قُتل عمار. قال: قُتل عمار، فكان ماذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية»، قال: أنحن قتلناه؟ وإنما قتله (علي) وأصحابه، جاؤوا به حتى ألغوه

(١) أخرجه ابن سعد (٣ / ١ / ١٨٣) وأبو نعيم فى الحلية (١ / ١٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤ / ٣١٩) وابن سعد (٣ / ١ / ١٨٤) والحاكم (٣ / ٣٨٩).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ٤٢٥).

بين رماحنا، أو قال: بين سيوفنا^(١).

وفى رواية: أنه لما أخبر عمرو بن العاص بقتل عمار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن قاتله وسالبه فى النار»^(٢).

قال الإمام الذهبى معلقاً على الفتنة التى حدثت بين (على) و(معاوية) - رضى الله عنهما -: «... فسبيلنا الكفُّ والاستغفارُ للصحابَةِ، ولا نحب ما شجر بينهم، ونعوذ بالله منه، ونتولى أمير المؤمنين علياً»^(٣).

أما (عمار) فقد حمّله الإمام (على) فوق صدره إلى حيث صلى عليه والمسلمون معه.. ثم دفنه فى ثيابه..

أجل - فى ثيابه المضمخة بدمه الزكى الطهور.. فما فى كلِّ حرير الدنيا وديباجها ما يصلح أن يكون كفناً لشهيدٍ جليل من طراز عمار.

ووقف المسلمون على قبره يعجبون...!! منذ ساعات كان (عمار) يُغرّد بينهم فوق أرض المعركة... تملؤ نفسه غبطة الغريب المضنى يُزفُّ إلى وطنه، وهو يصيح: [اليوم ألقى الأحبة، محمداً وصحبه]...!!!^(٤)

وكيف لا يلقاهم وقد «اشتاقت الجنة إلى عمار».

فهنيئاً لك أيها الصحابى الجليل.. وهنيئاً لمن اكتحلت عيناه برؤيتك ورؤية أصحاب الحبيب ﷺ.. وهنيئاً ثم هنيئاً لمن اكتحلت عيناه وانشرح صدره برؤية الحبيب ﷺ.

وهكذا رحل عمار الذى اشتاقت الجنة إليه... رحل عن دنيا الناس ليجمع الله بينه وبين أبيه وأمه فى جنته مع الحبيب محمد ﷺ.

وما زالت الصفحة مفتوحةً لنعيش مع صحابى آخر ممن بشرهم الحبيب ﷺ بالجنة.

فرضى الله عن عمار وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٢٧)، ومن طريقه أخرجه أحمد (١٩٩ / ٤) وانظر مجمع الزوائد (٢٤٢ / ٧) (٢٩٧ / ٩).

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (١٩٨ / ٤) وابن سعد (٣ / ١ / ١٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣ / ٣٩).

(٤) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٧٩).

عكاشة بن محصن

يدخل الجنة بغير حساب.. يضيء وجهه كالقمر ليلة البدر

وها نحن نقرب شيئاً فشيئاً من واحدٍ من عمالقة الصحابة - رضى الله عنهم - الذين حملوا أمانة الدين فوق أعناقهم.

إنه الرجل الذى لا يدخل الجنة فحسب!!! بل إنه يدخلها بغير حساب ولا عذاب. فتعالوا بنا لنعيش قصته من أولها... فمرحباً برياح الجنة.

بعد أن بُعث النبي ﷺ وأخذ يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر فى مكة وتعمل عملها فى أصحاب الأئدة والضمائر الحية بدأت قريش تقف فى وجه الدعوة وقوف المعارض، وتدافع عن وثنيها دفاع المستميت، وقرر المشركون محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان العذاب والنكال.

بيد أن هذه الحرب المستعرة جعلت بعض الشباب من ذوى العقول الواعية ينظرون إلى الإسلام نظرة صافية، خالية من شوائب الجاهلية ورواسبها، فكان بعضهم يقبل على الإسلام فى صفاء تام، ويعلن إسلامه وانضمامه إلى الدين الحنيف.

نبهت دعوة الإسلام أحد الشباب الذين عرفوا بوفرة العقل وصدق الإحساس وصفاء السريرة، وحركت فى نفسه نوازع الخير والركون إلى الإسلام وترك الشرك، وألقت الدعوة مكاناً خالياً فى قلبه فتمكن منه، وأشرق نفسه بالحقيقة، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه. ولم يكن هذا الشاب سوى «عكاشة بن محصن» حليف بنى عبد شمس.

وكان عكاشة معروفاً بجمال الطلعة وحسن الهيئة والجرأة والإقدام وقد تلقى الأذى من قريش مع من تلقى من المؤمنين.

لكنه لم يزد إلا إيماناً وتسليماً، وإصراراً على التمسك بدينه، ولم تفتقر قريش فى الحملة على الإسلام، ورجاله لحظة واحدة، فلقد ضيقوا عليهم سبل العيش، وحاولوا أن

يُفْتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ^(١).

فَقُتِبُوا إِلَى اللَّهِ

ولما رأى الحبيب ﷺ ما ينزل بأصحابه من العذاب والأذى والبلاء أشار عليهم بالهجرة إلى المدينة.. فكان (عكاشة) من بين من هاجر إلى يثرب (المدينة) وما إن وصل إلى هناك حتى استنشق نسيم الأنس والراحة والأمان لأول مرة منذ أن أسلم. وعاش في المدينة أجمل وأبهى أيام عمره في رحاب إخوانه من الأنصار الذين بذلوا لإخوانهم المال والنفس والتنفيس ابتغاء وجه الله تعالى وطمعاً فيما عنده من الرحمة والرضوان والجنة..

سَيِّدُهُ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وبعد أن التقط أنفاسه هناك بين إخوانه كان في أشد شوقه لخدمة هذا الدين العظيم والدود عن حياضه.

فاستعمله النبي ﷺ على سرية (الغمر) في أربعين رجلاً، فذهبوا إلى الغمر فعلم القوم بمجيئه فهربوا ونزل على مياههم وأرسل عيونه فعرفوا مكان ماشيتهم فغزاها فوجد مائتي بعير فساقها إلى المدينة^(٢).

ولقد شهد بدرًا وأبلى يومئذ بلاءً حسناً وشهد أُحُدًا والخندق وما بعدها^(٣).

لقد أسلم بطلنا مبكراً ولازم الحبيب ﷺ ليقتبس من علمه وهديه وأخلاقه.. وجعل حياته كلها لله ولخدمة دين الله - جل وعلا - حتى بشره النبي ﷺ بأنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب فأصبح منذ تلك اللحظة يبحث عن الشهادة في مظانها ليفوز بتلك البشرية العظيمة التي خرجت من فم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

سَعَادَةٌ لَا شَقَاءَ بَعْدَهَا أَبَدًا

يا لها من كرامة لا توازيها الدنيا بكل زخارفها الفانية ونعيمها الزائل.

إنه رجل يأتي يوم القيامة فيدخل مع الحبيب ﷺ الجنة بغير حساب ولا عذاب!!!

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ١٠٥ - ١٠٦).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٠٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٧).

فبينما الناس وقوفٌ في أرض المحشر خمسين ألف سنة بلا طعام ولا شراب ولا ظل والشمس فوق الرؤوس، وقد حُشِرَ الناس حُفَاة عُرَاة غُرُلًا، وإذا بالحق - جل جلاله - يأمر حبيبه محمد ﷺ أن يدخل الجنة ومعه تلك النخبة السعيدة التي تدخل الجنة بغير حساب، والذين لم نعرف منهم سوى (عكاشة بن محصن).

فهنيئًا له والله، فقد قال ﷺ: «من نُوقِش الحساب عُدِّب»^(١).

وفي رواية: «من نُوقِش المحاسبة هلك»^(٢).

فلو علم الإنسان أنه سيدخل الجنة، ولكن بعد الحساب بين يدي الله - جل وعلا - لكان ذلك عذابًا شديدًا، فما ظنك بمن لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟
أسأل الله - جل وعلا - أن يجمعني وإياكم في جنته بغير حساب ولا عذاب.

تدبروا واسألوا الله من فضله

والآن أترككم مع تلك الأحاديث التي خرجت من فم الصادق المصدوق ﷺ لتخبر عن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب... فتدبر واسأل الله من فضله بأن تكون منهم.

عن محمد يعنى ابن سيرين قال: حدثني عمران قال: قال نبي الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم قال: «أنت منهم» قال: فقام رجل فقال: يا نبي الله ادعُ الله أن يجعلني منهم قال: «سبقك بها عكاشة»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدخلُ الجنة من أمتي زُمرةٌ هم سبعون ألفًا تُضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر. وقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرَةً عليه فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع

(١) متفق عليه عن عائشة - رضى الله عنها - صحيح الجامع (٦٥٧٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن الزبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨).

الله أن يجعلني منهم فقال: سبقك بها عكاشة» (١).

وقال سعيد بن جبيرة: حدثنا ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ (٢)، فَرَأَيْتَ النَّبِيَّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ وَالْإِثْنَانُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِلَى أَنْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقُلْتُ: هَذِهِ أُمَّتِي. قِيلَ: لَيْسَ بِأُمَّتِكَ، هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. إِلَى أَنْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ. قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ، فَقِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَخَضْنَا فِي أَوَّلِكَ السَّبْعِينَ، وَجَعَلْنَا نَقُولُ: مَنْ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ؟ أَهْمُ الَّذِينَ صَحَبُوا النَّبِيَّ ﷺ؟ أَمْ هُمُ الَّذِينَ وَلَدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا؟

إِلَى أَنْ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَخُوضُونَ فِيهِ؟». قَالَ: فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مُحَصَّنٍ فَقَالَ: أَنَا مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ». وَقَامَ رَجُلٌ آخَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَقَالَ: أَنَا مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ» (٣).

نِعْمَةُ التَّوَكُّلِ

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

— ووالله إن الأمة الإسلامية قد ذلت بعد عزة وافتقرت بعد غنى، وضعفت بعد قوة وجهلت بعد علم لأنها تركت التوكل على ربها، وذهبت تلتمس العزة عند الشرق الملحد تارة وعند الغرب الكافر تارة ونسيت أنه لا يملك خزائن السموات والأرض إلا الله، ونسيت قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

— فهل جندت نفسك أيها الأخ الكريم لتكون واحداً من هؤلاء.

— يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٢) ومسلم (٢١٦).

(٢) في رواية الترمذي والنسائي — وهي صحيحة — أن عرض الأمم كان ليلة الإسراء.

(٣) أخرجه أحمد والبخاري، ومن طريقه البغوي في شرح السنة، ومسلم والترمذي، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى — كما في تحفة الأشراف —

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٠٣﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال المفسرون: إن هذه الآية عامة وقد نزلت في عوف بن مالك الأشجعي. أسر المشركون ابنه فأتى النبي ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال إن العدو أسر إبني وجزعت أمه فما تأمرني قال ﷺ: اتق الله واصبر وأمرك وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله ففعل هو وامراته فيينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت الآية ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا...﴾ (١).

قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خميصاً وتروح بطاناً» (٢).

... فانظر لهذا الطير الضعيف الذي لا يملك من أسباب الرزق الا القليل ولكنه متوكل على الله يسبح بحمده ليلاً ونهاراً.... كما قال الحق جل وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾ [النور: ٤١].

... فيها هو الطير الضعيف يتوكل على الله ولا ينشغل عن طاعة الله... وفي المقابل... ها هم الكثيرون من بني جلدتنا من الذين أكرمهم الله بنعمة الإسلام قد هجروا التوكل على خالقهم فتركوا الصلوات وتركوا طاعة رب الأرض والسماوات خوفاً من الانشغال عن الأرزاق... ولا حول ولا قوة الا بالله.

... أتخشى أيها المسلم على الرزق الذي قدره الله قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

قال ﷺ: «فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله، ورزقه، وأثره، ومضجعه، وشقى أو سعيد» (٣). وفي رواية مسلم «كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء» (٤).

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية بلفظ: وقال السدي.. وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ. وساق القصة.. رواه ابن جرير.. وروى أيضاً من طريق سالم بن أبي الجعد مرسلاً نحوه.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٥٤).

(٣) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٠١).

(٤) رواه مسلم عن ابن عمرو، باب كتب المقادير قبل الخلق، كتاب القدر.. صحيح الجامع (٤٤٧٤).

- فيا من تخشى على الأرزاق استمع لتلك القصة لتعلم من الذى يرزق ومن الذى يجب أن تُفرده بالعبادة.

- يقول أحد العلماء والله لقد رأيت ثعباناً أعمى يعيش فوق نخلة عالية ويأتيه بين الوقت والآخر عصفور صغير فيقف عند هذا الثعبان ويصدر له أصواتاً فيفتح الثعبان فمه فيلقى العصفور الطعام فى فم الثعبان الأعمى!!! فمن الذى سخر هذا العصفور لذلك الثعبان؟ ومن الذى جعل الثعبان لا يفترس العصفور؟! إنه رب السموات والأرض الذى يرزق الدود فى بطن الحجر.

وها هى أم موسى عليه السلام يقول الحق تبارك وتعالى عنها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ ﴿٧﴾ فَمَاذَا تَصْنَعُ؟ ﴿٨﴾ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: ٧].

فما كان منها إلا أن انقادت لأمر الله وهى واثقة فى موعود الله. فماذا كانت النتيجة؟

- يتربى موسى عليه السلام فى بيت عدو الله فرعون... قال الله تعالى مصوراً تلك الحالة: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحِيَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩] فيقذف الله محبته فى قلوب الناس فما من إنسان يراه الا ويحبه من كل قلبه وهذا من تمام نعمة الله عليه.

ثم يتحقق موعود الله ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٢-١٣].

وتتحقق البشارة الثانية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤].

- فكانت أم موسى مثلاً عظيماً لليقين والتوكل على الله والثقة فيما عند الله جل وعلا.

- بل إن موسى عليه السلام لما أدركه فرعون عند البحر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال لهم بلسان التوكل والثقة بنصر الله ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢]، فكانت ثمرة التوكل تأتية فى التو واللحظة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ

أَن اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴿الشعراء: ٦٣﴾، الله أكبر!! من أطاع الله طوع الله له كل شيء.

- البحر ينفلق وليس ذلك فحسب بل يجعل الله لهم في البحر اثني عشر طريقاً^(١) لكي تمر كل قبيلة من طريقها وتنجو من بطش فرعون.

- حتى إن أصحاب موسى عليه السلام أرادوا أن يتأكدوا من موت فرعون فأمر الله البحر أن يلفظ جسد فرعون بعد غرقه وموته وفي ذلك يقول الله جل وعلا ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

- وها هو صلة بن أشيم كما أورد الذهبي في سير أعلام النبلاء وقال: هذه قصة ثابتة عن صلة بن أشيم. هذا التابعي المخضرم لما كان في طريق عودته من إحدى المعارك مات فرسه فقال: اللهم لا تجعل لأحد عليّ منه (أي فضل) فإني استحيى أن أسأل غيرك فأحيا الله له الفرس فركبه ولما وصل إلى بيته قال لابنته محمد: يا بني إنزع السرج من على الفرس فإنها عارية (أي أنني استعرتها من الله) فنزع السرج فمات الفرس!!!

- وها هم أصحاب النبي ﷺ لما حققوا التوكل على الله ساروا على الأنهار يخيلهم... بل وخاطبوا دواب الأرض حتى وقف عقبة بن نافع على أبواب مدينة القيروان وقال أيتها الدواب أيتها الأسود إنا أصحاب محمد ﷺ جئنا لنُعلى كلمة لا إله إلا الله فأفسحوا لنا الطريق فخرجت الأسود بولدائها وخرجت الحيات والعقارب!!! وكل ذلك لأنهم علموا أن لهم رباً قد تكفل بالأرزاق، بل هو المالك والمتصرف في الكون كله، فهو الواحد الديان الذي قال وقوله الحق.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزمل: ٩].

- ولذا كان من دعاء النبي ﷺ «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»^(٢).

(١) ذكره ابن كثير في تفسير سورة الشعراء.. الآية (٦٣)، هكذا: وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق.. ولم يذكر ابن عباس في حديثه الموقوف المسند (حديث الفتون) تعدد الطرق. وقال ابن كثير: كأنه مما أبيع نقله من الإسرائيليات.

(٢) متفق عليه عن ابن عباس - صحيح الجامع (١٣٠٩).

وعن ابن عباس قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى في النار وقالها: محمد حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»^(١).

وروى أن حاتم الأصم قال لأولاده: إنى أريد الحج.... فبكوا وقالوا: إلى من تكلنا؟. وكان له أينة مباركة قد رزقها الله بنعمة التوكل واليقين، فقالت: دعوه يذهب فليس برازق.... فخرج فباتوا جوعاً فجعلوا يوبخون تلك البنت فقالت: اللهم لا تخجلنى بينهم.... فمر بهم أمير البلد فقال لبعض أصحابه: اطلب لى ماء.... فناوله أهل حاتم كوزاً جديداً وماءً بارداً فشرب فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم فرمى فيها صرة من ذهب وقال: من أحبنى فليصنع مثلاً صنعت.... فرمى العسكر ما معهم من المال فى هذا الإناء فجعلت البنت تبكى فقالت أمها: ما يبكيك وقد وسّع الله علينا... فقالت: لأن مخلوقاً نظر إلينا نظرة فاغتنينا فكيف لو نظر الخالق إلينا؟.

الصدق والتوكل وطريقنا إلى المسجد الأقصى

إن الشواهد والعقائد والتاريخ الإسلامى ليقر لنا بحقيقة واحدة ألا وهى أنه لا طريق إلى عودة المسجد الأقصى إلا بالصدق مع الله وتحقيق التوكل الكامل على الخالق جل وعلا.

- واستمعوا لتعرفوا وتوقفوا بتلك الحقيقة الثابتة التى لا تبدل ولا تتغير.

- ها هو موسى عليه السلام لما أراد أن يدخل بقومه لتحرير الأرض المقدسة أخذ

يذكرهم أولاً بنعم الله عليهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

ثم بعد ذلك وضع أمامهم التكليف الربانى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢) [المائدة: ٢١، ٢٢].

وفجأة قام رجلان أنعم الله عليهما بنعمة الإيمان والتوكل وهما - يوشع ابن نون وكالب بن يوفنا - وقالوا إن سلاحكم العظيم الذى ستفتحون به المسجد الأقصى هو

(١) رواه البخارى عن ابن عباس موقوفاً عليه برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

التوكل على الله. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾. فما هو السلاح الذي يحقق لهم هذا الفتح؟ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وعلى الرغم من ذلك قالوا ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَمِنَ تَدَخِّلِهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فكانت العقوبة من الله لبنى إسرائيل ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

- وكان الجزاء والأجر العظيم ليوشع بن نون أنه بعد وفاة موسى عليه السلام أقام يوشع نبياً خليفة عن موسى عليه السلام، ومات أكثر بنى إسرائيل في تلك الفترة (التيه) ويُقال أنه لم يبق أحد سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع أو بمن بقي منهم وبسائر الجيل الثاني فقصده بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة وبعد العصر فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال يوشع للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي.... فحَبَسَهَا اللهُ حَتَّى فَتَحَهَا وَدَخَلَ مُتَنَصِّراً فَبَعَثَ يَهُوَا حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا حَبَسَتْ الشَّمْسُ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ إِلَّا عَلَى يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ لِيَأْتِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ»^(١).

- فيا أمة الإسلام لا طريق للمسجد الأقصى إلا بالصدق مع الله وتحقيق التوكل على الحي الذي لا يموت ولا يغرثكم تكالب اليهود ولا ما يملكون من السلاح والعتاد فإن كلمة (الله أكبر) لا يقف أمامها الصواريخ والدبابات والطائرات ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

- واعلموا أننا جميعاً سنُسأل أمام الله عن تضييع تلك الأمانة وترك المسجد الأقصى في أيدي اليهود... ولا عذر لنا عند الله فلا بد أن نسعى لإعادة المسجد الأقصى.
- وقد تكفل الله لنا بإحدى الحسينين إما النصر وإما الشهادة.
- فيا أحفاد عمر وصلاح الدين لا تنسوا المسجد الأقصى^(٢).

(١) أخرجه الخطيب البغدادي وأحمد وابن عساكر عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٥٦١٢).

(٢) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص ١١٢: ١١٨) بتصرف.

خروجه لقتال المرتدين

* لما توفي رسول الله ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، ونجم^(١) النفاق بالمدينة، وجعلت الوفود تقدم فيقرّون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم من امتنع عن دفعها إلى خليفة رسول الله «أبي بكر الصديق» رضى الله عنه وأرضاه، وقد احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقالوا: فلسنا ندفع زكائنا إلا إلى من صلاته سكن لنا!... لكن سيدنا أبا بكر الصديق رضوان الله عليه، وقف ذلك الموقف الرجولى العظيم قائلاً:

«والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى الرسول ﷺ، لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة».

* وعزم الصديق - رضى الله عنه - على قتالهم، وكان من بين هؤلاء المرتدين طليحة ابن خويلد الأسدي.

وكان طليحة قد تنبأ في قومه بني أسد وفي غطفان، وانضم إليهم بعض المرتدين أيضاً من بني عبس وذبيان.

* خرج سيدنا «عكاشة بن محصن» رضى الله عنه لقتال «طليحة بن خويلد» ومن معه من المرتدين الذي مردوا على النفاق، خرج وفي يده السيف المبارك الذي أخذه من رسول الله ﷺ يوم بدر، فكان يتبرك به في حله وترحاله، وفي سلمه وحربه، وانطلق عكاشة مع ثلثة من الصحابة وهو يتشوق للشهادة^(٢).

الرحيل إلى النعيم المقيم

وبعد حياة طويلة مليئة بالجهاد والتضحية والطاعة لله - جل وعلا - رحل السعيد الشهيد (عكاشة بن محصن) من دنيا الناس إلى النعيم المقيم.

* روى الإمام أحمد من طريق وحشى بن حرب، أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نعم عبد الله وأخو

(١) نجم: أى ظهر.

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص: ١٢٠ - ١٢١).

العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين، ولما توجه خالد من ذي القصة وفارقه الصديق، وأعدده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء - وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب - وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدي، ثم يذهب بعده إلى بني تميم، وكان طليحة بن خويلد في قومه بني أسد، وفي غطفان، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بني جديلة والغوث وطىء يستدعيهم إليه، فبعثوا أقواماً منهم بين أيديهم، ليلاحقوهم على أثرهم سريعاً، وكان الصديق قد بعث عدى بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، فذهب عدى إلى قومه بني طىء فأمرهم أن يبايعوا الصديق، وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفضل أبداً - يعنون أبا بكر رضى الله عنه - فقال: والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدى يقتل لهم في الذروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد في الجنود وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن (طليعة)، فتلقاهما طليحة وأخوه سلمة فيمنعهما، فلما وجدا ثابتاً وعكاشة تبارزوا فقتل عكاشة جبال بن طليحة، وقيل: بل كان قتل جبالاً قبل ذلك وأخذ ما معه، وحمل عليه طليحة فقتله وقاتله هو وأخوه سلمة، ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين... ثم أمر بهما فدفنا في ثيابهما^(١).

وهكذا رحل هذا الصحابي الجليل ليدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فاللهم اجمعنا بالصالحين من أمة حبيبك ﷺ في جنتك ودار كرامتك.

رضي الله عن عكاشة وعن سائر الصحابة أجمعين

جعفر بن أبي طالب

يُطِيرُ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ بِجَنَاحَيْنِ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

وها نحن على موعد مع الرجل الذي أشبه خَلْقُهُ وَخُلُقُهُ خَلْقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... إنه الرجل الذي كان المساكين يفرحون برؤيته لرحمته بهم وعطفه عليهم... إنه الرجل الذي يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين... إنه صاحب النسب الكريم... إنه ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب.

يا لها من صفحة تُبهر العقول وتُحير الألباب.

إنها صفحة صدق نعيشها مع جعفر بن أبي طالب - رضى الله عنه -.

إنه السيد الشهيد، الكبير الشأن، عَلم المجاهدين، أبو عبد الله، ابن عم رسول الله ﷺ أخو علي بن أبي طالب، وهو أَسَنُّ من عليّ بعشر سنين^(١).

وتعالوا بنا لنبدأ القصة من أولها: لما أسلم أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - علم أن الإسلام أمانة عظيمة فخرج من عند النبي ﷺ داعياً إلى الله - جل وعلا - يدعو الناس جميعاً إلى جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكان من جملة من أسلموا على يديه - جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عُميس - وكان إسلامهما مبكراً قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم.

وقبل أن نسترسل في الحديث عن جعفر - رضى الله عنه - فإنه لابد لنا من وقفة مع المناقب وأوسمة الشرف التي فاز بها (رضى الله عنه).

المناقب وأوسمة الشرف التي وضعها الحبيب ﷺ على صدره

وإذا أردنا أن نتعرض لشيء من مناقبه - رضى الله عنه - فسوف يطول بنا المقام، ولكن حسبنا منها القليل - فالقليل منها لو وزّع على أهل الأرض لملأ قلوبهم غبطة وسعادة وسروراً -

فعن محمد بن أسامة ، عن أبيه قال : اجتمع جعفر وعليّ وزيد بن حارثة. فقال جعفر: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، وقال عليّ: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، وقال زيد: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله، فقال أسامة بن زيد: فجأؤوا يستأذنونه، فقال: اخرج فانظر من هؤلاء. فقلت: هذا جعفر وعليّ وزيد. ما أقول أبي. قال: ائذن، لهم. ودخلوا فقالوا: من أحب إليك؟ قال: فاطمة. قالوا: نسألك عن الرجال. قال: أما أنت يا جعفر فأشبهه خُلقك خلقى وأشبهه خُلقى خُلقك وأنت منى وشجرتى . وأما أنت يا عليّ فختنى وأبو ولدى وأنا منك وأنت منى. وأما أنت يا زيد فمولاي ومنى وإلى وأحب القوم إلى^(١).

وعن أبي هريرة قال: «ما احتذى النّعال ولا اتعل ولا ركب المطايا ولا ركب الكور بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب»^(٢).

أى فى الجود والكرم.

ولقد كان فى بنى عبد مناف خمسة رجال يُشبهون رسول الله ﷺ أشدّ الشّبّه وهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهو ابن عم الرسول ﷺ ، وأخوه من الرضاع. وقثم بن العباس بن عبد المطلب، وهو ابن عم النّبي ﷺ أيضاً. والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم جدّ الإمام الشافعى - رضى الله عنه - . والحسن بن عليّ سبط رسول الله ﷺ ، وكان أشدّ الخمسة شبيهاً بالنّبي صلوات الله عليه.

وجعفر بن أبي طالب، وهو أخو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب.

(١) رواه أحمد (٢٠٤ / ٥) وابن سعد (٢٤ / ١ / ٤) وقال الأرئؤوط: رجاله ثقات.

(٢) رواه الترمذى (٣٧٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب - وهو موقوف صحيح. والكور: الرّحل.

سُنَّةٌ لَا تَتَبَدَّلُ

ولنرجع مرة أخرى إلى قصته العطرة التي تملأ القلوب غبطة وسعادة وسروراً... فإنه لما أسلم جعفر وزوجه مبكراً علمت قريش بخبر إسلامهما فلقى جعفر وزوجه من أذى قريش ونكالها ما لا يعلمه إلا الله، ولكنهما صبرا على الأذى والابتلاء؛ لأنهما يعلمان أن البلاء سُنَّةٌ ثابتة لا تبدل ولا تتغير وأن طريق الجنة محفوفٌ بالمكاره، وما هي إلا ساعات معدودة ثم يجبر الله لهما كل كسرٍ في جنته ومستقر رحمته.

فقد قال ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي جَهَنَّمَ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟» فيقول: لا والله يارب، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فيقال له: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يارب! ما مرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» (١).

هَضَرُوا إِلَى اللَّهِ

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أحدٌ، وهي أرضٌ صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» (٢). فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام. فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمَّنُوا واطمأننوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، اتَّصَمَرُوا بينهم أن يعيشوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشي، فيردَّهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التي اطمأننوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقة (٣).

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس - صحيح الجامع (٨٠٠٠).

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد وابن كثير في البداية (٣/ ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق - نقلاً من السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٦).

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٥). والبطارقة: جمع بطريق وهو القائد أو الحاذق في الحرب.

لِقَاؤُهُ مَعَ النَّجَاشِيِّ وَشَجَاعَتُهُ فِي الْحَقِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

وها هو موقف عظيم لجعفر بن أبي طالب يقفه أمام النجاشي ليصدع بكلمة الحق التي أثمرت للمسلمين الخير كله..

فعن أم سلمة، قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفُتِنُوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إِنْ بَارِضَ الْحَبْشَةُ مَلَكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»، فخرجنا إليه أرسالاً، حتى اجتمعنا فنزلنا بخير دار إلى خير جار، وأمنًا على ديننا»^(١).

وفي رواية: أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار «النجاشي»، أمنًا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لَا نُؤْذَى، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قَرِيشًا اتَّمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ جَلِيدَيْنِ، وَأَنْ يَهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبَ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا الْأَدَمُ^(٢)، فَحَمَلُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَأَمْرُوهُمَا بِأَمْرِهِمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعَا إِلَى كُلِّ بِطَرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تَكْلِمَا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلِّمَاهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمَا إِلَيْكُمَا قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمَا، قَالَتْ: فَخَرَجَا حَتَّى قَدَّمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٍ، إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، وَقَالَا لِكُلِّ بِطَرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ ضَوَى^(٣) إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مَنَّا غِلْمَانٌ، سَفْهَاءُ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدِعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ لِيرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمَكَ الْمَلِكُ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنْ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا^(٤)، وَأَعْلَمَ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَدَّمَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ:

(١) قال الأرنبوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن هشام (١/ ٣٣٤) مطولاً - أبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥).

(٢) الأدم: الجلود وهو اسم جمع.

(٣) ضوى: لجأ وأنى ليلاً.

(٤) أعلى بهم عيناً: أى أبصر بهم.

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سُفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت (أم سلمة): ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص^(١) من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقتة حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذا لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادى، واختاروني على من سواى، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم.

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا فى ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته^(٢)، فنشروا مصاحفهم حوله.

سألهم النجاشي، فقال لهم: ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذى كلمه جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه).

فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسبى الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذاك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم،

(١) كانت هذه القصة قبل إسلام عمرو بن العاص - رضى الله عنه -.

(٢) الأساقفة: هم علماء النصارى الذين يقيمون لهم دينهم.

والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا على ديننا؛ ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قالت: قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه على، قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١].

قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال [لهم] النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتيته غداً بما أستأصل به خضراءهم^(١).

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه [من] الغد، فقال [له]: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم، فسلمهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن.

(١) خضراءهم: أي شجرتهم التي تفرعوا منها.

قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ [يقول]: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت^(١) بطارقتة حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي، (والشيوم: الآمنون) من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب، وأني أذيت رجلاً منكم.

قال ابن هشام: [ويقال دبراً من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم، والدبر (بلسان الحبشة): الجبل]، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به - يعني من ينازعه في ملكه - قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزنائه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام - رضى الله عنه -: أنا. قالت: وكان من أحدث القوم سناً قالت: فنفيخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبج عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم قالت: ودعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة^(٢).

(١) تناخرت: أي تكلمت، وكأنه كلام من غضب ونفور.

(٢) قال الشيخ الألباني في تخريج فقه السيرة للبخاري: أخرج هذه القصة ابن إسحاق في المغازي (١/ ٢١١ -

٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (١٧٤٠) من طريق ابن إسحاق بسند صحيح.

لكم أنتم أهل السفينة هجرتان

عن أبي موسى - رضى الله عنه - قال: بلغنا مخرجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهم: أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم، إما قال: فى بضع وإما قال: ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي - فركبنا سفينةً فألقتنا سفيتنا إلى النجاشى بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبى طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً فوافقنا النبى ﷺ حين افتتح خير، وكان أناس من الناس يقولون لنا - يعنى لأهل السفينة - سبقناكم بالهجرة. ودخلت أسماء بنت عميس - وهى عن قدم معنا - على حفصة زوج النبى ﷺ زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة - وأسماء عندها - فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله كتنم مع رسول الله يطعمُ جائعكم ويعطُ جاهلكم، وكنا فى دار - أو فى أرض - البُعداء البُغضاء بالحبشة، وذلك فى الله وفى رسوله ﷺ، وإيمُ الله لا أطعمُ طعاماً ولا أشربُ شرباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذى ونُخافُ وسأذكر ذلك للنبى ﷺ وأسأله، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ عليه.

«فلما جاء النبى ﷺ قالت: يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا. قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوننى أرسالاً يسألونى عن هذا الحديث، ما من الدنيا شىء هم به أفرحُ ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ﷺ» (١).

شداً تلقى الأحيّة

وبعد أن مكث (جعفر وزوجه) عشر سنوات فى رحاب النجاشى آمنين مطمئنين يرفلون فى حُلل السعادة ويعبدون الله بلا قيود ولا مؤامرات تُدبر لهم بالليل والنهار، ولا عذاب يُسلط عليهم من كفار قريش... عاد مرة أخرى إلى المدينة وأقدمه تسابق

(١) أخرجه البخارى (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢).

الريح من أجل رؤية الحبيب ﷺ الذي طال والله شوقه إليه، وما إن وصل حتى كان النبي ﷺ عائداً من فتح خيبر.

فعن الشعبي : أن جعفر بن أبي طالب - رضى الله عنه - قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه، والتزمه وقال: ما أدري بأيهما أنا أسر: «بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟» (١).

فرحة المساكين بقدوم جعفر

ولم تكن فرحة المساكين بقدوم جعفر - رضى الله عنه - بأقل من فرحة رسول الله ﷺ بقدومه.

فلقد كان جعفر من أرحم الناس بالفقراء والمساكين.

فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة - أى من رواية الأحاديث - وإنى كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطنى حتى لا أكل الخمير ولا ألبس الخبير ولا يخدمنى فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطنى بالخصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هى معى كى ينقلب بى فيطعمنى وكان أخير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب: كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان فى بيته حتى إن كان ليُخرج إلينا العكة التى ليس فيها شئ فيشقها فنلحق ما فيها (٢).

وحاثة وقت الرحيل

وركب رسول الله ﷺ إلى مكة حيث اعتمروا عمرة القضاء وعادوا إلى المدينة.. وفى الطريق سمع جعفر من إخوانه - الذين خاضوا مع النبي ﷺ غزوة بدر وأحد وغيرهما من المشاهد - الكثير والكثير مما جعله يتلهف شوقاً للجهاد فى سبيل الله وللغزى بالشهادة.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٤ / ٢١١) عن الشعبي مرسلأ، وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبى ووصله الحاكم من طريق آخر (٣ / ٢٠٨) وسكت عليه ونعقبه الذهبى بقوله منقطعاً وفيه الواقدي. وأخرج البيهقي فى السنن (٧ / ١٠١) عن الشعبي مرسلأ فله شاهد من حديث أبى جحفة أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (ص: ٨) وسنده ضعيف. وله طريق آخر فى المعجم الكبير كما ذكر الهيثمى فى المجمع (٩ / ٢٧٢) وقال: رواه الطبرانى مرسلأ ورجاله رجال الصحيح وقال الألبانى: وبالجمله فالحديث قوى بهذه الطرق وقد صححه الحاكم.

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٠٨) وأبو نعيم فى الحلية (١ / ١١٧).

ولم يطل انتظاره فقد بعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال ﷺ: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد الله ابن رواحة على الناس».

فمضوا إلى أرض البلقاء من أرض الشام حتى نزلوا (معاناً) من أرض الشام، وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة.

ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، أمام عبدة الصلبان، عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان، وفي كل أوان.

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قُتل.

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء، ثم عقرها؛ فكان جعفر أول المسلمين عقر في الإسلام، ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لاقيتها ضرابها

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفرًا أخذ اللواء يمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء.

وفي رواية: عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: «أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة. قال عبد الله: كنتُ فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية»^(١).

ولقد نعى النبي ﷺ الثلاثة لأصحابه وبشرهم بشهادتهم في سبيل الله.

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «قال النبي ﷺ: أخذ الراية زيد فأصيب ثم

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما -

أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب - وإن عيني رسول الله ﷺ لتدرفان - ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له^(١).

وعن نافع أن ابن عمر أخبره: وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيلٌ فعددتُ به خمسين طعنة وضربة، ليس منها شيءٌ في دبره، يعنى في ظهره^(٢).

وها هو يطير بجناحيه في الجنة مع الملائكة

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره»^(٣).

«وكان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين»^(٤).

قال ابن كثير: «لأن الله تعالى عوضه عن يديه بجناحين في الجنة»^(٥).

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين»^(٦).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا في الجنة، مضرجة قواده بالدماء، يطير في الجنة»^(٧).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مر بي جعفر الليلة في ملا من الملائكة، وهو مخضب الجناحين بالدم، أبيض الفؤاد»^(٨).

وقال عبد الله بن جعفر: قال لى رسول الله ﷺ: «هنيئًا لك!! أبوك يطير مع الملائكة في السماء»^(٩).

(١) أخرجه البخارى (١٢٤٦) والنسائى (٢٦ / ٤).

(٢) أخرجه البخارى (٤٢٦٠) عن ابن عمر - رضى الله عنهما -

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٥٨).

(٤) رواه البخارى (٣٧٠٩) المغازى.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٦ / ٣).

(٦) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرک عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٣٤٥٩).

(٧) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه، وكذلك هو فى الاستيعاب، وقال الحافظ فى الفتح: أخرجه

الحاكم والطبرانى عن ابن عباس، وإسناده جيد.

(٨) قال الحافظ فى الفتح (٩٦ / ٧): أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٩) قال الحافظ فى الفتح (٩٦ / ٧): أخرجه الطبرانى بإسناد حسن.

وعن ابن عباس مرفوعاً: «إن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوضه الله من يديه» (١).

حُزِنَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهنا يذهب الحبيب ﷺ إلى أسماء بنت عميس زوج جعفر ليبلغها خبر استشهاد زوجها... ويا له من مشهد يجعل القلوب تبكي الدماء بدل الدموع.

عن أسماء ابنة عميس، قالت: لما أُصيب جعفر وأصحابه دخلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وقد دبغتُ أربعينَ منا - ويقال منية - وعجنت عجيني، وغسلت بني وذهبتهم ونظفتهم، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «أنتي ببني جعفر»، قالت: فأتيته بهم، فشمهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يُكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أُصيبوا هذا اليوم». قالت: فقُمتُ أُصبحُ، واجتمعتُ إلى النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: «لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم» (٢).

حَسَانُ بْنُ شَابِثٍ يَرِثِي أَهْلَ مَوْتَةٍ

ولما بلغ حسان مقتل هؤلاء الأطهار قام يرثي من مات في غزوة مؤتة، ويقول:

رَأَيْتُ خَيْسَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا	شُعُوبٌ وَقَدْ خُلِفَتْ مِنْ يُوْخَرَ
فَلَا يُبْعَدَنَّ اللَّهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا	بِمَوْتَةٍ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَتَابَعُوا	جَمِيعًا وَأَسْبَابُ الْمَنِيَّةِ تَخْطُرُ
وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ	وَفَسَاءٌ وَأَمْرًا صَارِمًا حَيْثُ يُؤْمَرُ
فَلَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ	دَعَائِمُ عِزٍّ لَا تَزُولُ وَمَفْخَرٌ (٣)

فَرَضَى اللَّهُ عَنْ جَعْفَرٍ وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ

(١) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦): وإسناد هذه جيد.

(٢) أخرجه أبو داود (٣ / ٣١٣٢) وابن ماجه (١ / ١٦١٠) والترمذي (٣ / ٩٩٨) والحاكم في المستدرک (١ /

٣٧٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي. والبيهقي في السنن الكبرى (٤ / ٦٢)

وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه وقال: حديث حسن.

(٣) الإصابة للإمام ابن حجر العسقلاني (١ / ٥٩٤) بتصريف.

جابر بن عبد الله

صاحب الطعام المبارك والإيثار على النفس

إنه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الإمام الكبير ، المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الله وأبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي السلمي المدني الفقيه.

من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتاً. روى علماً كثيراً عن النبي ﷺ وعن عمر وعلي وأبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل والزبير وطائفة^(١).

ومن هنا كانت البداية

ما أجمل السفر إذا كان لله - جل وعلا - .

وها هو (جابر) الذي فتح الله قلبه لدعوة (مصعب بن عمير) فأسلم قبل أبيه (عبد الله) وكان عمره وقتها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً.

وفي موسم الحج خرج مجموعة من أهل يثرب لمبايعة الحبيب ﷺ - بيعة العقبة الثانية - وإذا بعبد الله (والد جابر) يخرج معهم يريد الحج - ولم يُسلم بعد - وهو لا يدرى أنه بعد ساعات سيدخل التاريخ من أعظم أبوابه، وأن الكون كله سوف يقص سيرته العطرة وكيف أن الله - جل وعلا - سيكلّمه كفاحاً - بغير حجاب - وكيف أن الملائكة سوف تظله بأجنحتها - بعد استشهاده - .

كان (عبد الله) لا يعلم عن هذا الخير شيئاً.

وإذا به يسمع كلاماً طيباً من بعض الرجال الذين كانوا بصحبته فيفتح قلبه للإسلام فيُسلم ويذهب معهم للقاء الحبيب ﷺ ليبايعه ومعه ابنته (جابر).

(١) السير للإمام الذهبي (٣ / ١٨٩).

ووضع (عبد الله) يده في يد الحبيب ﷺ وباعه تلك المبايعة التي لا تتكرر عبر التاريخ مرة أخرى.

ثم أراد النبي ﷺ أن ينتخبوا من بينهم اثني عشر زعيمًا يكونون نُقباء على قومهم فكان (عبد الله بن عمرو بن حرام) من نُقباء الخزرج.

ومن هنا كانت البداية لجابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - الذي لامس الإيمان شغاف قلبه وهو صغير فنشأ في طاعة الله ليكون - بإذن الله - من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ورجع جابر مع والده إلى المدينة مرة أخرى وهو لا يستطيع أن ينسى أبدًا حبيبته ﷺ فكان في أشد شوقه لصحبته ومرافقته.

ولما أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة إلى يثرب (المدينة) سَعِدَ (جابر) سعادة ملأت قلبه سرورًا وفرحًا يكفى الكون كله من حوله.

فكان في استقباله وظل بعد ذلك ملازمًا للحبيب ﷺ ينهل من علمه وهديه وأخلاقه العذبة حتى أصبح (جابر) واحدًا من أكثر الصحابة حفظًا لكتاب الله ورواية لحديث رسول الله ﷺ.

ولما حمى الوطيس ونادى منادى الجهاد: - يا خيل الله اركبي - لم يشهد جابر غزوة بدر ولا غزوة أُحُد... وذلك لأنه كان صغيرًا في السن، وكذلك لأن والده كان يأمره أن يبقى مع أخواته (التسع) خوفًا عليهن من أن يصيبهن مكروه.

وها هو (عبد الله بن عمرو بن حرام) قبل استشهاده بليلة واحدة يدعو ابنه (جابر) ليوصيه تلك الوصية الغالية... حرصًا منه على أداء دينه قبل موته.

فعن جابر - رضى الله عنه - قال: «لما حضر (أُحُد) دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يُقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإنى لا أتركُ بعدى أعزَّ عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن على دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيرًا... فأصبحنا فكان أول قتيل، ودُفن معه آخر في قبر ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعتُه هنيئًا غير أُذنه»^(١).

وفي رواية: أن جابر - رضى الله عنه - قال: فقلت: يا رسول الله إنَّ أبى ترك دينًا

عليه... وليس عندي ما أفيه به إلا ما يُخرجهُ ثمرُ نخيله، ولو عمدتُ إلى وفاء دينه من ذلك الثمر لما أديته في سنين...

ولا مال لأخواتي أنفقُ عليهنَّ منه غير هذا.

فقام رسول الله ﷺ ومضى معي إلى بيدر^(١) تمرنا وقال لي: «أدعُ غُرماً^(٢) أبيك»، فدعوتهم. فما زال يكيل لهم منه حتى أدى الله عن أبي دينه كله من تمر تلك السنة. ثم إنني نظرتُ إلى البيدر فوجدته كما هو... كأنه لم تنقص منه ثمرة واحدة^(٣)...

ويؤثرون على أنفسهم

وها هو موقف جابر - رضى الله عنه - تتجلى فيه صفة الإيثار التي ملأت قلبه وجوارحه.

فها هو بعد استشهاد أبيه في غزوة أحد يترك له أبوه تسعة من البنات ليقوم بتربيتهن فيحرص جابر على مصلحة أخواته وبدلاً من أن يتزوج بكرةً تملأ حياته بالفرح والسرور إذا به يتزوج امرأةً ثيباً لتربي أخواته وتحافظ عليهن فيفوز بدعاء النبي ﷺ له.

فعن جابر - رضى الله عنه - أنه قال: هلك أبى وترك سبع بنات - أو - تسع بنات - فتزوجت امرأةً ثيباً فقال لى رسول الله ﷺ: تزوجت يا جابر؟ فقلت: نعم. فقال: بكرةً أم ثيباً؟ قلت: بل ثيباً. قال: فهلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك؟ قال: فقلت له: إن عبد الله هلك - يعنى أباه - وترك بنات، وإنى كرهت أن أجيئن بمثلهن، فتزوجت امرأةً تقوم عليهن وتصلحنهن فقال: بارك الله لك أو خيراً^(٤).

وبعد استشهاد والده شهد (جابر) المشاهد كلها، وكان أول تلك المشاهد (غزوة الخندق).

وفى تلك الغزوة كان هذا الموقف العظيم لجابر بن عبد الله - رضى الله عنهما -.

(١) البيدر: الموضع الذى يكوم ويجمع فيه التمر.

(٢) غرماً: مفردة غريم: الدائن.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٠٧) وأحمد (٣/ ٣٦٥) وأصلها فى البخارى.

(٤) أخرجه البخارى (٥٣٦٧).

صاحب الطعام المبارك

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: «لما حُفِر الخندقُ رأيتُ بالنبي ﷺ خَمَصًا شديدًا - من أثر الجوع - فانكفيتُ إلى امرأتى فقلتُ: هل عندك شيء؟ فإني رأيتُ برسول الله ﷺ خَمَصًا شديدًا. فأخرجتُ إلى جرابٍ فيه صاعٌ من شعير، ولنا بُهيمَةٌ داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغى، وقطعتها فى برمتها. ثم وليتُ إلى رسول الله ﷺ. فقالت: لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه. فحنته فساررتَه - كلمته سرًا - فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهيمَةً لنا وطحنا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ: يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سُورًا، فحى هلا بكم فقال رسول الله ﷺ: لا تُنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء، فجئتُ وجاء رسول الله ﷺ يقدمُ الناس، حتى جئتُ امرأتى فقالت: بك وبك - تعاتبه - فقلت: قد فعلتُ الذى قلت. فأخرجتُ له عجينة، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك. ثم قال: ادعُ خابزةً فلتخبزْ معى. واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها، (وهم ألف)، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطُّ كما هى، وإن عجينا ليُخبز كما هو» (١).

ولقد كان (جابر) واحدًا ممن بايعوا الحبيب ﷺ بيعة الرضوان.

الذين قال الله عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَالِمَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩].

قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وكنا ألفًا وأربع مئة (٢).

وظل (جابر) ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها إلى أن توفى النبي ﷺ فأظلمت الدنيا كلها فى عينيه وكاد قلبه أن يتمزق حزنًا عليه.

ولمَ لا؟ ولقد كان رسول الله ﷺ هو رسوله ومُعلمه وكل شيء فى حياته هو

(١) أخرجه البخارى عن جابر (٤١٠٢) ..

(٢) السير للإمام الذهبى (٣/ ١٩٠).

وأصحابه - رضى الله عنهم - .

وظل جابر مصدراً ومرجعاً للصحابة ومن بعدهم - لحديث رسول الله ﷺ - لكثرة علمه وروايته .

وكان مفتى المدينة في زمانه .

وعاش جابر خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضى الله عنهم - وكانوا جميعاً يعرفون قدره ومكانته .

جابر - رضى الله عنه - يرحل في طلب حديث واحد

قال جابر بن عبد الله: «بلغنى عن رجل من أصحاب النبى ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريتُ بغيره ، ثم شددتُ رحلى ، فسرْتُ إليه شهرًا ، حتى قدمتُ الشام ، فإذا هو عبد الله بن أنيس ، فقلتُ للبواب: قل له: جابرٌ على الباب ، فقال: ابن عبد الله؟ قلتُ: نعم ، فخرج عبد الله بن أنيس فاعتقنى ، فقلتُ: حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمع ، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله الناس يوم القيامة عُرًا غُرًا بهما ، قلنا: ما بهما؟ قال: ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب:

أنا الملكُ ، أنا الديانُ ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة ، وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار ، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبه بمظلمة ، حتى اللطمة . قال: قلنا: كيف هو ، وإنما نأتى الله تعالى عُرًا غُرًا بهما؟! قال: بالحسنات والسيئات» (١) .

ولقد خرج ذات سنة إلى بلاد الروم غازياً في سبيل الله . وكان الجيش بقيادة مالك بن عبد الله الحثعمى . وكان مالك يطوف بجنوده وهم منطلقون ليقف على أحوالهم ، ويشد من أزرهم ، ويولى كبارهم ما يستحقونه من عناية ورعاية . فمر بجابر بن عبد الله ، فوجده ماشياً... ومعه بغلٌ له يمسك بزمامه ، ويقوده . فقال له: ما بك يا أبا عبد الله؟ لم لا تركب؟! وقد يسر الله لك ظهراً يحملك عليه . فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرتُ قدماء في سبيل الله حرَّمه الله على النار» . فتركه «مالك» ومضى حتى غدا

(١) أخرجه أحمد في المسند، والبخارى في الأدب المفرد، «باب المعانقة» وذكره في صحيحه بصيغة الجزم في كتاب العلم، «باب الخروج في طلب العلم». والحاكم في المستدرک وصححه، ووافقه الذهبي.

فى مقدمة الجيش. ثم التفت إليه، وناداه بأعلى صوته، وقال: يا أبا عبد الله، مالك لا تتركب بغللك، وهو فى حوزتك؟! فعرف جابر قصده، وأجابه بصوت عال وقال: لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرَّت قدماه فى سبيل الله حرَّمه الله على النار». فتواثب الناس عن دوابهم... وكلُّ منهم يريد أن يفوز بهذا الأجر. فما رُئى جيش أكثر مُشاةً من ذلك الجيش.

وكان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالطاعة والعلم والدعوة والتضحية والجهاد فى سبيل الله تعالى نام جابر على فراش الموت بعد أن قارب التسعين من عمره، وذهب بصره فى الوقت الذى أنار الله به بصائر مئاتٍ من البشر بعلمه وورعه وتقواه لله. ورجل (جابر) عن الدنيا ليلحق بالحبيب ﷺ وبأبيه (عبد الله بن عمرو بن حرام) وبسائر الصحابة - رضى الله عنهم - فى جنة الرحمن إخواناً على سررٍ متقابلين.

رضى الله عن جابر وعن سائر الصحابة أجمعين

عمرو بن الجموح

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرَجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةٌ فِي الْجَنَّةِ

محمد رسول الله ﷺ

إن الإنسان بلا إيمان ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال ولا تسكن إلى قرار
أينما تميلها الريح تميل - والفرد بلا إيمان لا قيمة له ولا جذور - إنسانٌ قَلِقٌ متبرم حائر لا
يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده.

لا يدري من ألبسه ثوب الحياة ولماذا ألبسه إياه، ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟
فالإنسان بلا إيمان قلبه لا يفقه وأذنه لا تسمع، وعينه لا تبصر، والمجتمع بلا إيمان
مجتمع غابة، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأتقى.
فهو مجتمع شقاء وإن دخر بأدوات الرفاهية والرخاء - فالمجتمع بلا إيمان مجتمعٌ
مهين رخيص؛ لأن غاية أهله لا تتجاوز شهوات بطونهم وفروجهم ﴿يَسْتَمْتَعُونَ وَيَأْكُلُونَ
كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ولذا فإن الأمم لا تنهض من كبوة ولا تقوى من ضعف ولا ترتقى من هبوط إلا بعد
أن يلامس الإيمان شغاف القلوب، ونحن نعلم جميعاً أن هدم الجبال أو تحويل مياه النيل
أو تغيير معالم الكون أسهل بكثير من تغيير القلوب والعقول، وعلى الرغم من ذلك فإن
الإيمان هو الشيء الوحيد الذي تغيرت به القلوب وتنورت به العقول، فالإيمان بالله
وحده هو الذي يصنع العجائب ويغير وجهة الإنسان وسلوكه بين التو واللحظة - فلو
أنك كنت تعرف إنساناً في جاهليته ثم رأيت مرة أخرى بعد إسلامه أو بعد توبته (إن كان
من عصاة المسلمين) لرأيت إنساناً آخر، وكأن الله أحياه من بعد موته!!!^(١).

(١) ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون/ للمصنف (ص ٦٥: ٦٧) ط. دار الفردوس.

حال العرب في الجاهلية

* كان العرب قبل البعثة تابعين لقريش وأهل مكة في أمور العقيدة والديانة، وكانوا ينظرون إلى قريش نظرة إكبار، فهم سدنة البيت وقادة الدين، يقتدون بهم في الاعتقاد والعبادة، وكانوا خاضعين شبه خضوع كامل للوثنية السائدة على أرض العرب، يعبدون من الأصنام ما كانت تعبد قبيلة قريش، وأهل مكة، غير أن هذه الأصنام كان لبعضها تعظيم في النفوس أكثر من بعضها الآخر، وكانت العلاقة والارتباط بها أقوى من سائرهما، وذلك لاعتبارات كانوا ينظرون إليها بمقاييس ومعايير خاصة بهم^(١).

وها نحن على موعد مع معجزة من معجزات الإيمان التي تصور لنا مشهداً عظيماً لسيد من سادات (بنى سلمة) كان قد اتخذ صنماً يدعى «مناف» ليتبرك به ويدبح له ويدعوه ليلاً ونهاراً.

ولقد كان يحب هذا الصنم حباً ملك عليه لبه وفؤاده، مما جعله يعتنى به أشد العناية فيأتى إليه بأطيب أنواع العطور، ويضمخه بها، ولا يقدم على أى أمر إلا بعد أن يأذن له ذاك الصنم - فيما يزعم - وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه حتى رأى الحقيقة التي جعلته يخجل مما كان يفعله أيام الجاهلية، وأقبل بقلبه وجوارحه على خدمة هذا الدين والذود عن حياضه... مستعذباً بالعذاب في سبيل الله، فلقد جعل نفسه وماله وولده في خدمة هذا الدين العظيم.

قصة إسلامه

* أوجس عمرو بن الجموح خيفة من الداعية المكّي مصعب بن عمير، فقد استطاع هذا الشاب المكّي أن ينتزع كبار الأشراف من شرك الوثنية، وقد انضم إلى ركب الإسلام عددٌ غير قليل من الأوس والخزرج، وأعلنوا إسلامهم، وقد نُمى إليه أن سيد الأوس «سعد بن معاذ» قد أسلم وقومه أجمعين، وكما نُمى إليه أن كثيراً من أبناء قبيلته بنى سلمة قد فارقوا دينهم ودين آبائهم، وانضموا إلى رعي المسلمين، حتى إن صديقه وصفيه «عبد الله ابن عمرو بن حرام» قد أعلن إسلامه، وكذلك ولده الأثير لديه «معاذ ابن عمرو» قد أسلم أيضاً، وقد شهد كل من عبد الله (صديقه) ومعاذ (ولده) العقبة

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٢٩).

وبإيعا الرسول ﷺ ، وأضحى عبدُ الله بنُ عمرو بنِ حرام أحدَ النقباء في تلك الليلة المباركة^(١).

فتعالوا بنا لنعيش تلك الدقائق التي لا تُحسب من العمر مع كوكب من كواكب المجموعة النبوية... تلك الكوكبة التي نبتت في حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحي فأثمرت حتى كادت أغصانها أن تعانق كواكب الجوزاء.

عن عكرمة، قال: قَدِم مصعب بن عمير المدينة يُعلِّم الناس. فبعث إليه عمرو بن الجموح: ما هذا الذي جئتمونا؟ قالوا: إن شئت جئناك، فأسمعناك القرآن؟ قال: نعم. فقرأ صدرًا من سورة «يوسف».

فقال عمرو: إن لنا مؤامرة^(٢) في قومنا. وكان سيد بنى سلمة. فخرجوا، ودخل على مناف^(٣).

فقال: يا مناف! تعلم والله ما يريد القوم غيرك، فهل عندك من نكير؟ قال: فقلده السيف وخرج، فقام أهله فأخذوا السيف، فلما رجع، قال: أين السيف يا مناف؟ ويحك! إن العنز ل تمنع إستها^(٤)، والله ما أرى في أبي جعار غداً من خير.

ثم قال لهم: إني ذاهب إلى مالي فاستوصوا بمناف خيراً. فذهب، فأخذوه فكسروه وربطوه مع كلب ميت وألقوه في بئر، فلما جاء قال: كيف أنتم؟ قالوا: بخير يا سيدنا، طهر الله بيوتنا من الرجس.

قال: والله إني أراكم قد أسأتم خلافتي في مناف. قالوا: هو ذاك، فانظر إليه في ذلك البئر. فأشرف فرآه، فبعث إلى قومه فجاءوا فقال: أَلستم على ما أنا عليه؟ قالوا: بلى، أنت سيدنا، قال: فأشهدكم أني قد آمنتُ بما أنزل على محمد^(٥).

وفي رواية^(٦): أنه كان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة، وشريفاً من

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٣٠ - ٣١).

(٢) المؤامرة: المشاورة.

(٣) مناف: صنم كان يُعبد قبل الإسلام.

(٤) تمنع إستها: تحفظ عورتها.

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٢٥٣ - ٢٥٤).

(٦) هذه القصة ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٣، ٢٥٤) وأسد الغابة لابن الأثير (٤/ ٢٠٧ -

٢٠٨) وسيرة ابن كثير (٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب، يقال له: مناة - أو مناف - كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذها إلهاً يعظمه ويظهره، فلما أسلم فتیان بنی سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو [بن الجموح]، في فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدبجون^(١) بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بنی سلمة، وفيها عذر الناس - مخلفاتهم - منكساً على رأسه؛ فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم! من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجدته غسله وطهره وطيبه؛ ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيتك، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك؛ فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك. فلما أكثروا عليه، استخرجوه من حيث ألقوه يوماً، فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه. فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بنی سلمة، فيها عذر من عذر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجدته في مكانه الذي كان به.

فخرج يتبعه حتى وجدته في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلمه من أسلم من [رجال] قومه، فأسلم برحمة الله وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنت إلهاً لم تكن	أنت وكلبٌ وسط بئر في قرن ^(٢)
أفٌ لملقائك إلهاً مستدن	الآن فتشناك عن سوء الغبن ^(٣)
الحمد لله العليّ ذي المنن	الواهب الرزاق ديان الدين ^(٤)

(١) يدبجون: يسبوا من آخر الليل وقيل: ساروا الليل كله.

(٢) القرن: بفتح القاف والراء قيل: هو شيء من الحاء شجر يقتل منه حبل. وقيل: الحبل من اللحاء. وقيل: هو الخصلة المقتولة من العهن.

(٣) مستدن: أي ذليل مستعبد، وقال السهيلي في «الروض» هو من السدانة وهي خدمة البيت. والغبن: يكون في الرأي تقول غبن رأى فلان كما تقول سفهت نفس فلان.

(٤) الدين: جمع دينة وهي العادة. ويجوز أن يكون أراد الأديان أي: هو ديان أهل الأديان ولكنه جمعها على دين كما يجمع نحول نحل وملل..

ومنذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها عمرو بن الجموح إسلامه اجتث الإيمان الضلال والزيف من قلبه، ووجد في الإسلام متعة ولذة، حيث اكتشف حياته من جديد بعد أن قضى زمناً طويلاً في ظلمات الجاهلية ومثاهاتها، ورأى بعينه ما في الشرك والوثنية من ضلال يهوى بنفس صاحبه إلى درك ليس له قرار، ورأى كذلك أن أفقه أخذ يتسع، وأموره بدأت تستقيم، ونفسه الكبيرة قد تحولت إلى الخير، وعمله أضحى ذا هدف بعد أن كان لا معنى له^(١).

وهكذا أضحى عمرو بن الجموح - رضى الله عنه - واحداً من الصحابة الذين باعوا أنفسهم لله منذ أن عرف طريق الهداية، وقد بدأ إيمانه يشمر منذ الدقائق الأولى، وبدأت ثماره تؤتى أكلها، وطرح كل أدران الجاهلية عن نفسه، وراح يشكر الله - تعالى - الذي أخرجته من الظلمات إلى النور، وأنقذه مما كان فيه من الضلالة، وقد عبر عن ذلك في قصيدة له يقول فيها:

أتوب إلى الله مما مضى	وأستنقذ الله من ناره
وأثنى عليه بنعمائه	إليه الحرام وأستاره
فسبحانه عدد الخاطئين	وقطر السماء ومداراه
هدانى وقد كنت في ظلمة	حليف مناة وأحجاره
وأنقذنى بعد شيب القذا	ل ^(٢) من شين ذاك ومن عاره
فقد كدت أهلك في ظلمة	تدارك ذاك بمقـداره
فمحمداً وشكراً له	ما بقيت إله الأنام جباره
أريد بذلك إذا قلتُهُ	مجاورة الله في داره ^(٣)

استدراك ما فات

وعاش (عمرو) - رضى الله عنه - أسعد أيامه في ظل هذا الدين العظيم، وفي صحبة الحبيب ﷺ الذي أحبه من أعماق قلبه حباً جمّاً.

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٤٨).

(٢) القذا: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.

(٣) حياة الصحابة (١/ ٢٣٢).

وكانت نفسه قد اشتاقت إلى الجهاد في سبيل الله والشهادة في سبيله ليكفر الله عنه ما أسلف من الذنوب والسيئات.. وذلك لأنه أسلم وكان عمره قد جاوز الستين من عمره.

فلما كانت غزوة بدر أراد (عمرو) أن يخوضها فمنعه أولاده خوفاً عليه لكبر سنه وضعفه.. فتألم لذلك ألماً شديداً.

ابنه يقتل فرعون هذا الأمة

وفي تلك الغزوة سطر ابنه (معاذ بن عمرو) صفحة مضيئة على جبين التاريخ عندما شارك في قتل أبي جهل.

يقول معاذ: «جعلت أبا جهل يوم بدر من شأني. فلما أمكنتني حملتُ عليه، فضربتُه، فقطعت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة بن أبي جهل على عاتقي، فطرح يدي وبقيت معلقة بجلدة بجني وأجهضني عنها القتال، فقاتلت عامة يومى وإني لأسحبها خلفي، فلما آذنتني وضعت قدمي عليها ثم تمطأت عليها حتى طرحتها»^(١)...

قال الإمام الذهبي:

فهذه والله الشجاعة، لا كآخر ينقطع قلبه وتخور قواه من خدش بسهم.

وانطلقت سيوف المسلمين تحز في الأعناق، وتبر الأيدي، وتبعثر الأشلاء، وقد ألقى الله - تعالى - الرعب في قلوب المشركين، ولم تمض ساعات قليلة حتى تحقق النصر للمسلمين، وعادوا وبشارات النصر قد سبقتهم إلى المدينة، ونادى أن قُتل أبو جهل وقُتل معه عدد من كفار قريش وفرسانهم، واستطار فؤاد عمرو بن الجموح فرحاً بصنيع ولده معاذ وقتله أبا جهل، وحمد الله الذي جعل أولاده يكسبون شرف الجهاد وغايته^(٢).

وظل عمرو بن الجموح ملازماً للحبيب ﷺ يقبس من هديه وسمته وأخلاقه حتى أحبه النبي ﷺ حباً جماً.

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٠ - ٢٥١). وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص ٣٧).

الثبوت يزكّيه بين قومه

لقد كان (عمر) - رضى الله عنه - مفضلاً على الجود والكرم والسخاء وعلى الرغم من ذلك فإنه لما أسلم وخالط الإيمان شغاف قلبه زاد جوده وكرمه، فجعل ماله وولده فى خدمة دينه وإخوانه.

وها هو الحبيب ﷺ يوضح ويبين منزلة عمرو بن الجموح بين قومه وعشيرته، ويضع وسام الشرف على صدره من بين الناس أجمعين.

فعن جابر - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «يا بنى سلمة! من سيدكم؟» قالوا: الجعد بن قيس، وإنا لنبخله - نتهمه بالبخل - قال: «وأى داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح»^(١).

وحان وقت الرحيل

«استدار عامٌ كاملٌ، فخرجت قريشٌ إلى «أحد»، وقد جمعت جموعها لمعركة الانتقام والثأر من المسلمين فى بدر، فأعدت عزائمها وأحقادها وثاراتها وسلاحها، وزحفت بذلك جميعه نحو «أحد» تريد القضاء على الإسلام فى عقر داره.

وتمضى الأيام بسرعة ومازال عمرو تهفو نفسه ويشتاق قلبه إلى الفوز بالشهادة فى سبيل الله على الرغم من أن الله قد عذره من فوق سبع سموات.

لقد كان - رضى الله عنه - أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ، فلما توجهوا إلى أحد أراد أن يخرج معهم فقال له بنوه: إن الله جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأثنى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتى فى الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة» فخرج مع رسول الله ﷺ، فقتل يوم أحد شهيداً^(٢).

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأبو نعيم فى الحلية، وقال الأرناؤوط: وهذا سند قوى.

(٢) رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩) عن ابن إسحاق، وبعضه فى المسند (٥/ ٢٩٩) من حديث أبى قتادة، وصححه

الألبانى إسناده فى تحقيقه فى السيرة هامش (٢٨١).

قالت امرأته هند أخت عبد الله بن عمرو بن حرام: كأني أنظر إليه قد أخذ درّفته وهو يقول: اللهم لا تردني.

هكذا كان يتمنى الشهادة من كل قلبه ولا يتمنى أن يرجع سالماً غانماً فقد علم أن الغنيمة التي لا يجب أن تفوته أبداً هي الفوز بالشهادة، ومن ثم بالخلود في جنة الرحمن - جل وعلا - فلما كان يوم أُحُد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين» فقام وهو أعرج فقال: «والله لأقحزن^(١) عليها في الجنة»، فقاتل حتى قُتل^(٢).

وفي رواية: أنه «أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! رأيت إن قاتلتُ في سبيل الله حتى أُقتل، أَمْشِي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقتل يوم أُحُد هو وابن أخيه ومولى له. فمر رسول الله ﷺ، فقال: «كأني أنظر إليك تَمْشِي برجليك هذه صحيحة في الجنة». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجعلوا في قبر واحد^(٣).

هكذا يبحث المسلم عن أي دور لخدمة دينه... لا يجلس ويقول: دع ما لكسرى لكسرى وما لقيصر لقيصر، بل تحرك أخى المسلم لنصرة دين الله.

لقاء الأحابيد بعد الشهادة

عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر العُدْرِي، حليف بنى زُهرة: أن رسول الله ﷺ لما أشرفَ على القتلى يوم أُحُد، قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجرح في [سبيل] الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك»، «وانظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» - وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر [الواحد]^(٤).

وقال ابن إسحاق: عن أشياخ من بنى سلمة: أن رسول الله ﷺ، قال يومئذ، حين أمر

(١) القحز: الوثب والقلق.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٢٥٣).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٧٣): سنده حسن - رواه أحمد (٥/ ٢٩٩).

(٤) أورده الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٩) وقال: رواه أحمد (٥/ ٤٣١) والنسائي والبيهقي (٤/ ١١) ورجاله رجال الصحيح.

بدفن القتلى: «انظروا إلى عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا فاجعلوهما في قبر واحد»^(١).

كرامة ثابتة (لعمرو) بعد موته

وفي أيام معاوية - رضي الله عنه - كان السيل قد خرب قبرهما، فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما، فوجدوا لم يتغيرا، كأنما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح، فوضع يده على جرحه، فدفن كذلك. فأميّطت يده عن جرحه، ثم أرسلت، فرجعت كما كانت. وكان بين يوم أحد ويوم حفر عنهما ست وأربعون سنة^(٢).

وهكذا رحل الشهيد عن دنيانا ليمشي برجله في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عن (عمرو) وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) رواه أحمد (٢٩٩ / ٥) وابن سعد (٥٦٢ / ٢) وذكره ابن حجر في الفتح (٣ / ٢٥٦، ٢٥٧) وعزاه إلى

أحمد في مسنده بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن سعد، وقال الحافظ في الفتح (٣ / ١٧٣): صحيح.

سعد بن الربيع

يا رسول الله ﷺ أجد ربح الجنة

سعد بن الربيع (رضي الله عنه)

إن الأخوة الصادقة أصبحت عملة نادرة في زمن الغربة الثاني الذي نعيشه الآن... فلا تكاد ترى أخًا صادقًا في أخوته - إلا من رحم الله -.

ولقد ضرب أصحاب النبي ﷺ المثل والأسوة والقُدوة في الأخوة الصادقة.

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع هذا الصحابي الجليل سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي البدرى النقيب الشهيد الذي لا يستطيع إنسان أن يذكر معنى الأخوة الصادقة إلا ويجعل سعدًا متربعا على عرش الأخوة.

كان سعد - رضي الله عنه - أحد النقباء ليلة العقبة واستشهد يوم أحد.

الأخوة الصادقة

لقد صدق أصحاب النبي ﷺ في كل شيء حتى في محبتهم لإخوانهم، فلم يطمع أحدهم فيما عند أخيه بقدر طمعه في حُب أخيه، فلم يحمل أحدهم شيئًا في صدره لأخيه، بل حملوا الحب والوفاء لإخوانهم.

قال الإمام الشافعي:

أحب الصالحين ولست منهم
وأكره من تجارتهم معاصي
لعلني أن أنال بهم شفاعته
وإن كنا سويًا في البضاعسة

فقال له الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم
وتكره من تجارتهم معاصي
ومنكم سوف يلقون الشفاعته
وقاك الله من شر البضاعسة

ولذا فإن المؤمن لا بد أن يحرص على صحبة المؤمنين الصادقين ولا بد أن يتعاهدوا من

الآن على أن يشفعوا لبعضهم البعض في هذا اليوم العصيب، وبذلك تكتمل معاني الأخوة في الدنيا والآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكذلك يجب أن تحرص على أن تحمل في قلبك كل المحبة لإخوانك ولا تجعل في قلبك غشاً ولا حسداً لأحد من المسلمين.

ولعلكم تعلمون قصة الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

فمن أنس - رضى الله عنه - قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حالته الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت أبي، فأقسمت أنى لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضى فعلت. قال: «نعم»... قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار (تقلب على فراشه) ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر... قال عبد الله: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحترق عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة، ولكنى سمعت رسول الله يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد في نفسى لأحد من المسلمين غشاً ولا حسداً أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فهذه التى بلغت بك، وهى التى لا تُطاق^(١).

يقول النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(٢).

(١) رواه أحمد والنسائي وقال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٣٣٨) وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

(٢) رواه أبو داود والضياء عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٥).

وليس هذا فحسب، بل إن المحبة من أجل الله توجب محبة الله للعبد.

إن الله تعالى يقول: «حققت محبتي للمتحابين فيَّ وحققت محبتي للمتواصلين فيَّ وحققت محبتي للمتناصحين فيَّ، وحققت محبتي للمتزاوئين فيَّ، وحققت محبتي للمتباذلين فيَّ، المتحابون فيَّ على منابر من نور يغطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء»^(١).

بل يصبح من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

فقد قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: - وذكر منهم - ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»^(٢).

ولقد كانت تلك المحبة سبباً في وجوب الجنة لرجلٍ يحب أخاه من أجل الله عز وجل.

قال ﷺ: «إن رجلاً زار أخاه في الله فأرصد الله له ملكاً، فقال أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلاناً، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا. قال: لقراءة بينك وبينه؟ قال: لا. قال: فبنعمة لك عنده؟ قال: لا. قال: فبم؟ قال: أحبه في الله. قال: فإن الله أرسلني إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة»^(٣).

يقول الشافعي رحمه الله عليه:

إذا المرء لا يرعـاك إلا تكلفاً	فدعه ولا تكثر عليه التأسفاً
ففى الناس إبدالٌ وفى الترك راحةٌ	وفى القلب صبرٌ للحبيب ولو جفاً
فما كل من تهواه يهواك قلبه	ولا كل من صافيته لك قد صفاً
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً	فلا خير فى خلٍ يجىء تكلفاً
ولا خير فى خلٍ يخون خليله	ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشاً قد تقادم عهدُه	ويظهر سرّاً كان بالأمس قد خفاً
سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن	بها صديقٌ صدوقٌ صادق الوعد منصفاً ^(٤)

(١) رواه أحمد والحاكم والطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت - صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٣٦٠٣)، ورواه أحمد والترمذي والنسائي ومالك.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٣٥٦٧) بطرف «زار رجل...» الصحيحة (١٠٤٤) البخاري في الأدب المفرد (٥/٥٥).

(٤) نقلاً من كتاب «صدقوا ما عاهدوا» للمصنف - ط، دار الفردوس.

ولقد بدأت حديثي عن الصحابي الجليل (سعد بن الربيع) - رضي الله عنه - بالكلام عن الأخوة، وذلك لأنه ضرب المثل الأعلى في الأخوة حتى إننا لا نستطيع أن نتحدث عن أمر الأخوة إلا ونذكره بقلوبنا قبل ألسنتنا.

نشأة مباركة

لقد نشأ (سعد) في أسرة عريقة فلقد كان والده (الربيع بن عمرو) من سادات بني الحارث الخزرجيين. وأمه هزيمة بنت عنبه من القبيلة نفسها.

ولما كان اليهود يعيرون العرب بأنهم أمة أمية.. أرسل الربيع ولده (سعداً) ليتلقى الكتابة والقراءة.

وأصبح (سعد) سيداً وتحلى بالأخلاق والآداب التي يتحلى بها رئيس القوم، بل وأصبح جديراً بحب الخزرج واحترامهم.

ولقد امتن الله عليه بعقل سليم ناضج وقلب يحب الخير لكل من حوله، ولذلك كان يبغض الخلافات والحروب التي تدور من حوله.

موعد مع السعادة

وها هو على موعد مع القدر ومع السعادة الأبدية.

فلقد كان النبي ﷺ يدعو الناس في مواسم الحج.

و ذات يوم خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

فلما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالى يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلّمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزّوهم^(١) ببلادهم، فكانوا إذا كان

(١) غزوهم: أي غلبوهم، وفهروهم. وفي بعض النسخ: «عزوهم».

بينهم شيءٌ قالوا لهم: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلم زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فدعواهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا^(١).

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعواهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ. حتى إذا كان العام المقبل وأقرب الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلحقوه بالعقبة. وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب.

ثم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة، أبي أمانة^(٢).

وقام مصعب - رضى الله عنه - يحمل أمانة الدعوة إلى الله فاستطاع أن يستميل القلوب وأن يأخذ بأيدي العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة. حتى أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهم من الصادقين - رضى الله عنهم - وكان من بينهم سعد بن الربيع - رضى الله عنه - الذي كان على موعد مع سعادة الأبد وخيرى الدنيا والآخرة.. فلقد لامس الإيمان شغاف قلبه.

وما إن أسلم (سعد) حتى تآقت نفسه إلى لقاء الحبيب ﷺ.

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤) والطبري في تاريخه (١/ ٥٨٨)، وابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٢٦٢) وذكره الغزالي في فقه السيرة (ص ١٧٢) وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٥٩) عن ابن إسحاق... به وذكره ابن حجر في الفتح (٧/ ٢٦٤). وقال: وذكر ابن إسحاق... الحديث.

لقاء مع الحبيب ﷺ

* وجاءت تلك اللحظة التاريخية التي لن تتكرر أبداً - ألا وهي بيعة العقبة الثانية - وخرج الأنصار لمبايعة رسول الله ﷺ .

وكان من بين من خرج لمبايعة النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية (سعد بن الربيع) - رضى الله عنه - الذى كان فى أشد شوقه للقاء الحبيب ﷺ لينهل من هذا المعين الصافى ما يُثلج صدره وليقبس من هديه وحكمته وأخلاقه العذبة.

وامتدت يده لتصافح الحبيب ﷺ ولتبايعه.

ثم عاد (سعد) إلى المدينة وقد امتلأ قلبه بالسعادة التى لو قُسمت على أهل الأرض لو سعتهم أجمعين.

الهجرة المباركة

ولما اشتد الإيذاء بأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة). وخرج المهاجرون إلى يثرب فراراً بدينهم من بطش قريش، فنزلوا فى رحاب إخوانهم من الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان... الذين قال الله عنهم:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ولما استقر المقام بالحبيب ﷺ فى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وهنا ظهرت نواذر الإخاء والحب والتضحية بصورة لا يتصورها عقل ولا تخطر ببال أحدٍ من البشر، فكانت تلك الأخوة التى لا تتكرر أبداً عبر العصور والأزمان.

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

وها هو سعد بن الربيع الذى تعايش مع كل آية من آيات القرآن ومع كل حديث من أحاديث النبي ﷺ... يحقق معنى الأخوة كما أرادها الحق - جل جلاله -.

فعن أنس - رضى الله عنه - أنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وأخى النبي ﷺ

بينه وبين سعد ابن الربيع - وكان كثير المال - فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً سأقسم مالي بيني وبينك شطرين - نصفين - ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئاً من سمن وأقط^(١)، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه ضرٌّ من صفرة فقال له رسول الله ﷺ: «مهيم؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار، قال: «ما سقت فيها؟» قال: وزن نواة من ذهب - أو نواة من ذهب - فقال: «أولم ولو بشاة»^(٢).

وإن إعجاب المرء بسماحة (سعد) لا يعدله إلا إعجابه بنبيل (عبد الرحمن) الذي زاحم اليهود في سوقهم وبزّهم في ميدانهم، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه.. ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان^(٣).

نعم فإن الإسلام دين يحث على العمل ولا يرضى بالتواكل ولا يرضى بأن يخذل المسلم حيائه أو يذهب ماء وجهه من أجل أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه.

قال الحسن البصري: والله لقد رأيتُ أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيتُ أقواماً يمسي أحدهم ولا يجدُ عنده إلا قوتاً، فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، فيتصدق ببعضه، ولعله أحوج إليه ممن يتصدق عليه.

فانظر عندما تعفف عبد الرحمن بن عوف ورفض العطاء الذي عرضه عليه سعد بن الربيع عوضه الله خيراً كثيراً وتزوج في وقت قياسي «ومن يستعفف يُعفه الله»^(٤). فلقد كان زواج المسلمين ميسوراً بأمر الله.

ولم يكن هذا الموقف الإيماني في تحقيق معنى الأخوة الصادقة مقصور على (سعد ابن الربيع) فحسب، بل لقد كان الأنصار يضربون المثل والأسوة في الحرص على القيام بحقوق الأخوة الصادقة.

وقد مدح الله - عز وجل - الأنصار بالإيمان والإيثار، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ

(١) الأقط: قطع الجبن.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨١) والطبراني في الكبير (٥٤٠٤).

(٣) فقه السيرة للشيخ الغزالي (ص: ١٩٣).

(٤) أخرجه البخاري وأحمد عن حكيم بن حزام - صحيح الجامع (٨١٩٦).

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩].

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «من يضم - أو يضيف - هذا» فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبيانى فقال: هيئى طعامك، وأصبحى سراجك، ونومى صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيات طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها. ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعل يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غداً إلى رسول الله ﷺ. فقال: «ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعلكما فأنزل الله:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) [الحشر: ٩].

وعن ابن الأعرابي قال: استشهد باليرموك عكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وجماعة من بنى المغيرة، فأتوا بالماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا، ولم يذوقوه؛ أتى عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا به، فنظر سهيل إلى الحارث ابن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا بهذا، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسى أنتم (٢).

وعن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمل سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إلى أن نعم، فإذا رجل يقول: آه. فأشار ابن عمى إلى أن انطلق به إليه، فجثته فإذا هو هشام بن العاص. فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه. فأشار هشام انطلق به إليه، فجثته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات - رحمة الله عليهم أجمعين - (٣).

(١) أخرجه البخارى (١٤٩ / ٧) مناقب الأنصار.

(٢) التبصرة (٢ / ٢٥٩).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣ / ٢٧٤).

صورة مشرقة من جهاده في سبيل الله

« منذ أن أعلن سعد بن الربيع إسلامه لم يتوان عن تقديم خدماته للإسلام وأهله، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، وكل ما يملك، وجاءت معركة بدر، فخرجت قريش من مكة عن بكرة أبيها معتقدة أنها ستوجه الضربة القاصمة التي تقضي على الإسلام وأهله، لأن المسلمين بزعمها قد تظاولوا عليها، وأقدموا على التصدي لغيرها وكسرية قريش أمام العرب...، وسمع الرسول ﷺ بخروج قريش، فخرج بأصحابه حتى نزل في بدر، وعباً الرسول أصحابه أحسن تعبئة وحشهم على الصبر والثبات، وبدأ الزحف من قبل قريش، فالتقى الجمعان، وهجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان بالحق والرغبة في الشهادة والطمع في ثواب الله؛ وأمد الله المؤمنين بروح من عنده، فازدادت حماسهم وتضاعفت قوتهم.

وكان سعد بن الربيع رضى الله عنه، يقاتل في هذه الغزوة قتال الأسود، وأبلى فيها بلاء حسناً، وتجاوز مقدار الشجاعة، حيث ظهر من شدة بأسه ما أدهش الكفار، فلقد قُتل أحد رؤوس المشركين وهو «رفاعة بن أبي رفاعة» ومع هذا كله فقد كان سعد بن الربيع رضى الله عنه يؤثر الصمت والهدوء ويقاتل في سبيل الله، وكان رسول الله ﷺ يعرف عنه هذا ويكن له كل الحب والتقدير.

« انتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين، ولم يغيب سعد بن الربيع عن أنظار الرسول ﷺ، بل ظل قريباً منه؛ شهد غدر يهود بنى قينقاع ومجاهرتهم العداء للمسلمين، ثم شهد إجلاءهم عن المدينة المنورة، وشهد المشاهد كلها حتى جاءت غزوة أحد^(١).

يا رسول الله أجد ريح الجنة !!!

وفي غزوة أحد قاتل سعد بن الربيع قتالاً شديداً ليظفر بتلك الأمنية التي كانت تشغل قلوب الصحابة جميعاً - ألا وهي الشهادة في سبيل الله -.

ولما انتهت تلك الغزوة بدأ النبي ﷺ يتفقد القتلى والجرحى.

قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب (سعد بن الربيع) فقال لي: «إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» قال:

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٢٩٠ - ٢٩١).

فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بأخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «أخبرني كيف تجدك؟» فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف. وفاضت نفسه من وقته (١).

وفي رواية: أنه «لما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ ابْنُ الرَّبِيعِ؟» فقال رجل من الأنصار: أنا. فخرج يطوف في القتلى، حتى وجد سعداً جريحاً مثبتاً بأخر رمق، فقال: يا سعد، إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر: أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟ قال: فإنى فى الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ السلام، وقل: إن سعداً يقول: جزاك الله عنى خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك منى السلام، وقل لهم: إن سعداً يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم - أى أصابه مكروه - وفيكم عين تطرف» (٢).

حفظ الله ذريته من بعده

عن جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابتيتها من سعد، فقالت: يا رسول الله! هاتان بنتا سعد، قُتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا، ولا تُنكحان إلا ولهما مال، قال: «يقضى الله فى ذلك» فأنزلت آية المواريث، فبعث إلى عمهما فقال: «أعطى بنتى سعد الثلثين، وأعطى أمهما الثمن، وما بقى فهو لك» (٣).

وهكذا يحفظ الله العبد الصالح وذريته من بعده كما جاء فى سورة الكهف فى شأن الغلامين اليتيمين. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قضى الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) رواه ابن هشام (٢/ ٩٤ - ٩٥) والحاكم (٣/ ٢٠١) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) الإصابة (٤/ ١٤٤) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٤٥) والسيرة لابن هشام (٢/ ٩٤ - ٩٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢) والترمذى (٢٠٩٣) وصححه.. ونقل المنذرى تحسّنه له وهو الأصح.

حارثة بن النعمان

سمعه النبي ﷺ يقرأ القرآن في الجنة

وها نحن اليوم على موعد مع نجم جديد يضيء سماء الكون كله... إنه واحد ممن تربوا في ظلال الوحي الكريم... إنه الرجل الذي ردّ عليه جبريل السلام... إنه الرجل الذي سمع النبي ﷺ صوته في الجنة وهو يقرأ القرآن... بل إنه الرجل الذي قال عنه جبريل - عليه السلام -: إنه من المائة الصابرة الذين تكفل الله برزقهم في الجنة. إننا على موعد مع حارثة بن النعمان.

إننا مع مثال ضرب القدوة والأسوة لكل شباب الأمة في البر بالوالدين. إنه حارثة ابن النعمان الذي سمعه النبي ﷺ يقرأ القرآن في الجنة!!!
عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ثمت فرأيتني في الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا حارثة بن النعمان فقال لها رسول الله ﷺ: كذاك البر كذاك البر». وكان أبر الناس بأمه^(١).

قال عنه الإمام الذهبي: شهد بدرًا والمشاهد ولا نعلم له رواية وكان دينًا خيرًا برًا بأمه^(٢).

وقالت عائشة - رضى الله عنها -: كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبر من كان في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان - رضى الله عنهما - أما عثمان: فإنه قال: ما قدرتُ أتأمل وجه أمي منذ أسلمتُ. وأما حارثة: فكان يُطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قطُّ تأمرُ به، حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج: ماذا قالت أمي؟^(٣).

(١) قال الأرنبوط: رواه أحمد (٦/ ١٥١) وأبو يعلى (٧/ ٣٩٩) والحاكم (٣/ ٢٠٨) بسند صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٨).

(٣) التبصرة (١/ ١٨٨).

هذا هو حارثة (رضي الله عنه)

* إنه واحدٌ من جنود الرحمن ممن كانوا يتسابقون إلى بذل أموالهم - كبذل أنفسهم في سبيل الله - فكان هذا الفارس ممن سجل أعظم المواقف في سجل الجود، وهل يعدل الجود شيء من الفضائل؟!

* لقد بذل نفسه في سبيل مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسوله ﷺ، وقدم كثيراً للأسرة المحمدية، وكثيراً ما كان يترك بيته، وينزل عنه لرسول الله ﷺ حتى لقد استحميا منه ﷺ وأشاد بكرمه في أكثر من موقف.

* ولكن هذا الفارس الكريم استقى كرمه وجوده من سيد الكرماء الأجواد، وسيد الشجعان، وإمام المتقين سيدنا وحبيبنا محمد رسول الله ﷺ الذي كان أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس^(١).

ومن هنا كانت البداية

وتعالوا بنا لنبدأ قصته المباركة من أولها.

فإنه في موسم من مواسم الحج لقي رسول الله ﷺ نفرًا من الخزرج الثريين، وعرض عليهم الإسلام، وقد تعرف على هويتهم، وتأكد أنهم من موالى اليهود، ولم يستغرب هؤلاء النفر الحديث عن الله وعن الرسل، والكتب المنزلة، فهذا الحديث قد طرق مسامعهم من قبل، إذ سمعوه من اليهود (جيرانهم) أكثر من مرة، ولما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله - تعالى - وتلا عليهم القرآن الكريم وجد الإيمان إلى قلوبهم سبيلاً، فأعلنوا إسلامهم، وواعدوا الرسول الكريم ﷺ أن يدعوا إلى الله، وإلى الإسلام في بلدهم يثرب.

انطلق الخزرجيون الستة نحو بلدهم، ووفوا بوعدهم لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - ونشروا الإسلام بين صفوف الأوس والخزرج حتى فشا الإسلام في المدينة، ولما كان العام المقبل جاء اثنا عشر رجلاً منهم، وبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة، ولما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ أحد أصحابه النجباء، وهو مصعب بن عمير - رضي الله عنه - وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فقام مصعب

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٥٧٨).

بن عمير بمهمته خير قيام، واستطاع بما آتاه الله من حكمة وأناة أن يستميل قلوب أهل المدينة من أوس وخزرج، وقد وصلت أنباء الدعوة إلى الإسلام إلى سمع «حارثة ابن النعمان» فانطلق إلى الداعية المكى، وأعلن إسلامه، واستطار قلبه فرحاً حينما أسلمت أمه «جعدة بنت عبيد»؛ لأنه كان باراً بها أشد البر، وأسلمت كذلك أسرته كلها^(١).

الهجرة المباركة

ولما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى (يثرب) المدينة المنورة قام الأنصار على قلب رجل واحد لاستقبال الحبيب ﷺ وصاحبه - رضى الله عنه - وقلوبهم قد امتلأت بالبهجة والسعادة والفرحة.

وكان من بين هؤلاء الذين خرجوا لاستقبال الحبيب ﷺ (حارثة بن النعمان). وازدادت فرحة (حارثة) عندما رأى النبی ﷺ قد نزل في دار أبي أيوب الأنصاري، وذلك لأن حارثة كان من بنى النجار فضمن بذلك أن يكون قريباً من النبی ﷺ. فكان (حارثة) يتردد كثيراً على الحبيب ﷺ يتعلم على يديه ويقبس من هديه وأخلاقه السامية، فازداد حباً للنبي ﷺ وكان الحبيب ﷺ يبادلُه الحب لما رأى عليه من نقاء القلب وصفاء السريرة وعلامات المروءة والصدق. وكان حارثة - رضى الله عنه - يتمنى من كل قلبه أن يفدى الحبيب ﷺ بنفسه وبماله وبكل ما يملك.

من مواقفه النبيلة

ولما قدم النبي ﷺ المدينة وتزوج (عليٍّ) (فاطمة) - رضى الله عنهما - وبني بها في منزل بعيد عن النبي ﷺ وأراد النبي ﷺ أن يُحوِّل منزلهما بالقرب منه فسمع حارثة بذلك فترك منزله القريب لعلی وفاطمة ليكونا بالقرب من رسول الله ﷺ.

بل لما تزوج النبي ﷺ صفية بنت حِمْي (رضى الله عنها) أنزلها في منزل من منازل حارثة بعد أن تحوَّل حارثة عنه.

وبذلك كان حارثة سباقاً إلى كل مكرمة يرضى بها رسول الله ﷺ.

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٠٠) لأحمد خليل جمعة.

فلما كانت غزوة بدر كان (حارثة) من بين فرسان المسلمين فخاض المعركة بكل
بسالة وفداء وقوة وثبات.

وفى تلك المعركة انقضى على (عثمان بن عبد شمس) فأسره، ولما بعثت قريش في
فداء الأسرى.. أرسل (جبير بن مطعم) في فداء (عثمان بن عبد شمس) ففاز حارثة
بالأجر والفداء.

وشهد حارثة - رضى الله عنه - المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وسطر على جبين
التاريخ سطوراً من النور.

وفى يوم حنين كان من المائة الصابرة فى ذلك اليوم... بل كان حريصاً على أن يكون
قريباً من النبى ﷺ خوفاً عليه من أن يصيبه مكروه.

جبريل - عليه السلام - يرد السلام على حارثة

قد يتفاخر الإنسان بأنه ذات يوم التقى برجل من سادة القوم أو من أصحاب الشهرة
فسلم عليه.. ولا يستطيع أن ينسى أبداً هذا اليوم... فما ظنك بمن يسلم عليه أمير
الملائكة جبريل - عليه السلام -.

عن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل - عليه السلام -
جالس فى المقاعد فسلمت عليه ثم أجزت، فلما رجعت وانصرف النبى ﷺ قال: «هل
رأيت الذى كان معى؟» قلت: نعم. قال: «فإنه جبريل وقد رد عليك السلام»^(١).

تكفل الله برزق (حارثة) فى الجنة

عن حارثة بن النعمان أنه قال: رأيت جبريل من الدهر مرتين: يوم الصَّوْرَيْنِ^(٢) حين
خرج رسول الله إلى بنى قريظة، مررنا فى صورة دحية، فأمرنا بلبس السلاح؛ ويوم
موضع الجنائز حين رجعنا من حنين، مررت وهو يكلم النبى ﷺ، فلم أسلم. فقال
جبريل: مَنْ هذا يا محمد؟ قال: حارثة ابن النعمان. فقال: أما إنه من المئة الصابرة يوم
حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم فى الجنة، ولو سلم لرددنا عليه^(٣).

(١) رواه أحمد (٤٣٣ / ٥) بسند صحيح - وذكره الحافظ فى الإصابة (٢٩٨ / ١). وقال: إسناده صحيح.

(٢) الصوران: موضع بالمدينة بالبقيع. وفى سيرة ابن هشام (٢٣٤ / ٢): ومر رسول الله ﷺ بنصر من أصحابه
بالصورين قبل أن يصل إلى بنى قريظة.

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٣١٤ / ٩) ونسبه للطبرانى والبخارى وقال: إسناده حسن.

واستمر حارثة - رضى الله عنه - يتابع رحلة جهاده ونضاله، ولما توفي رسول الله ﷺ ظل حارثة بن النعمان - رضى الله عنه - مثال الجندى الأمين المخلص فى حياة الخلفاء الراشدين، ولم يتوقف جهاده وعطاؤه حتى لقي ربه... وروى أنه وقف موقفًا طيبًا من عثمان - رضى الله عنه - حيث قال له حينما حوَّصر: «إن شئت قاتلنا دونك»^(١).

وبقى هذا الصحابى الجليل إلى خلافة معاوية - رضى الله عنه - ومات أثناء خلافته. ومن ذريته: المحدث أبو الرجال محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حارثة بن النعمان الأنصارى ولد عمرة الفقيهة التى أكثرت عن عائشة - أى فى الرواية - روى حديثها الستة^(٢).

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن حارثة - رضى الله عنه - الذى ضرب المثل فى بره بأمه أن تلقى الضوء على نبذة يسيرة من بر الوالدين.

بر الوالدين يفرج الله به الكريات

إن بر الوالدين جعله الله سببًا فى تفريج الكرب... ولذا أورد الإمام البخارى فى صحيحه حديثًا فى ذلك وبوّب له عنوانًا قال فيه: «باب إجابة دعاء من برَّ والديه».

قال ﷺ: بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار فى الجبل، فأنحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم.

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها. فقال أحدهم: اللهم إنه كان لى ولدان شيخان كبيران، ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رُحْتُ عليهم فحلبت بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى، وإنه ناء بى الشجر فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنت أحلب، فجئت بالخلاب فقامت عند رءوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما... والصبية يتضاغون عند قدمى، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء....»^(٣).

(١) الإصابة (١/ ٢٩٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠) بتصرف.

(٣) أخرجه البخارى (١٠/ ٤١٨) (ح ٥٩٧٤) عن ابن عمر.

الصورة بدعوة الوالدين يجلب التوفيق في الدنيا والآخرة في الأخرة
رضا الرب في رضا الوالدين

فقد قال ﷺ: «ثلاث دعوات لا تُرد: دعوة الوالد لولده...» (١).

فمن فاز بدعوة الوالدين فهو من الفائزين في الدنيا والآخرة لأن النبي ﷺ قال: «رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما» (٢)... ومن فاز برضا الله فهو الفائز ومن بآء بسخط الله فهو الخاسر.

بر الوالدين سبب لسعة الرزق وزيادة العمر

قال ﷺ: «من سره أن يعظم الله رزقه وأن يمد في أجله فليصل رحمه» (٣).

وفي رواية للبيهقي: «فليبر والديه وليصل رحمه»... وبر الوالدين هو في الحقيقة شكر لله فهو القائل: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَسِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]... فمن كان باراً بوالديه كان شاكراً لهما ومن كان شاكراً لهما كان شاكراً لله ومن كان شاكراً لله فهو من أهل الزيادة... فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ولن يحرم العبد من المزيد حتى ينقطع من شكره لله ولوالديه.

بر الوالدين كفارة للكبائر

قال مكحول: «بر الوالدين كفارة للكبائر، ولا يزال الرجل قادراً على البر ما دام في فصيلته من هو أكبر منه» (٤).

وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال: (إني خطبت امرأة، فأبت أن تنكحني، وخطبتها غيري فأحببت أن تنكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى الله - عز وجل - وتقرب إليه ما استطعت، فذهبت فسألت ابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله - عز وجل -

(١) رواه الضياء عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٢).

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٠٧).

(٣) متفق عليه عن أنس - صحيح الجامع (٦٢٩١).

(٤) شرح السنة للبخاري (١٣ / ١٣).

وجل - من بر الوالدة (١).

بر الوالدين يهدل الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله

أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى. قال: «فهل من والدك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما حي... قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والدك فأحسن صحبتهما» (٢)... قال الإمام النووي: في الحديث دليل لعظم فضيلة بر الوالدين، وأنه أكد من الجهاد. اهـ.

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه قال: «هل بقي من والدك أحدٌ؟» قال: أمي. قال: «فاسأل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتبر ومجاهد» (٣).

بر الوالدين من أسباب حسن الخاتمة

نعم يا إخواني فإن بر الوالدين طاعة لله - جل وعلا - ولقد أجرى الله الكريم عاداته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بُعث عليه... فمن عاش على بر الوالدين يموت على تلك الطاعة لله - جل وعلا - وها هو شاب عاش على بر الوالدين فلما حضرته سكرات الموت جاء الناس يلقتونه الشهادة فكان يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله.

بر الوالدين سبب لتصور برحمة الله ومقدراته

فإن كان الله قد غفر لامرأة من البغايا لأنها سقت كلباً فكيف بمن يكون باراً بوالديه يقدم لهما الطعام والشراب ويحسن معاملتهما ويرحمهما... فقد قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى: ارحموا من في الأرض يرحكم من في السماء» (٤).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) أخرجه مسلم عن ابن عمرو (٤ / ١٩٧٥).

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٨ / ١٣٨) عن أنس... وقال: رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير ميمون ووثقه ابن حبان.

(٤) رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو - صحيح الجامع (٣٥٢٢).

بر الوالدين سبب لقبول الأعمال والتجاوز عن السيئات

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعِدَّ الصَّدُوقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

بر الوالدين سبب لدخول الجنة

فعن طيسلة بن مياس قال: (كنت مع النجدات فأصبت ذنوبًا لا أراها إلا من الكبائر، فذكرت ذلك لابن عمر، قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا. قال: ليست هذه من الكبائر) إلى أن قال: (قال لي ابن عمر: أتفرق من النار - أي أتخاف من النار؟ وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إي والله! قال: أحى والداك؟ قلت: عندي أمي، قال: فوالله لو ألفت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الكبائر) (١).

بإيمان من الجنة لمن بر والديه

روى البخاري (في الأدب المفرد) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا إلا فتح الله له بابين - يعني من الجنة - وإن كان واحدًا فواحد، وإن غضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه، قيل: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه».

بر الوالدين بعد موتهما

إن بر الوالدين لا ينقطع أبدًا بموتهما... فعن أبي أسيد مالك بن ربيعة أنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فقال رجل: «يا رسول الله! هل بقي علي من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟» قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما،

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والطبري في تفسيره.

وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما»^(١).

ومن البر بهما بعد موتهما: قضاء ولى الميت صوم النذر عنه.

قال ﷺ: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»^(٢).

ومن البر بهما بعد موتهما: التصديق عنهما.

فمن عائشة - رضى الله عنها -: (أن رجلاً قال: «إن أُمى افتُلتت نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ولي أجر؟» قال: «نعم، فتصدق عنها»)^(٣).

فعلى الولد أن يكثر من الدعاء والاستغفار لوالديه وأن يتصدق عنهما وأن يحج عنهما بشرط أن يكون قد حج عن نفسه و.... بل عليه أن يجتهد فى طاعة الله فإن ذلك كله من البر بوالديه؛ لأنه من سعى والديه فأجر تلك الطاعات يُكتب له ولو والديه... فقد قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: - وذكر منهم - أو ولد صالح يدعو له»^(٤).

إن أبر البر صلة الرجل أهل وُد أبيه

فمن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله! إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير.. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وُدًا لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أبر البر صلة الرجل أهل وُد أبيه». وفى رواية: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُد أبيه بعد أن يولى»^(٥). وفى رواية: «احفظ ود أهلك لا تقطعه فيطفى الله نورك».

وعن ثابت البناني عن أبي بردة قال: (قدمت المدينة، فأتانى عبد الله بن عمر، فقال: «أتدرى لم أتيتك؟» قال: قلت: «لا» قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن

(١) رواه أبو داود فى الأدب - باب بر الوالدين (٥١٤٢) وإسناده ضعيف.

(٢) متفق عليه عن عائشة - صحيح الجامع (٦٥٤٧).

(٣) أخرجه الشيخان وأبو داود وأحمد عن عائشة.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٧٩٣).

(٥) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن عمر - صحيح الجامع (١٥٢٥).

يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده»، وإنه كان بين أبي: (عمر)، وبين أبيك إخاء وود، فأحببت أن أصل ذلك»^(١).

هكذا تكون زيارتك وصلتك بأصدقاء الوالد بعد موته هي ذاتها صلة لأبيك في قبره... فاستمع لنداء الحبيب ﷺ واحفظ وُدَّ أبيك لا تقطعه فيطفى الله نورك^(٢).

«لن نرى الله حق حارثة ونحن سائر السعادات أجمعين»

(١) رواه ابن حبان عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٠).

(٢) (وبالوالدين إحساناً) للمصنف (ص ٣٥: ٤١) بتصرف.

معاوية بن أبي سفيان

اللهم اجعله هادياً مهدياً واهداً واهداً به

اعتذار رقيق،

إننى عندما بدأت فى كتابة هذا الكتاب (أصحاب الرسول ﷺ) كان من هؤلاء الصحب الكرام الذين أردت أن أترجم لهم فى هذا الكتاب (معاوية رضى الله عنه) ولكن شاء الله عز وجل أن أنسى كتابة ترجمته وذلك لكثرة الصحابة الذين جمعت تراجمهم فى كتابى هذا... فخشيت أن يظن أحد أنى تعمدت أن لا أكتب ترجمة فى هذا الكتاب لهذا الصحابى الجليل فأسرعت فى هذه الطبعة بكتابة ترجمة خاصة به عسى الله أن يلحقنا به وبسائر الصحابة وأن يجمعنا وإياهم مع الحبيب ﷺ فى جنته ومستقر رحمته.

ومن هنا تبدأ

وها نحن نتعاشق بقلوبنا وأرواحنا مع واحد من هذا الجليل الفريد الذى لن يتكرر أبداً مهما طال بنا الزمان... إنه خال المؤمنين، وكاتب وحى رسول الله ﷺ... الذى شاء الله عز وجل أن ينقطع أجله ولا ينقطع أجره، فلقد خاض فيه كثير من الناس وهم لا يعرفون قدره ومنزلته فجعل الله ذلك كله فى ميزان حسناته فرضى الله عنه وأرضاه.

وبطل قصتنا هذه علكم من أعلام الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فله تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد... ولا شك أن سير هؤلاء الأبطال تصقل النفوس وتشرح الصدور لأننا نعيش فى زمان الغربية الحقيقية الثانية التى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ، ولذلك فإننا إذا ذكرنا هؤلاء الصحب الكرام فإن القلوب تشتاق إلى أن ترجع إلى عهد الحبيب ﷺ لنعيش يوماً من أيامه مع أصحابه رضى الله عنهم.

فتعالوا بنا لنقترب أكثر من بطلنا الحبيب ولنعرف شيئاً من سيرته العطرة. إنه معاوية ابن أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب أمير المؤمنين

ملك الإسلام أبو عبد الرحمن القرشي الأموي المكي^(١).

وأمه هي هند بنت عتبة بن ربيعة.

كان طويلاً أبيض جميلاً.

كانت أمه تشعر أنه سيكون سيداً.

عن أبان بن عثمان: كان معاوية وهو غلامٌ يمشي مع أمه هند، فعثر، فقالت: قُمْ لا رفعك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لِمَ تقولين له؟ فوالله إنني لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه إن لم يسُدْ إلا قومه^(٢).

متى أسلم؟

قال الإمام الذهبي: قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت عُمره القضاء، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه، ولكن ما ظهر إسلامه إلا يوم الفتح.

حدث عن النبي ﷺ، وكتب له مراتٍ يسيرة، وحدث أيضاً عن أخته أم المؤمنين أم حبيبة، وعن أبي بكر، وعمر^(٣).

وقال معاوية: لما كان عام الحديبية، وصدوا رسولَ الله ﷺ عن البيت، وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرتُ لأمي، فقالت: إياك أن تخالف أباك، فأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسولُ الله ﷺ من الحديبية وإنني مُصدِّقٌ به، ودخل مكة عام عُمره القضية وأنا مسلم. وعلم أبو سفيان بإسلامي، فقال لي يوماً: لكن أخوك خيرٌ منك وهو علي ديني، فقلت: لم آل نفسي خيراً، وأظهرت إسلامي يوم الفتح، فرحبَ بي النبي ﷺ، وكتبت له^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١١٩، ١٢٠).

(٢) ابن عساكر (١٦/٣٣٩/١) نقلاً من السير (٣/١٢١).

(٣) السير (٣/١٢٠).

(٤) السير (٣/١٢٢)، وابن عساكر (١٦/٣٣٩).

فى رحاب الحبيب ﷺ

وبعد ما أعلن معاوية رضى الله عنه إسلامه ظل ملازمًا للحبيب لينهل من النبع الصافى بعد ما عاش زمانًا طويلًا بعيدًا عن هذا النور فأحب النبى ﷺ من أعماق قلبه بل وأحب النبى ﷺ حتى قام مرة ودعا له تلك الدعوة المباركة فقال له ﷺ: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهده واهد به»^(١).

ويا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها. بل قال ﷺ: «اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقرّ العذاب»^(٢).

وعن ابن عمرو رضى الله عنهما أنه قال: «كان معاوية يكتب لرسول الله ﷺ»^(٣).

وصية الحبيب ﷺ له

وفى يوم من الأيام يأخذ معاوية الإداوة ليكتب للنبي ﷺ كعادته فلما تبع بها رسول ﷺ رفع رأسه إليه وقال: «يا معاوية إن وليت أمرًا فاتق الله واعدل» فقال معاوية: فما زلت أظن أنى مبتلى بعملٍ لقول رسول الله ﷺ حتى ابتليت^(٤).

وتمر الأيام الجميلة فى صحبة الحبيب ﷺ... لكن دوام الحال من المُحال. فإذا بالحبيب يفارق الدنيا ويترك أصحابه فبكى أصحابه الدماء بدل الدموع على موته... وحزن معاوية رضى الله عنه على فراق الحبيب ﷺ حزنًا كاد أن يمزق قلبه.

الولاية على الشام

وتمر الأيام إلى أن يتولى عمر رضى الله عنه الخلافة وإذا به يستعين بخير الناس على الولاية فى كل بقعة من بقاع الدولة المسلمة. وكان يتقى الولاية بكل دقة فكان من بين من اختارهم للولاية على الشام (معاوية) فولاه على الشام وأقره عثمان رضى الله عنه.

(١) رواه الترمذى وابن عساكر وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٩٦٩).

(٢) رواه أحمد (١٢٧/٤) وفى إسناده: الحارث بن زياد الشامى، قال الحافظ فى التقریب: لين الحديث وباقي رجاله ثقات. وقال الذهبى: وللحديث شاهد قوى.

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات - السير (١٢٣/٣).

(٤) رواه أحمد (١٠١/٤) وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

قال الإمام الذهبي:

قلت: حسبك بمن يؤمره عمر، ثم عثمان على إقليم، وهو ثغر، فيضبطه، ويقوم به أتم قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألم مرة منه، وكذلك فليكن الملك. وإن كان غيره من أصحاب رسول الله ﷺ خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح، فهذا الرجل ساد، وساس العالم بكمال عقله، وفرط حلمه، وسعة نفسه، وقوة دهائه، ورأيه. وله هنأت وأمور، والله الموعود.

وكان محبباً إلى رعيته. عمل على نيابة الشام عشرين سنة، والخلافة عشرين سنة، ولم يهجه أحد في دولته، بل دانت له الأمم، وحكم على العرب والعجم، وكان ملكه على الحرمين، ومصر، والشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والجزيرة، واليمن، والمغرب، وغير ذلك^(١).

قدرة ومنزلته في قلوب الصحابة رضي الله عنهم

وتالله إنه لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال... وهل هناك في الكون رجال أفضل من أصحاب الحبيب ﷺ الذين تربوا بين يديه؟!!

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: ما رأيت أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا... يعني معاوية^(٢).

وعن علي بن أبي طالب قال: «لا تكرهوا إمرة معاوية فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرءوس تندّ عن كواهلها»^(٣).

وعن كريب مولى ابن عباس: أنه رأى معاوية صلى العشاء، ثم أوتر بركعة واحدة لم يزد، فأخبر ابن عباس فقال: أصاب، أي بُني! ليس أحداً منا أعلم من معاوية، هي واحدة أو خمس أو سبع أو أكثر^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٣).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات - السير (٣/ ١٣٥).

(٣) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٧٨).

(٤) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات - السير (٣/ ١٥٢).

إنشأته

عن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشر ألف دينار.
وقال عروة: بعث معاوية مرة إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمست حتى فرقتها^(١).

جهاد في سبيل الله تعالى

قال أحمد بن حنبل: فتحت قيسارية سنة تسع عشرة وأميرها معاوية^(٢).
وقال زيد بن عبيدة: غزا معاوية قبرص سنة خمس وعشرين^(٣).

دفاع عن معاوية رضي الله عنه

ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وحدث بينهما ما حدث وكان كل واحد منهما لا يريد إلا وجه الله والدار الآخرة فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ... والمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر. ونحن على يقين من أن أصحاب الرسول ﷺ كلهم عدول لا يريدون الدنيا وزيتها الفانية ولا يطمعون في شيء من حطامها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«... ثم ما كان بينه، أي معاوية، وبين علي بعد مقتل عثمان، على سبيل الاجتهاد والرأي، فجرى بينهما قتال عظيم... وكان الحق والصواب مع علي، ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين، كما ثبت في الحديث الصحيح: «تمرق مارقة على خير فرقة المسلمين، فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق» فكانت المارقة الخوارج، وقتلهم علي وأصحابه، ثم قتل علي، فاستقل معاوية بالأمر سنة إحدى وأربعين، وكان يغزو الروم في كل سنة مرتين، مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ويأمر رجلاً من قومه فيحج بالناس، وحج هو سنة خمسين، وحج ابنه يزيد سنة إحدى وخمسين، وفيها أو في التي بعدها أغزاه بلاد الروم... فسار

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٥٤).

(٢) تاريخ دمشق لأبي زرة (١/١٧٩).

(٣) تاريخ دمشق لأبي زرة (١/١٨٤).

معه خلق كثير من كبراء الصحابة حتى حاصر القسطنطينية، وقد ثبت في الصحيح: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم»^(١).

قال الإمام الذهبي:

فحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمان قد انمحص فيه الحق، واتضح من الطرفين، وعرفنا مأخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحبنا باقتصاد، وترحمنا على البغاة بتأويل سائغ في الجملة، أو بخطأ إن شاء الله مغفور، وقلنا كما علمنا الله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] وترضيئنا أيضاً عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلق. وتبرأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا علينا، وكفروا الفريقين، فالخوارج كلاب النار، قد مرقوا من الدين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلود النار، كما نقطع به لعبدة الأصنام والصلبان^(٢).

وقال أيضاً معلقاً على تلك الفتنة التي حدثت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما: «... فسبيلنا الكف والاستغفار للصحابة ولا نحب ما شجر بينهم ونعوذ بالله منه ونتولى أمير المؤمنين علياً»^(٣).

وقال عن معاوية رضي الله عنه:

«ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو بيريء من الهنات، والله يعفو عنه»^(٤).

وكان وقت الرحيل

وتمر الأيام وتأتي اللحظة التي ينام فيها معاوية رضي الله عنه على فراش الموت. قال محمد بن سيرين: جعل معاوية لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك:

(١) البداية والنهاية (٥/٦٢٩، ٦٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/١٢٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/١٥٩).

يَمْزِجُ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨].

اللهم اجعلني فيمن شئت أن تغفر له (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما احتضر معاوية، قال: إني كنت مع رسول الله ﷺ على الصفا، وإني دعوتُ بمشقص، فأخذتُ من شعره وهو في موضع كذا وكذا، فإذا أنا متُّ، فخذوا ذلك الشعر، فاحشوا به فمي ومنخري (٢).

وعن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه أن معاوية أوصى فقال:

كنت أوصي رسول الله ﷺ، فنزع قميصه وكسائي، فرفعته، وخبأت قلامة أظفاره، فإذا متُّ، فألبسوني القميص على جلدي، واجعلوا القلامة مسحوقة في عيني، فعسى الله أن يرحمني ببركتها (٣).

وقال أبو عمرو بن العلاء لما احتضر معاوية، قيل له: ألا توصي؟ فقال: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب. وقال:

هو الموت لا منجى من الموت والذي نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع (٤)

شَرَفَني اللهُ بِمَنِّهِ وَارْتَدَّادِ وَجْهِي لِي فِي جَنَّتِهِ وَدَارِ كَرَامَتِهِ

اللَّهُ وَلِيَّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ

(١) البداية والنهاية (٥/٦٤٧).

(٢) رجاله ثقات خلا علي بن عاصم - وهو الواسطي - فإنه يخطئ ويصر على خطئه. وتقصيره عن رسول الله ﷺ شعره بمشقص ثابت عند البخاري (٣/٤٤٨، ٤٤٩)، ومسلم (١٢٤٦)، والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً ليس بعريض.

(٣) تاريخ الإسلام (٢/٣٢٣)، وأنساب الأشراف (٤/١٥٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/١٦٠).

عامر بن الأكوع

إني لله لأجربن... الله لتجاهد مجاهد قل حزين مشى به مثله

محرم رسول الله

هو عامر بن سنان بن عبد الله بن بشير الأسلمي المعروف بابن الأكوع، عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع سنان، ويقال أخوه.

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: فيمكن التوفيق أن يكون أخاه من أمه على ما كانت الجاهلية تفعله أو من الرضاعة^(١).

أسلم وامتلأ قلبه حباً لله ولرسول الله ﷺ حتى نزلت تزكيتة من فوق سبع سماوات على لسان الحبيب ﷺ فشهد له بالخير وبمضاعفة أجره عند موته، بل وفاز بدعاء الحبيب ﷺ له بالرحمة والمغفرة وكان الحبيب ﷺ إذا استغفر لرجل مات شهيداً في سبيل الله - جل وعلا -

أسلم سألها الله

* قال رسول الله ﷺ: «أَسْلَمَ سَأَلَهَا الله، وَغَفَرَ عَفَرَ اللهُ لَهَا، أَمَا إِنِّي لَم أَقْلَهَا، وَلَكِنْ قَالَهَا الله عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

* والفارسُ اليوم؛ نستضيفه من قَبيلة أسلم، هذه القبيلة المحبوبة من الله ورسوله؛ لأنها ما حاربت رسول الله ﷺ، بل جاءت للإسلام طائفة، ولمع كثير من أفرادها في عالم الصحابة الفرسان الشجعان الميامين، من مثل: سلمة بن الأكوع، وبريدة بن الحبص، وربيع بن كعب - رضى الله عنهم - وغيرهم ممن ملأت فضائلهم الدنيا، وكانت أعمالهم تعبق بالطيب على مر الأيام، وكر العصور.

* وفارسنا اليوم، رجل آتاه الله عز وجل بسطة في الجسم، وجمالاً في الصوت، فقد

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

كَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ، يَرْجُزُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَلْ كَانَ أَحَدَ حُدَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الَّذِينَ كَانُوا يَحْدُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي السَّفَرِ؛ مِنْهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَسَلْمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ، وَأَنْجَشَةُ، وَغَيْرُهُمْ^(١).

هَذَا بِإِذْنِ عَمَلِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَقْصُورَةِ

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْرِ فُسْرِنَا لَيْلاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ: يَا عَامِرُ أَلَا تَسْمَعُنَا مِنْ هُنِيهَاتِكَ؟ وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلًا شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِينَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اتَّقِينَا وَثَبْتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقِينَا
وَأَلْقَيْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنْذَا صَبَحَ بِنَا أُبِينَا

وَبِالصَّبَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟» قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ، قَالَ: «يَرْحَمُهُ اللَّهُ» قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَجِبْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْلَا أُمْتَعَتْنَا بِهِ، فَأَتَيْنَا خَيْرَ فَحَاصِرِنَاهُمْ حَتَّى أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَهَا عَلَيْهِمْ فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مَسَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي فَتَحَتْ عَلَيْهِمْ أَوْقَدُوا نِيرَانًا كَثِيرَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا هَذِهِ النَّيْرَانُ؟ عَلَى أَى شَيْءٍ تَوْقَدُونَ؟» قَالُوا: عَلَى لَحْمٍ قَالَ: «عَلَى أَى لَحْمٍ؟» قَالُوا: لَحْمُ الْخُمُرِ الْإِنْسِيَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَهْرِيقُوهَا وَاكْسُرُوهَا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ نَهْرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا قَالَ: «أَوْ ذَاكَ» فَلَمَّا تَصَافَ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَامِرٍ قَصِيرًا فَتَنَاولَ بِهِ سَاقَ يَهُودَى لِيَضْرِبَهُ وَيَرْجِعَ ذُبَابُ سَيْفِهِ فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةٍ عَامِرٍ فَمَاتَ مِنْهُ قَالَ: فَلَمَّا قَفَلُوا قَالَ سَلْمَةُ: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي قَالَ: «مَا لَكَ؟» قُلْتُ لَهُ: «فَذَاكَ أَبِي وَأُمِّي، زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَذِبَ مَنْ قَالَهُ إِنَّ لَهُ لِأَجْرَيْنِ - وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعِيهِ - إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهِ مِثْلُهُ»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ:

(١) فَرَسَانِ مِنَ عَصْرِ النَّبَوَةِ (ص: ٧١٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤١٩٦).

«...». فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خير مع رسول الله ﷺ قال: فجعل عمى عامر يرتجز بالقوم:

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
ونحن عن فضلك ما استغنيا فثبت الأقدام إن لاقينا
وأنزلن سكيناً علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» قال: أنا عامر. قال: «غفر لك ربك» قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد. قال: فنادى عمر ابن الخطاب وهو على جمل له: يا نبي الله! لولا ما متعتنا بعامر؟ قال: فلما قدمنا خير خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: وبرز له عمى عامر فقال:

قد علمت خير أنى عامر شاكى السلام بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين فوق سيف مرحب في ترس عامر وذهب عامر يسفل له فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت فإذا نفر من أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكى فقلت: يا رسول الله! بطل عمل عامر؟ قال رسول الله ﷺ: «من قال ذلك» قال: قلت: ناس من أصحابك قال: «كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين»^(١).

فيا لها من منقبة عظيمة أن يشهد له الحبيب ﷺ بتلك الشهادة.

فرضي الله عن عامر وعني سائر الصحابة أجمعين

فهرس موضوعات الجزء الأول

٣	إهداء واعتراف لأصحاب الفضل	٦٩	جبريل وميكائيل - عليهما السلام - يقاتلان مع أبي بكر وعليّ
٦	مقدمة فضيلة الشيخ / أبو إسحاق الحويني	٦٩	الصدّيق (رضي الله عنه) من الذين استجابوا لله وللرسول
٨	مقدمة فضيلة الدكتور / زكي محمد أبو سريع	٦٩	ثباته (رضي الله عنه) في باقي المشاهد
١٢	مقدمة فضيلة الشيخ / محمد عبد المقصود	٧٠	وقوفه (رضي الله عنه) عند كتاب الله - عز وجل -
١٥	مقدمة فضيلة الشيخ / محمد حسان	٧١	موافقته للحبيب (رضي الله عنه) يوم الحديبية
١٨	مقدمة فضيلة الدكتور / سيد بن حسين العفاني	٧٢	إشارات الحبيب (رضي الله عنه) لاستخلاف أبي بكر من بعده
١٩	بين يدي الكتاب	٧٤	ثبات الصدّيق (رضي الله عنه) عند وفاة الحبيب (رضي الله عنه)
٢٣	فضائل الأمة المحمدية	٧٥	اللحظات الأخيرة من حياة الحبيب (رضي الله عنه)
٢٩	بعض فضائل الصحابة (رضي الله عنهم)	٧٧	موقف الصدّيق (رضي الله عنه)
٣٥	فضائل الأنصار (رضي الله عنهم)	٧٨	مبايعته بالخلافة (رضي الله عنه)
٤٥	تحريم سب الصحابة (رضي الله عنهم)	٧٩	دستور عظيم لحكام المسلمين
٤٩	أبو بكر الصدّيق (رضي الله عنه)	٧٩	من بديع خطبه ومواعظه (رضي الله عنه)
٥٠	من هو الصدّيق (رضي الله عنه)	٨٠	صور مشرقة من تواضعه (رضي الله عنه)
٥١	كان مثاليًا حتى في أيام الجاهلية	٨١	صفحة مشرقة من عدله (رضي الله عنه)
٥١	إسلامه (رضي الله عنه)	٨٢	ورع يعجز القلم عن وصفه
٥٢	النبي (صلى الله عليه وآله) لقبه «عتيقًا»	٨٣	زهد (رضي الله عنه) في الدنيا ورثها الفانية
٥٣	أبو بكر خير من مؤمن آل فرعون	٨٣	بعث جيش أسامة (رضي الله عنه)
٥٥	بعض مناقب الصدّيق (رضي الله عنه) وفضائله	٨٥	موقف الصدّيق (رضي الله عنه) في حرب المرتدين
٥٨	منزلة الصدّيق (رضي الله عنه) عند رسول الله	٨٧	الصدّيق (رضي الله عنه) أول من جمع القرآن الكريم
٥٩	أبو بكر (رضي الله عنه) يدعى من أبواب الجنة الثمانية	٨٨	استخلافه لعمر (رضي الله عنه)
٦٠	الصدّيق (رضي الله عنه) ومحبه الشديدة للحبيب	٩٠	وصيته الغالية لعمر (رضي الله عنه)
٦١	موقف يعجز القلم عن وصفه	٩٠	أفرس الناس ثلاثة !!!
٦٢	لم أكن لأفشي سر رسول الله	٩١	وحان وقت الرحيل
٦٢	أبو بكر (رضي الله عنه) وإنفاقه في سبيل الله	٩٣	كلمة خالدة قالها (عليّ) بعد موت (الصدّيق) - رضي الله عنهما -
٦٤	الحبيب (صلى الله عليه وآله) ينفي الخيلاء عن أبي بكر (رضي الله عنه)		
٦٤	أبو بكر (رضي الله عنه) يسابق دائمًا إلى كل خير		
٦٤	موقفه العظيم في قصة الإسراء والمعراج		
٦٥	موقفه العظيم ليلة الهجرة المباركة		
٦٨	موقفه العظيم يوم بدر		

١٣٨	يا سارية الجبل	٩٥	٢. عمر بن الخطاب
١٣٩	من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر	٩٦	من هو (عمر بن الخطاب) <small>رضي الله عنه</small>
١٤٠	خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين	٩٨	دعاء النبي <small>ﷺ</small> كان سبباً في إسلام عمر <small>رضي الله عنه</small>
١٤٠	صاحب القلب الرحيم برعيته <small>رضي الله عنه</small>	١٠٠	الروايات المشهورة التي وردت في سبب إسلامه <small>رضي الله عنه</small>
١٤٣	كلها	١٠٤	هجرة رغم أنوف المشركين
١٤٥	حرصه على العدل <small>رضي الله عنه</small> ونصائحه للولاة	١٠٥	باقة من مناقب عمر <small>رضي الله عنه</small>
١٤٧	ما أجمل الوفاء	١٠٧	النبي <small>ﷺ</small> يبشره بالجنة ويرى قصره فيها
١٤٨	أمنية عمرية	١٠٨	منزلة إيمان عمر <small>رضي الله عنه</small>
١٤٨	نفر من قدر الله إلى قدر الله	١٠٩	منزلة دين عمر <small>رضي الله عنه</small>
١٤٩	شبهة حول عزل خالد بن الوليد <small>رضي الله عنه</small> والرد عليها	١٠٩	علم عمر <small>رضي الله عنه</small> وفقهه
١٥٠	فتح بيت المقدس - من تواضع لله رفعه الله	١١٠	وصية غالية من الفاروق <small>رضي الله عنه</small>
١٥٢	موقفه <small>رضي الله عنه</small> في عام الرمادة	١١٢	موافقات عمر <small>رضي الله عنه</small> لربه - عز وجل -
١٥٣	وحان وقت الرحيل	١١٤	شياطين الجن والإنس تفر من عمر <small>رضي الله عنه</small>
١٥٤	الفوز بالشهادة	١١٦	فطنة الفاروق <small>رضي الله عنه</small> في غزوة تبوك
١٥٦	صحبة الحبيب <small>ﷺ</small> وأبى بكر <small>رضي الله عنه</small> في القبر	١١٦	قوة شخصيته وهيبته في قلوب الناس
١٥٨	باقة عطرة من ثناء الصحابة عليه <small>رضي الله عنه</small>	١١٧	شفافية وفراصة يندر وجودها
١٦٠	٢. عثمان بن عفان <small>رضي الله عنه</small>	١١٨	عبادته <small>رضي الله عنه</small>
١٦٣	الفرار إلى الله والهجرة إلى الحبشة	١١٩	فاروق الأمة وحسن الاتباع
١٦٣	جهاده في سبيل الله وتسييت بني النورين	١١٩	الكريم الجواد <small>رضي الله عنه</small>
١٦٣	موقفه الخالد في تجهيز جيش العسرة (غزوة تبوك)	١٢١	موقف الفاروق <small>رضي الله عنه</small> عند موت الحبيب <small>ﷺ</small>
١٦٣	العسرة وعثمان المعطاء	١٢٢	مبايعته لأبى بكر الصديق
١٦٦	حفر عثمان <small>رضي الله عنه</small> بشر رومة	١٢٣	القضاء والشفقة
١٦٦	كان <small>رضي الله عنه</small> يعتق كل جمعة عبداً ويحرر رقبة	١٢٤	فاروق الأمة والقضاء
١٦٧	الحبيب <small>ﷺ</small> يبشره بالشهادة وبالجنة	١٢٥	هديه لحكام المسلمين
١٦٧	استحيا من الله فاستحيت منه الملائكة والنبي <small>ﷺ</small>	١٢٧	صفحات تتألق روعة وجمالاً من ورع الفاروق وخوفه من الله
١٦٨	يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة	١٣٠	صفحات مضيئة من زهده <small>رضي الله عنه</small>
١٧٠	تجارة رابحة مع الله تعالى	١٣٢	صفحات مشرقة من تواضعه <small>رضي الله عنه</small>
١٧٠	خلافته الراشدة	١٣٤	قصته مع الهرمزان (قمة في التواضع)
		١٣٥	لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
		١٣٨	الفاروق <small>رضي الله عنه</small> وكرامات الأولياء

١٩٣	صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله	١٧١	جمع القرآن في عهده
١٩٣	جهاده في يوم بدر	١٧٢	خوفه <small>رضي الله عنه</small>
١٩٤	جهاده في يوم الخندق	١٧٢	عدله <small>رضي الله عنه</small>
	صاحب الراية الذي يفتح الله على يديه (يوم خيبر)	١٧٢	إقامة عثمان <small>رضي الله عنه</small> الحدود على القريب والبعيد
١٩٦		١٧٣	وقفات المؤمنين للدفاع عن (ذي النورين)
١٩٩	الخليفة الراشد وهمته العالية	١٧٤	لين جانبه ورحمته بالرعية
٢٠١	صفحات مشرقة من عدله <small>رضي الله عنه</small>	١٧٥	جملة الافتراءات والرد عليها
٢٠٤	(علي) <small>رضي الله عنه</small> أقضى هذه الأمة		١ - قولهم أنه - أي عثمان - لم يقتل عبيد الله
٢٠٥	(علي) <small>رضي الله عنه</small> وجوده وكرمه		ابن عمر بالهرمزان مع ظهور القصاص
٢٠٥	(علي) <small>رضي الله عنه</small> وشكره لله	١٧٥	ووجوبه
٢٠٦	تواضعه <small>رضي الله عنه</small>	١٧٥	٢ - قولهم: إن عثمان <small>رضي الله عنه</small> ولّى أقاربه
٢٠٦	أدبه <small>رضي الله عنه</small>	١٧٦	٣ - قولهم: بأنه أخرج أبا ذر إلى الريلة
٢٠٦	زهده <small>رضي الله عنه</small>	١٧٧	٤ - قولهم بأنه حرق المصاحف
٢٠٦	كلمات من ذهب		٥ - قولهم بأنه ردّ طريد رسول الله ﷺ
٢٠٨	موعظة بليغة	١٧٧	(الحكم بن العاص)
٢٠٨	نعمة الاتباع	١٧٧	٦ - إعطاء العطاء من مال الصدقة
٢٠٩	(علي) <small>رضي الله عنه</small> والدعوة إلى الله		٧ - الطعن عليه بأنه ضرب عمار بن ياسر
٢٠٩	قتاله <small>رضي الله عنه</small> للخوارج	١٧٨	وعبد الله بن مسعود
٢١١	وحان وقت الرحيل		ابن عمر - رضى الله عنهما - ودفاعه عن
٢١٥	«طلحة بن عبيد الله <small>رضي الله عنه</small> »	١٧٨	عثمان <small>رضي الله عنه</small>
٢١٧	شهيد يمشي على الأرض		عتاب يجعل القلب يبكى الدماء بدل الدموع
٢١٧	وفي يوم «أحد» أوجب طلحة <small>رضي الله عنه</small>	١٧٩	(وقت الحصار)
	من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله	١٨٠	وحان وقت الرحيل
٢٢١	عليه		إن أرادك المنافقون على خلع قميصك، فلا
٢٢١	أدبه مع النبي ﷺ	١٨١	تخلعه حتى تلقاني
٢٢٢	دفاعه عن إخوانه وإحسان الظن بهم	١٨٣	إن الله يدافع عن الدين آمنوا
٢٢٢	إنفاقه في سبيل الله تعالى	١٨٥	«علي بن أبي طالب <small>رضي الله عنه</small> »
٢٢٣	موقفه يوم الجمل والشهادة في سبيل الله		الأوسمة التي وضعها الحبيب ﷺ على
٢٢٥	حفظ الله له بعد موته	١٨٧	صدره <small>رضي الله عنه</small>
٢٢٦	«الزبير بن العوام <small>رضي الله عنه</small> »	١٩٠	ثلاثة أغلى من الدنيا وما فيها
٢٢٦	دفاعه عن النبي ﷺ		نام على فراش النبي ﷺ ليفديه فأسعد الله
٢٢٧	كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء	١٩١	فراشه بفاطمة لترضيه
٢٢٧	صبره على الإيذاء في سبيل الله		

٢٦٠	اعتزل الفتنة ففاز بتلك المنقبة العظيمة	٢٢٨	الهجرة إلى الحبشة
٢٦١	زهده في الإمارة	٢٢٨	جهاده في سبيل الله
٢٦١	دفاعه عن إخوانه	٢٢٩	وفي يوم أحد
٢٦٢	صبره على البلاء	٢٢٩	كان من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ
٢٦٢	وحان وقت الرحيل	٢٣٠	وفي يوم الخندق
٢٦٤	٩- سعيه ليل زيف رأسه	٢٣١	وفي يوم حنين
٢٦٤	والبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله	٢٣١	وفي يوم اليرموك
٢٦٥	رحلة التوحيد	٢٣٢	وفي فتح مصر (شجاعة نادرة)
٢٦٨	منقبة عظيمة	٢٣٣	غيرة الزبير بن العوام رضى الله عنه
٢٦٨	الله يستجيب دعاءه	٢٣٤	وحان وقت الرحيل
٢٦٨	جهاده في سبيل الله	٢٣٥	قاتل الزبير في النار
٢٦٩	بطولاته في يوم أجنادين	٢٣٦	حرصه على أداء دينه عند الموت
٢٦٩	أسد في معركة اليرموك	٢٣٨	٧- سعيه الرحيم بين عوف وسري
٢٧٠	وحان وقت الرحيل	٢٣٩	عفاف يعجز القلم عن وصفه
٢٧١	١٠- أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه	٢٣٩	مكانته في قلب الصحابة - رضى الله عنهم -
٢٧٢	إسلامه رضى الله عنه	٢٤٠	جملة من مناقبه رضى الله عنه
٢٧٢	درس في الولاء والبراء يوم بدر	٢٤٢	إنفاقه في سبيل الله
٢٧٤	دفاعه عن النبي ﷺ يوم (أحد)	٢٤٣	زهده في الدنيا ومحاسبته لنفسه
	سرية (ذات السلاسل) وعدم حرصه على	٢٤٤	زهده في الإمارة والخلافة
٢٧٥	الإمارة	٢٤٤	تواضعه رضى الله عنه
	سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر والرزق	٢٤٥	الدعوة إلى الله
٢٧٦	الذي ساقه الله إليهم	٢٤٥	وحان وقت الرحيل
٢٧٦	هذا أمين هذه الأمة	٢٤٦	٨- سعيه بين أبي وقاص وسري
٢٧٧	صور مشرقة من جهاده في سبيل الله تعالى	٢٤٦	ثباته على الحق رضى الله عنه
٢٨٠	جهاده في (فحل) وفتحها	٢٤٩	حارس النبي ﷺ
٢٨١	جهاده في (اللاذقية) وفتحها	٢٤٩	اللهم اشف سعداً وأتم له هجرته
٢٨١	أمين الأمة والدعوة إلى الله	٢٥٠	الله يستجيب دعاءه رضى الله عنه
٢٨٢	تجرد وإنصاف ونجاح باهر	٢٥١	خوفهم من دعائه عليهم
٢٨٢	ومسك الختام فلسطين (إيلياء) بيت المقدس	٢٥١	جهاده في سبيل الله تعالى
٢٨٢	غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة	٢٥٦	فتح البيت الأبيض
٢٨٣	إيثار يفوق الخيال	٢٥٧	عبور لا مثيل له في التاريخ
٢٨٤	وحان وقت الرحيل	٢٥٨	ما تقاتلون إلا الجن
٢٨٥	أمنية عمرية	٢٦٠	اعتزاله للفتنة

٢٨٦	١١ - شهيد الرومي	٣١٣	مهمته الخالدة في كتابة المصحف العثماني
٢٨٦	من النعيم إلى الأسر	٣١٤	علمه <small>رحمته</small> ومكانته في قلوب الصحابة
٢٨٦	حنينه إلى الإسلام	٣١٥	وحان وقت الرحيل
٢٨٧	قصة إسلامه	٣١٦	١٥ - أنس بن مالك <small>رضي الله عنه</small>
٢٨٨	تحمل الأذى في سبيل الله	٣١٧	والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه
٢٨٨	ربح البيع أبا يحيى	٣١٨	أنس <small>رضي الله عنه</small> يتشرف بخدمة الحبيب <small>ﷺ</small>
٢٨٩	باقية من صفاته العطرة	٣١٨	المرء مع من أحب
٢٩٠	خفة ظله	٣٢١	حفظه لسر النبي <small>ﷺ</small>
٢٩٠	جهاده في سبيل الله	٣٢١	الفوز بدعاء النبي <small>ﷺ</small> له
٢٩١	مكانته عند الله وعند رسوله <small>ﷺ</small>	٣٢٢	حزنه لفراق الحبيب <small>ﷺ</small>
٢٩١	مكانته في قلوب الصحابة (رضي الله عنهم)	٣٢٣	وعجلت إليك رب لترضى
٢٩٢	وحان وقت الرحيل	٣٢٤	عبادته <small>ﷺ</small>
٢٩٣	١٢ - سالم مؤمن أبي حنيفة <small>رضي الله عنه</small>	٣٢٥	كرامة ثابتة
٢٩٣	ادعواهم لأبائهم	٣٢٥	أنس <small>رضي الله عنه</small> يرى النبي <small>ﷺ</small> كل ليلة في منامه
٢٩٤	صلة وثيقة وفراق مؤلم	٣٢٥	حان وقت الرحيل
٢٩٤	منزلة عالية تعانق كواكب الجوزاء	٣٢٦	١٦ - خبيب بن الأرت <small>رضي الله عنه</small>
٢٩٦	لقاء في ميدان الشرف	٣٢٦	النور يشق ظلام الجاهلية
٢٩٦	وحان وقت الرحيل	٣٢٧	ثبات على المبدأ
٢٩٧	أمنية عمرية	٣٢٧	رحلة العذاب في سبيل الله
٢٩٨	١٣ - مصعب بن عمير <small>رضي الله عنه</small>	٣٢٩	العدل الإلهي والهجرة المباركة
٢٩٩	صناعة الرجال	٣٣٠	وحان وقت العمل لهذا الدين
٣٠١	يُتلى الرجل على قدر دينه	٣٣٠	وحان وقت الرحيل
٣٠٢	سيجعل الله بعد عسر يسراً	٣٣٢	١٧ - سعد بن معاذ <small>رضي الله عنه</small>
٣٠٢	سفير الدعوة الأول	٣٣٣	أسلم (سعد) فاشرقت شمس الإسلام على المدينة كلها
٣٠٣	هكذا فليكن الدعاة	٣٣٥	موقف تاريخي في غزوة بدر
٣٠٦	صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله	٣٣٦	والله لا نعطيهم إلا السيف
٣٠٧	من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه	٣٣٧	(سعد) يحكم بحكم الله من فوق سبع سماوات
٣٠٧	ادخار الأجر لمصعب يوم القيامة	٣٣٩	أدب صديق الأنصار (سعد بن معاذ) مع النبي <small>ﷺ</small>
٣٠٩	١٤ - زيد بن ثابت <small>رضي الله عنه</small>	٣٣٩	عرش الرحمن يهتز لموته ويشيعه سبعون ألفاً
٣١٠	المسلم لابد أن يعلم ماذا يصنع لنصرة دينه	٣٣٩	من الملائكة
٣١١	كاتب الوحي		
٣١١	موقفه الخالد يوم السقيفة		
٣١٢	جمع القرآن في عهد أبي بكر <small>رضي الله عنه</small>		

٣٧٠	خطيب رسول الله ﷺ	٣٤١	الملائكة تحمل جنازة سعد
٣٧١	الحبيب ﷺ يشره بالشهادة والجنة	٣٤١	سعد بن معاذ وضمة القبر
٣٧٢	قصة طريفة له في يوم قريظة	٣٤٣	مناديل سعد بن معاذ في الجنة
٣٧٤	موقفه النبيل في بنى المصطلق		صديق الأنصار سعد بن معاذ؛ قمة سامقة
٣٧٤	شهيد يبحث عن الشهادة		في علو الهمة في الصدق بعد الصديق
٣٧٧	تنفيذ وصيته بعد موته !!!	٣٤٣	الأكبر ﷺ
٣٧٨	٢١ - أبو طلحة الأنصاري ﷺ	٣٤٤	١٨ - محمد بن سفيان
٣٧٨	قصة إسلامه وزواجه من أم سليم	٣٤٥	إنما وليكم الله
٣٨٠	إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب	٣٤٩	حائط الإسلام العدل وبابه الحق
٣٨١	صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله		وددت أن لى رجلاً مثل عمير بن سعد
٣٨٣	وفي يوم حنين	٣٥١	أستعين بهم في أعمال المسلمين
٣٨٣	إنفاقه في سبيل الله	٣٥٣	١٩ - شهيد الله بن مسعود
٣٨٤	أبو طلحة يظفر بشعر النبي ﷺ	٣٥٤	كيف كانت قصة إسلامه
٣٨٤	عبادته ﷺ	٣٥٥	مكانته عند الله - عز وجل -
٣٨٤	كرامة ثابتة لأبي طلحة بعد موته	٣٥٦	أول من جهر بالقرآن
٣٨٦	٢٢ - بلال بن رباح	٣٥٧	نشأة في ظلال الوحي
٣٨٦	فضل الأذان	٣٥٨	جهاده في سبيل الله
٣٨٧	قصة إسلامه	٣٥٨	الله يرفع بهذا القرآن أقواماً
٣٨٧	يستعذب العذاب في سبيل الله	٣٥٩	كان القرآن يخرج من فمه غصاً طرياً كما أنزل
٣٨٩	أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا		الحبيب ﷺ يبكي لسماع القرآن من ابن
٣٩٠	القرآن ينزل فيه ﷺ	٣٥٩	مسعود ﷺ
٣٩٠	الله يغضب لغضبه ﷺ	٣٦٠	ساق أثقل من جبل أحد
٣٩١	الجنة تشاق إلى بلال ﷺ	٣٦١	جهاده وقصة مقتل أبي جهل
٣٩٢	النبي ﷺ يسمع صوت نعليه في الجنة	٣٦١	خوفه ﷺ وبكاؤه
٣٩٣	الهجرة المباركة	٣٦٢	تواضعه ﷺ
٣٩٤	بداية الأذان	٣٦٢	توقيره للنبي ﷺ حياً وميتاً
٣٩٥	الله يقتص لبلال من أمية بن خلف في يوم بدر	٣٦٢	إشاره ثواب الآخرة على شهوات النفس
٣٩٦	بلال يؤذن فوق الكعبة في يوم فتح مكة		مكانته ومنزلته في قلوب الصحابة - رضی
٣٩٨	وحان وقت الرحيل	٣٦٣	الله عنهم -
٤٠٠	٢٣ - مكرمة بن أبي جهل	٣٦٥	كلمات تملأ القلب نوراً
٤٠٠	رحلة مريرة	٣٦٧	وحان وقت الرحيل
٤٠٢	فراره يوم فتح مكة	٣٦٨	٢٠ - ثابت بن قيس
٤٠٢	قصة إسلامه	٣٦٩	موعد مع السعادة

٤٣٨	فارس من فرسان الحكمة والبلاغة	٤٠٣	عكرمة فى صفوف فرسان المسلمين المجاهدين
٤٣٨	وحان وقت الرحيل	٤٠٤	الشهادة فى سبيل الله
٤٤٠	عمار بن ياسر <small>رضي الله عنه</small>	٤٠٥	٢٤ - حمزة بن عبد المطلب <small>رضي الله عنه</small>
٤٤١	موعد مع السعادة	٤٠٦	ومن هنا كانت البداية
٤٤٢	شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة	٤٠٦	الدعوة الإسلامية تشرق بأنوارها
٤٤٢	من أعظم البر بالوالدين	٤٠٧	إسلام حمزة <small>رضي الله عنه</small>
٤٤٣	صبر آل ياسر فإن موعدكم الجنة	٤٠٨	الهجرة المباركة
٤٤٥	أول شهيدة فى الإسلام	٤٠٨	سرية سيف البحر
٤٤٥	فإن عادوا فعد	٤٠٩	أسد الله - وجهاده فى سبيل الله
٤٤٥	الهجرة المباركة	٤٠٩	جهاده فى غزوة بدر
٤٤٦	مناقبه وفضائله <small>رضي الله عنه</small>	٤١١	المبارزة يوم بدر
٤٤٧	عمار أجير من الشيطان	٤١١	جهاده فى غزوة أحد
٤٤٨	صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله	٤١٣	الأسد فى أرض المعركة يقاتل بسيفين
٤٤٨	ولايته على الكوفة	٤١٤	سيد الشهداء
٤٥٠	موقفه يوم صفين (وساعة الرحيل)	٤١٥	روحه فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة
٤٥٢	٢٨ - عكاشة بن محصن <small>رضي الله عنه</small>	٤١٦	التمثيل بجسده الطاهر <small>رضي الله عنه</small>
٤٥٣	فقدوا إلى الله	٤١٧	ابن عوف وشهادته لحمزة بأنه خير منه
٤٥٣	جهاده فى سبيل الله	٤١٨	كرامة ثابتة لأسد الله (بعد موته)
٤٥٣	سعادة لا شقاء بعدها أبداً	٤١٩	٢٥ - عمار بن ياسر <small>رضي الله عنه</small>
٤٥٤	تدبروا واسألوا الله من فضله	٤٢٢	واكتملت السعادة فى قلبه
٤٥٥	نعمة التوكل	٤٢٤	٢٦ - حذيفة بن اليمان <small>رضي الله عنه</small>
٤٥٩	الصدق والتوكل وطريقنا إلى المسجد الأقصى	٤٢٥	رحلة إلى الإيمان الحقيقى
٤٦١	خروجه لقتال المرتدين	٤٢٦	أعلم الناس بالفتن إلى قيام الساعة
٤٦١	الرحيل إلى النعيم المقيم	٤٢٨	استغفار النبى ﷺ له ولأمه
٤٦٣	٢٩ - جعفر بن أبي طالب <small>رضي الله عنه</small>	٤٢٩	ما السبب فى تغيبه عن غزوة بدر
٤٦٤	المناقب وأوسمة الشرف التى فاز بها <small>رضي الله عنه</small>	٤٢٩	موقف يوم (أحد) زاده عند رسول الله ﷺ خيراً
٤٦٥	سنة لا تتبدل	٤٣٠	يوم الخندق ومرافقة النبى ﷺ فى الجنة
٤٦٥	فقدوا إلى الله	٤٣٢	ولايته على المدائن
٤٦٦	لقاؤه مع النجاشى وشجاعته فى الحق <small>رضي الله عنه</small>	٤٣٣	صور مشرقة من جهاده فى الفتوحات الإسلامية
٤٧٠	لكم أنتم أهل السفينة هجرتان	٤٣٥	حكمة وخبرة نادرة
٤٧٠	غداً نلقى الأحبة	٤٣٦	حرصه على الاتباع
٤٧١	فرحة المساكين بقدوم جعفر	٤٣٧	كان سبياً فى جمع المسلمين على مصحف
٤٧١	وحان وقت الرحيل		واحد

٥٠٣	جبريل (عليه السلام) يرد السلام على حارثة	٤٧٣	وها هو يطير بجناحيه في الجنة مع الملائكة
٥٠٣	تكفل الله برزق حارثة في الجنة	٤٧٤	حزن النبي ﷺ على جعفر رضي الله عنه
٥٠٤	بر الوالدين يفرج الله به الكربات	٤٧٤	حسان بن ثابت يرثي أهل مؤتة
	الفوز بدعوة الوالدين يجلب التوفيق في	٤٧٥	٢٠ - جابر بن عبد الله رضي الله عنه
٥٠٥	الدنيا والنجاة في الآخرة	٤٧٥	ومن هنا كانت البداية
٥٠٥	بر الوالدين سبب لسعة الرزق وزيادة العمر	٤٧٧	ويؤثرون على أنفسهم
٥٠٥	بر الوالدين كفارة للكبائر	٤٧٨	صاحب الطعام المبارك
	بر الوالدين يعدل الحج والعمرة والجهاد في	٤٧٩	جابر رضي الله عنه يرحل في طلب حديث واحد
٥٠٦	سبيل الله	٤٨٠	وحان وقت الرحيل
٥٠٦	بر الوالدين من أسباب حسن الخاتمة	٤٨١	٢١ - عمرو بن الجموح رضي الله عنه
٥٠٦	بر الوالدين سبب للفوز برحمة الله ومغفرته	٤٨٢	حال العرب في الجاهلية
	بر الوالدين سبب لقبول الأعمال والتجاوز	٤٨٢	قصة إسلامه
٥٠٧	عن السيئات	٤٨٥	استدراك ما فات
٥٠٧	بر الوالدين سبب لدخول الجنة	٤٨٦	ابنه يقتل فرعون هذه الأمة
٥٠٧	بابان من الجنة لمن بر والديه	٤٨٧	النبي ﷺ يزيكه بين قومه
٥٠٧	بر الوالدين بعد موتهما	٤٨٧	وحان وقت الرحيل
٥٠٨	إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه	٤٨٨	لقاء الأحباب بعد الشهادة
٥١٠	٢٤ - معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه	٤٨٩	كرامة ثابتة (لعمرو) بعد موته
٥١٠	ومن هنا نبدأ	٤٩٠	٢٢ - سعد بن الربيع رضي الله عنه
٥١١	متى أسلم؟	٤٩٠	الأخوة الصادقة
٥١٢	في رحاب الحبيب ﷺ	٤٩٣	نشأة مباركة
٥١٢	وصية الحبيب ﷺ	٤٩٣	موعد مع السعادة
٥١٢	الولاية على الشام	٤٩٥	لقاء مع الحبيب ﷺ
	قدره ومنزله في قلوب الصحابة رضي الله	٤٩٥	الهجرة المباركة
٥١٣	عنهم	٤٩٥	ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة
٥١٤	إنفاقه	٤٩٨	صورة مشرقة من جهاده في سبيل الله
٥١٤	جهاده في سبيل الله تعالى	٤٩٨	يا رسول الله أجد ريح الجنة!!!
٥١٤	دفاع عن معاوية رضي الله عنه	٤٩٩	حفظ الله لذريته من بعده
٥١٥	وحان وقت الرحيل	٥٠٠	٢٣ - حارثة بن النعمان رضي الله عنه
٥١٧	٢٥ - عامر بن الأكوع رضي الله عنه	٥٠١	هذا هو حارثة (رضي الله عنه)
٥١٧	أسلم سالمها الله	٥٠١	ومن هنا كانت البداية
٥١٨	فاز بدعاء النبي ﷺ بالرحمة والمغفرة	٥٠٢	الهجرة المباركة
٥٢١	شهر من موضوعات السجدة الأولى	٥٠٢	من مواقفه النبيلة